الخلق الكامل

تأليف

محمد احمد جاد المولى بك

المراقب الادارى لمجمع اللغة العربية الملكى

الـتزام



الجزء الثالث

الثمن
ص
١٥

(الطبعة الأولى)

١٣٥٥ هـ — ١٩٣٦ م

(يطلب من مكتبتنا بالصنادقية ومن عموم المكاتب الشهيرة)

المطبعة العثمانية المصرية — تليفون رقم ٥٥٧٧٣

الخلق الكامل

تأليف

محمد أحمد جاد المولى بك

المراقب الادارى لمجمع اللغة العربية الملكى

الملتزم

عثمان خليفة

الجزء الثالث

الثمن

ص ١٥

(الطبعة الأولى)

١٣٥٥ هـ — ١٩٣٦ م

المطبعة العثمانية المصرية — تليفون رقم ٥٥٧٧٣

(يطلب من مكتبتنا بالصنادقية ومن عموم المكاتب الشهيرة)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

نحمد الله على ما كان ، ونستعينه من أمرنا على ما يكون ، ونسأله المعافاة فى الأديان ، كما نسأله المعافاة فى الأبدان .

ونصلى ونسلم على سيدنا محمد ورسوله الذى بعث والناس ضلال فى حيرة ، خابطون فى فتنة ، قد استهوتهم الأهواء ، واستزلتهم الكبراء ، فبلغ رسالات ربه غير وان ولا مقصر ، وجاهد فى الله أعداءه غير واهن ولا معذر ، وعلى آله وصحبه ميامين الرأى مراجيح الحلم ، حماة العدل وأعداء الظلم ، قد مضوا قدما على الطريقة ، وأوجفوا على المحجة ، فظفروا برضا الحق وثناء الخلق .

(وبعد) فقد من الله علينا بإنجاز الجزء الثالث من كتاب الخلق الكامل ، ويسر لنا أن خرج وقد حوى خير ما اهتدى إليه الباحثون من رجالات الغرب ، وظاهره الكتاب والسنة الصحيحة .

والله أسأل أن يجعل عملنا خالصا لوجهه الكريم ، وأن ينفع به النفع العميم ، إنه أكرم مسئول . م

المراجع

١ ـ القرآن الكريم

٢ ـ كتب السنة الصحيحة

٣ ـ نهج البلاغة

٤ ـ الواجب تأليف جون سيمون وترجمة الأستاذين محمد بك رمضان وطه بك حسين

٥ ـ الأخلاق الدينية لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الرحمن الجزيرى

٦ ـ الأخلاق والواجبات » » عبد القادر المغربى

٧ ـ سلوك المالك فى تدبير الممالك لشهاب الدين

٨ ـ الذخائر والأعلاق للباهلى الاشبيلى

٩ ـ أدب الدنيا والدين للماوردى

١٠ ـ العقد الفريد للملك السعيد

١١ ـ علم أدب النفس للأستاذ نقولا الحداد

١٢ ـ مؤلفات متنوعة فى علم الأخلاق باللغة الانجليزية

١٣ ـ الأدب الكبير لابن المقفع

١٤ ـ الجزء الرابع من الأخلاق لأمين بك واصف

الواجب

(ا) الواجب فى اللغة :

وجب الشيء يجب وجوبا لزم ، وفي الحديث : إذا كان البيع عن خيار فقد وجب : أى تم ونفذ .

واستوجب الشيء استحقه .

والمُوجِبَةُ الكبيرة من الذنوب التى يُسْتَوْجَبُ بها العذاب .

وأوجب الرجل إذا عمل عملا يوجب له الجنة أو النار ، وفي الحديث : «إنَّ قَوْمًا أَتَوْا النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا : يَارَسُولَ اللهِ ، إنَّ صَاحِبَنَا أَوْجَبَ »:(أى ركب خطيئة استوجب بها النار) فَقَالَ:« مُرُوهُ فَلْيَعْتِقْ رَقَبَةً » .

وأوجب بمعنى حنث : جاء في الحديث : إن رسول الله مر برجلين يتبايعان شاة ، فقال أحدهما : والله لا أزيد على كذا وقل الآخر : والله لا أنقص من كذا ، فقال : قد أوجب أحدهما : (أى حنث)

ووجب الرجل وجوبا أى مات : قال قيس بن الحطيم يصف حربا :

أطاعت بنو عوف أميراً نهاهم عن السلم حتى كان أول واجب

(أى ميت)

وتواجب القوم تراهنوا ، فكأن بعضهم أوجب على بعض شيئاً

(ب) الواجب عند علماء الكلام :

هو ما كان وجوده لذاته . ويقتضى أن يكون قديما أزليا ، وألاّ يطرأ عليه عدم ، وألاّ يكون مركبا عقلا وخارجا ، وألاّ يقبل القسمة

ووجود هذا الواجب مصدر كل وجود ممكن ، فهو لذلك أقوى ضروب الوجود وأعلاها ، ويستتبع من الصفات الوجودية ما يلائم تلك المرتبة . وكل ما يتصوره العقل كمالا في الوجود من حيث مايحيط به من معنى الثبات والاستقرار

والظهور وأمكن أن يكون له وجب أن يثبت له

(ج) الواجب في الشرع: ما أثم تاركه .

(د) الواجب عند علماء الأخلاق :

الواجب عهد أدبي يوجب عمل شيء ، أو الامتناع عن عمله

وهو التزام الإنسان ما يفترضه عليه الحق ، ويقتضيه العدالة دون مبالاة بما يجر إليه ذلك من النفع أو الضر ، أو اللذة أو الألم .

وهو صوت الضمير . والضمير هو الوازع الإلهي في الإنسان ، والمصباح الذى يستضاء به جعله الله فيه لمثل ماتجعل المنائر على شطوط البحار، يشق نورها الساطع تلك الظلمات ، ويهدى سفينة المرء إلى ميناء السلام : فبين قصف رعود شهواته ، وهبوب أعصار نزغاته — يرى ذلك النور ، ويسمع صوتا باطنيا يقول: دع هواك ، وأد واجبك ، ولو كان فيه حتفك .

من أجل ذلك وجب أن نبين للناس ما هو واجب لهم ، وما هو واجب عليهم ، رضوا أم غضبوا ، كرهوا أم أحبوا : « لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ »

هذا والواجب أقسام أربعة :

١ ـ واجب للنفس وهو أدب الفرد

٢ ـ واجب لغيرنا وهو أدب الجماعة

٣ ـ واجب لله وهو أدب الدين

٤ ـ واجب للحيوان الأعجم وهو أدب الرفق

وسنفصل هذه الأقسام فيما يأتى :

﴿ الواجب وقيمته ﴾

الناس مختلفون : فمنهم غنى وفقير ، ومنهم المكفى المترف الذى لايعمل ، ومنهم من يعمل عملا عقليا فكريا بحتاً ، ومنهم ذو المهنة العامل بيديه

ومن ثم اختلف الواجب على اختلاف طبقات الناس ، وأنواع هذه الطبقات ، فهو عند المثرى غيره عند ذى المتربة ، وهو عند النبيه الصيت غيره عند الخامل

المعمور . أجل ، وإن واجب القاضى غير واجب العالم ، وواجب الصانع غير هذين الواجبين معاً ، وكذلك واجب الزارع غير واجبات أولئك جميعاً .

ولكن قيمة الواجب من حيث هو واحدة ، فمن أدى واجبه المفروض على مثله فقد بلغ الغاية المنشودة من كل فرد ، واستحق أطيب الثناء ، ولن يضيره أن يكون واجب مثله صغيرا بالنسبة إلى مختلف الواجبات فليست العبرة بقدر هذا الواجب فى صغره وكبره ، وإنما العبرة بتأدية كل فرد واجبه سواء أكان صغيرا أم كبيرا .

﴿ أداء الواجب ﴾

أداء الواجب حتم على كل فرد لا مرد له ، ولا مفلت منه . وأنبل صورة لأداء الواجب هى صورة من يؤديه طواعية وحسبة غير مسوق ولا مكره ، دعاه إلى تأدية واجبه داع نفسى جعله يعمل فكره فيما يأخذ ويدع ، فانبعث راشدا يلتمس السبيل إلى تأدية الواجب كاملا غير منقوص .

أما من كان يتكاره على أداء الواجب محفوزا برغبة مغرية ، أو رهبة مردية فهو لم يؤد واجبه وإن أدى ، بل الرغبة أو الرهبة أو كلاهما معاً هما اللذان ساقاه إلى ما فعل ، وليس ذلك أداء للواجب على أكمل وجوه الأداء .

وإذا كان لكل شيء آفة فآفة المجتمع تقصير أفراده أو جماعاته في الواجبات ، وإن المجتمع دولاب دائر لا حصر لأدواته ، ولا منتهى لأشيائه ، وإن يدور الدولاب دورته الموفقة حتى تعمل أدواته وأشياؤه عملها ، فإذا تعطل منها شيء ثم ازداد التعطل يوما بعد يوم لم يلبث أن ينتقل التعطيل إلى كثير من أدوات الدولاب وأشيائه ، فإذا دورته خائرة ، ثم إذا به بعد ذلك متعطل لا غناء فيه :

ألا وإن أدوات المجتمع وأشياءه لهى واجبات أفراده المختلفة باختلاف أحوالهم وأسباب معايشهم ، فإذا سرت فى الأفراد عدوى النكول عن أداء الواجب فقد سرت في المجتمع سارية الفساد ، وآذنت شمس حياته بمغيب لا عود معه .

وأداء الواجب على وجه الدقة كلمة تحمل بين جنبيها جمعاً من الفضائل ؛ فهى على الحقيقة أم الفضيلة الولود : أليس من الواجب أن تعرف حقوقك فتطلبها من وجوهها وتعرف حقوق غيرك عليك فتؤديها على وجوهها ؟ وماذا بعد ذلك من الفضائل لا يتصل بنسب إلى حق لك أو حق عليك ؟

ومن ثم تعرف أن أداء الواجب أمر بالغ الخطورة ، عظيم الشأن ، يتطلب من العزيمة أن تكون على أتمها ، إذ في أداء الواجب مجاهدة للنفس الأمارة بالسوء أى مجاهدة ، ومغالبة لها أى مغالبة ، فمن لم يرزق جلد العزيمة ومضاءها فلن يستطيع مع أداء الواجب صبرا .

وإن الأمم لترقى شئونها الاجتماعية ومدنيتها الخلقية بمقدار رقى هذه الفضيلة — فضيلة أداء الواجب — في نفوس أناسها ، فإنه إن طويت الضلوع على هذه الفضيلة فقد ضعف الخلاف بين الفرد والفرد ، ومتى تم ذلك فقد قويت الأواصر بين الطبقة وأختها ، ومتى التقت طبقات الأمة لا عادى ولا معدو عليه فهى واصلة إلى غايتها التي لا غاية وراءها في مدنية الخلق والاجتماع .

وما حاجة الأمة حينئذ إلى التقاضى والتشاكي وما يذهب فى هذين السبيلين من جهود الأفراد ؟ بل ما حاجة الأمة حينئذ إلى ما يأكل جمهور الجماعات والحكومات من معالجة العلل الاجتماعية والنفسية ؟ لقد منع من كل ذلك أن أدى كل فرد واجبه ، فرجع لا يظلم أحدا ، ولا يشكو من أحد . وذلك هو المثل الأعلى فى حياة الأمم

فعلينا أن نعنى بتربية الضمير فى نفس الفرد ، فإنه إن قام في النفس حيا يقظا فقد قام على حراستها من النزغ السيء ، ونفض عليها نفحة علوية تطهرها وتحصنها فلا يتسرب إليها الكدر .

ومن ثم ترحب النفس بالواجب مهما تكن مشقة أدائه ، وتنهض به راضية مطواعا مبالغة فى أدائه على الوجه الأكمل .

الشخصية الاجتماعية

لكل شخص ذاتيتان :

ذاتية فردية تقوم بنفسها وتعمل أعمالها في نفسها لنفسها ، وذاتية اجتماعية تندمج في الذاتية الخلقية للمجتمع وتعمل أعمالها على حسب ما تقتضيه شخصيتها وأخلاقها ، وعلى حسب مايحفظ حياة المجتمع الذى هو عضو منه لاينفصل ، وإذا انفصل فنى ، فهو مقيد بنظام قومى وعادات لايحيد عنها ، وهو مدين بشخصيته للعوامل الاجتماعية التى كونته :

يقتبس من عادات قومه ، ويسير على نهجهم ، ويستمد من اختباراتهم ، ويتكلم بلغتهم ، ويتعلم على أساتذة تعلموا على السابقين من علماء قومه ، فأخلاقه مصوغة من مواد النظم الاجتماعية والدينية والأدبية والاقتصادية ، ورقيه إلى المثل الأعلى متوقف على درجة تهذيبه وتعليمه وصلاح المبدأ الذى تهذب عليه ومداركه التى ورثها من أصوله .

وهو في سعيه إلى الرزق لايستطيع أن ينفرد بما كل يحتاج إليه لأنه مدنى بالطبع محتاج إلى التعاون ، حتى إننا نرى الأفذاذ المفكرين المخترعين لم ينفردوا بأنفسهم فيما اخترعوه ، ولكنهم قاسوه بما اخترعه غيرهم واعتمدوا على قواعد ثابتة رسمها السابقون ، فالفرد في المجتمع شخصية غير كاملة ، لأنه يحتاج إلى الاجتماع والتعاون في طعامه ولباسه وعدده وتكوين شخصيته ، وما أشبه المجتمع الذى يسبح فيه بجسم حي ذى أعضاء يقوم كل منها بعمل يحفظ حياة هذا الجسم :

فالعالم والصانع والسياسى والعامل أعضاء فى جسم واحد اختلفت أعمالهم باختلاف عقولهم ودرجة تهذيبهم ، ولا غرو فقد جاء فى الحديث الشريف : (كُلٌّ يَعْمَلُ لِمَا خُلِقَ لَهُ أَوْ لِمَا يُسِّرَ لَهُ) أخرجه مسلم وأبوداود والنسائى

وهذا المجتمع يندرج في متانة الاتصال بين أفراده كما يندرج فى رقيه ، لأننا

نرى ارتباط أعضائه يشتد تدريجاً ، حتى إنه قد يصبح بتر أحد أعضائه مفضياً إلى هلاكه : كما لو أضرب فريق من العمال فإنه يعرض الأمة كلها للضرر. وهذا الاجتماع والارتباط الذى جعل المجتمع جسما واحداً هو الذى ضيق على الفرد فى حريته وذهب بكثير من مظاهر استقلاله وجعل له شخصيتين :

شخصية طبعية ذاتية أثَرِيَّة يعمل على حفظها ،

وشخصية اجتماعية ترمى بأفعالها الأدبية إلى نفع المجتمع ، إذ فى سعادة المجتمع سعادته : فكأن الإيثارية متفقة مع الأثرية ، لأن غايتها القصوى تعود على الذات بالفائدة ، فالإنسان يرى فى عمل الخير لغيره فائدة لنفسه حتى إن المجرم الذى يعتدى على حقوق غيره ويفر من وجه القضاء يأبى أن يزول هذا القضاء ، لأنه يحتاج إليه فى حماية شخصه والتمتع بحقوقه ، ومثله اللص الذى ينهب أموال الناس ويقضى القانون بعقابه فإنه يتمنى بقاء هذا القانون ، لأنه يكفل له السلامة ويسهل له سبل الراحة فى شئونه الخاصة هذا .

وتلك الرابطة الوثيقة بين الفرد والمجتمع نظام محكم يستدعى حقوقا وواجبات متبادلة تقلل من حقوقه الذاتية الأثرية بما تفرض عليها من التفدية ،

وقد برز الفرد إلى هذا العالم ومعه حقوق طبعية يقرها النظام وتحترمها الدساتير أهمها الحرية الشخصية وحرية الملك وحق مقاومة العدوان وحق السعى إلى الرزق ، وقد ألزمته النظم المدنية دفع الضرائب وإطاعة القوانين وخدمة الوطن فى مقابل حمايته وتمتعه بتلك الحقوق ،

وقد تتضارب حقوق الأفراد مع حقوق المجتمع وقد تتوافق :

مثال ذلك المحافظة على النفس ، فهو حق طبعى مشروع يحرص عليه الفرد ويضمنه له النظام فى حالة السلم ، أما فى حالة الحرب والدفاع عن الوطن فإن للنظام حق التفدية بالنفس فى سبيل حماية الوطن ،

ومثل ذلك عمل الخير للناس أجمعين ، فإننا نشعر له بلذة وارتياح ذاتي أثرى جاء تبعا لمسرة الناس : فكأننا نبتغي الخير لأنفسنا بابتغائه للناس ، ومن طلب

الحياة وحيدا فكأنه ينتحر ، لأن الشخص حين يحرص على ذاتيته كل الحرص يفقدها : (الناس من خوف الموت فى موت) وحين يبذلها رخيصة فى سبيل غيره يجدها مباركة زكية

مما تقدم تعلم أن القاعدة الخلقية هى أن تكون أعمال الفرد متجهة إلى خير المجموع متفقة مع أعماله وأن المبادئ الخلقية كالصدق والأمانة والاستقامة والوفاء وغيرها من الفضائل — قانون للحياة الخلقية ، ومنار للمثل الأعلى ، من اهتدى بها أمن العثار وحاز قصب السبق فى هذا المضمار .

﴿ النظام الاجتماعي ﴾

لما كان المجتمع يعتبر جسما قائما بذاته مؤلفا من أعضاء هى الشخصية الاجتماعية ذات العقلية الراقية ، والإرادة الأدبية التي تقيد سلوكها وتحدد مناهجها وتعرفها حقوقها وواجباتها لتسير بالمجتمع نحو الكمال وتقربه من المثل الكامل ليكون حسن النظام عادل القوانين يمتع فيه كل شخص بحقوقه من الحرية والمساواة ومسرات المجتمع وفوائده — لما كان كذلك ـ كان لابد للمجتمع من نظم وقوانين يسير عليها لتحفظ كيانه وتضمن نموه وسلامته وتوثق الارتباط بين أعضائه . وتلك النظم والقوانين الاجتماعية تستمد قوتها مما بين الأفراد من الصلة وترابط المنافع ، ولذلك تكون عند قوم أضعف منها عند أقوام: فأعراب البادية والفوضويون لا سلطة للنظام بينهم

ولما كانت الحياة الاجتماعية كثيرة التقلب والتغير بمقتضى سنن الرقى كان لابد من نشوء أساليب مختلفة للحياة تقتضى أن يتعودها الجمهور ، ولابد من تنفيذها فى أول الأمر بشدة لأنها تناقض ما ألفه الناس حتى يألفوها وتصير بالمرانة عادة لاتكلف فيها : (إن الله ليزع بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن) وتبقى بينهم مبدأ خلقيا يفعله الفرد رغبة واختياراً لا خوفا من العقاب ، فإذا تعود الجمهور النظام وخدمة المصلحة العامة توارت قوة القوانين واختفى شبحها المخيف ، حتى لا يشعر حينئذ الفرد بأن للقوانين حجراً على حريته ، بل يعتقد أنها ضرورية

للحياة الاجتماعية ، فهي على هذا تنشأ أولا ، ثم تصير عادة ثم تكون فضيلة :
فالحشمة فى بدئها كانت تنفذ بالأمر ثم صارت عادة وفضيلة ،

وقد ينفذ الناس كثيرا من القوانين وينقادون إليها لأنها توافق مبادئهم وتصير بينهم عادة لا قانونا وتفقد قوتها القسرية التنفيذية .

وقد زعم بعضهم أن القوانين مجموع عادات ومأثورات وأن العادة والعرف سبقا القوانين وكانا مصدراً لها ، ولكن طبيعة كل من العرف والعادة والقوانين لا تؤيد هذا الزعم على الاطلاق ، لأن العادة والعرف قائمان بين الناس من غير قوة منفذة ، بل يجرى عليها الناس من تلقاء أنفسهم ، فى حين أن القوانين تنفذها قوة الحكومة . فإذا كانت القوانين مجموع عادات يعمل بها الناس مختارين فلماذا تكون القوة المنفذة ؟ ولماذا تصبح عادة ثقيلة على النفوس متى صارت قانونا ؟

وعند تدقيق النظر يتبين أن بعض القوانين قائمة على العادة والعرف وبعضها مناهض للعادة والعرف ، وبذلك لا تكون العادة والعرف منشأ القانون على الاطلاق .

﴿ أثر الرأى الاجتماعي فى الحقوق والواجبات ﴾

متى كان الرأى الاجتماعي عاما أو قلت فيه المناهضة أصبح مايحققه من الحقوق والواجبات عادة .

أما إذا قوى سلطان المعارضة فإن العادة الجديدة تنهار ، وانهيارها دليل على أنها غير صالحة للملابسات التي نشأت فيها .

وإن كانت المعارضة ضعيفة والرأى الاجتماعي غالبا سنت شريعة للحق والواجب .

وعلى ذلك كان الرأى العام هو الذى يعين الحقوق والواجبات التي يسير عليها المجتمع ، لأن المجتمع مسئول عن حقوق الفرد كما أن الفرد مسئول عن واجبات المجتمع .

أما الحقوق والواجبات التي بين الأفراد فدون ذلك في الأهمية وإن كان منها ما ينفذ بقوة قانونية إذ لم يألفه القوم بعد: وهو ما يحفظ الأمن والصحة ويمنع الفوضى؛ ومنها ما يترك تنفيذه لأدبية النفس الراقية: مثال ذلك أن القوانين تحمي الملكية وتعاقب من يعتدى على ملك غيره ولكنها لا توجب على صاحب الملك أن يستعمل ملكه في نفع المجتمع؛ إذ هو حر يستعمله كما يشاء وأن الأدبية توجب عليه ذلك؛ وعلى ذلك فليس للتاجر الذى ضمنت له حرية التجارة أن يحتكر صنفا من السلع ليضاعف ثمنه على الناس، ولا لذى الأرض الواسعة أن يعطل بعضها ليرفع ثمن البعض الآخر أو أجره، فحقوق الإنسان التي كفلتها له الدساتير يجب أن تستخدم لخير الناس عامة؛ لأن الإنسان وهو فرد لا حق له مطلقا، وإنما كفلت له هذه الحقوق باعتباره عضوا في هيئة إنسانية؛ فالحقوق منحة من المجتمع للفرد لا حق مكتسب.

﴿ الحقوق ﴾

لكل امرئ باعتباره عضوا في المجتمع الإنساني حقوق يتمتع بها نظير ما يقوم به للمجتمع من الواجبات وأهم هذه الحقوق:

(١) حق الحياة: الحياة حق اجتماعي لكل إنسان وغاية المجتمع استمرار البقاء فلا يسوغ له أن ينتحر؛ لأن ذلك جريمة في حقه خاصة وفي المجتمع عامة، وليست حياته له وحده. ولما كانت غاية المجتمع استمرار البقاء كان حريصا على سلامة الأفراد فلا يسمح بتضحيتها إلا لضرورة حافزة تقتضيها سلامة المجتمع كالدفاع عن الوطن،

أما تلك الحروب التي تشعل الأمم القوية نارها حبا في الفتح وامتلاك الثغور وتسخير الشعوب وتنفق فيها كثيرا من دماء أبنائها وأموالهم فهي مخالفة للشرائع الخلقية جريمة على الانسان والانسانية،

وهذا الحق للفرد من بدء تكوينه وخلقه؛ ولهذا يعد الإجهاض القهرى لغير سبب صحي جريمة، وفي حكمه منع الحمل خشية الإملاق أو كثرة الأولاد. وقد

نشأ عن هذا الحق (حق الحياة) واجبان :

أحدهما دينى وهو تحريم القتل : (وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بِالْحَقِّ)

والثاني خلقي وهو محافظة الفرد على صحته والسعي جهد الطاقة فى ترقية شأنه، ولهذا يعاقب من يودى بنفسه ويلقي بها فى الهلاك بتناول المحرمات المهلكات

أما القصاص الذي تجريه الحكومات فهو بتر لأعضاء فسدت فى جسم المجتمع تخلصا من شرهم واستبقاء لغيرهم وهذا ما قرر الشرع الحكيم : « وَلَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَاةٌ »

(٢) حق الحرية :

لاجرم أن الغرض من قيام الدولة توفير أسباب السعادة المادية والمعنوية للأهلين ، وليس يتهيأ ذلك إلا بأمرين :

الأول ـ أن ترسل للأفراد حرياتهم يتولون من أمورهم ما يكون أدخل فى معرفتهم وأجدى بالمنفعة عليهم ،

والآخر ـ أن تتولى الدولة مالا يستطيع الأهلون القيام به من وجوه الأعمال التي يطلب بها تحقيق النفع وتوفير السعادة للمجموع. على أنه إذا أريد بالحرية أن يقول الإنسان مايشاء ويعمل ما يريد دون أن يحول حائل بينه وبين غرضه فلا ريب فى أن هذا لا يستقيم مع سعادة المجتمع وأمنه ؛ لأن هذا الضرب من الحرية يورث الفوضى ؛ إذ يملك فيها الأقوياء ألوان الحريات على الضعفاء ، وحينئذ فلا يكون جميع الأفراد متمتعين بها على السواء

ومن المحال توفير الحرية المطلقة فى وقت واحد لكل الأفراد ضرورة اختلاف الرغبات على الشيء الواجب ، فإذا استحال وجود هذه الحرية وجب أن نتدلى بها إلى الحد الذى تصبح فيه ممكنة التحقيق :

فالحرية الصحيحة الممكنة هى أن يكون لكل إنسان الحق فى أن يفعل ما يشاء دون أن يترتب على فعله إخلال بواجب مفروض عليه أو انتقاص

لحرية غيره .

والحرية بهذا المعنى لا تنافى قيام السلطة بل هى لا تتم إلا بها ؛ إذ هى الكفيلة بكف عدوان الأفراد بعضهم على بعض ووقف حرية كل فرد عند الحد الذي لا تسيء فيه إلى حرية الآخرين أو إلى مصلحة المجموع .

وللحرية مظاهر شتى أهمها :

(١) الحرية الشخصية : وهى أن يكون الإنسان طليقا فى غدوه ورواحه ، وفى ظعنه وإقامته ليس لأحد أن يكفه عن ذلك ، ولا يكون عرضة للقبض عليه أو حبسه أو الحكم عليه بعقوبة مالم يكن ذلك بسبب مشروع ، فاستمتاع الإنسان بحريته رهن بأداء ما عليه من الواجبات واحترام حقوق غيره من الناس وحرياتهم فإن هو قصر فى أداء واجباته أو اعتدى على حرية غيره فقد أجرم على حرية نفسه وعرضها للعقاب ومهد الأسباب لتحيفها ونقصها من أطرافها ضمانا للحقوق والواجبات العامة :

فالذى يدعى إلى الشهادة فيشهد الزور مخالفا بذلك واجب الصدق فى القول يستهدف للعقاب ،

والذى يعتدى على غيره بالضرب ونحوه أو يعتدى على مال غيره بالسرقة أو ما أشبههما يعرض نفسه كذلك لعقاب القانون من الحبس وغيره ،

وعلى الجملة فليس لمن لا يرعى حقوق الناس وحرياتهم أن يندب حريته الشخصية إذا تعرضت للتعطيل أو التقييد .

(٢) حرية الفكر :

الحرية الفكرية ضرورية للإنسان فهي أخص صفاته بل هى التي ميزته من بقية الكائنات وجعلته أشرف المخلوقات ولا يستطيع أن ينزل عنها دون أن يغض من نفسه ،

إذا كان الاجتماع المدني قد وضع بعض القيود لحريتنا الفكرية فذلك لحد

مظاهرها ؛ لأن ضرورة المحافظة عليها قضت بتقييدها حتى لا تنحط إلى درجة الإباحة فتنتج الاستبداد بالغلو في استعمال القوة .

إذا كانت حرية العمل حقا طبعيا للإنسان وجب أن يكون كذلك فى حرية التفكير فإنا إنما نعمل وفق أفكارنا ، فسيطرة غيرى على عملي اختلاس غير مباشر لإرادتى. وفى الحقيقة أنه لا يمكن أحدا أن يسيطر على إرادة الإنسان فإنها لا تقهر ولكن الوصول إليها ممكن بالتأثير في وسائلها ، فيستطاع تعطيلها بإزالة وسائل التنفيذ أو بتوهين المباديء التي تعمل على وفقها ، فليس يمكن التأثير فى إرادتي إلا بتقييد جسمي والسيطرة على عملى ؛ فحرية التفكير وحرية العمل لا تفترقان .

لاريب أن الحرية التي نملكها بطبيعتنا هي الحرية المنظمة فلكل نوع من أنواع حريتنا قاعدة خاصة نجدها فى أنفسنا : فقانون الأخلاق ينظم حرية العمل، والعقل ينظم حرية التفكير .

٣ ــ حق المساواة :

هذا الحق يتصل بحق الحرية ، وهو ناشيء من نسبة الفرد للمجتمع كعضو فيه. فاذا كان كل فرد جزءا من المجتمع لازما له فهو كغيره ذو حق فى التمتع بجميع مزايا المجتمع ، كما أن عليه واجب الخضوع لأنظمة المجتمع كسائر الأفراد . فكما أنه مساو لهم فى هذا الخضوع يجب أن يكون مساويا لهم فى التمتع بثمرات المجتمع ، لا يختلف عنهم إلا بمقدار ما يستحقه من هذه الثمرات .

لم يكن هذا الحق معترفا به حتى القرن الأخير ؛ فقد كان لطبقة الأعيان دون العامة ، وبعد الثورة الفرنسية صرح بحق المساواة « والحرية والإخاء » للجميع . وكان هذا الحق مقصورا على الذكور إلى عهد غير بعيد ، وأما الآن فقد أخذت معظم الأمم تجيزه للنساء أيضا .

بيد أن الشريعة الإسلامية الحكيمة نبهت على أن الناس كافة فى الإنسانية سواء ، وبرهنت على ذلك بأنهم جميعا مخلوقون من أصل واحد : « يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ

إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ » وقال صلى الله عليه وسلم : لَيْسَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ فَضْلٌ إِلَّا بِالتَّقْوَى » . ومن الآية والحديث يؤخذ أمران :

الأول التوصل إلى أن يحترم الناس بعضهم بعضا ، ويصرموا حبل الازدراء والاحتقار، فتبنى معاملاتهم على المساواة والمماثلة ، فيسود النظام ويعم الأمن ، وتقوى شوكة الأمة ، وتصير خير الأمم .

الآخر إشعار بنى الانسان جميعهم أن سبل الشرف مباحة لكل قاصد ،وأن التفاضل لا بالحسب ولا بالنسب ، وإنما بالكمال العقلى والخلقى، وبذلك تتوق نفوسهم إلى الشرف والانتساب إلى الفضيلة

٤ ــ الحق السياسى :

حق المساواة جرمعه الحق السياسى وهو أن تكون الأداة السياسية بيد الجمهور لا بيد أفراد ممتازين . وقد أيد هذا الحق فى نوع الحكم (الدمقراطي) المستند على الرأي الاجتماعي الغالب، وبموجب هذا الحق صار لكل فرد حق الانتخاب ، ولكنه لايزال فى بعض الأمم غير مطلق : ففي بعضها يحرمه فريق من العامة كمنتخبين ومنتخبين ، وفى بعضها يحرمه فريق كمنتخبين فقط . على أنه كحق أدبي يجب أن يناله كل فرد فى المجتمع

د ــ حق الاسترزاق :

لايخفى أن واجب الحرص على الحياة وصحتها وسلامتها وعافيتها يستدعى واجب السعي والعمل : أي أن كل فرد مكلف أن يعمل لكي يعيش ، وإلا فقد حقه فى الحياة . وطبيعة الاجتماع تحرم أحيانا المتقاعد عن العمل حقه أو مركزه فى الحياة ، وتعزله منه لتحل المجتهد محله ؛ ولكن المجتمع لعيوب فاضحة فى أنظمته لا يطلق هذه القاعدة ولا يجعلها مطردة ، بل يسوغ لفئة من الكسالى أن

تعيش كلا على المجتهدين ، ولا يمنعهم من أن يمتصوا دماء هؤلاء ، وسبب هذا العيب فى أنظمته هو ضعف الروح الخلقى فى المجتمع .

فواجب السعى والعمل للقيام بأود الحياة يستدعى حق الفرد فى الاسترزاق ، وقد كان هذا الحق غامضا من القدم ومنكرا حتى هذا الوقت ، لأن الرزق كان ولا يزال متنازع الأفراد والأمم ، فلا ينال الرزق إلا من يتيسر له تنازعه . ولما احتدم هذا النزاع فى عهد تقدم الصناعة الآلية والشئون المالية صارت وسائل الرزق نفسها متنازع الأفراد أيضا ، وصار المتمول ماالكا أعنة المُسْتَرْزَقات ، فيمنحها من يشاء أو يمنعها عمن يشاء ومتى يشاء .

ولذلك تحوم صرخة أصحاب الدعوة الاشتراكية حول نقطة الاسترزاق : أى أن يكون الاسترزاق حقا لكل فرد على المجتمع أو على الحكومة التى تديره . ولا يتسنى الحصول على هذا الحق إلا بحيازة الحكومة جميع ضروب الأعمال لكى توزعها على العاملين ، وهذا هو النظام الاشتراكى بعينه الذي يقرر أن هذا الحق ضائع ما دام النظام الفردي متغلبا ، واهتمام بعض الحكومات أو بعض الجماعات أو بعض أصحاب الأعمال فى نظر الاشتراكيين الخاطئين بإيجاد أعمال للعمال المتعطلين فى بعض الأحيان لا يعد تسليما بهذا الحق للمسترزقين أو إقرارا له ككون شرعي . بل يعد من قبيل الإحسان والرحمة .

وقد دلت التجارب على أن هذا النظام قد عجز عن حل تلك المشكلة الاجتماعية الهامة التى فصل فيها الإسلام بنظام الزكاة درءا لغوائل الاشتراكية وعواقبها الوخيمة وإليك البيان :

١ — الإنسان بطبيعته يحب المال حبا جما ، وحبه أحد أمراضها وعلاجه إزالة ما بها من علة البخل والشح ، وتدريبها فى السماحة المؤدية للفلاح : « وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ » ، لأن الشح يدعو إلى المطل ويحول دون البذل ، والسماحة تصد عن العقوق وتحث على أداء الحقوق ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : « شَرُّ مَا أُعْطِيَ الْعَبْدُ شُحٌّ هَالِعٌ وجُبْنٌ خَالِعٌ » . وما يصد عن أداء الحقوق

فأخلق به ذماً ! وما يبعث على أداء الحقوق فأجدر به حمداً ! .

٢ـــ إن الزكاة مواساة للفقراء ومعونة لذوي الحاجات تكفهم عن البغضاء وتمنعهم من التقاطع ، وتبعثهم على التواصل ؛ لأن الآمل وصول ، والراجي هائب. وإذا زال الأمل وانقطع الرجاء ، واشتدت الحاجة ، ووقعت البغضاء ، وتزايد الحسد ـ حدث التقاطع بين أرباب الأموال والفقراء ، ووقعت العداوة بين ذوى الحاجات والأغنياء ، حتى تفضى إلى التغالب على الأموال ، والتغرير بالنفوس .

وهذه أمور تحمل على إيقاد نار العداوة والبغضاء ، فتلتهم المال والنفس والولد ، ويختل معها الأمن ، ويوجد الذعر والخوف ، ويسوء من الأمة مصيرها . وبهذا نبتت أصول الاشتراكية فى الممالك الغربية ، وأثمرت أغصان الفوضوية ، فجنى المثرون منها كل رزية .

٣ـــ تحصين أموال الأغنياء وتنميتها ؛ لأن الفقراء إذا أيقنوا أن الغنى يصرف لهم شيئا من ماله وأن ذلك يزداد بازدياد ماله ـ أحبوه وتمنوا بقاء نعمته وزيادتها : « مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ »

٤ـــ إن إخراج الزكاة الباعثة الشفقة بالفقراء والضعفاء والمعوزين فيه سد عوزهم ، وتنفيس كربتهم وقضاء دينهم ، وإدخال السرور عليهم : وناهيك قوله صلى الله عليه وسلم عندما سئل : أي الناس أحب إليك ؟ قال: «أَنْفَعُ النَّاسِ لِلنَّاسِ» قيل: يارسول الله، أي الأعمال أفضل؟ قال: «إِدْخَالُ السُّرُورِ عَلَى الْمُؤْمِنِ » قيل، وما سرور المؤمن ؟ قال : (إِشْبَاعُ جَوْعَتِهِ وَتَنْفِيسُ كُرْبَتِهِ وَقَضَاءُ دَيْنِهِ)

٥ـــ إن إخراج الزكاة شكر لله من الغني على أن صانه عن السؤال ، وأنعم عليه بوافر الأموال ، ولم يجعله من مستحقي الصدقات وذوي الفقر والحاجات ، حتى استحق الحمد الأسمى ، والشكر الأوفى . ومن أدى الزكاة شكراً على نعمة المال، وطلباً للمزيد ـ نال من الله دوام المزيد : (لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ)

٦ـ إن الله جلت حكمته أراد أن يربط العالم الإسلامي أجمع ، ويربط قلوب المسلمين كلهم بعضها ببعض ، ويجعلهم أسرة واحدة رءوسها الأغنياء : يحسنون على فقيرهم ، ويوسعون على المضيق عليه منهم ، حتى يكفوهم تكففهم الناس ، ويمنعوهم من ذل السؤال وفى هذا الارتباط والاتحاد والتعاون .

٧ـ إن إخراج الزكاة تثبيت للايمان وكمال فى اليقين ، لأن المال شقيق الروح ، وبذله أشق شيء على النفس من بين سائر العبادات. فإذا ارتاضت النفوس بالإنفاق أحب الأشياء إليها ـ وهو المال ـ صارت خاضعة لصاحبها وقل طمعها فى اتباعه لميولها ، وآثرت ما عند الله تعالى على ما عندها . وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: « وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ »

٨ـ إن إخراج الزكاة صون للمال عما لا يليق به : من وضعه كله فى يد غير محتاجة إليه ، وإخلاء أصحاب الحاجة إليه منه فضلا عن أن ما فضل عن الحاجة الأصلية من الأموال إذا أمسك عن الصرف فى وجوه البر بقى معطلا ممنوعا عن لأجله خلقت الأموال ، وذلك منع من ظهور حكمة الله تعالى ، وتعطيل لها بالكلية . وهو غير جائز : « «وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ »

٦ ـ حق الملكية :

ما دام النظام الاجتماعي فرديا لا اشتراكيا وما دام الأفراد مضطرين إلى تنازع الرزق أو التزاحم فى أبوابه ـ فللفرد حق فيما يحصل عليه من عقار أو مرفق لقاء عمل يعمله ، وعلى النظام الاجتماعي أن يحمي له هذا الحق . وإلا إذا حرم حق امتلاك ما يحصل عليه تعطل عن العمل وصار عضوا غير صالح فى جسم المجتمع وانقبضت نفسه عن السعي إلى المثل الأعلى الأدبى الذى عليه أن يوجه مساعيه إليه .

وهـذا الحق يوجب على الفرد أن يتصرف في ملكه بما يعود بالمصلحة على المجتمع .

ونظام الاشتراكية يحرم الفرد هذا الحق .وقد بسطنا القول في فساد هـذا النظام وعقمه .

٧ ـ حق التعاقد:

وكذلك مادام النظام فرديا فللفرد حق التعاقد مع فرد آخر ، ويجب على كل منها الوفاء بما تعاقدا عليه وإنما يسوغ التعاقد إذا كان في دائرة الحلال : أي أنه لايجوز التعاقد فيما يناقض الحرية وسائر الحقوق الأخرى :

فلايصح التعاقد بين اثنين على أن يكون أحدهما رقيقا للآخر ، أو أن يكون مغبونا ، يعطى أكثر مما يأخذ ، أو أن يكون التعاقد على أمر مما يستحيل أو يتعذر على أحد الفريقين أن ينفذه : فلا يجوز أن يعقد اتفاقا مع عامل على أن يشتغل في النهار ساعات أكثر مما تستطيع القوة البشرية أن تفعل ، ولا تصح المعاقدة مع غلام غير بالغ . فكل هذه العقود باطلة شرعا وخلقا لحيفها وغبنها .

٩ ـ حق العقيدة:

وهنالك حق حرية الفكر والرأى . وهو حق محدود يُجَوِّز لكل فرد أن ينشر عقيدته ، إذا لم يكن في نشرها ما يقلقل نظام المجتمع ، ويؤدي به إلى الفوضى ، أو لم يكن فيها ما يناقض المبادىء الأدبية التى رسخت وأصبحت من أركان المثل العليا .

ولحرية الفكر وبث الرأي شأن في رقي المجتمع ، لأن الترقي الاجتماعي السائر إلى المثل الأعلى إنما هو نتيجة ما يدخل إلى المجتمع من الآراء الجديدة التى تهذب العادات ، والأمور المتوارثة . ولا خطر من إطلاق حرية الرأي مادام هناك عقل اجتماعي يزن ، ورأي عام يؤيد أو ينبذ . وأما قتل حرية الفكر فيصيب المجتمع بالجمود والسكون ، ويلجئه إلى اتباع الخرافات والأباطيل ، ويدفعه إلى الوراء فيبعده عن المثل الأعلى .

٩ ـ حق الطفولة :

للأطفال الذين يراد إعدادهم أعضاء صالحين فى جسم المجتمع حقوق الحضانة والتربية والتعليم : أما الحضانة ففى عواطف الوالدين ما يكفي لها ، وأما التربية والتعليم فهما حق للأطفال على المجتمع برمته ؛ لذلك جعل التعليم إجباريا بالمجان ، بحيث لا يعذر الوالدون إذا قصروا فى تعليم أولادهم ، ويعاقبون إذا صرفوهم عن التعلم .

وكذلك للأطفال حق الحماية من الإجهاد قبل النضوج ؛ فلا يجوز أن يستخدموا فى عمل فى وقت القصور ، لئلا تستنفد قواهم ويقف نموهم فيحرموا حقهم من العلم .

١٠ ـ حق التعلم :

لكل فرد حق التعلم بقدر طاقته ، وإلا كان مغبونا فى تحمله المسئولية وهو محروم حق التأهل للقيام بها ؛ ومن الظلم أن يعاقب المذنب عن جهل . حقا إنه لا يتيسر لكل فرد أن يلم بجميع المعارف ، وإنما له الحق فى أن يجد جميع وسائل التعليم ميسرة له ، فيتناول منها ما يستطيعه ؛ لذلك جعلت الأمم الراقية التعليم إجباريا بالمجان فى التعليم الأولى ؛ لأنها اعترفت بهذا الحق العام . وكما أن للفرد حقا فى التعلم فواجب عليه أن يتعلم ، فإذا أبى أن يتعلم كان مخلا بواجبه .

١١ ـ حق الجمهور على المجتمع :

للجمهور الذى يخضع لنظام المجتمع والذى يتعاون فى الحرص على حياته وعلى ترقيته حقوق عامة على المجتمع لا يمكن الفرد أن يحصل عليها منفرداً :

كحق حفظ الصحة العامة مثلا ؛ فعلى حكومة المجتمع أن تقى صحة الجمهور من الأوبئة بالطرق المختلفة ،

وكحق توفير المنتزهات العامة وتنظيم المدينة ونظافتها إلى غير ذلك مما لا يتسنى الفرد أن يقوم به ،

وكحق تلافى الحوادث الخطرة والكوارث ونحو ذلك مما لا داعى للتبسط

به ، وهو معروف .

هذه أهم الحقوق والواجبات، فاءذا تأملتها فهمت أن مجمل معناها هو أن لنا حقا فى إنهاض حياتنا الاجتماعية والسير بها فى أفضل سبيل إلى الخير الأعظم للجماعة التى نحن أعضاء فيها . ولذلك وجب علينا أن نستخدم الوسائل المشروعة فى كل ما يؤدى إلى هذه الغاية .

حق نفسك عليك

إجمال : أساس حق النفس علينا المبدأ الآتى :

تطالب كل نفس صاحبها أن يعمل على تحقيق الانسانية فيها جهد المستطاع : بإنماء ملكاته التى اختص بها ، فامتاز عن سائر الحيوان . ولما كان العقل أصل الحركة والنشاط الأدبيين فى الانسان امتنع أن يتحقق أو يبلغ الغاية التى رشح لها حتى يكون كل فعل من أفعاله مؤيداً بما يسوغه أمام ذلك العقل .

وفى ذلك يقول بعض الخلقيين :

« الانسان مكلف الاحتفاظ بكرامته الشخصية : أى أنه يجب عليه أن يحترم فى شخصه ذلك الكائن الذى منحه الله إياه وهو العقل فزاد فى شرفه ومنزلته بين الكائنات ، وأن يحمل غيره على احترامه »

هذا هو أصل احترام الانسان لشخصه ، وهو على صور عدة أهمها : الاعتدال ، والتبصر، والشجاعة، واحترام الحقيقة ، وإخلاص الانسان لنفسه ، وعهد القيام بالواجب ، والمطالبة بحقوق الواجب . ويرى الفيلسوف (كنت) أن أساس حق النفس هو :

اجعل العدل للحقيقة الانسانية غايتك ، وليستو عندك نفسك وغيرك .

أما القدماء من الفلاسفة وبخاصة الرواقيون فأساس ذلك الحق عندهم سلبى ؛ إذ يقولون : « تحمل المصائب ، جانب اللذات » وبذلك أغفلوا الواجبات الايجابية ، كأنها لم تكن أساسا لعمل ما من الأعمال البشرية عندهم .

أقسام حق النفس :

لما كان الإنسان مركبا من الجسم والنفس فحق نفسه عليه لا بد من أن يتعلق بهذين العنصرين . وحقوق كل من الجسم والنفس على نوعين : حقوق خاصة بالحفظ والنماء ، وحقوق خاصة بالكمال :

فالأولى هي الخاصة بالغذاء ، وصحة الأجسام ، وسلامة الأعضاء .

والأخرى خاصة بالتربية وتقوية الملكات .

حق الجسم : كان أفلاطون يقول : إن الجسم مكان النفس أو هو آلة مسخرة تحركها النفس. لكن المتأخرين يقولون : إن الجسم جزء متمم للنفس ومتحد بها اتحاداً خاصا ، فهو شريكها في تكوين عملها ، وتكوين وظيفتي الفكر والعواطف . وسلامة الجسم عادة شرط لازم لكمال الحياة العقلية والخلقية. وكمال النفس هو العلة والغاية من العناية بالجسم . فالنفس غاية والجسم وسيلة :

قال (باكون) : « النظافة للأجسام كالحياة للأخلاق ؛ لأنها مظهر احترام الإنسان لنفسه وللجماعة »

والنظافة حقا من أول شروط الصحة . ومن أمثال القدماء: النفس النقية في الجسم النقي. وصحة الجسم تتم بفضيلة : هي الاعتدال . وبعلم : هو علم تدبير الصحة:

أما الأولى فهي الاعتدال في المأكل والمشرب ، فلا يعطى الجسم إلا ما هو ضروري للحياة ، والآخر هو علم القواعد الصحية التي وصل إلى معرفتها الإنسان بالدرس أو بالتجارب .

إن مراعاة صحة الجسم لم تكن من النصائح العادية وإنما هي واجب من أوجب الواجبات ؛ إذ كان اختلال القوى الجسمية مؤديا حتما إلى اختلال القوى الخلقية ، لأنها مترابطة فيما بينها ، والانحلال الطبعي يجر إلى انحلال القوة المدركة والإرادة ، ويحول دون القيام ببعض الواجبات للنفس والجماعة .

ولذلك كانت الرياضة البدنية واجبا أيضا لتقوية القوى الجسمانية ونموها .

ومن الحكم المأثورة : (العقل السليم فى الجسم السليم)

ومن حق النفس على صاحبها صونها وعدم إتلافها ؛ ولذلك كان الانتحار جناية عظمى ، ومعصية من أكبر المعاصى : فهو إنكار الحياة الخلقية اللاصقة بالإنسان، واطراح لجميع الواجبات المفروضة عليه فى هذه الحياة ، وفرارٌ من واجبات المجتمع وهو أحد أعضائه الذين لكل منهم حقوق ، وعليه واجبات يعتبر التخلي عنها جريمة كالفرار من الجندية ؛ والانتحار عدوان على حياة المجتمع ؛ لأن المنتحر إنما يقتل فى شخصه عاملا من عوامل حياة المجتمع ويصدع بناءه :

تدبر قوله تعالى :«مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً »

هل يدل الانتحار على شيء من الشجاعة ؟ كلا ! :

إن الشجاعة هي القوة المعنوية وهي عظمة النفس وثباتها كالطود الراسخ ، ولا يتحقق ذلك إلا بتأدية الحقوق والانتحار نبذ صريح لها ، فمن قال إن الانتحار شجاعة فإنما يسيء استعمال اللفظ ويجرده من معناه الذى وضع له .

هل يسوغ الانتحار للإنسان البائس الذى يئن تحت أثقال الحياة والمصائب، فلا يعرف لها دواء ولا يدرى متى تنتهى ؟ كلا ! لأن الإنسان لم يخلق ليقضي حياة رافهة فى الأرض ، وإنما خلق ليقوم بالواجب من حيث هو واجب ، والفضيلة تضع الإنسان فوق ما يمتحن به من البلاء وحوادث الأيام .

وهل يباح الانتحار للإنسان الذى تقطعت به الأسباب ، وأصبح كلاًّ على غيره ، فرأى نفسه حملا ثقيلا عليهم مكدراً لهناءتهم ، بدلا من أن يكون لهم معينا؟ كلا ! ذلك بأن على هذا البائس حقوقا لهم وعليهم له كذلك فهم يقومون بما عليهم من حق المعونة بداعى العطف والإخلاص ، وعليه لقاء ذلك أن يتجلد ويصبر ليمكنهم من تأدية هذا الحق وليظل التعاطف قائما فى المجتمع، وكلا

الفريقين يعمل فى الحقيقة مالا بد منه ، وفيه النفع للمجتمع ؛ لأن الحق سلطان غالب تختفى أمامه الأسباب والاعتبارات وهو يمحوها كما تمحو الظلمة ضوء النهار.

وهل يجوز الانتحار فراراً من العار ؟ كلا : العار جريمة ، وكيف تمحو الجريمة جريمةٌ أفظع منها وأشد إثماً ؟ ومتى محا الانتحار عارا ! :

محو العار لا يكون بغير التوبة والاستغفار ، وإتيان الفضائل التى تزيلها من الأذهان . أما إذا جلب العار وشاية فاعتقاد المرء براءته وارتياح ضميره إلى أن مالَصق به مختلق عليه كاف لأن يعيش به سعيداً أمام ضميره وأمام الله الذى خلقه وإليه مرجعنا جميعاً .

وهل يرخص للإنسان فى أن يعرض حياته للخطر لنجاة إنسان من الغرق أو الحريق ؟ نعم : لأنه لا انتحار هنا وإنما هو مجازفة بالنفس فى سبيل القيام بواجب إنسانى تحتمه المروءة والنجدة وهو إذ يقدم على ذلك يأمل النجاة لنفسه ولمن يبغى إنقاذه .

وهل يعد التعرض لخطر الموت المحقق للدفاع عن الوطن انتحاراً ؟ كلاً : إن الدفاع عن الوطن حق على أهله ، والقيام به عمل من أعمال البطولة والانتحار فرار من الواجب ، والفرار من الواجب جبن وخور . أما الموت فى سبيل الوطن فواجب . وكل إنسان يجب عليه أن يضحى بحياته لوطنه ؛ لأن الحياة لا قيمة لها ولا قدسية لها إلا بتأدية الواجب .

تفصيل : حق النفس هو حق ملكاتها الثلاث : القوة المدركة ، والإحساس، والإرادة التى يجب علينا أن نعمل لتقويتها وإعدادها للخير .

حق القوة المدركة : عمل هذه القوة معرفة حقائق الأمور ، ومعرفة الحقيقة من الضروريات ؛ لأن العمل وسلوك الإنسان فى أى أمر يتعلق بدرجة فهمه ومعرفته لذلك الأمر : أى أن طبيعة العمل وخواصه من طبيعة المعرفة وخواصها ؛ من أجل ذلك كان واجب التعلم فرضاً على كل إنسان على قدر استطاعته . والقوة

المدركة كباقى الملكات تضعف وتخمد بالجمود ، وتنمو وتكمل بالعناية والرعاية والدرس ، وإذا تركت وشأنها بلا تعلم امتلأت بالأوهام ، والترهات، والخواطر الكاذبة ،وإن ساء تعليمها انقلبت شراً على الإنسان والجماعة، وإذا حسن كانت خيراً .

وفى الإنسان استشراف إلى معرفة الأشياء وميل إلى تعرف الجديد والاستزادة منه ، ويجب ألا يترك هذا الميل فيضل فى دياجى الأوهام والأباطيل، كما يجب صونه من أن يكون ميقانا(١) لايسمع شيئا إلا صدقه ، ومن أن تتنازعه الشكوك فيصبح فى ليل من الشك مظلم

ليس المقصود من رقى القوة المدركة ازدياد معارفها وإنما المطلوب إحسان الطريقة التى تتبع فى تنميتها وتقويتها؛ إذ ليس الإنسان النافع للمجتمع هو الأكثر علما ، وإنما الأقوم تعلما ؛ فإن الأفكار قوة . وهى التى تقود العالم : قال(باكون): « عمل الإنسان آية علمه »

إن فكرة قد تثب من القوة المدركة تقلب نظام الكون رأساً على عقب ، وناهيك بما فعل البخار والكهرباء فى عالم الصناعة والتجارة وسائر أسباب العمران

متى حسن تعلم المرء احترم الحقيقة ؛ لأن الكذب ينافى العدل،والإحسان ، والكرامة الشخصية ، وما احترام الإنسان لنفسه أو عاطفة الكرامة الشخصية فيه سوى احترام الحقيقة .

أتدرى ما الكرامة ؟ هى أن تخادن الحقيقة وتظاهرها ، وتفكر كما ترى أنت وتقول كما تعتقد .

قد تعرض للمرء أسباب قاهرة مشروعة تمنعه أن يقول كل ما يعتقده ، أو كل ما يعرف ، لذلك وجب أن يفكر قبل الكلام إذا أتيح له ؛ لأن لسان العاقل وراء قلبه ، وقلب الأحمق من وراء لسانه .

ياويح رجل يقال له بين الرجال:(أنت كاذب) ويا فخر إنسان يقال له :

(١) الميقان : من يصدق كل مايسمعه

(أنت صادق) ، ما أحلى هذا وما أمر ذاك ! إن رجلا يعتقد غير ما يقول ، أو يقول غير ما يعتقد — لرجل يناقض نفسه ، ويخالف طبيعته الخلقية .

ولا يكون الكذب إلا لحب الظهور ، أو لغاية غير كريمة ، أو لجبن أو لمكر وخباثة ، أو لدفع عار الكسل والطيش ، أو سوء تصرف وعدم تبصر ، ومثل الكذب فى الأقوال الكذب فى الأعمال ؛ لأن كل إنسان يقول أو يفعل ما لا يعتقد بقصد خدعة غيره هو كاذب ؛ إن رجلا يعرف الحق ويخجل من قوله ، أو يعرف الخير ولا يجسر على فعله — لا شك أن عمله هذا خيانة وتنزل منه عن حريته وكرامته وسائر حقوقه المقدسة . والنفاق هو الشر فى صورة الخير . والمنافق لا يجهل نفسه ولا هو مخدوع فى أمره ، وإنما يسعى ليخدع غيره ؛ إذ يلبس ثياب الفضيلة ليخفى على الناس شأنه : قال أحد العلماء : « النفاق تحية من الرذيلة للفضيلة » : يريد بالتحية أنها اعتراف من الرذيلة بسمو قدر الفضيلة ، وأنها أعلى منها وأرفع ، ولولا ذلك ما تظاهر بها المنافق أمام الناس.

لا يعدم المغالط حجة يسوغ بها خطأه : وذلك إما لحب الذات أو لغاية ، أو لشهوة ، والشهوات معينٌ احتجاجات لا ينضب وعين للتعللات لا تغيض . فحب الذات غشاوة على عين المرء لا تريه سيئاته . والحسد مرض يعميه عن حسنات غيره . وقد قيل : (يرى القذى فى عين أخيه ولا يرى العصا فى عينه) كأنه يزن بوزنين ، ويكيل بكيلين .

ومن إخلاص الإنسان لنفسه اطراح الكبرياء وهى تقدير الإنسان لنفسه تقديراً يجاوز الحدود .

والكبرياء على درجات :

الكبرياء بمعناها الخاص : وهو أن يرفع الإنسان قدر نفسه فوق أقدار الإنسان ،

والتعالى وهو احتقار الناس واستصغارهم ، وكذلك دعوى الغنى عن الناس فإنها ضرب من ضروب الكبر أيضاً ،

وحب الظهور كذلك كبرياء مقصورة على الصغائر من الأمور كالتأنق فى الملبس والمركب ونحوهما .

والتبجح بدعوى العلم كبرياء والمتفاخر متكبر كذلك يكذب على الناس بالإعلان عن نفسه بألقاب وصفات وأعمال كلها بهتان وغلو وفضول .

ومن الحقوق الخاصة بالقوة المدركة التبصر وهو يقوم على الانتفاع بالعظات الماضية والاعتبار بالأمور القائمة والقياس العقلي الصحيح ، وكذلك من هذه الحقوق النظام وهو تصريف الفكر للوسائل بحسب غايتها : قال الشهير (بُوسويه) :
« علاقة النظام بالفضل علاقة غاية فى المتانة والرسوخ »

وأساس النظام أن يتعود الإنسان وضع كل شيء فى محله ، وأن يعمل كل شيء فى وقته ، وبذلك يستريح الجسم وتطمئن النفس ويستنير الفكر .

حق الإحساس

من الحق علينا أيضاً منع الشهوات الدنيئة أن تتولد فينا ، ومحو كل أثر للغيرة والحسد والأثرة ، والاستعاضة عنها بالعواطف الشريفة كمحبة الأهل والأقارب ، وحسن المعاشرة ، والإعجاب بالجمال ، ومحبة الخير والعلم .

وأهم حقوق الإحساس احترام النفس أو عاطفة الكرامة الشخصية ، والاعتدال فى المأكل والمشرب . صونا للجسم وحفظا للقوى والملكات أن يقع فيها الاضطراب ، ويؤذيها الفهم وللكرامة الشخصية أسماء باختلاف علاقتها بالملكات الأصلية للنفس : فهى التبصر فيما يختص بالقوة المدركة ، والشجاعة فيما يختص بالإرادة ، والاعتدال فيما يختص بالإحساس

ومن حقوق النفس الهامة الاعتدال فى إحراز المال :

إذا كان إحراز المال لا يطلب على أنه وسيلة لنيل ما تشتهى النفس فى حدود المباح وإنما يطلب لذاته وليكون أموالا محتجنة فهو البخل والشح بعينه ، وصاحبه لا يملك المال ، بل المال يملكه ويسترقه ، ويبقى عليه حارساً حتى يموت فيتمتع به غيره ،

وكذلك الإسراف نقيض البخل فهو مبيد المال ، ومخرب الديار ، وجالب

الحسرات ، ومشق النفوس ؛

أما الاعتدال وهو أن يكون الإنسان قواماً بين ذلك . فهو الطريق المحمود المأمون الذى فيه معنى الكرامة الشخصية والاحترام الإنسانى اللائق بالمرتبة البشرية .

حق الإرادة

١ ـ الإرادة : قال (ديكارت) : (ليس في الإنسان ما هو لاصق بشخصيته أكثر من الإرادة) وبالحق أن معيار قيمة الرجل فى إرادته :

فإذا سلب المرء عقله قيل عنه أبله ، وإذا غاض معين الرحمة فيه قيل عنه لئيم ، وإذا تجرد عن الإرادة فهو ليس بإنسان . كثير من البائسين والمحزونين علتهم فى أنفسهم وهى ضعف الإرادة ، لا يعرفون كيف يقفون فى صفوف الجهاد الحيوى ، بل يجدون من فعل الناس ورحمتهم بهم ما يظنونه نعيماً وعيشاً رغيداً ، فلا يعملون ولا يسعون في الأرض ، كما يسعى أولو العزم ، وذلك سبيلهم الوحيد إلى البؤس وإلى الرذيلة ولو عقل هؤلاء ما سلكوه :

قال حكيم : أنا أريد : كلمة عز وجودها فى العالم وإن ادعاها كثيرون . أما من عرف سرها الخطير فذلك إن عاش زمنا بائساً أو محزوناً فلسوف تراه أعلى الناس قدراً وأشرفهم منزلة .

ومن حق الإرادة الشجاعة وهى التى بها يحفظ الإنسان كرامته الشخصية ، ويُقْصِي عن إرادته كل ما من شأنه النيل من حريتها ، فلا يرضى الاستعباد طائعاً مختاراً ، ولا ينقاد للخسيس من العادات ؛ لأن كل ذلك معناه التنزل عن إرادته ، وهي القوة التى بها يتجافى عن اللذات والشهوات ، ويأنف الجنوح إلى المنفعة الشخصية ؛ لأنه لا يريد أن يجعل إرادته فى حل من سلطان العقل والواجب . ومن حقوقها : القوة والثقة :

من الضعف أن يرهب الإنسان الصعاب من بعيد ، ولكنه إذا اقترب منها صغرت فى عينيه ، وربما امحت واختفت : ليس فى ميسور إنسان أن يقدر

ما يجب عمله مالم يأخذ فى مباشرته وتجربته، فمن المحال أن يقدر جهد القوة البشرية بغير التجربة ، ولطالما فعل الإنسان مالم يكن يعتقد قدرته على عمله ، من أجل ذلك وجب العمل بالقاعدة :

« أقدم على عمل ماتريد وأشعر نفسك القدرة عليه » وما سبب نجاح العاملين فى الأعمال الخطيرة وتذليل الصعاب الكبيرة التى صادفتهم فى طريقهم وكادت تثنيهم ـ إلا العملُ بكل قواهم وحيلهم ببصيرة وثبت وروية تامة ،

ولا غرو ، فالثقة بالنجاح عين النجاح ، لأن المصاعب والحوائل تتساقط غالبًا من نفسها أمام العقول المشحوذة الصابرة ، فهى تعمل لقهرها والغلبة عليها كما يفعل الماء فى الصخور .

يجمع المرء بثباته من الأشياء والمعارف القليل تلو القليل ، فلا يلبث أن يكون بين يديه مجاميع لا يدرى متى كانت وكيف تمت له .

ومن حقوق الإرادة الاستقلال ، ولكن الاستقلال على إطلاق لفظه لا يتفق مع الحياة الاجتماعية ، لأن الإنسان ملجم بضرورات النظام الطبعى والأدبى والاجتماعى ، ولا مناص له من هذه الضرورات ، لكن الإنسان يحتاج لحفظ مكانته بين الجماعة إلى شىء من الاستقلال ، ليكون إنسانًا له ذاتية محدودة بعيداً عن الكبرياء والعناد جاعلا أساسه عاطفة الواجب والكرامةِ الشخصية .

الرجل المستقل استقلالا حقًا هو الرجل ذو العزم وذو المبادئ التى يلازمها وتلازمه ، لا يضحى منها شيئا لأى سبب كان حتى النهاية .

هو الذى يضم بين جوانحه نفساً قوية يشعر بها أنه أعلى مكانة من كل حادث ، وأعز منالا من المخاوف ، وأرفع مقاماً من أن تنزله الوعود عن سدة كرامته الشخصية . وهو الذى يعمل الواجب دون نظر لما يكون بعد ، والذي لا يتخذ له مُسَيِّراً وإماماً غير الضمير ، فلا تستهويه المنفعة ، ولا تسترقه المناصب والرتب .

هو الذى لا يُسْقطه نزولُ الهوان به فى تأييد الواجب ، ولا يخفى الحقيقة

ولا يسىء إليها ،

هو الذى لا يعتد بالشهرة الباطلة ، وإنما يعتد باحترام العقلاء وأهل الرأى، والذى يفكر بنفسه دون أن يكون بُوقًا لغيره بلا بحث ولا روية ؛ والذى يقول ما يعتقد ، لا ما يقوله الناس ، ولا ما يُلَقَّن إليه .

هو الذى يفعل ما يمليه عليه عقله وضميره لا ما يفعله غيره

وهو الذى لا ينحدر مع تيار الحوادث ، بل يناضل ويقاوم بالقول والاستنكار ما دام الحق مَهِينًا ، والعدل مهيضاً ، ولا يثنيه نجاح الباطل وانتصاره .

فالرجل المستقل هو الرجل الذى يحترم نفسه ، ويتولى جميع أمره

هو الرجل ذو الشخصية المستقلة التى لا تفنى فى شخصية غيره

هو الرجل ذو النفس القوية العزيزة فى غير كبرياء .

يزيد فى استقلال الرجل قوةُ العزيمة ، وهذه تأتى من رسوخ المبادئ وصحة الاعتقاد . وللاستقلال الحق مكانٌ عظيمٌ فى الحياة ؛ لأن قيمة المرء بعزيمته .

نعم إن الذكاء والعبقرية من أكبر النعم على المرء ، ولكن خيراً منهما قلبٌ واسع الحرية عزيز الجانب ؛ فقد يكون الرجل محدود الفكر متوسط الذكاء ، ولكنه مستقل ، ومثل هذا لا يكون رجلا عاديا ، بل يجب له الاحترام والإكبار والإعظام

والرجل الذى يقبل المدح ويسعى إليه ويتعامل بأخس المعاملات ، ويعيش فى الدنايا والشهوات ، ولا يعمل إلا لشهوته وأغراضه ــ هذا الرجل ساقط جدير بالاحتقار ولو كان أذكى الناس طرًّا .

هذا الاستقلال لا غنًى عنه للقاضى ؛ لأن عمله إصدار أحكام لا إسداء منن ؛ إذ هو رجل العدل لا رجل سلطة يصرف الناس بها كما يشاء .

والاستقلال أمر لا محيص عنه للنقد ليكون الناقد مرشداً مخلصاً للجمهور مظهراً له حقيقة الأمور وسط بيداء المدح الكاذب والخداع والتغرير ؛ ليفيق

الغافل من غفلته ويرجع المضل عن غيه وضلاله .

وكذلك هو أمر محتوم لنواب الأمة ورؤساء الحكومات وقواد الجيوش ولكل طبقة من الطبقات الاجتماعية .

هذا الاستقلال الذى ندعو إليه لا يتعارض مع الخضوع والطاعة للقانون ؛ إذ القانون مظهر الحقيقة والعدل والنظام ؛ فالخضوع له واجب ؛ ولا منافاة بين أداء الواجب وروح الاستقلال .

ومن حق نفس الإنسان عليه السداد فى شئونه الشخصية : فيجب أن يكون بيته منظماً مناسباً لحاله ومكانته جامعاً بين النظافة وسلامة الذوق واستكمال القواعد الصحية ،

وأن يضع الشيء فى موضعه : فيقْدِم على الفعل حين تدعو الحاجة إليه ، ويتركه حين لا ضرورة تقضى به ، وأن تكون أموره منسجمة مؤتلفة :

فالذي يتكلم فى موضوع جدي هام يشغل باله وبال سامعيه ، ثم يخرج فجأة إلى هزل من القول قد شذَّ عن حد الليقان وعريت أعماله عن الانسجام ،

وكذلك الإنسان الذى يأتى فى موضع تفيض نفوس أهله بالسرور والانشراح فيكلّمهم فى موضوع يكدر صفو اجتماعهم — لاشك أنه يُتهم بقلة الذوق ،

ومن هذا القبيل ما يأتيه بعض الناس من مخالفة لسنن الآداب العامة :

كالذي يتلفظ ببذيء القول ، أو يأتى بعض الهفوات التى قد يفوت العامةَ إدراكُها ؛ فإنها إن خفيت عليهم لا تخفى على غيرهم من الخاصة .

والواجب أن تكون لحواسنا مقدرةٌ على الحكم على ماقد يبدر من الناس حتى نعرف من حركاتهم وإشاراتهم ما تنطوي عليه نفوسهم ونتبين : أتوافق سنن الأدب أم هي بعيدة عن محجة الهدى والواجب ؟ وأمثال هذه الملاحظات من الأهمية بمكان ؛ لأنها تمنع الإنسان عمل ما يراه قبيحاً أو جارحاً للاحساس

وذلك لأننا نرى عيوب غيرنا أكثر مما نرى عيوبنا ، ورؤيتنا لها قد تفيدنا في آدابنا وتزيدنا رَغْبةً في تكملة نفوسنا .

وإذا أشكل على المرء السبيل فمن الحكمة سؤال غيره ممن تَحَلَّوْا بالعلم والخبرة ، وإن كانت السنن الطبيعية الإنسانية خيرَ مرشد للإنسان بوجه عام — فإن الاستفادة من رأي الناس ونصائحهم تزيد الإنسان معرفةً وخبرة .

وإن لنا لعبرة في المصورين والمؤلفين وأمثالهم الذين يعرضون أعمالهم على ذوي الدراية للاسترشاد بنقدهم في سبيل الإتقان .

ولْنجعلْ لأنفسنا قدوة فيمن تحلوا بالفضائل ، وازدهت حياتهم بالشرف ، فشرفوا أنفسهم وأهليهم وبني وطنهم ، وخدموهم بالإخلاص والعلم والكفاية النفسية ،

ومثل هؤلاء جديرون بأن يُقْتدَى بهم ، خليقون بالاحترام والإجلال .

ومن حق نفس الإنسان عليه أن يجتهد في تكميل ذاته : فيختار المهنة المشروعة ليكسب عيشه حتى لا يصير كَلًّا على المجتمع ، ففي العمل المشروع فائدة ذات شأن لبدن الإنسان وعقله ونفسه ، وما البطالة والكسل والتسكع إلا رذائل لها خطرها على المجتمع :

قال أحد علماء الأخلاق : «إن البطالة شر من الرذيلة ، لا ، بل هي أم الرذائل والشرور »

وإذا كان من الواجب أن يبتعد الإنسان عن ذوي الأمراض المعدية فلأوجب أن يتجنب معاشرة أرباب المفاسد ، وإلا وقع في أمراضهم الخلقية القاتلة .

وحق النفس على صاحبها أن يتجنب العلل الخلقية والأسقام النفسية جهده حتى يتخلص من شرها مستعيناً بالإرادة الحقة والعزيمة الصادقة مشعرا وجدانه أن هذه المفاسد تنغص عيش المرء وتسلبه هناءته في ذاته ، وبين أهله وأمته ، وتحط من شرفه .

ولو نظرنا مثلا إلى حكم الطب فى شرب الخمر وتعاطى المخدرات والتهالك على الشهوات لألفينا أنه هو حكم الاقتصاد الاجتماعى فى المقامرات والمضاربات والإسراف والتبذير ،

وكلا العملين ينذر بالويل والخراب .

فالواجب على الإنسان لنفسه يقضى عليه لشرف نفسه وفائدة أهله ومصلحة أمته — ألا يكون سكيرا ولا مسرفًا ولا محبا للفساد ؛ حتى لا يتهدم جسمه وتفسد حياته :

فكم من تعساء أوقعتهم شهوات نفوسهم فى هوة الخمر بتشويق بعض الحمقى من الشعراء والكُتَّاب فى تحسين ما تتركه الخمر من شعور ، أو بغواية بعض رفقاء السوء ، فراحوا ضحية تلك المفسدة التى حرمتها أكثر الشرائع ، وثارت عليها تقاليد المجتمعات الراقية ، وقامت لمحاربتها جماعات « منع المسكرات » :

قال أحد العلماء : يرى الناقد البصير فى المدمنين التعساء ضروبا من البله والجنون وألوانا من المخازى ، ويستخرج العبر والمواعظ من حالهم ، ويتوقع القصاص الطبعى الرادع الزاجر .

على أن مما يجعل الخمر أشد فتكا ما يحصل من غشها ، ولذلك أشار هانوتو — على استنكاره الخمر فى ذاتها — بما يجب على الحكومة من التدخل ، وذكر أن أبناء العصر الحاضر — وإن كانوا لا يسرفون فى الشراب — مضارها فيهم أسوأ أثراً وأعظم خطرا لرداءة صنفها وكثرة غشها .

والمخدرات في هذا الباب أضر من المسكرات : تبتدئ بالخمول وتنتهى بالبلادة ثم الجنون .

فعلى الإنسان أن يكون عفًّا قنوعا مالكًا شهواتِهِ ؛ حتى لا يهدم جسمه بالأمراض التى لا يرجى شفاؤها والتى تتناول الذرارىَّ بالسقم .

ومداواة حب الشهوات يأتى بالإرادة الصادقة وقهر النفس حين تجنح إلى الشر ، ومن توجيه الميول إلى الأخذ بالخير : قال « روسّو » : « لن يتغلب

الإنسان على شهواته إلا بمقاومة بعضها بعضاً » :

فمن كان كثير الميل إلى قضاء سهراته فى أماكن القصف واللهو وشرب الخمر مع إخوانه ـ كان من الخير له أن يستبدل بذلك غشيان أماكن التمثيل التهذيبى النافع والتردد على دور المطالعة أو أندية الفنون الجميلة ، ولعل هذا أقوم سبيل إلى تقويم النفس وإصلاحها .

وكما يقضى حق النفس على الإنسان أن يقيها من سيء الشهوات والأمراض الاجتماعية ـ يقضى من ناحية أخرى أن يتطلب لها أحسن أنواع الغذاء واللباس والسكنى بما يناسب حاله ، وأن يتعهد نظافة بدنه ولباسه ومنزله ، وأن يستريض ويجتهد فى تقوية أجزاء جسمه ، دون أن يفضى به ذلك إلى التأنق أو السرف والتبذير .

وإذا كان المال قوة فمن واجب الإنسان أن يدخر شيئا منه للمستقبل حتى يكون ذلك عوناً على الأيام وثروة مدخرة لوقت العوز والحاجة .

ومن حق أنفسنا علينا إخلاصنا فى معرفة ذواتنا : فلا نعتقد البراءة من العيوب ، وألاّ نجعل للمغالطات التى تخرجنا عن حد القانون الأدبى مكان القيادة من نفوسنا وخواطرنا ، وبذلك نجعل ضمائرنا خيّرةً نقية صائبة الأحكام، ونسمو بنفوسنا عن الكبر والعناد والصلف ؛ فادعاء معرفة كل شيء وجهلُ كل شيء سيان فى كونهما من علامات ضعف العقل ، والحقُّ أحق أن يتبع .

وأدب السلوك أو معرفة الواجبات للنفس وللعالَم كله ـــ هو أول ما تجب معرفته بعد معرفة قدرٍ وافٍ من الدين الصحيح وتربية الوجدان ، ثم معرفة العلائق التى تربطنا ببنى المجتمع .

ومن أدب الذات ألا نضن بما نعرف على بنى مجتمعنا ؛ لأن العلم ككل المخترعات حق يورث وفخر لصاحبه يؤثر ؛ ففى كتمانه حرمان نفوسِ الأمة إياه ، وخمولٌ للنفوس الضنينة به ، وأحسنُه ما أُدّى عن إخلاص وسماحة .

وصفوة القول أن من حق نفس الإنسان عليه تربيةَ الشعور الكريم

بالاعتدال فى أمر الشهوات الطبعية ، ومحبةَ الحقيقة والخيرِ والفضيلةِ والجمالِ والعفةِ والترفعِ ، وتربيةَ الإرادة الصحيحة والشجاعة الأدبية فى نفوسنا ، مع التمييز بين قوة الإرادة وبين التصلب والعناد ، وعلى أن نفرق بين الشجاعة الأدبية والوقاحة وعدم الحياء ،

ولا يقل عما تقدم واجب احترام النفس باتباع كل مايوجب على غيرنا احترامها ؛ لأن كل ما يبدو من الإنسان من ساقط اللفظ أو ذميم الأفعال أو خشونة الطباع وشراسة الخُلق يحط من قدره مهما تكن منزلته، وإنَّ الإنسان ليجنى على نفسه بمثل هذه النقائص ، فليذكر دائماً قول الشاعر :

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها   هوانًا بها كانت على الناس أهونا

ومن حق نفسك عليك : الصحة والتداوى :

لوقيل إن العناية بالصحة والمبادرة إلى مداواتها كلما ضعفت من أول حقوق نفسك عليك ـ ما كان فى هذا القول مبالغة أو غلو :

ألم يقل علماؤنا : إن ما لا يتم الواجب إلا به كان واجبا ؟ وإذا كان الإنسان لم يخلق فى هذ العالم إلا لقيامه بالحقوق التى ألقيت على كاهله وكان قيامه بها لا يتم إلا بالجسم الصحيح القوى ـ كانت الصحة والقوة وتوفيرهما مما يجب على الإنسان بالطبع ؛ ليتمكن من قيامه بما عليه من الحقوق المذكورة وهو نشيط ومن الأحاديث الشريفة الدالة على هذا المعنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « نَفْسُكَ مَطِيَّتُكَ فَارْفُقْ بِهاَ » : وذلك بألاَّ تحملها فوق طاقتها ،وإذاأصابها ضعف أو مرض فعالجها بالراحة والعلاج وإرجاع الصحة والقوة إليها ؛ لتتمكن من الوصول إلى أغراضك ومصالحك :

وفى هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الآخر أيضا : « إنَّ لِبَدَنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا »:

وهذا الحديث بنصه يدل على أن الصحة من حقوق الجسد التى له أن يطالب بها كما يدل بفحواه على أن مراعاة الصحة وإنعاش البدن وتقويته حق على المرء

كسائر الحقوق الأخرى ،

وقوة المؤمن الجسدية إنما تنشأ عن مراعاة قوانين الصحة ، ومن أجدرها بالعناية والاهتمام النظافة . وقد حض عليها الإسلام حضاً لم يُساوِه فيه دين من الأديان .

ناهيك أنه جعلها من جملة فروض الدين التي تتوقف عليها صحة العبادة ؛ فمن لم يطهر لا تصح صلاته .

وقد قال بعض كبار المؤلفين المعاصرين : « إن الطب الحديث أيد القول المأثور : « النظافة من الإيمان » ، وبيَّنَ لنا حكمته والسر فيه ؛ فقد تحققنا الآن أن كثيرا من الأمراض منشؤها إهمال النظافة .

فلذا أصبح أمر النظافة ضروريا في المنازل التي نسكنها ، والملابس التي نكتسي بها ، والماء الذي نشربه ، والهواء الذي نستنشقه .

وكذلك جاء في الحديث الشريف ردا على من يحتج بالقدر : « الدَّوَاءُ مِنَ القَدَرِ ، وَقَدْ يَنْفَعُ بِإِذْنِ اللهِ » :

فانظر كيف نبه إلى حفظ العقيدة مع بيان أن الدواء سبب ، وأن الأسباب من جملة القدر الإلهي الخفي عنا ، وإنما يتجلى لنا في مظاهر سنن هذا الكون وقوانينه العامة وارتباط أسبابه بمسبباته : فهي التي إن راعيناها مع استبطان التوحيد كانت تأثيراتها الظاهرة فينا هي أحكام القدر الذي كان خفيا عنا ؛ فما معنى التعلل إذن بالقدر في ترك هذه الأسباب وإهمالها والتعرض للأمراض وأهوالها ؟

ومما قاله صلى الله عليه وآله في الحث على التداوي : « إنَّ اللهَ أَنْزَلَ الدَّاءَ والدَّوَاءَ وَجَعَلَ لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءً »

ولا نطيل الاستشهاد على هذا ؛ فقد أصبح أمره مشهورا كَنَهْيِ الشارع صلى الله عليه وسلم عن المسكرات كلها صيانةً للأمة عن أضرارها وشرورها الاجتماعية والصحية ،

والأحاديث فى ذلك كثيرة منها قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « اجْتَنِبُوا الْخَمْرَ فَإِنَّهَا مِفْتَاحُ كُلِّ شَرٍّ »

ويشبه هذا ما جاء فى الحكم الإسرائيلية القديمة : « إذا أراد الشيطان أن يدخل مكانا عسر عليه الوصول إليه — أرسل أمامه الخمرة »

وقال بعض الحكماء : « ليست الخمور سوى مصائب مجمعة فى الكئوس »

وقد حض الشارع على العناية بالصحة واتخاذ الوسائل الموصلة إليها حتى مالا يخطر بالبال منها : كقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « سافِرُوا تَصِحُّوا » لأحمد فى مسنده عن أبى هريرة :

فهو يحض على السفر لاستفادة الصحة فوق ما ينويه المسافر من الفوائد الأخرى كالمال والعلم :

أما كون السفر مفيدا للصحة فلأن المسافر فى تنقله وضربه فى البلاد كثيرا ما يصادف مكانا عَذِيًّا (١) ويتنسم هواء غَذِيًّا

وللنظافة من التأثير فى كرامة الشخص ورفع منزلته فى نفوس إخوانه ومعاشريه عظيم الأثر : وأحسن ماقيل فى هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم : « أَحْسِنُوا لِبَاسَكُمْ وَأَصْلِحُوا رِحَالَكُمْ حَتَّى تَكُونُوا كَأَنَّكُمْ شَامَةٌ فِى النَّاسِ » :

وأمر الشارع للمسلمين بنظافة الجسم وتطهيره المرة بعد المرة — اغتسالا ووضوءا — إنما السر الحقيق فيه التنبيه إلى تطهير النفوس من الرذائل ورديء الأخلاق ، وإلا فالمسلم الذى يبالغ فى تطهير ظاهره من الأدران وهو مهمل تطهير باطنه من خواطر السوء وفاسد الطباع ومساوى الأخلاق — لايكون فى عمله هذا مستحقا لرضا الله ولا مهتديا إلى حكم الإسلام وآدابه الرائعة التى كان متحليا بها النبى عليه الصلاة والسلام .

ومن حق النفس تنظيم الدخل والخرج :

---

(١) العَذِى : الطيب الموافق

إن حاجة الناس إلى الأقوات دعت كل واحد منهم إلى السعى فى اقتناء قوته من الوجه الذى ألهمه الله قصده ويسر له سبله . ولما كان الناس فى باب المعيشة صنفين :

صنفا مكفيا سعيه برزق هنىء جاءه من وراثة أو نحوها ،

وصنفا فى حاجة إلى الكسب — أُلهِمَ هذا الصنف طلب الأقوات بالتجارات والصناعات ،

وليس شىء أزين بالرجل من رزق واسع موافق منه استحقاقا ، فليطلب معيشته بصناعة على أعف الوجوه وأبعدها من الشره والحرص والطمع الفاحش والمأكل الخبيث ،

وليعلم أنَّ ربحًا حيزَ بالإثم والعار وقبح الأحدوثة أو بذل الوجه وثلم المروءة — زهيدٌ وإن عظم قدره ، نزر وإن غزرت مادته ، وبيلٌ وإن ظهرت هناءته ، وخيمٌ وإن كان فى مرآة العين مريا .

وإن الكسب الشريف وإن قل مقداره أو خف وزنه — أطيب مذاقا وأسلس مساغا وأنمى بركة وأزكى ريعا وأنبل .

وحقٌّ إنفاق المال أن ينفق بعضه فى الصدقات والزكاة والمعروف ، ويظل بعضه مستبقًى مدَّخراً لنوائب الدهر وأحداث الزمان :

فأما الصدقات فينبغى أن يكون إخراجها بطيب النفس بجَعْل ذلك خالصا لوجه الله ذى الجلال والإكرام ، فلا يستثمر له شكرا ولا يترصد له جزاء .

وللمعروف شرائط :

إحداها تعجيله ؛ فإن تعجيله أهنأ له ،

والثانية كتمانه ، فإن كتمانه أظهر له .

والثالثة تصغيره ؛ فإن تصغيره أكبر له .

والرابعة رَبُّهُ ومواصلته ؛ فإن قطعه ينسى أوله ويمحو أثره .

والخامسة اختيار موضعه ؛ فإن الصنيعة إذا لم توضع عند من يحسن احتمالها

ويؤدى شكرها وينشر محاسنها ويقابلها بالود والموالاة — كانت كالبذر الواقع فى الأرض السبخة التى لاتحفظ الحَب ولا تنبت الزرع .

ومن حق النفس تعرفه دخائلها وإصلاحها :

من أهم ما ينبغى أن يبدأ به الإنسان من أصناف السياسة — نفسه ؛ لأنها أقرب الأشياء إليه وأكرمها عليه وأولاها بعنايته ؛ ولأنه متى أحسن سياسة نفسه لَمْ يَعْىَ بمـا فوقها من سياسة غيره ،

ومما يجب على من رام سياسة نفسه أن يعلم أن له عقلا هو السائس ، ونفساً أمارةً بالسوء كثيرة المعايب جمة المساوى فى طبعها ، وأن يعلم أن كل من رام إصلاح فاسد لزمه أن يعرف ذلك الفساد وأسبابه معرفة استقصاء حتى لا يغادر منه شيئا ، ثم يأخذ فى إصلاحه وإلا كان مايصلحه غير حريز ولا وثيق ،

كذلك من رام سياسة نفسه ورياضتها وإصلاح فاسدها لم يجز له أن يبتدئ فى ذلك حتى يعرف جميع مساوى نفسه معرفة محيطة ؛ فإنه إن أغفل بعض تلك المساوى وهو يرى أنه قدعمها بالإصلاح كان كمن يداوى ظاهر الجرح وباطنُه مشتمل على الداء ،

ولما كانت معرفة الإنسان نفسه غير موثوق بها لما فى طباع الإنسان من الجهل بمساويه وكثرة مسامحته نفسه عند محاسبتها ، ولأن عقله غير خالص من ممازجة الهوى له عند نظره فى أحوال نفسه — كان غير مستغن فى البحث عن أحواله والفحص عن مساويه ومحاسنه عن معونة الأخ اللبيب الوَادّ الذى يكون منه بمنزلة المرآة تريه أحواله على ماهى عليه .

وأحق الناس بذلك وأحوجهم إليه الرؤساء فإن هؤلاء لما خرجوا عن سلطان التأنى — تركوا الاكتراث للسقطات وتعقب الهفوات بالندامات ، فاستمرت عادتهم على كثرة الاسترسال وقلة الاحتشام إلا قليلا منهم برعت عقولهم ورجحت أحلامهم ونفذت فى ضبط أنفسهم بصائرهم ، فحسنت سيرتهم واستقامت طريقتهم .

ومما زاد فى عظم بلائهم با كتتام عيوبهم عنهم أنهم هيبوا عن التعيير بالمعايب مواجهة وعن النقص والذم مشافهة ، وخيفوا فى إعلان الثلب والعضب والهمز واللمز بظهر الغيب ، فلما انقطع علم ذلك عنهم ظنوا أن المعايب تخطتهم والمثالب جاوزتهم فلم تُعَرِّج بخططهم ولم تعرس بأفنيتهم ، وليس كذلك حال من دونهم من الرَّعاع والسوقة

ومما زاد فى فساد حال الرؤساء ما أتيح لهم من قرناء السوء ، وقيض لهم من جلساء الشر الذين خاسوا (١) بعهدهم وراغوا فى صحبتهم وغشوهم فى عشرتهم بتركهم صدقَهم عن أنفسهم وتَنْبِيهَهُمْ عن عوراتهم ، وخدعوهم بالثناء الكاذب، واستدرجوهم باستصابة خطئهم إلى غير ذلك من سمات لؤم العشرة ودناءة الصحبة .

وينبغى لمن عُنِى بتعرف محاسن نفسه ومساويها أن يفحص عن أخلاق الناس ، ويتفقد شيمهم وخلائقهم ، ويتبصر مناقبهم ومثالبهم ، فيقيسها بما عنده منها ، ويعلم أنه مثلهم وأنهم أمثاله ؛ فإن الناس أشباه بل هم سواء كأسنان المشط :

فإذا رأى المنقبة الحسنة فليعلم أن فيه مثلها : إما ظاهرة وإما مغمورة :

فإذا كانت ظاهرة فليراعها وليواظب عليها حتى لا تبيد ولا تضمحل ، وإن كانت مغمورة فليثرها وليحيها وليحافظ على استدعائها ؛ فإنها تجيب بأهون سعى وأسرع وقت .

وإذا رأى المثلبة والعادة السيئة والخلق اللئيم فليعلم أن مثلها راهن لديه : إما باد ، وإما كامن :

فإن كان باديا فليقمعه وليقهره وليمته بقلة استعماله ونسيانه ،

وإن كان كامنا فليمنعه من الظهور

---

(١) خاسوا : نقضوا

وينبغى للإنسان أن يعد لنفسه ثواباً وعقاباً يسوسها به :

فإذا حسنت طاعتها وسلس انقيادها لما يسومها من قبول الفضائل وترك الرذائل ، وإن أتت بخلق كريم أو منقبة شريفة أثابها بإكثار حمدها وجلب السرور لها وتمكينها من بعض لذاتها المباحة ،

وإذا ساءت طاعتها ، وامتنع انقيادها وجمحت ، فلم يسلس عنانها ، وآثرت الرذائل على الفضائل وأتت بخلق لئيم أو فعل ذميم — عاقبها بإكثار ذمها ولومها ، وجلبَ عليها شدة الندامة ومنعها لذتها حتى تلين له .

ومن حق النفس ألا تغض منها :

نجد حين نتحدث عن حق نفس الإنسان عليه مثلا لا بأس من إيراده ؛ لأن لنظائره التى تدور على الألسنة كافة تأثيراً عظيما فى الآداب ، وكثيراً ما تكون علة لأكبر الشرور :

فمن الناس من يعمل أعمالا ضارة به فإذا ليم فما أسرع ما يجيب : « أنا لم أجنِ إلا على نفسى » : وهذا خطأ بين :

فإن هذه القاعدة وإن استساغها القانون الوضعى أحيانا — فإن قانون الأخلاق لا يستسيغها ؛ إذ عنايته بحماية الفرد لا تقل عن عنايته بحماية المجتمع ؛ لأنه جزء منه . ومحال أن يجنى الإنسان على نفسه ولا يجنى على غيره ؛ فيجب علينا إذن لِلهِ وللاجتماع ولأنفسنا أن نبذل من الجهد ما ينبغى لنؤدى ما خلق الإنسان له من العمل :

فالذى عنده شىء من الكفاية والاستعداد يجب أن يصونه وينميه لسعادة الإنسانية ورقيها ، ولنجل فى أنفسنا ما لها من عمل هى مكلفة إياه حقيرا كان أو عظيما ، ومن قوة منحناها لتأديته مهما كان مقدارها ، ولنتعلم كل ما شمله النظام ، ولنبدأ بإجلال أنفسنا لنتعلم الإجلال .

ويمكن أن نقسم حق أنفسنا علينا قسمين : إيجابياً وسلبياً : أى ننفع ولا نضر :

فالحقوق السلبية للإنسان على نفسه هى ألا يقتل نفسه ولا يغض منها ولا يمثل بها ،

والحقوق الإيجابية هى أن يحتفظ بها وينميها مع ما لها من ملكات .

لقد كان الرواقيون يعدون الانتحار فضيلة ويرون كل أنواع الشجاعة مجتمعة فى مقاومة أكبر الآلام بالانتحار وجهاً لوجه .

وجلى كما تقدم أن الانتحار لا يمحو العار ، لأن التاجر الذى ينتحر إذا ما أوشك أن يفلس فرارا من العار إنما يفر من إحساس العار لأن العار واقعٌ لامحالة

إن مَنْ ينتحر إنما يبذل حياة لا يملكها وكان عليه أن يفكر فى إصلاح ماأفسد

وهناك من ينتحرون ، لأنهم لم يستطيعوا إرضاء شهوة من شهواتهم فانتحارهم يدل على أن لهم نفساً عاجزة عن تدبير نفسها غير قوية ولا نبيلة ولا راضية .

وغير هؤلاء يتركون الحياة مللا وضجرا . هؤلاء هم أشد الناس جبناً .

إن الأسباب التى تمنع الإنسان من الانتحار تمنعه كذلك أن يغض من نفسه أو يمثل بها .

أراد الله أن نكون من بنى الإنسان فليس لنا أن ننزل إلى صف البهائم بإرادتنا ، إنما نغض من أنفسنا مختارين لأحد هذه الأسباب الثلاثة : الخمول ، والغلو فى اللذات ، والغلو فى الحذر :

نغض من أنفسنا بالخمول إذا تركنا ملكاتنا تهلك لعدم المرانة أو لعدم مداواة ما يلحق الجسم أو النفس من الأمراض ،

ونغض منها بالغلو فى اللذات إذا ما أفسدنا الحواس أو النفس بالترف .

ونغض منها بالغلو فى الحذر إذا ما قضينا على قوة من قوانا اتقاء أن تجلب مساءة إلى أنفسنا

فمهما يكن السبب الذى لأجله ينقص الإنسان من نفسه أو من قوته فهو جريمة

أمام العقل .

وينبغى أن يكون لدينا من الشدة على من يأتيه بمقدار ما لدينا منها على الجندى الذى يشوه جسمه ليفر من خدمة الجيش .

أما الحق الإيجابى على الإنسان لنفسه فاحتفاظه بها وبملكاتها مع تنمية الملكات بالتربية والمرانة ، وهو مبنى على المبادئ التى بنيت عليها الحقوق السلبية التى سبق الكلام فيها .

وللنفس على الإنسان حقوق أخرى منها :

(١) الإخلاص فى العمل وبذل الجهد فيه :

الإخلاص فى العمل يكون بتفرغ المرء له وإعطائه كل فكره وعقله وعدم ادخار شىء من الجهد فى إتقانه ، يقوده إلى ذلك ضميره الحى ويسوقه الحرص على إرضاء الله والذمة والشرف ، ومتى قام كل إنسان بعمله خير قيام تقدمت الصناعة والتجارة وانتشر العلم وازدهرت الحضارة وارتقت البلاد ،

وهذه الأمم الأوروبية التى نالت الرقى بفضل المخلصين من أبنائها خير مثال يحتذى .

(٢) محبة العمل والثبات فيه والمثابرة عليه :

محبة العمل تدعو إلى الإقبال عليه والسرور بمزاولته والاستهانة بالمتاعب التى تخالطه واستسهال كل صعب فى سبيل أدائه ، والثبات فيه يذلل الصعب منه ويزيل العقبات التى تعترضه فيتحقق نجاحه .

والمثابرة على العمل تسهل طرقه وتبين خفاياه وتوصل إلى الغاية منه : « ثابر على العمل : فإن كان لك ذكاء فالمثابرة تقويه ، وإن لم يكن عندك تلك الموهبة فالمثابرة تقوم مقامها »

فعلينا أن نرغب فى العمل ونثبت فيه ونثابر عليه ، لنجنى ثماره ونحيا حياة طيبة.

حق الحاكم على المحكوم

حقوق الإنسان إما مدنية وإما سياسية :

فالمدنية هى التى تتعلق بحياة الإنسان الخاصة ومنافعه الذاتية ، وعلاقاته بغيره من الأفراد . وتنحصر فى حق التبنى والتملك ، والوقف والهبة والوصية والبيع والشراء وما إلى ذلك .

أما الحقوق السياسية فتشمل الحقوق التى تتصل بالجماعة السياسية ، مثل حق التوظف المدنى والعسكرى وحق الانتخاب والتصويت . والأفراد ملزمون رعاية نظام الحكومة وقوانينها ؛ لأن من المستحيل أن تتحقق الأغراض النبيلة التى خلقت الحكومات لها ، مالم يقم كل فرد باحترام قوانينها ومدها بالمال اللازم لعمل المشروعات النافعة ، والتطوع لحماية الأمة وتأدية واجب التصويت فى انتخاب أعضاء المجالس على أتم وجه .

أما طاعة الحكومة فيجب على الأفراد أداء الضرائب ؛ لأن الحكومة فى القيام بشئون الدولة فى الخارج والداخل محتاجة إلى المال والأفراد يؤدون المال بحق انتفاعهم بأعمالها وخدماتها ، بمدارسها ومستشفياتها وغير ذلك

ويجب عليهم القيام بالخدمة العسكرية وفق النظم المتبعة ؛ حتى يكون للأمة من جنودها حماة بواسل يصدون عنها غارة العدو ، ويدافعون عنها عند الحاجة . وللخدمة العسكرية ذاتها واجبات كثيرة أولها الشجاعة ثم طاعة الرؤساء ، والتزام الترتيب والنظام لأنه روح الجندية ، وما صرامة أوامر الجندية إلا لكى تستقيم أحوال الجنود وينتظم شأنهم ، وفى هذا تحقيق لمنافع الوطن .

ولقد تقسم الواجبات العسكرية قسمين : ما يطلب منها وقت الحرب ، وما يطلب حين السلم : ففى وقت الحرب يجب على الجندى أن يقدر مهمه قبل كل شىء ، وأن يعتبر الاستشهاد فى سبيل الوطن أعظم شرف وأدعى إلى الخلود ، وأن الفرار من ساحة الوغى خيانة للوطن ، والخيانة أكبر جريمة . أما فى زمن السلم فللجندية واجباتها من تأدية التمارين والجهاد فى سبيل الكمال ؛ استعدادا لما عساه قد يطرأ على الوطن من طوارىء وحتى يكون للوطن دائما ذخيرته الحية . وإن فى ادخار العدة من الجند والسلاح ، وتهيئتها للدفاع عن الأمة حين تدور

رحى الحرب ـ لأكبر الدواعي إلى اطمئنان الأفراد فى عملهم ، واحترام الأمم الأخرى للامة المتأهبة ، وحذرهم منها .

وهنا نذكر مع الأسف الشديد أننا معشر المصريين لايزال بعض منا يجهل قيمة الخدمة العسكرية وشرفها العظيم ؛ إذ من ينخرطون منهم فى سلك العسكرية يؤخذون على كره منهم ومن ذويهم ، ويشيعون بالصراخ واللطم ، كأنما هم ذاهبون إلى الموت ، مع أن النظام العسكرى فى مصر ليس أشق من غيره ، والذى يشاهد فرح الشبان المنتظمين فى سلك العسكرية فى البلاد الأوروبية وغبطة أسرهم يحزن على أمتنا المسكينة التى يذهب الشبان للتمرين استعداداً للدفاع عنها فى حزن وكآبة .

ويجب على الأفراد التصويت ، وهذا معناه فى النظم (الديموقراطية) اشتراك الأفراد فى إدارة شئون بلادهم اشتراكا فعليا غير مباشر ، ومع أن نظام التصويت عندنا لم يستقر بعد ، فمن المستحسن أن نذكر آدابه وواجباته :

اتفق فلاسفة الحقوق العامة والأخلاق فى هذا العصر على أن أكمل سلطة هى ما استندت على إرادة الشعوب ، وهذا يتم بطريق إقامة المجالس النيابية بالانتخاب ، فتقوم الأمة كلها ممثلة فى نوابها بوضع القوانين والإشراف على السلطة التنفيذية ، والقضائية .

ولقد جعل الانتخاب فى كل البلدان الراقية من حق كل الطبقات ، بشروطه وقيوده من الجنسية والإقامة ، وبلوغ سن الرشد الخ ، كما جعل حق العضوية فى هذه المجالس مقيدا بشروط هى فى صالح الأمم حتى لا يتصدر للزعامة فيها والنيابة عنها إلا كل نزيه كفىء . وبالرغم من أن كل إنسان مطلق الحرية فى اختيار من يحب ، فمن الواجب الاجتماعى على كل إنسان أن يرعى مصلحة الوطن باختيار أفضل المرشحين ، وهذا مبدأ حق الطعن فى الانتخاب ، وفى ذلك يقول بعض الكتاب ما معناه : إن حق الانتخاب إذا كان ملكا للشعب ، فله إذن الحق المطلق أن يتخذ الوسائل ليجرى مجراه الطبعى .

وكل فرد حائز لشروط الانتخاب مكلف أن يقيد اسمه فى جداول الانتخاب وألا يمتنع عن إعطاء صوته كسلا أو عدم اكتراث ، فالإنسان مسئول خلقياً وأدبياً واجتماعياً إذا امتنع عن الانتخاب ، أو إذا رشح من ليس له كفاية لمثل هذه المهام القومية الخطيرة .

ومن حق الحاكم على المحكوم إطاعة القوانين والإخلاص للمصلحة العامة. لايذهب عنك أن القوانين التى تسنها سلطة التشريع تجرى على جميع الناس بدرجة سواء لافرق بين كبيرهم وصغيرهم وغنيهم وفقيرهم لهذا كان حقاً على جميعهم أن يقدسوها ويجلوها ويعملوا جاهدين على إنفاذ أحكامها وطلب الغاية المقصودة من إصدارها .

وبدهى أنه إذا لم يعبأ الأهلون بالقوانين ولم تطب نفوسهم بالخضوع لأحكامها حلت الفوضى محل النظام واختلت أسباب الحياة وانطوت كلمة الحق وانتشر الظلم والعسف ورجع الأمر كله للقوى ينزل الضعفاء على ما يهوى ويشاء .

أما إذا أخذ الناس أنفسهم بإجلال القوانين ونزلوا على أحكامها فقد حفظت الحقوق وعصمت الحريات حتى إذا اطمأنت قلوب الناس على أنفسهم وأموالهم انصرفت هممهم إلى ما يجدى عليهم من علم يفيدونه وفن يحذقونه وأموال يحصلونها وصناعات يبرعون فيها وغير ذلك من أسباب سعادتهم ورفاهيتهم ومن وراء ذلك كله قوة الوطن وعظمته .

والقوانين متعددة تصدرها السلطة التشريعية كلما بعثت الحال على سنها وأعظم القوانين شأناً وأجلها خطراً القانون النظامى أو الدستور الذى عين ما للأفراد من الحقوق وما عليهم من الواجبات والذى حدد علاقة الحاكم بالمحكوم .

وهناك أيضاً القوانين المدنية التى بسط المشرع فيها الأحكام التى تجرى على معاملات الناس بعضهم لبعض ، والقوانين الجنائية التى أوضح فيها أنواع الجرائم وما قدر لها من مختلف العقوبات .

وإن الواجبات الوطنية لتقضى عليك بمعاونة أهل الحل والعقد فيما يضطلعون به من توطيد دعائم السكينة والأمن فى البلاد ، فإذا رأيت مجرما فاراً من وجه العدالة أسرعت إلى القبض عليه أو هديت أولى الأمر إلى مثواه فلا ينجو مما يستحقه من العقاب . وإذا انتهى إليك أمر حادثة جنائية بادرت إلى إخبار الشرط بأمرها حتى يسرعوا إلى التحقيق واستظهار الأدلة على المجرمين وسوقهم إلى القضاء يقتص منهم بما جنت أيديهم .

وحق عليك أن تؤدى الشهادة بالصدق والأمانة ، فإن كتمان الشهادة معصية والكذب فى أدائها جريمة ، لأنك بذلك تضلل القضاء بما ينتهى إلى إفلات المجرم ، وأخذ البرىء أشد من أن يترك المجرمون يعتدون على أنفس الناس ، ويبغون على أعراضهم وأموالهم ، فلا يجدون من يأخذهم ، ولا من يدل رجال الحفظ عليهم ، ولا من يشهد بالحق فيما يعلمه من أمرهم ، ولا من يدفعهم إلى ساحة القضاء ، لينفذ حكم القانون فيهم . وكيف تكفل مع ذلك حريات الناس ؟ وكيف تصان حقوقهم ؟

وهنالك أحكام أخرى كثيرة حتم على الأهلين أن يقوموا بها صوناً للمصلحة العامة وإلا عوقبوا على مخالفتها : كقيد المواليد والوفيات ، وتطعيم المولودين ، والإخبار عن بعض الأمراض المعدية ، والامتناع عن نقل المصابين بهذه الأمراض من منزل إلى آخر ، وكالاشتراك فى خفر جسور النيل أيام الفيضان ، وكالمعاونة على إبادة الجراد ، وكتبليغ ظهور دودة القطن ، والمساعدة على إبادة بيضها وغير ذلك .

ويجب على أبناء الوطن فوق طاعة القوانين الإخلاص للمصلحة العامة وصرف الجهد إلى تحقيقها وإيثارها على المصلحة الخاصة وبهذا يتم تكافل الأهلين فى خدمة الوطن .

ولا يغيب عنك ما يترتب على هذا من جليل الآثار فى إعظام شأن البلاد

وإسعاد أهلها من القائمين وذرياتهم وأحفادهم المستقبلين ، وليكن شعار الجميع « الوطن فوق الجميع »

وجهة الاسلام في حق الحاكم والمحكوم

وأوجب الإسلام على المحكومين الطاعة لولاة أمورهم . وأشهر النصوص الدينية فى ذلك قوله تعالى : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ) : والمراد بإطاعة الله والرسول إطاعة أوامرهما : فكأن الآية تقول : أطيعوا الشرائع السماوية ، وأطيعوا الحكومة التى تنفذ تلك الشرائع : وقال صلى الله عليه وسلم : (عَلَيْكَ السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ فِى عُسْرِكَ وَيُسْرِكَ وَمَنْشَطِكَ وَمَكْرَهِكَ وَأَثَرَةٍ عَلَيْكَ) :

قوله (منشطك ومكرهك) قريب فى معناه من قوله (عسرك ويسرك) ، وقوله (أثرةٍ عليك) : أى أن يؤثر الحاكم نفسه ، ويفضلها عليك ببعض المنافع والفوائد . وقد نهى الشرع الاسلامى الحكام عن الأثرة كما جاء فى حديث (الوبرة) التى تناولها الشارع صلى الله عليه وآله وسلم من جنب البعير إذ قال :

« مَا أَنَا بِأَحَقَّ بِهَذِهِ الْوَبَرَةِ مِنْ رَجُلٍ مِنْكُمْ » فإذا كان صاحب الشريعة لم يجوز لنفسه الاستئثار على الأمة بهذا القدر التافه من حطام الدنيا فكيف يُجَوَّزُ ذلك لغيره ؟

وإذا آثر الحاكم نفسه وتلاعب بمصالح الأمة وجب نصحه والأخذ بحجزه عن التمادى فى عمله، فإذا لم يتيسر للأمة ذلك فالاسلام يأمر بالصبر عليه ويحذر من نبذ طاعته ، لا حباً فى سواد عينيه ، ولا رضاً بمخالفته لأوامر الله ورسوله ولا إرادة أن تكون الأمة ذليلة حقيرة ، كيف والاسلام يجعل لها كل الحق فى العزة والأنفة ، بل اتقاء النزاع وتفرق الكلمة وضياع الوطن

بجملته وانتظار الفرصة لتقويمه : انظر قوله عليه الصلاة والسلام :

« الْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ وَالفُرْقَةُ عَذَابٌ » وقال « مَنْ فَرَّقَ فَلَيْسَ مِنَّا »،

« يَدُ اللهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ ،وَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذِّئْبُ مِنَ الغَنَمِ الْقَاصِيَةَ »،

« لَا تَخْتَلِفُوا فَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ اخْتَلَفُوا فَهَلَكُوا » ،

« اثْنَانِ خَيْرٌ مِنْ وَاحِدٍ ، وَثَلَاثَةٌ خَيْرٌ مِنَ اثْنَيْنِ ، وَأَرْبَعَةٌ خَيْرٌ مِنْ ثَلَاثَةٍ ، فَعَلَيْكُمْ بِالجَمَاعَةِ ، فَإِنَّ اللهَ لَنْ يَجْمَعَ أُمَّتِي إِلَّا عَلَى هُدًى » ،

« لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ ، لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ » ،

« المُؤْمِنُونَ كَرَجُلٍ وَاحِدٍ : إذا اشْتَكَى رأسُهُ اشْتَكَى كُلُّهُ وَإِنِ اشْتَكَى عَيْنُهُ اشْتَكَى كُلُّهُ » ،

« أفضَلُ الصَّدَقَةِ إصلَاحُ ذَاتِ البَيْنِ : وقال : « مَا عَمِلَ ابْنُ آدَمَ شَيْئًا أفضَلَ مِنْ إصْلَاحِ ذَاتِ البَيْنِ »

وإن الإسلام وإن أمر بإطاعة ذوى الأثرة كما فى الحديث السابق لكنه من جهة ثانية أمر بلزوم النصح لهم وإعلانهم أن طاعتهم إنما تجب على الأمة فيما كان حقا وعدلا : وقد قال صلى الله عليه وسلم فى ذلك:

(السَّمْعُ والطَّاعَةُ حَقٌّ عَلَى الْمَرْءِ فِيمَا أَحَبَّ أَوْ كَرِهَ مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ ، فإذَا أُمِرَ بِمَعصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ)

وقد أوضحنا أن السمع والطاعة للظلام من الحكام كان أمراً لازما فى القرون الخوالى خشية التعرض لصولتهم وبطشهم ، أما اليوم فإن الحكومات المتمدينة ورؤساءها قد أفسحوا مجالا أمام أبناء الأمة وسهلوا عليهم طرق انتقاد الحكام الظالمين أو الخائنين. وأعظم تلك الطرق مجالس النواب والصحف ، فهما الكفيلان بالتنقيب عن أولئك العمال الظالمين وهتك أسرارهم والكشف عن عوارهم.وجاء

فى الحديث الآخر قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

(إنَّما الطَّاعَةُ فِى المَعْرُوفِ) :

أى أن الطاعة للحكام إنما تكون فيما هو حق مأنوس بين الناس ، لافيما كان باطلا مستنكراً غريبا عن شرائعهم ومأثوراتهم ومواضعات اجتماعهم .

لاجرم أن المقصود بالنصح لولاة الأمور أن ننصح لهم إذا بدرت منهم بادرة سوء أو شر أو ضر بالأمة ، وأن ننصح فى العمل الذى يعهدون إلينا به : فلا نظلم فيه ، ولا نغش ولا نسيء الاستعمال . وكل ماورد من الأحاديث الصحيحة الشريفة فى الحض على النصح لولاة الأمور يحتمل المعنيين المذكورين ، وكلاهما من أكبر الواجبات المدنية وأعظم الفضائل الاجتماعية :

مثال ذلك أنه صلى الله عليه وآله وسلم عدد أموراً يرضاها للأمة وأموراً يكرهها لها : فمن الأمور التى يرضاها لها ما نبه إليه بقوله : (وَأَنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وَلاَّهُ اللهُ أَمْرَكُمْ) : أى أن تمحضوا النصح له فيما إذا زاغ عن طريق الحق ، أو أن تخلصوا فى العمل الذى وكل أمر القيام به إليكم : فلا تخونوا أو تسيئوا فيه .

ومثله قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

« السُّلْطَانُ ظِلُّ اللهِ فِى الأَرْضِ : فَمَنْ غَشَّهُ ضَلَّ وَمَنْ نَصَحَهُ اهْتَدَى)

نكرر القول بأن المراد بالسلطان فى النصوص الدينية صاحب السلطة والحكم ، فيدخل فيه الحكام على اختلاف درجاتهم . وقال صلى الله عليه وآله وسلم : (الدِّينُ النَّصِيحَةُ لِلهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ) : والمراد من النصيحة لله ولرسوله العمل بأوامرهما ، وأئمة المسلمين هم أمراؤهم وملوكهم ، (عامتهم) سوادهم وجمهورهم . فالتزام الحق مع هؤلاء والإخلاص لهم كلهم هو الدين : أى من أكبر أركان الدين ، لكنه جعله

نفس الدين زيادة فى الحض والترغيب

وقد قال عمر رضى الله عنه : « لاخير فيكم مالم تقولوا ، ولا خير فىَّ مالم أسمع » :

دل هذا القول من عمر على أكبر قاعدة فى الواجبات المدنية تجمع بين الحاكم والمحكوم: فهو يقول :

إنه لا يكون فينا معشر الأمة خير مالم تكن فينا جراءة على مصارحة الخليفة نفسه بالحق وتكليفه التمسك به إذا رأيناه زاغ عنه ، كما لا يكون نفسه فيه خير إذا عصانا ، ولم يذعن للذى أرشدناه إليه ودللناه عليه . وهذا نهاية فى حرية عمر وإنصافه من نفسه وإرشاده لولاة الأمور من بعده .

مايجب أن يكون فى النصيحة :

بيدأن النصيحة لا تجدى إلا باستيفائها شروطها من الصدق والاخلاص واللين فى القول والمحبة والتجرد عن شوائب الخشونة والبذاءة فى اللسان بالسباب والشتم مما تنفر منه الطباع السليمة .

وعلى المنصوح له أن يكون ممن راض نفسه على الاستماع والقبول لكلمة الحق من غير مشاحة ولا تعصب ، فتوجد إذ ذاك القابلية التامة لما بعد ذلك من التخلق بالأخلاق الحميدة والتحلى بحلى الآداب الصحيحة وإلا فما دام العناد فى قبول كلمة الحق مستولياً على القلب بجنود التعصب فمن المحال أن يرجى لدائه شفاء ولاندمال جرحه دواء ، ومهما بلغت الأنفس من الكمال شأوا كبيرا وحصلت من السعادة على درجة عظيمة فهى فى حاجة إلى النصح والارشاد :

وما ألطف ما قال بعض الأخيار فى هذا الموضوع :

الدعوة إلى الهدى بنور الله ورسوله من أهم الأعمال وأكبر الوظائف الدينية وتعليم الدين وبث أصله فى نفوس أهله فريضة لا يصح تركها والتقاعس عن أدائها بوجه من الوجوه .

ولا مجال للنزاع فى أن أحكم الوسائل وأقوم السبل لتربية الشعوب وترقية

الأمم هو قيام كبار الأخيار وقادة الأفكار بدعوتها للبحث فى أسرار الشرائع وفى مذاهب الحياة والنظر فى طبائع الكون وسنن العمران ، وأنه ينبغى على من يأنس من نفسه القدرة على أداء هذا الواجب الملى وبث روح اليقظة بين أفراد تلك الأمة أن يسعى لخير قومه سالكا سبيل الجراءة والإقدام والثبات ، فلا يسأم من تكرار الدعوة وموالاة الإرشاد إلى ما يتوسم البلوغ بسببه إلى الغاية المبتغاة من سبل التقدم ومناهج الترقى فقد قالوا :

(إن مقاليد القلوب بأيدى الخطباء وأزمة النفوس بأيدى الكتاب) وقال الصاحب بن عباد :

(إذا تكرر الكلام على السمع تقرر فى القلب)

وناهيك بالخطابة والكتابة اللتين يعدان من أهم دعائم العمران التى قام عليها بناء المجتمع الانسانى ، فإنك لا تجد جماعة تألفت أو دولة قامت أو دينا انتشر أو شرعا تقرر إلا على إحدى هاتين الدعامتين ، وعليهما معا ، فهما الأداة المؤثرة فى النفوس للاقتناع بالغرض الذى تحاول جذبها إليه بمؤثرات الترغيب والترهيب والزجر والحض والوعد والوعيد ونحو ذلك . وهكذا كان حال السلف من أئمتنا ومرشدينا ممن أوتوا سحر البيان وفصل الخطاب وبذلك جاء قوله تعالى: (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

من كلام علي في حق الحاكم على المحكوم

أما بعد فقد جعل الله لى عليكم حقا بولاية أمركم ، ولكم على من الحق مثل الذى لى عليكم ، فالحق أوسع الأشياء فى التواصف(١) وأضيقها فى التناصف ،(٢) لا يجرى لأحد إلا جرى عليه ، ولا يجرى عليه إلا جرى له ، ولو كان لأحد أن يجرى له ولا يجرى عليه لكان ذلك خالصا لله سبحانه دون خلقه

(١) للقول مجال واسع فى وصفه (٢) لا ينتصف المرء من نفسه كما ينتصف لها

لقدرته على عباده ولعدله فى كل ماجرت عليه صروف قضائه ، ولكن جعل حقه على العباد أن يطيعوه وجعل جزاءهم عليه مضاعفة الثواب تفضلا منه وتوسعا بما هو من المزيد أهله ، ثم جعل سبحانه من حقوقه حقوقا افترضها لبعض الناس على بعض ، فجعلها تتكافأ فى وجوهها ، ويوجب بعضها بعضا ، ولا يُسْتَوجَب بعضها إلا ببعض . وأعظم ما افترض سبحانه من تلك الحقوق حق الوالى على الرعية وحق الرعية على الوالى : فريضة فرضها الله سبحانه لكل على كل ، فجعلها نظاما لألفتهم وعزا لدينهم ؛ فليست تصلح الرعية إلا بصلاح الولاة ولا تصلح الولاة إلا باستقامة الرعية : فإذا أدت الرعية إلى الوالى حقه ، وأدى الوالى إليها حقها ـ عز الحق بينهم ، وقامت مناهج الدين ، واعتدلت معالم العدل ، وجرت على أذلالها (١) السنن ، فصلح بذلك الزمان ، وطُمِع فى بقاء الدولة ، ويئست مطامع الأعداء .

وإذا غلبت الرعية واليها ، وأجحف الوالى برعيته ـــ اختلفت هنالك الكلمة ، وظهرت معالم الجور ، وكثر الإدغال فى الدين وتركت محاج السنن ، فعمل بالهوى ، وعطلت الأحكام ، وكثرت علل النفوس ، فلا يُستوحش لعظيم حق عطل ولا لعظيم باطل فعل ؛ فهنالك تذل الأبرار وتعز الأشرار وتعظم تبعات الله عند العباد ، فعليكم بالتناصح فى ذلك وحسن التعاون عليه ؛ فليس أحد وإن اشتد على رضا الله حرصُه ، وطال فى العمل اجتهادُه ـــ ببالغ حقيقة ما الله أهله من الطاعة ، ولكن من واجب حقوق الله على العباد النصيحة بمبلغ جهدهم والتعاون على إقامة الحق بينهم ، وليس امرؤ وإن عظمت فى الحق منزلته وتقدمت فى الدين فضيلته بِفَوْق أن يعاون على ماحمله الله من حقه ، ولا امرؤ وإن صغرته النفوس واقتحمته العيون ـــ بدون أن يعين على ذلك أو يعان عليه .

(١) وجوهها ومحاجها وهو جمع ذِل

حق المحكوم على الحاكم

تمهيد :

أحق الناس وأولاهم بتأمل ما يجرى عليه تدبير العالم من الحكمة وحسن السياسة وإتقانها وإحكام التدبير — الحكام الذين جعل الله بأيديهم أزمة العباد، وملكهم تدبير البلاد ، واسترعاهم أمر البرية ، وفوض إليهم سياسة الرعية ، ثم الأمثل من الولاة الذين أعطوا قياد الأمم ، واستكفوا تدبير الأمصار والكور، ثم الذين يلونهم من أرباب النعم وسواس البطانة والخدم ، ثم الذين يلونهم من أرباب المنازل ومن إليهم الأمر والنهى .

ويحتاج أصغرهم شأنا وأخفهم ظهرا وأرقهم حالا وأضيقهم عطفا وأقلهم عددا من حسن السياسة والتدبير ، ومن كثرة التفكير والتقدير ، ومن قلة الإغفال والإهمال ، ومن الإنكار والتأنيب والتعنيف والتأديب والتعديل والتقويم — إلى جميع ما يحتاج إليه الملك الأعظم ، بل لو قال قائل : إن الذين يحتاج إليه هؤلاء من التيقظ والتنبه ومن التعرف والبحث والتنقير والفحص أو من استشعار الخوف والوجل ومجانبة الركون والطمأنينة والإشفاق من انفتاق الرتق واختلال السر أكثر — لو قال ذلك لأصاب مقالا ، لأن الفذ الذى لاظهير له والفرد الذى لا معاضد له — أحوج إلى حسن العناية من المستظهر بكفاية الكفاة ورفد الوزراء والأعوان

وصية أرسطو للإسكندر فى هذا المعنى

لما اشتدت علة الملك فيلفوس ، وتقرر الأمر للإسكندر ابنه قال :

ليس الآمر بالخير أسعد به من المطيع له ، ولا المعلم أقل انتفاعا بالعلم من المتعلم، ولا الناصح أولى بالمديح من المنصوح له حتى قبل النصح . وإن الله تعالى ذكره لم يرض لنفسه من الناس إلا بمثل مارضى لهم به منه ؛ فإنه أمرهم بالتراحم ورحمهم، وأمرهم بالتصادق وصدقهم وأمرهم بالجود وجاد عليهم وأمرهم بالعفو وعفا عنهم ، فليس يقبل منهم إلا مثل ما أعطاهم ، ولا يأذن لهم بغير ما أباح لهم ، فأعط من وليت أمره من رأفتك ورحمتك وعفوك ما ترغب فى مثله موقنا أنك إن أعطيت

ذلك راضيا أعطيته موفرا .

واعلم أنه لاشيء لك إلا ما نلت من جميل الذكر ورضوان الخالق ، وأنك إن وثقت به وقاك شر من دونه ، وإن وثقت بغيره لم تدفع عن نفسك ، ولم يدفع عنك دافع .

واعلم أنك غير مصلح رعيتك وأنت فاسد ، ولا مرشدهم وأنت غاو ، ولا هاديهم وأنت ضال ؛ فكيف يقدر الأعمى على أن يهدى ، والفقير على أن يغنى ، والذليل على أن يعز ! !

واعلم أنه ما أصلح المستصلح غيره إلا بصلاح نفسه ، ولا أفسد المفسد سواه إلا بفساد نفسه ، فإن رغبت فى إصلاح من وليت فابدأ بإصلاح نفسك ، وإن أردت رفع العيوب عن غيرك فطهر نفسك منها ، ولا يرينك رأيك أنك إذا أحسنت القول دون الفعل فقدوفيت البلاغ حقه ، فذلك لا يتم دون أن يصدق قولك فعلك ، وتحقق سريرتك علانيتك.

واعلم أنك مطبوع على أخلاق مختلفة منها حسنات ومنها سيئات ، فأعدى عدوك سيئات أخلاقك . وأولى الأشياء بك حسنات أخلاقك ، فقابل بعض أخلاقك ببعض : غضبك بحلمك ، وجهلك بعلمك ، ونسيانك وغفلتك بذكرك ونظرك ،

واعلم أنه ليس أحد أصلح للناس من أولى الأمر إذا صلحوا ولا أفسد لهم منهم إذا فسدوا ؛ وأن الوالى من الرعية مكان الروح من الجسد الذى لا حياة له إلا بها ، وبموضع الرأس من سائر الأعضاء ؛ فإنه لا بقاء لها إلا معه ، فبالوالى مع فضل منزلته من الحاجة إلى إصلاح الرعية مثل ما بالرعية من الحاجة إلى إصلاح الوالى ، وقوة بعضهم زيادة فى قوة بعض ، ووهن بعضهم سريع فى وهن بعض :

وقد قال أوميروس الشاعر :

إن الأئمة يصلحون المؤتمين بفضل قوتهم ، فأما الأئمة فلا يصلحهم مؤتم

واعلم أن الزهد يتم باليقين واليقين يحصل بالفكر فإذا فكرت فى الدنيا لم تجدها أهلا لأن تكرمها بهوان الآخرة ؛ لأن الدنيا دار بلاء :

وقد قال أوميروس الشاعر : كل ضد مخالف ضده ، ولا خير فى شىء يزول ،ويذهب.

اتهم نزغاتك السيئة ، فإنها إذا اتصلت بها حاجاتها من الدنيا كانت كالحطب للنار وكالماء للسمك ، وإذا عزلتها عنك وحلت بينها وبين ما تهوى انطفأت كانطفاء النار عند فقدان الحطب ، وهلكت هلاك السمك عند فقدان الماء

إذا طلبت الغنى فاطلبه بالقناعة؛فمن لم تكن له قناعةفليس المال بِمُغْنِيهِ وإن كثر . وقال أوميروس : لامال عند من ترك القناعة ، ولا خير فى المرء إذا لم يكن قنعا .

واعلم أن من علامة شغل الدنيا وكدر عيشها أنه لا يصلح منها جانب إلا بفساد الآخر : فلا سبيل لصاحبها إلى عز إلا بتذلل ، ولا إلى استغناء إلا بافتقار .

واعلم أن الدنيا ربما أصيبت بغير حزم فى الرأى ولا فضل فى الدين ، فإن أصبت حاجتك منها وأنت مخطىء أو أدبرت عنك وأنت مصيب — فلا يستخفنك ذلك إلى معاودة الخطأ ومجانبة الصواب . لا تضن على الناس بما ترغب فيه ، ولا تأتى إليهم بما تكره أن يؤتى إليك.

قاتل هواك ، واقصر رغبتك ، واكفف شهوتك ، واحلل الحقد من قلبك ، وطهر من الحسد نفسك ، واقبض إليك أملك ؛ فإن الأمل إذا بسطته أقسى قلبك وشغلك عن معادك ، وليكن مما تستعين به على إطفاء الغضب علمك بأن الزلل لايخلو منه أحد ، وبه وقع صاحبك ، ولعل عدوا لك حمله على ذلك . فإن أطعت هواك فى أخيك الذى آل على يديه الذنب إليك أشمت عدوك به ، فظاهرته على أخيك ، ومكنته من بغيته . فما أحقك يا إسكندر أن تغتاظ ممن

طاعتك له هلاكك ، ومعصيتك له سلامتك : وهو هواك .

ولعلك ياإسكندر ترى أن عقوبتك تنكيل بمعن الذنب أو زيادة فى الأدب فإن هممت بذلك فاصدق نفسك ، وفتش عن ضميرك وسريرتك دون ظاهرك وعلانيتك فانظر : أجميل الذكر تريد أم شفاء الغيظ ؟ :

فإن كنت تريد الانتقام للغضب فإن الغضب مر ، والمر لا يجنى ثمره حلوا.

وإن كنت تريد بعقوبتك إياه إصلاحه لك ولنفسه وجميل الذكر وأن تنزع ذلك الذنب فإنك بالغ بالحرمان والوعيد والجفاء وبعض ما يغنيك عن شدة الصولة وعظم العقوبة .

ولا ينبغى أن تستعمل سيفك فيمن تكتفى منه بالحبس ، ولا تسرع بالحبس إلى من تكتفى منه بالخوف والوعيد ؛ فإنه بحسب أخلاق المذنبين يجب أن تكون العقوبة وإن استوت الذنوب .

واعلم أنك متى فرطت منك عقوبة بغير حق فإن الذي أتيت إلى نفسك من ذلك أشد من الذى أتيت إلى المعاقب ؛ إذ لم تكن عاقبته بحق ولا الصلاح وحده قصدت ، فتأن فى أمرك ، واجهد أن لا تسلط سيفك وسوطك على من كان بريئا : و أن لا يسلم منك من كان لا يصلح إلا عليهما .

احذر الشهوات ، وليكن ما تستعين به على كفها عنك علمك بأنها مذهلة لعقلك ، مهجنة لرأيك ، شائنة لعرضك ، شاغلة لك عن عظيم أمرك ؛ لأنها لعب ، وإذا حضر اللعب غاب الجد ؛ ولا يقوم الدين والدنيا إلا بالجد ؛ فإن نازعتك نفسك فى الشهوات واللذات واللهو فإنها قد نزعت بك إلى شر منزلة وأدناها وأخسها وأسقطها ، وإن أرادت منك خلاف السنة فغالبها أشد المغالبة، وامتنع منها أشد الامتناع ، وليكن مرجعها منك إلى الحق ؛ فإنك متى تترك الحق فلست تتركه إلا إلى الباطل ، ومهما تترك الصواب فإنما تتركه إلى الخطأ ؛ فلا تداهن نفسك فى الهوى اليسير ، فتطمع منك فى الكثير ، ولا يرحبن ذرعك بمقارفة صغير من الخطأ ، فإن لكل عمل ضده . ومتى تعودت

نفسك القليل تقدك إلى الكثير.

لا تقض عمرك فى غير نفع ، ولا تضع لك مالا فى غير حق ، ولا تصرف لك قوة فى غير غناء ، ولا تمل برأيك إلى غير رشد ، وعليك بالحفظ لما أوتيت من ذلك بالجد فيه ، وبخاصة العمر الذى كل شيء مستفاد سواه .

فإن كان لا بد لك أن تشغل نفسك بلذة فلتكن فى منافسة العلماء وكتب الحكمة والفلسفة ؛ فإن أيسر سرورك بالشهوات قد يجمع لك عاجل العز ووخامة العاقبة فى حين أن الاشتغال بالحكمة يجمع لك بين السرور وحسن العاقبة . وإن أسعد الناس بهواه أدركهم للرشد منه ،

وإياك والفخر لعلمك بالذى منه كنت ومعرفتك بالذى إليه تصير ،

وإياك والكذب فإن الكذب لا يكون إلا من مهانة النفس وسخافة الرأى وجهالة بعواقب الأمور : وقد قال أوميروس : ليس شيء أدنى منزلة من الكذب ولا خير فى المرء الكذاب .

واعلم أن سرعة أئتلاف قلوب الأبرار حين يلتقون كسرعة اختلاط ماء المطر بالبحار ، وبعد الفجرة من الائتلاف وإن طالت معاشرتهم كبعد البهائم من التعاطف وإن طال اعتلافها على آرىٍّ واحد .

واعلم أن بصلاح الأعوان والوزراء يكون صلاح المال فكن فى صلاح المال معتمدا على صلاح الأعوان والوزراء ، وكن ذا عناية بهم ، واكتف بقليل منهم عن كثير ممن لا صلاح لهم ؛ فإن الجوهرة خفيفة المحمل ثقيلة الثمن ، والحجارة تفدح حاملها مع قلة غنائها ونزارة ثمنها .

ثم اجتهد فى ابتغاء صالح العمال ؛ فإن العامل من الملك بمنزلة السلاح من المقاتل ؛ فإذا قعد بالوالى عمال الصدق فقد نزل به ما ينزل بالمقاتل إذا بقى بغير سلاح .

وليكن رأس ما تعمل به أن تُعْلِم الناس أن معروفك لا يصل إليه أحد إلا بمعونتك على الحق ، وأن تشعر أهل الباطل والفساد بقدرتك على العقوبة الفادحة ؛

فإنك بذلك تكون ملكا وتعد حكيما .

وبعد فإنى لست آمن عليك الزلل فى الأمور بعد الاجتهاد ، وليس يثبت العذر إلا بعد الاجتهاد وفى تحرى الصواب ؛ فإذا اشتبكت بك الأمور وعميت عليك فليكن مفزعك فيها إلى العلماء ؛ فإن أدنى غايات الفعل الذى يصلح عليه أمر الوالى أن يكون عنده من الرأى ما يعلم به فضل العالم على الجاهل ومبلغ المصيبة إذا وردت عليه : وقد قال أفلاطون :

من ميز عقول العقلاء استبان الأمور مثل مايستبين بالمصابيح فى ظلمة الليل .

ولعل رأيك يؤديك إلى أن بعض الناس يزدريك لاقتباسك منهم أو يستخف بك عندهم ، فإن عرض هذا بقلبك فاطرحه أشد اطراح ؛ فإن الذى تسعد به من الأمور بالعلم وتفوز به من مخالفة أهل الجهل أفضل لك نفعا وأعظم خطراً من أن يعادله شيء سواه ، مع أن الناس فيك رجلان : عالم يزيدك عنده طلب العلم فضلا ، وجاهل لا وزن لرأيه.

واعلم أنه ليس أحد يخلو من عيب وفضيلة فلا يمنعك عيب رجل من الاستعانة به فيما هو عليه أقدر .

واعلم أن وجود أعوان السوء أضر عليك من فقد أعوان الصدق ،

واعلم أن العدل ميزان الله عز وجل فى أرضه ، وبه يؤخذ للضعيف من القوى وللمحق من المبطل ، فمن أزال ميزان الله عزوجل عما وضعه بين عباده فسدأمره، وضاع ملكه . واستعن على أمورك بخلتين : إحداهما تألف الأهواء ، والأخرى التثبت فى الأمور .

وإياك والتأخير لأمورك والتوانى عنها فيما يحدث منها ؛ فإنك إن فعلت ذلك كثرت عليك ، ثم لاتجد زمانا لمباشرتها أبدا ، وإياك أن تكلها إلى غيرك ؛ وإنما الأمور كلها أمران : صغير لا ينبغى أن تباشره ، وكبير ينبغى أن لا تكله إلى غيرك . ومتى باشرت صغار الأمور شغلتك عن كبارها ، وإن

وكانت كبارها إلى غيرك أضعت أكثر مما حفظت، وأفسدت أكثر مما أصلحت.

وأسأل الله عزوجل الذى اختار العدل لنفسه، وأمر بالقيام عليه واستعماله فى خلقه — أن يلهمك إياه ويجعلك من أهله والقوام به فى عباده وبلاده.

رأى شهاب الدين أحمد بن محمد بن أبى الربيع

فى كتابه سلوك المالك فى تدبير الممالك ماملخصه:

ينبغى للحاكم أن يكون عالما بالحكمة أو طالبا محبا لها: فقد سأل الإسكندر حكيما: من يصلح للملك؟ فقال له: إما ملك حكيم، وإما مالك ملتمس للحكمة،

وأن يودع قلوب رعيته آثار عدله وإحسانه: فقد قال حكيم: قلوب الرعية خزائن ملوكها، فما أودعت من خير أوشر فهو فيها.

وينبغى ألا يفرح إذا مدح بغير مافيه ولا يحزن إذا عيب بما ليس فيه، وألا يجزع مما لابد منه، ولا يأتى الأمر فى غير حينه، ويجب أن يحافظ على الشكر، ويحرص على الإحسان، وينبغى أن يكون جيد الحدس والتخمين، ولا يغيب عنه حال من أحواله، وأن يجعل الحق والعدل إمامه، ويمتثل ما يأمرانه به، وأن يقابل الخطأ من الناس بالصواب الذى فى جوهره.

وينبغى أن يقهر شهوته؛ فإن كان عبدها لا يستحق الملك، وألا يطلق لنفسه من الشهوات إلا ما كان جميلا.

وأن يكون بعيدا من الشر متوسطا بين شراسة الأخلاق ولينها، وألا يكون كسلا ولا بطىء الحركة ولا متغافلا، وألا يعرف أحدا مبيته ومنامه، وأن يكون شديد القوة عالما بالفروسية، وأن يكون حسن البزة مقبول الشكل، ولا يتكلف ما لا يضره تركه، وأن يتصفح فى ليله أعمال نهاره؛ فإن الليل أجمع للخاطر.

وخاصة الملك: إما سائسو المملكة كالوزير والكاتب والعامل؛ وإما سائسو بدن الملك كالطبيب وصاحب الطعام،

وإما ندماؤه وأصحاب خلوته ؛ فعليه فى جملتهم أن يرسل العيون عليهم سرا وجهرا ؛ ليعرف أخبارهم وأسرارهم ، وأن يرفق بهم ويحميهم كما يحمى نفسه ، ولا يؤاخذهم بتقصير لم يضر . ومن تأكدت حرمته منهم رفع منزلته ورعى حقه حاضرا وغائبا .

وينبغى ألا يقبل فيهم قول ساع إلا بعد التحقق والتثبت ، وأن يرعى مراتبهم ، ولا يقدم أحدا منهم إلا بقدر حاله لئلا يسخط الباقين ، ويجب أن يحسن إلى الطبيب إحسانا كثيراً ؛ فإنه أمينه على نفسه ؛ وأن يتخير جلساءه وندماءه من أعقل الناس وأعلمهم ، ويقوم بمصالحهم أتم قيام لينتفع بهم فى خلوته .

وعليه أن يجتهد فى استمالة قلوب الرعية إليه وجعل طاعتهم رغبة لا رهبة ، وألا يغفل عن البحث عنهم بلطيف الحيل حتى يقف على أسرارهم وأن يجعل محبتهم له اعتقادا دينيا لا طمعا فى أعراض الدنيا ، وأن يعرف أكثر أخلاق رعيته ليؤهل كلاً لما يصلح له من الولايات ، وأن يعرف أخبار مجاوريه من الملوك ، وأن يشحن ثغوره بالرجال ، وأن يتعهد جنده بجوائزهم ، ولا يحوجهم إلى رفع قضية أو شكوى ، وأن يسمع قول القائل والمقول فيه ثم يعاقب الباغى ، وأن يتفقد عمارات بلاده وأسعار أهلها وأحوال أقواتهم ، وألا يخلى الرعية من وعد ووعيد ورجاء وخوف ، وأن يكون آثر الأشياء عنده بسط الخير للناس وتعميمهم بفضله ، وألا يجمع المحسن والمسىء فى منزلة واحدة لئلا يزهد أهل الإحسان فى إحسانهم .

وليحسم أسباب التنازع ولا يسهل لهم التحرز لأنه يشتت الكلمة ، وأن يثنيهم عن اعتقاد برياسته ليرجع الأمر بأسره إليه ، وأن يعمم سياسته سائر أهل مملكته ، ولا يعاقب على الذنب الصغير ويعفو عن الكبير .

وينبغى أن يعلم حال العدو فى كل ساعة ، ولا يغفل عن أمره ، وأن يكتم أخباره عن عدوه بكل وسيلة تمكنه ، ويسترها عمن يخاف سريرته ؛ وأن يبذل المال العظيم فى مخادعة العدو ، وألا يثق بمستأمن جهة العدو إلا بعد خبرة تامة بحاله

و بصفاء نيته . وإذا قوى عدوه واستظهر فالصواب أن يستكثر ويلقاه بنفسه بعد إحكام أمره ، وإن كان دونه فليخرج إليه من يثق بيأسه وشجاعته ونجدته ، وأن يجعل فى مقدمة عسكره من الأمور المزعجة مايذهل أصحاب العدو ، وأن يحتال فى إيقاع العذاب بهم ، وأن يجعل على كل عدة معلومة من عسكره رئيسا من شجعانهم ومجربيهم ، وأن يتخذ كمينا ، ولا يهمل خبره ، ويحذر مع ذلك كمين الأعداء ، ولا يستصغر عدوه ، بل يقابله بما يقابل الأمر العظيم .

وأن يجعل المحاربة آخر حيلة ، فإن النفقة فيها من النفوس والأموال وفى غيرها من المال فقط ، فإن أفادت الحيلة ربح ماله وحقن دماء جيشه ، وإن أعيت حارب بعد ذلك .

وإذا تمكن من العدو فلينادِ فى الناس بنشر العدل والأمان من القتل ، وأن يقسم الغنائم على أصحابه ويرضيهم بقدر الإمكان ، ويقدم من يجب تقدمه ، وأن يتتبع بعد ذلك الأراجيف حتى تنتهى إلى منتهاها فيعاقب مخترعها ،

وينبغى أن يحذر ويجتنب ستة أشياء :

---

١ ـ ألا يستوزر غير كاف ؛ لأن من استوزر غير كاف خاطر بملكه .
٢ ـ ألا يستشير غير أمين ؛ لأن من استشار غير أمين أعان على هلكته .
٣ ـ ألا يسر إلى غير ثقة ؛ لأن من أسر إلى غير ثقة ضيع سره .
٤ ـ ألا يستعين بغير مستقل ؛ لأن من استعان بغير مستقل أفسد أمره .
٥ ـ ألا يضيع عاقلا ؛ لأن من ضيع عاقلا دل على ضعف عقله .
٦ ـ ألا يصطنع جاهلا ؛ لأن من اصطنع جاهلا أعرب عن فرط جهله .

لمعة من حقوق المحكوم على الحاكم

فى رأي الإمام على كرم الله وجهه

ا ـــ من كتاب له إلى الأشعث بن قيس عامل أذربيجان :

وإن عملك ليس لك بطعمة ، ولكنه فى عنقك أمانة، أنت مسترعى لمن فوقك .

ليس لك أن تفتات فى رعيـة ، ولا تخاطر إلا بوثيقة ، وفى يديك مال من مال الله عز وجـل ، وأنت من خزانه ؛ حتى تسلمه إلىّ . ولعـلى أن لا أكون شر ولاتك لك والسلام .

ب — من كتاب له إلى بعض عماله :

أما بعد فإن دهاقين أهل بلدك شـكوا منك غلظة وقسوة واحتقارا وجفوة، ونظرت فلم أرهم أهلا لأن يُدنوا لشركهـم ولا أن يُقصوا ويُجفوا لعهدهم ؛ فالبس لهم جلبابا من اللـين تشوبه بطرف من الشـدة ،وداول لهـم بين القسوة والرأفة ، وامزج لهم بين التقريب والإدناء والإبعاد والإقصاء إن شاء الله .

جـ قال له العلاء : يا أمير المؤمنين ، أشكو إليك أخى عاصم بن زياد . قال: وماله ؟ قال : لبس العباءة ، وتخلى من الدنيا . قال: على به . فلما جاء قال :

ياعُدَىّ نفسه ، لقد استهام بك الخبيث ، أما رحمت أهلك وولدك ، أترى الله أحل لك الطيبات وهو يكره أن تأخذها ؟ أنت أهون على الله من ذلك .

قال : يا أمير المؤمنين ، هذا أنت فى خشونة ملبسك وجشوبة مأكلك .

قال :

ويحك إنى لست كأنت ، إن الله فرض على أئمة العدل أن يُقدروا أنفسهم بضعفة الناس كيلا يتبيغ بالفقير فقرُه

د — من كلام له كرم الله وجهه :

وقد علمتم أنه لا ينبغى أن يكون الوالى على الفروج والدماء والمغانم والأحكام وإمام المسلمين البخيـل ، فتـكون فى أموالهم نهمته ، ولا الجاهل فيضلهم بجهله ، ولا الجافى فيقطعهم بجفائه ولا الحائف للدول فيتخذ قوما دون قوم ، ولا المرتشى فى الحكم فيذهب بالحقوق ويقف بها دون المقاطع ، ولا المعطل للسنة فيهلك الأمة .

هـ ومن كتاب له كرم الله وجهه إلى زياد بن أبيه :

فدع الإسراف مقتصدا ، واذكر فى اليوم غدا ، وأمسك من المال بقدر ضرورتك ، وقدم الفضل ليوم حاجتك ؛ أترجو أن يعطيك الله أجر المتواضعين وأنت عنده من المتكبرين ؟ وتطمع وأنت متمرغ فى النعيم تمنعه الضعيف والأرملة أن يوجب لك ثواب المتصدقين ؟ وإنما المرء مجزى بما أسلف ، وقادم على ما قدم ، والسلام .

و ــ ومن كتاب له إلى أمرائه على الجيوش :

من عبد الله على أمير المؤمنين إلى أصحاب المسالح :

أما بعد فإن حقا على الوالى أن لا يغيره على رعيته فضل ناله ولا طَوْل خُصّ به ، وأن يزيده ما قسم الله له من نعمه دُنُوًّا من عباده وعطفا على إخوانه .

ألا وإن لكم عندى أن لا أحتجز دونكم سرا إلا فى حرب ، ولا أطوىَ دونكم أمرا إلا فى حكم ، ولا أؤخر لكم حقا عن محله ، ولا أقف به دون مقطعه ، وأن تكونوا عندى فى الحق سواء ، فإذا فعلت ذلك وَجَبَتْ لله عليكم النعمة ولى عليكم الطاعة ، وأن لا تنكصوا عن دعوة ، ولا تفرطوا فى صلاح ، وأن تخوضوا الغمرات إلى الحق ؛ فإن أنتم لم تستقيموا على ذلك لم يكن أحد أهون على ممن اعوج منكم ، ثم أُعظِم له العقوبة ، ولا يجد عندى فيها رخصة ، فخذوا هذا من أمرائكم ، وأعطوهم من أنفسكم ما يُصلح الله به أمركم .

ز ــ الحاكم الحق من يبغض الإطراء :

من كلام له رضى الله عنه :

إن من أسخف حالات الولاة عند صالح الناس أن يُظَن بهم حب الفخر ، ويوضع أمرهم على الكبر ، وقد كرهت أن يكون جال فى ظنكم أنى أحب الإطراء واستماع الثناء ، ولست بحمد الله كذلك ، ولو كنت أحب أن يقال ذلك لتركته إعظاما لله سبحانه عن تناول ما هو أحق به من العظمة والكبرياء ، وربما استحلى الناس الثناء بعد البلاء ، فلا تثنوا على بجميل ثناء لإخراجى نفسى إلى الله ، وإليكم من التّقِية فى حقوق لم أفرغ من أدائها وفرائض لا بد

من إمضائها ، فلا تكلمونى بما تُكلم به الجبابرة ، ولا تتحفظوا منى بما يتحفظ به عند أهل البادرة ، ولا تخالطونى بالمصانعة ، ولا تظنوا بى استثقالا فى حق قيل لى ولا التماسَ إعظام لنفسى ؛ فإنه من استثقل الحق أن يقال له أو العدل أن يعرض عليه كان العمل بهما أثقل عليه ؛ فلا تكفوا عن مقالة بحق أو مشورة بعدل ؛ فإنى لست فى نفسى بفوقِ أن أخطئ ولا آمن ذلك من فعلى إلا أن يكفى الله من نفسى ما هو أملك به منى ؛ فإنما أنا وأنتم عبيد مملوكون لربٍ لا ربَّ غيره ، يملك منا مالا نملك من أنفسنا ، وأخرجنا مما كنا فيه إلى ما صلَحنا عليه ، فأبدلنا بعد الضلالة بالهدى ، وأعطانا البصيرة بعد العمى .

ح – كيف يجعل الحاكم من نفسه قدوة نافعة :

ومن كلام له رضى الله عنه إلى عثمان بن حنيف الأنصارى عامله على البصرة :

ألا وإن لكل مأموم إماما يقتدى به ويستضىء بنور علمه ، ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطِمْرَيْه ، ومن طُعمه بقرصيه ، ألا وإنكم لاتقدرون على ذلك ، ولكن أعينونى بورع واجتهاد وعفة وسداد ؛ فوالله ما كنزت من دنياكم تبرا ، ولا ادخرت من غنائمها وفرا ، ولا أعددت لبالى ثوبى طمرا . بلى . كانت فى أيدينا فَدَكٌ من كل ما أظلته السماء ، فشحت عليها نفوس قوم وسخت عنها نفوس قوم آخرين ، ونعم الحكم الله ، وما أصنع بفدكٍ وغير فدكٍ ، والنفس مظانها فى غدٍ جدث تنقطع فى ظلمته آثارها ، وتغيب أخبارها ، وحفرة لو زيد فى فسحتها وأوسعت يدا حافرها لأضغطها الحجر والمدر ، وسد فرجها التراب المتراكم ، وإنما هى نفسى أروضها بالتقوى لتأتى آمنة يوم الخوف الأكبر ، وتثبت على جوانب المَزلق ، ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مُصَفَّى هذا العسل ولباب هذا القمح ونسائج هذا القز . ولكن هيهات أن يغلبنى هواى ، ويقودنى جشعى إلى تخير الأطعمة ، ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له فى القرص ولا عهد له بالشبع ؛ أو أبيت مبطانا وحولى بطون غَرْثَى ، وأكباد

حرى؟ أو أكون كما قال القائل :

وحسبك داء أن تبيت ببطنة وحولك أكباد تحن إلى القدّ

أأقنع من نفسى بأن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم فى مكاره الدهر ، أو أكون أسوة لهم فى جشوبة العيش؟ فما خلقت ليشغلنى أكل الطيبات كالبهيمة المربوطة همها علفها ، أو المرسلة شغلها تقممها ، تكترش من أعلافها وتلهو عما يراد بها ، أو أترك سدى وأهمل عابثا أو أجرّ حبلَ الضلالة أو أعتسف طريق المتاهة؟ وكأنى بقائلكم يقول : إذا كان هذا قوت ابن أبى طالب — فقد قعد به الضعف عن قتال الأقران ومنازلة الشجعان ، ألا وإن الشجرة البرية أصلب عودا والروائع الخضرة أرق جلودا والنباتات البدوية أقوى وقودا وأبطأ خمودا ، وأنا من رسول الله كالصنو من الصنو والذراع من العضد.

إليك عنى يا دنيا ، فحبلك على غاربك ، قد انسللت من مخالبك ، وأفلت من حبائلك ، واجتنبت الذهاب فى مداحضك، أين القوم الذين غررتهم بمداعبك؟ أين الأمم الذين فتنتهم بزخارفك؟ ها هم رهائن القبور ومضامين اللحود . والله لو كنت شخصا مرئيا وقالبا حسيا لأقمت عليك حدود الله فى عباد غررتهم بالأمانى وألقيتهم فى المهاوى وملوكٍ أسلمتهم إلى التلف وأوردتهم موارد البلاء إذ لا ورد ولا صدر . هيهات من وطئ دحضك زلق ، ومن ركب لججك غرق ، ومن ازور عن حبالك وفق والسالم منك لا يبالى إن ضاق به مناخه ، والدنيا عنده كيوم حان انسلاخه اعزبى عنى فوالله لا أذل لك فتستذلينى ولا أسلس لك فتقودينى ، وايم الله يمينا أستثنى فيها بمشيئة الله لأروضن نفسى رياضة تهش معها إلى القرص إذا قدرت عليه مطعوما وتقنع بالملح مأدوما ، ولأدعن مقلتى كعين ماء نضب معينها مستفرغة دموعها. أتمتلئ السائمة من رعيها فتبرك ، وتشبع الربيضة من عشبها فتربض، ويأكل على من زاده فيهجع؟ قرت إذا عينه إذا اقتدى بعد السنين المتطاولة بالبهيمة الهاملة والسائمة المرعية .

طوبى لنفس أدت إلى ربها فرضها وعركت بجنبها بؤسها وهجرت فى الليل غمضها

حتى إذا غلب الكرى عليها افترشت أرضها وتوسدت كفها فى معشر أسهر عيونهم خوف معادهم ، وتجافت عن مضاجعهم جنوبهم ، وهمهمت بذكر ربهم شفاههم ، وتقشعت بطول استغفارهم ذنوبهم : (أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

أيها الناس ، إن لى عليكم حقا ولكم علينا حق :

فأما حقكم على فالنصيحة لكم ، وتوفير فيئكم عليكم وتعليمكم كيلا تجهلوا وتأديبكم كيما تعلّموا ،

وأما حقى عليكم فالوفاء بالبيعة ، والنصيحة فى المشهد والمغيب، والإجابة حين أدعوكم ، والطاعة حين آمركم

الحكومة الصالحة

وعلاقة الحاكمين بالمحكومين

يقصد بالحكومة هنا الحكومة الدستورية ؛ لأن الحكومة المستبدة لاحق للأفراد معها إلا الطاعة العمياء غير الصادرة عن إرادة ورغبة ؛ فذكر حقوق الأفراد أو واجباتهم فى ظل الاستبداد ليس إلا لغوا لافائدة منه .

وأول ما يبدو أمام الباحث فى هذا العصر ذلك التكافل العجيب بين الفرد والمجتمع ، وهو المبدأ الذى يجب أن يبنى عليه أساس الأعمال العامة ؛ فلكل فئة حق على الأخرى وعليها واجب نحوها ، وفى هذا نوع من التعاون الصادق .

وتقوم الحكومة الصالحة بجلب الراحة العامة للأفراد ، ودرء العوادى والشرور عنهم ؛ وأهم واجباتها المحافظة على الأمن العام باتخاذ الوسائل الفعالة لصد غارات المعتدين من الخارج ، وإيجاد نظام إدارى حازم يكفل للشعب الأمن والراحة . وتقريرُ الأمن ليس معناه الضغط على حرية الأفراد ، كما أن حرية الأفراد ليس معناها الإخلال بالأمن بحجة الحرية ، وعلى هذه الحكومة أن تقوم بالأعمال العامة النافعة التى تساعد على تقدم الشعب ورقيه . وهذه

الأعمال إما أن تكون مادية ، وإما أن تكون أدبية : فالأولى تنحصر فى إنشاء المنافع العامة التى تنهض بالزراعة والصناعة والتجارة كأعمال الإرواء العظيم ، وإنشاء السكك الحديدية والزراعية وسبل الملاحة ، واستغلال الثروة القومية استغلالا مفيدا .

وأما الأعمال الأدبية فتنحصر فى تعليم الأمة وتثقيف عقول الأفراد ، وليس واجب الحكومة مقصورا على إنشاء المدارس ، وإنما يتعدى إلى مراقبة التعليم الأهلى وتشجيعه ، وعدم حرمان الفقراء نعمة العلم لأنهم أبناء الوطن ، وإنشاء دور الكتب للمطالعة والتثقيف ، ومساعدة العلماء والمخترعين والكاشفين .

وإن كانت واجبات الحكومة كثيرة كما ذكر فمن الجهل أن نتوهم أن عليها القيام بكل شيء ، لأن هذا يخالف مبدأ التقدم فى الأفراد ، ويميت فيهم روح الاستقلال الذاتى .

ويقوم التشريع على طريقة منظمة ، فإذا رأت إحدى مصالح الحكومة أن الحاجة ماسة إلى سن لائحة جديدة أو تغيير قانون فى مصلحة الأمة — كان عليها أن تبعث برأيها فى صيغة واضحة إلى الجهة الوزارية ، وهذه ترسله إلى المجالس النيابية بعد أن تبحثه مباشرة أو بوساطة لجنة فنية خاصة ، وفى المجالس النيابية يأخذ الاقتراح مجراه من البحث ، وحظه الختامى بالقبول أو الرفض أو التهذيب قبل أن يوقع عليه الملك أو الرئيس الأعلى ، ثم تباشر السلطة التنفيذية بعد هذا كله تنفيذ القانون .

فنرى من هذا أن السلطة الاشتراعية فى يد الأمة ممثلة فى نوابها ، ويوضح لنا ذلك ضرورة اختيار أنزه الرجال وأقدرهم لمثل هذه المهام السامية، ومع أن أمر الاشتراع وتقرير الضرائب وسن اللوائح فى يد الأمة فعلى الطبقة الحاكمة العاملة ألا تراقب فى عملها إلا مصلحة الأمة وروح النظام والعدل ، ولهذا اشترط أن يكون رجل الاشتراع عالما خبيرا وطنيا نزيها

أما السلطة التنفيذية فتباشرها الحكومة تحت رقابة السلطة الاشتراعية ، ولهذه

السلطة حقوقها وواجباتها ، وينبغي أن تقوم بعملها خير قيام مع النشاط والاستقامة ،

وظيفة الحكومة

للحكومة الحق فى تنفيذ واجباتها بالقوة وباسم القانون

وأعضاء السلطة التنفيذية هم الوزراء وموظفو الإدارة عموما ورجال النيابة ، والقضاء والضبط ، وهؤلاء جميعا يمثلون السلطة التنفيذية ، وعليهم أن يحترموا القوانين واللوائح ، وأن يؤدوا أعمالهم بإخلاص ونشاط ونزاهة .

وإن من يرى احترام الأفراد لأوامر الشرط فى البلاد الغربية يأسف أشد الأسف حين يرى استخفاف بعض الناس بأوامر الحكومة في بلادنا

وموقف الحكومة من أفراد الشعب كوقف الوصى الحازم الأمين ؛ فليس لها أن تحيد عن الصراط السوى مراعاة لمصلحة ذاتية ، أو انقيادا للأهواء الحزبية ؛ ولتذكر دائما قول أفلاطون : « يجب الإخلاص لمصالح أبناء الوطن إخلاصا تنسى معه المصالح الذاتية نفسها » وقول شيشرون : « ينبغى النظر إلى مطالب كل أبناء الأمة بعين واحدة » ، فلا يعضد حزب دون حزب لمجرد الهوى ؛ لأن الطبقة الحاكمة كالوصى الذى يجب عليه رعاية مصلحة كل القاصرين بالعدل والمساواة ، فالذين يسعون فى تأييد فريق من الشعب وإهمال غيره يدخلون في البلاد شر الآفات من الشغب والشقاق »

ومن كل هذا نفهم معنى القول المأثور : « الحكومة فوق الأحزاب »

ثم إنه كلما كانت وظيفة الحاكم أكبر وسلطته أوسع وجب عليه معرفة حقوق كل فرد متمسكا بالعزم الثابت فى أن يكون عادلا للجميع شديد الرغبة فى الوقوف على آمال الشعب وآلامه .

وأهم ما يجب فى الحاكم وفى كل موظف الدقة واليقظة واحترام النظم والقوانين ، واستخدام الذكاء وحرية العقل والاستقلال الشخصى حتى لا تؤثر

فيه الأغراض والمنافسات الحزبية ، وخير للموظف أن يكتسب ثقة الجمهور وثناءه من أن يرضى رؤساءه ومبادئ حزبه فيما لا فائدة للوطن فيه ،

ويجب أن يختار للوظائف العامة أكفاء أبناء الشعب وأكملهم أخلاقا ، دون التفات إلى الوساطة والمحسوبية،ويتسنى للأمة ذلك بوضع قواعد عادلة فى التوظيف والترقية وتقرير المكافآت الوقتية لمن يمتاز منهم بإخلاصه ونشاطه وتدبير أمر المعاش عند الانتهاء من الخدمة على أحكم القواعد وأعدلها. ولا يفوتنا الإلماع إلى واجبات السلطة القضائية التى تفصل بين الناس فى منازعاتهم :

فالقاضى هو حارس الشرائع والمؤتمن على الآداب والعدالة ، وإليه مرجع قصاص الجناة وعقاب الأشرار والأخذ بيد المظلومين ؛ إحقاقا للحق ، وإزهاقا للباطل .

ولا يقتصر مهم القاضى على الفصل بين الأفراد فقط ، وإنما ينظر كذلك فى الدعاوى التى تقوم بين الأفراد والحكومة فى الشئون الخاصة والعامة .

ولما كان القاضى هو المؤتمن على العدل وعلى حقوق الناس كان من الواجب أن يختار لهذا المنصب أنبل الناس خلقا وأطهرهم نفسا وأذكاهم عقلا ضمانا للعدل والمساواة .

ويشترط فى القاضى كذلك أن يكون متضلعا من العلوم القانونية خبيرا بنظمها وروحها ، وأن يعتمد فى أحكامه على الحجج والبراهين ، وأن يكون ذا بصيرة نافذة واسع التجارب محبا للعدل والاستقلال ، وعليه ألا يذكر وهو فى كرسى القضاء صاحبا ولا قريبا ولا موصى به ، بل يكون جميع الناس أمامه سواء ، يحكم بينهم بالعدل ، غير خائف من حاكم ، أو متهيب من عظيم ، أو متطلع لفائدة ، أو حريص على مركزه أو متأثر بميول حزبية : ليكن دائما رجلا نزيها بعيدا عن المضاربات وآثام الشهوات ؛ حتى يطمئن الناس إليه ويتحقق العدل فى أحكامه .

ومما يزيد الحكومة الصالحة صلاحا أن يتنزل الأفراد عن حقوقهم فى

تقرير العدل لأنفسهم بأنفسهم ، وترك أمر القصاص والانتقام للطبقة الحاكمة وقضائها العادل ، ضمانا للنظام والعدالة . على أن التحكيم وتقرير الصلح بين المتخاصمين بغير التجاء إلى الدوائر الرسمية أمر جائز فى حدود العدل والنظام ، أما القصاص الجنائى فلا سبيل لتركه فى أيدى الأفراد .

والنظام الجنائى الحديث خال من الطرق الوحشية والتشفى الفاسد ، ولا يقصد به إلا المصلحة العامة والتهذيب الخلق ، فالأحكام الجنائية الرادعة وجدت لإيجاد الرهبة واحترام القوانين ، وحقوق الأفراد ، والسجون أصبحت فى بعض البلدان دورا للتهذيب لا جحيما للعذاب .

وبهذا النظام القضائى صار الفرد محميا بالقانون ، وانتفت فظائع التمثيل الجنائى وأهوال التعذيب التى لوثت التاريخ ، ولهذا كله صار كل نظام جنائى يشذ عن الأغراض النبيلة ـ مهما كانت أحواله وظروفه ودواعيه ـ خارجا على العدل ونوعا من التوحش الذى تتبرأ منه العدالة والإنسانية والنظام .

نظر الإسلام إلى الحكومة

قد يظن أكثر شباننا ومتعلمينا أن أول من نادى بالديمقراطية هى أوربة الحديثة ، وأن أول من صاح بالمساواة بين الطبقات وحقوق الإنسان هى الثورة الفرنسية ؛ ولكن كل ذلك خطأ ، فإن الديمقراطية كانت أقوى الأسس الكثيرة التى ارتكز عليها الإسلام ، ولم يكن الإسلام مقلدا أمة من أمم الأرض الديمقراطية :

كانت الفرس والرومان والمصريون دولا أرستقراطية ترتكز كلها على سلطة الفرد وتعج بالأشراف أصحاب الامتيازات ، وكانت الشعوب من هذه الأمم عبيدا للسادة منها ؛ حتى إن العرب أنفسهم قبل الإسلام كانوا أشد الأمم أرستقراطية . وكانت قريش على جدبها وعزلتها تعير الأمم الأخرى بالعجمة ، وتحسب كل الناس عبيدا لها ، وكان النعمان بن المنذر على خصاصته فى الملك يأبى أن يزوج

ابنته من كسرى . وقد كلفه هذا الإباء نفسه التى لفظها تحت أرجل فيلة كسرى ؛ فكان عجيا حقا أن يبرز النبى صلوات الله عليه مناديا بالمساواة بين الطبقات ، وأحسب أن هذا السبب وحده هو الذى ألبّ عليه شرفاء قريش ، فتآمروا على قتله غير مرة : خشى شرفاء قريش أن محمدا عليه الصلاة والسلام يرفع العبيد والضعفاء والمساكين إلى مصافهم فكادوا له ؛ لأنه جاء بالحق والدمقراطية التى هى نظام الكون الطبعى ، وكان شعاره صلوات الله عليه : «ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى » . وكانت قريش ترى غير ذلك : ترى أن للمال والجاه والنسب حقوقا على العامة ، ولذلك غضبوا من الرسول وعدوا هذا النظام بدعة فى أنديتهم الأرستقراطية ، ولم يكن النبي ليخالف ذلك النظام الذى أمره الله به بعد أن نزل قوله تعالى : « عَبَسَ وَتَوَلَّى »:وسبب ذلك أن ابن أم مكتوم واسمه عمرو بن قيس ، وكان فقيرا أعمى — جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم ومعه صناديد قريش ،وطلب إليه أن يعلمه مما علمه الله ، وكرر ذلك وهو لا يعلم تشاغل المصطفى بالقوم ، فكره الرسول قطعه لكلامه فظهرت الكراهة فى وجهه وأعرض عنه ، فنزلت هذه السورة وفيها يذكر الله نبيه الكريم فى صورة عتاب بأن ضعف ذلك الأعمى وفقره لا يصح أن يوجبا الإعراض ، لأنه حى القلب ذكى الفؤاد.

فأنت ترى أن الله قد أخذ النبى بالمساواة بين الطبقات فى المعاملات ، وليس للرجل أن يبز قرنه إلا بالتقوى وهو أمر هين لا يقوم على مال ولا جاه ولا نسب،

ولو قرأت عامة شعر العرب فى الجاهلية لرأيت هذا الفخر بالآباء فاشيا فيه ؟ فقد كان شُغل القوم . وأحسب أن أفخم شعر للعرب كان فى الفخر . وقد أخذ النبى أصحابه بالكف عن الفخر أشد الأخذ : روى أنه اجتمع فى مجلسه يوما عبد الرحمن بن عوف وهو من أعز رجاله وأكرمهم عنده وعبد من عامة الناس ، وكان يخاصم عبد الرحمن فى شىء ، فغضب عبد الرحمن وسب العبد قائلا : يابن السوداء ، فغضب النبى أشد الغضب ورفع يده قائلا : « لَيْسَ لِابْنِ بَيْضَاءَ عَلَى

ابْنِ سَوْدَاءَ سُلْطَانٌ إلاَّ بِالْحَقّ » ، فاستخذى عبد الرحمن وخجل ورأى أن يعتذر للعبد أوضح اعتذار للنفس وآلمه، فوضع خده على الأرض وأهاب بالعبد أنْ طَأْ عليه حتى ترضى .

فأنت ترى أن هؤلاء الأشراف كانوا يظلمون أنفسهم مع الطبقات الضعيفة ؛ لئلا تأخذهم خُلجَة شك أنهم أقوياء أغنياء وأنهم يظلمون من دونهم

وحدث أيضا أن على بن أبى طالب تخاصم فى مجلس عمر مع رجل يهودى فقال عمر : اجلس يا أبا الحسن ، فرأى عمر فى وجهه على الغضب . فقال : أكرهت أن يخاصمك رجل يهودى ؟ فقال :

لا ، يا أمير المؤمنين ، ولكنى كرهت تفضيلك لى على خصمى بأن كنيتنى .

وكان النبى إذا خرج على قوم من أصحابه جلوسا ينهاهم عن القيام له والتحفى به

وإذا تصفحت القرآن رأيته يحض على التساوى فى المعاملات ومحو الفارق بين جميع الناس ، وأنهم جميعا متساوون فى الحقوق المدنية والدينية ، وأن ليس للمرء إلا ماسعى ، ولعل أكره الناس للأرستقراطية والأرستقراطيين من رجالات الاسلام هو عمر بن الخطاب ؛ فقد كان يستخرجه من هذه الامتيازات التى كان يدعيها الأشراف :

وقف ببابه يوما رجال من المسلمين بينهم أبو سفيان بن حرب وهو أعرق قريش نسبا وأشدهم تعاظما وأحماهم أنفا ، وبلال الحبشى ، وهو رجل عبد كان لأبى بكر وأعتقه لاسلامه، وصهيب الرومى وهو رجل رومى دخل فى الاسلام وتقدم فيه ، وسلمان الفارسى وهو أعجمى دان بالاسلام وله فيه مآثر ، واستأذنوا على عمر فخرج الاذن (لبلال) ثم لصهيب ثم لسلمان وأبو سفيان واقف ، ثم أذن عمر لغيرهم ثم لأبى سفيان: فدخل غاضبا من تقديمهم عليه فى الاذن ، فنهره عمر ، وقال : تقدموك فى الاسلام فلا جرم أن يتقدموك فى الاذن .

وكان الأمر فى الإسلام شورى والشورى لُبّ الدمقراطية وأصلها ، وكان النبى صلوات الله عليه لا ينفرد بالرأى وهو المؤيد من الله ، بل كان يطرح الأمور بين يدى أصحابه ويشاورهم فيها ولا يكبر عليه أن ينزل عند رأى أحدهم :

حدث أنه كان فى غزوة بدر وقد تهيأ للقتال ، ووقف للعدو موقفا لا تقره فنون الحرب ، فتعرض له أحد صحابته ، وقال : أهذا منزل أنزلكه الله أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟

فأجابه : بل هو الرأى والحرب والمكيدة ، فأشار عليه صاحبه بتعديل موقفه فقبل وتابعه .

وقد درج خلفاؤه الراشدون على سنته ، حتى إن عمر لما وجه جيشه لمحاربة الفرس أراد أن يقود الجيش بنفسه ، فاستشار فى ذلك ، فأشار بعض أصحابه برأيه وخالفه بعضهم فمال إلى الرأى الذى يقول بقعوده عن الذهاب ، لأنه رآه أصوب وأحكم .

ولم تزل روح الديمقراطية فى الإسلام قوية حتى فى أشد أيام حكم الفرد :

اختصم المأمون مع رجل بين يدى يحيى بن أكثم القاضى ودخل المأمون إلى مجلس يحيى وخلفه خادم يحمل طنفسة لجلوس الخليفة فرفض يحيى ذلك وقال للمأمون : ياأمير المؤمنين ، لا تأخذ على صاحبك شرف المجلس دونه . فاستحيا المأمون ، ودعا للرجل بطنفسة مثله . فانظر رحمك الله كيف أن القاضى الذى هو عامل الخليفة الذى بيده عزله وحرمانه لم يمنعه ذلك عن أن يلفت نظر المأمون إلى روح الديمقراطية أمام القانون .

هذه الروح التى رأيتها فى هذه القصة لم تجرؤ أوربة الحديثة أن تقرها فى دساتيرها بل جعلت الملوك فوق القانون وأن ذواتهم لا تمس ، ولعل الدمقراطية كانت من أهم الأسباب التى ساعدت عمرو بن العاص فى فتح مصر : فقد ذكر أن المقوقس صاحب مصر أرسل إلى عمرو رسولا فخالط الجيش فلم يجد سيدا ولا

مسودا ، بل الكل سواسية ، فرجع وأخبر المقوقس بذلك ، وكان فطنا على علم كبير بأخلاق الأمم ، فنصح لقومه أن يصالحوهم ، فصالحوهم ، ودخل العرب مصر .

وقد ظل الإسلام قويا متينا فى ظلال الدمقراطية ، وقد افتتح البلاد الفارسية ومصر والشام وإفريقية ، وكان أنى سار يترك بين هذه الشعوب دمقراطية : فكان للذمى كما للمسلم كل الحقوق المدنية والدينية لا ينازع فيهما إلا بالحق . وقد أخذ خلفاؤه الذين تشربوا روحه أنفسهم بالدمقراطية الصحيحة فى ظل القانون ، ولعله سيبهرك ما أرويه لك عن هذا العدل المطلق الذى لا يبارى فى الدمقراطية :

حدث أن أحد أعيان الفرس وكان ذميا وكانت له ضيعة تلاصق ملكا لأمير كان واليا لعمر بن الخطاب ، فرأى هذا الأمير أن يغتصب من هذا الدهقان ضيعته ، فشكى إليه ذلك فزجره ، وأهانه ، فأشارت عليه زوجه أن يستعدى عليه عمر ، ففعل ، وارتحل إلى المدينة ، وسأل عن بيت عمر ، فأرشد إليه ، فإذا عمر جالس على عباءة ممزقة ، فشكا إليه الدّهقان ما لقيه من عامله ، فطلب عمر صحيفة ، وكتب فيها بعض الشىء ، وأراد خيطا ليلفها به ، فلم يقدر عليه ، فمزق قطعة من عباءته ، ولف بها الصحيفة ، وناولها الرجل ، فأخذها وارتحل إلى بلده ، وأبدى أسفه إلى زوجه ؛ لأنه ذهب إلى رجل لا يقدر على خيط يشد به صحيفته فكيف يستطيع أن يلزم الأمير أمره ؟ فقالت زوجته : وما عليك ! احمل الصحيفة إليه . فحملها ، فلما فضها الأمير وقرأها تصبب عرقا وقال للدهقان : ماذا فعلت ؟ خذ الضيعة . وهنا يحدث الدهقان فيقول : قرأت الصحيفة فإذا فيها : أنصف فلانا الدهقان من نفسك وإلا فأقبل والسلام .

هذا طرف موجز من روح الحكم فى الإسلام ومن شاء المزيد فليقرأ تاريخه المجيد .

المثل الخلقي للحكومة الصالحة

هى الحكومة التى تتألف بحزمها وعدلها الأهواء المختلفة ، وتجتمع بهيبتها القلوب المتفرقة ، وتنقمع من خوفها النفوس المتعادية؛ لأن فى طباع الناس من حب المغالبة على ما آثروه والقهر لمن عاندوه مالا ينكفون عنه إلا بمانع قوى ، ورادع تنفيذى ، وأنواع الرادع أربعة :

العقل الزاجر ، والدين الحاجر ، والحاكم الرادع ، والعجز الصادّ . ورهبة الحاكم أبلغها وأشدها زجرا ، وأقواها ردعا: فقد جاء فى الحديث الشريف: «إنَّ اللهَ لَيَزَعُ بِالسُّلْطَانِ أَكْثَرَ مِمَّا يَزَعُ بِالْقُرْآنِ »

وقال بعض البلغاء : « الحاكم فى نفسه إمام متبوع وفى سيرته دين مشروع؛ فإن ظلم لم يعدل أحد فى حكم، وإن عدل لم يجسر أحد على ظلم »

الحاكم هو الذى يحرس الدين ، ويحث على العمل به من غير إهمال له ، ويدفع الأهواء عنه ، ويحفظه من التبديل فيه ، ويزجر من شذ عنه بارتداد أو بَغَى فيه بعناد ، أو سعى فيه بفساد .

وهو الذى يذب عن الأمة عدُوًّا فى دينها ، أو معتديا على أموالها وأرضها وأنفسها

وهو الذى يعمر البلدان باعتماد مصالحها وتهذيب سبلها ومسالكها ،

وهو الذى يُجرى فى أموالها جباية وإنفاقا على سنن الشريعة العادلة ،

وهو الذى ينظر فى مظالم أهلها ، ويسوى فى الحكومة بينهم ، ويعتمد النصفة فى فصل أحكامهم .

وهو الذى يقيم الحدود على مستحقيها من غير تجاوز فيها ، ولا تقصير عنها ،

وهو الذى يختار أعوانه ورجاله من أهل الكفاية فيها والأمانة عليها .

من استقل بهذه الشئون حقا من الحكام فهو مستوجب لطاعة رعيته ومناصحتهم ، مستحق لصدق ميلهم ومحبتهم ، ومن قصر عنها ولم يقم بحقها وواجبها

كان بها مؤاخذا ، وعليها معاقبا ، ثم هو من الرعية على استبطان معصية ومقت ، يتربصون الفرص لإظهارها ، ويتوقعون الدوائر لإعلانها :

روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خَيْرُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ وَشَرُّ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ » وهذا صحيح ؛ لأن الإمام أو الحاكم إذا كان ذا خير أحب رعيته وأحبوه ، وإذا كان ذا شر أبغض رعيته وأبغضوه . وقد كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه : « إن الله تعالى إذا أحب عبدا حببه إلى خلقه : فاعرف منزلتك من الله تعالى بمنزلتك من الناس »

وسبب هذا أن خشية الله تبعث على طاعته فى خلقه ، وطاعته فى خلقه تبعث على محبته ؛ فلذلك كانت محبتهم دليلا على خيره وخشيته ، وبغضهم دليلا على شره وقلة مراقبته

وروى أن عمر بن الخطاب قال لأبى مريم السلولى — وكان هو الذى قتل أخاه زيد بن الخطاب — : «والله إنى لا أحبك حتى تحب الأرض الدم» قال : أفيمنعنى ذلك حقا ؟ » قال : « لا » قال : فلاضير ؛ إنما يأسى على الحب النساء »

عهد الإمام على

إلى مالك بن الحارث الأشتر النخعى

هو أحفل كتاب فيما يجب على الحاكم من حيث سياسة الحكم وتصريف أمور الرعية للوصول بها إلى أوفى غاية من الحياتين المادية والأدبية

وقد حوى هذا العهد ضروبا من السياسة الحكيمة لم تبلغها بعد أرقى الأمم حضارة واشتراعا

وقد آثرنا أن نقدم للمطلع بين يدى هذا العهد عناصر تنم عن جليل موضوعه ، وتهدى إلى عظيم خطره ، وإنا لموردوها فيما يلى :

١ ـ السعادة فى العمل بكتاب الله والشقاء فى الخروج منه
٢ ـ لا يصلح لحكم الناس إلا من قهر الشهوات
٣ ـ مقياس الحكم ألسنة المحكومين
٤ ـ ليس الحاكم سبعا ضاريا وإنما هو مظهر الرحمة والمحبة
٥ ـ الله يذل من ساماه فى عظمته وتشبه به فى جبروته
٦ ـ من ظلم العباد خاصمه الله وسلبه الملك
٧ ـ عامة الأمة هم عمادها وعدتها والخاصة أثقل مؤنة وأقل معونة
٨ ـ أحق الرعية بالبعد أطلبهم لمعايب الناس
٩ ـ واجب على الحاكم أن يعمل على أن يطهر قلوب الأمة من الحقد عليه
١٠ ـ خير الوزراء أقولهم للحق وأبعدهم عن تحسين الظلم
١١ ـ الإحسان إلى الرعية يزيدهم نشاطا وإقبالا على العمل
١٢ ـ لا يصح نقض شىء مما اتفق عليه صدور الأمة
١٣ ـ لكل طبقة من طبقات الأمة حق على واليها
١٤ ـ أنبل صفات رجال الجيش النزاهة والنجدة والشجاعة
١٥ ـ إذا استقام العدل فى البلاد سلمت صدور الرعية وأخلصوا النصيحة لحكامهم وأحبوا طول مدتهم
١٦ ـ خير الموظفين من لا تشرف نفسه على طمع ولا يزدهيه إطراء
١٧ ـ السخاء على الموظف يعينه على التعفف
١٨ ـ المحاباة فى إسناد الوظائف تؤدى إلى الجور والخيانة
١٩ ـ من طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد
٢٠ ـ حرص الحكام على جمع المال سوء ظن منهم بالبقاء ومؤد إلى إعواز الأمة وإفلاسها
٢١ ـ تجب العناية الكبرى بالتجار وذوى الصناعات ومراقبتهم
٢٢ ـ أحوج الرعية إلى الإنصاف الطبقة السفلى وعامة الأمة

٢٣ ـ الرفق بالرعية يحل عقدة لسانهم .

٢٤ ـ وجوب إنجاز الأعمال فى حينها

٢٥ ـ احتجاب الحكام عن الرعية يؤدى إلى الجهل بأحوالهم فيتشابه الحق بالباطل

٢٦ ـ إذا ظنت الرعية بالحاكم حيفا وجب عليه إطلاعهم على الواقع رياضة منه لنفسه وتقويما لهم على الحق

٢٧ ـ إجماع الناس على تعظيم الوفاء بالعهود

٢٨ ـ اجتناب الإبهام ولحن القول فى المعاهدات والمعاقدات

٢٩ ـ سفك الدماء بغير حق شرعى يوهن الملك ويزيله

٣٠ ـ المن على الرعية يمسخ الإحسان ، والتزيد يذهب بنور الحق ، وخلف الوعد يوجب المقت

٣١ ـ لاحق للحاكم أن يطمع فى أكثر مماله من الحقوق العامة

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أمر به عبد الله على أمير المؤمنين — مالك بن الحارث الأشتر فى عهده إليه حين ولاه مصر : جبايةَ خراجها ، وجهادَ عدوها ، واستصلاحَ أهلها، وعمارة بلادها :

أمره بتقوى الله وإيثار طاعته ، واتباع ما أمر به فى كتابه من فرائضه وسننه التى لا يَسْعد أحدٌ إلا باتباعها ، ولا يَشقى إلا من جحودها وإضاعتها ، وأن ينصر الله سبحانه بيده وقلبه ولسانه ؛ فإنه جلَّ اسمه قد تَكَفَّل بنصر من نصره وإعزاز من أعزه .

وأمره أن يَكْسِر من نفسه عن الشهوات . ويَزَعَها (١) عند الجمحات(٢) ؛ فإن النفس أمارة بالسوء إلا ما رحم الله .

(١) يكفها (٢) الجمحات : منازعة النفس إلى شهواتها

ثم اعلم يا مالك أني قد وجهتك إلى بلاد قد جرَتْ عليها دول قبلك من عدْلٍ وجَور ، وأن الناس ينظرون من أمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاة قبلك ، ويقولون فيك ما كنت تقوله فيهم ؛ وإنما يُستدل على الصالحين بما يجرى الله لهم على ألسن عباده ؛ فليكن أحبَّ الذخائر إليك ذخيرةُ العمل الصالح : فامْلِك هواك ، (١) وشُحَّ بنفسك عما لا يحل لك ، فإن الشح بالنفس الإنصافُ منها فيما (٢) أحبت أو كرهت (٣)، وأشعر (٤) قلبك الرحمة للرعية ، والمحبة لهم ، واللطف بهم . ولا تَكُونَنَّ عليهم سبُعا ضاريا تغتنم أكلهم ؛ فإنهم صنفان : إما أخ لك في الدين، وإما نظير لك في الخلق ؛ يفْرِط (٥) منهم الزلل، وتعرض لهم العلل ، ويؤتى (٦) على أيديهم في العمد والخطأ ؛ فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب وترضى أن يعطيك الله من عفوه وصفحه ؛ فإنك فوقهم ، ووالى الأمر عليك فوقك ، والله فوق من ولاك ؛ وقد استكفاك (٧) أمرهم ، وابتلاك بهم .

ولا تنصبن نفسك لحرب (٨) الله ؛ فإنه لا يدى (٩) لك بنقمته ، ولا غنى بك عن عفوه ورحمته . ولا تندمن على عفوٍ ، ولا تبْجَحَنَّ (١٠) بعقوبة ، ولا تُسرعن إلى بادرة (١١) وجدت منها مندوحة، (١٢) ولا تقولن إني مؤمَّرٌ آمر فأطاع ؛ فإن ذلك إدغال (١٣) في القلب ، ومَنْهَكَةٌ (١٤) للدين ، وتقرب من الغِير (١٥) . وإذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطانك أبهة أو مخيلة (١٦) فانظر إلى عظم ملك الله فوقك ، وقدرته منك على ما لا تقدر عليه من نفسك ؛

(١) اقمعها (٢) من التهور والانهماك (٣) من التكاليف الشرعية والواجبات العقلية (٤) اجعلها كالثوب الملاصق للجسد (٥) يسبق (٦) تقع السيئات على أيديهم (٧) القيام بتدبير مصالحهم (٨) مخالفة شريعته بالظلم (٩) لا طاقة لك بها (١٠) تفرحن (١١) ما يبدر من الحدة عند الغضب (١٢) متسعا (١٣) فساد (١٤) مَضْعفةٌ (١٥) الحادثات (١٦) عجبا

فإن ذلك يُطامِن إليك من طماحك (١) ، ويكف عنك من غربك (٢) ويفىء إليك بما عزب عنك من عقلك .

إياك ومساماة (٣) الله فى عظمته ؛ والتشبه به فى جبروته ؛ فإن الله يذل كل جبار ، ويهين كل مختال .

أنصف الله ، وأنصف الناس من نفسك ، ومن خاصة أهلك ، ومن لك هوى (٤) فيه من رعيتك ؛ فإنك إلا تفعل تظلم ، ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده ، ومن خاصم الله أدحض (٥) حجته ، وكان لله حربا حتى ينزع أو يتوب ؛ وليس شىء أدعى إلى تغيير نعمة اللهِ وتعجيلِ نقمته من إقامة على ظلم ؛ فإن الله سميع دعوة المضطهدين ، وهو للظالمين بالمرصاد .

ولْيَكن أحبَّ الأمور إليك أوسطُها فى الحق ، وأعمُّها فى العدل ، وأجمَعُها لرضا الرعية ؛ فإن سخط العامة يجحف برضا الخاصة ، وإن سخط الخاصة يُغتفر مع رضا العامة ؛ وليس أحد من الرعية أثقلَ على الوالى مئونة فى الرخاء ، وأقل معونة له فى البلاء ، وأكره للإنصاف ، وأسأل بالإلحاف ، وأقل شكرا عند الإعطاء ، وأبطأ عذرا عند المنع ، وأضعف صبرا عند ملمات الدهر — من أهل الخاصة ؛ وإنما عمود الدين وجماع (٦) المسلمين والعدة للأعداء العامة من الأمة ؛ فليكن صغْوك (٧) لهم وميلُك معهم .

وليكن أبعد رعيتك منك ، وأشنَؤُهم عندك — أطلَبَهم لمعايب الناس ؛ فإن فى الناس عيوبا الوالى أحقُّ من سَتَرها ، فلا تكشفَنَّ عما غاب عنك منها ؛ فإنما عليك تطهيرُ ما ظهر لك ، والله يحكم على ما غاب عنك ؛ فاستر العورة ما استطعت يستر الله منك ما تحب ستره من رعيتك

أطلق (٨) عن الناس عقدة كل حقد ، واقطع (٩) عنك سبب كل وتر ، وتغاب عن

---

(١) جماحك (٢) الغَرْب : الحدّة (٣) المباراة فى السمو (٤) ميل (٥) أبطل (٦) جماعة الإسلام (٧) ميلك (٨) احلل عقد الأحقاد من القلوب بحسن السيرة فيهم (٩) اقطع سبب العداوات بترك الإساءة إلى الرعية

كل مالا يصح لك ، ولا تعجلن على تصديق ساع ؛ فإن الساعي غاش وإن تشبه بالناصحين . ولا تُدخلن في مشورتك بخيلا يعدل بك عن الفضل ، ويعدك الفقر ، ولا جبانا يُضْعفك عن الأمور ، ولا حريصا يزين لك الشره بالجور ؛ فإن البخل والجبن والحرص غرائز شتى (١) يجمعها سوء الظن بالله .

إن شر وزرائك من كان قبلك للأشرار وزيرا ، ومن شركهم في الآثام ؛ فلا يكونَنَّ لك (٢) بطانة ؛ فإنهم أعوان الأثمة ، وإخوان الظلمة ، وأنت واجدٌ منهم خيرَ الخلف ممن له مثلُ آرائهم ونفاذِهم ، وليس عليه مثل آصارهم (٣) وأوزارهم ممن لم يعاون ظالما على ظلمه ، ولا آثما على إثمه ؛ أولئك أخف عليك مئونةً ، وأحسن لك معونة ، وأحنى عليك عطفا ، وأقل لغيرك إلفا (٤) فاتخذ أولئك خاصة لخلواتك وحفلاتك ، ثم ليكن آثرهم عندك أقولَهم بِمُرِّ الحق لك ، وأقلَّهم مساعدة فيما يكون منك : مما كره الله لأوليائه واقعا (٥) ذلك من هواك حيث وقع .

والصَق بأهل الورع والصدق ، ثم رُضْهم على ألا (٦) يُطْروك ولا (٧) يُبَجِّحُوك بباطل لم تفعله ؛ فإن كثرة الإطراء تُحْدثُ الزهو (٨) وتُدني من العزة . ولا يكونَن المحسنُ والمسيء عندك بمنزلة سواء ؛ فإن في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان ، وتدريبا لأهل الإساءة على الإساءة . وألزِم كلاً منهم ما ألزم نفسه .

واعلم أنه ليس شيء بأدعى إلى حسن ظن والٍ برعيته من إحسانه إليهم ، وتخفيفه المئونات عليهم ، وترك استكراهه إياهم على ما ليس له قِبَلهم (٩) ؛ فليكن منك في ذلك أمرٌ يجتمع لك به حسن الظن برعيتك ؛ فإن حسن الظن يقطع عنك

---

(١) متفرقة (٢) البطانة الخاصة (٣) الآصار جمع إصر بالكسر وهو الذنب (٤) محبة (٥) وإن كان من أشد مرغوباتك (٦) عودهم ألا يزيدوا في مدحك (٧) ولا يُفرحوك بنسبة عمل عظيم إليك لم تكن فعلته (٨) العجب (٩) عندهم

نصبا طويلا وإن أحق من حسن ظنك به لَمنْ حسن بلاؤك (١) عنده ، وإن أحق من ساء ظنك به لمن ساء بلاؤك عنده ،

ولا تنقض سنةً صالحة عَمِل بها صدور هذه الأمة ، واجتمعت بها الألفة ، وصَلَحت عليها الرعية ، ولا تُحْدِثَن سنَّةً تضر بشىء من ماضى تلك السنن ، فيكون الأجر لمن سنها ، والوزر عليك بما نقضت منها . وأكثر مدارسة العلماء ، ومنافثة (٢) الحكماء فى تثبيتِ ما صلح عليه أمر بلادك ، وإقامة ما استقام به الناس قبلك .

واعلم أن الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض ولا غنى ببعضها عن بعض؛ فمنها جنود الله ، ومنها كتاب (٣) العامة والخاصة ، ومنها قُضاة العدل ، ومنها عمال الإنصاف والرّفق ، ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذّمة ومسلمة (٤) الناس ، ومنها التجارُ وأهلُ الصناعات ، ومنها الطبقة السفلى من ذوى الحاجات والمسكنة ؛ وكلاًّ قد سمى الله له سهمه ، ووضع على حده فريضة فى كتابه أو سنة نبيه صلى الله عليه وآله عهداً منه عندنا محفوظا ؛ فالجنود بإذن الله حصون الرعية ، وزينُ الولاة ، وعز الدّين ، وسُبل الأمن ، وليس تقوم الرعية إلا بهم ، ثم لا قوام للجنود إلا بما يُخرج الله لهم من الخراج الذى يقوون به على جهاد عدوهم ، ويَعتمدون عليه فيما يُصلحهم ، ويكون من وراء حاجتهم ؛ ثم لا قوام لهذين الصّنفين إلا بالصّنف الثالث من القضاة والعمال والكتاب ؛ لما يُحْكِمُون من المعاقد (٥) ، ويجمعون من المنافع (٦) ، ويؤتمنون عليه من خواص الأمور وعوامها ؛ ولا قوام لهم جميعا

(١) صُنعك (٢) محادثة (٣) الكتاب : منهم عاملون للعامة كالمحاسبين والذين يكتبون فى شئون الخراج والمظالم ، ومنهم مختصون بالحاكم يفضى إليهم بأسراره (٤) أرباب الخراج من المسلمين (٥) العقود فى البيع والشراء (٦) من حفظ الأمن وجباية الخراج

إلا بالتجار وذوى الصناعات فيما يَجْتمعون عليه من مرافقهم (١) ، ويقيمونه من أسواقهم ، ويَكْفُونَهم من الترفق (٢) بأيديهم مما لا يبلُغه رِفق غيرهم ؛ ثم الطبقة السفلي من أهل الحاجة والمسكنة الذين يَحقُّ رِفدهم (٣) ومعونتهم ، وفى الله لكل سعَة ولكلٍّ على الوالى حقٌّ بقدر مايصلحه ، وليس يَخْرجُ الوالى من حقيقة ما ألزمه اللهُ تعالى من ذلك إلا بالاهتمام والاستعانة بالله وتوطينِ نفسه على لزوم الحق والصبر عليه فيما خفَّ عليه أو ثَقُل .

فولّ من جنودك أنصحهم فى نفسك لله ولرسوله ولإمامك وأنقاهم (٤) جيبا ، وأفضلهم حلما : ممن يبطيء عن الغضب ، ويَستريحُ إلى العذر ، يرأف بالضعفاء ، ويَنبُو (٥) على الأقوياء ، وممن لا يُثيره العنف ، ولا يَقعُد به الضّعف .

ثم الْصَق بذوى الأحساب ، وأهل البيوتات الصالحة ، والسوابق الحسنة ، ثم أهلِ النَّجدة والشجاعةِ والسخاء والسماحةِ ؛ فإنهم جِمَاعٌ من الكرم ، وشُعَبٌ من العُرف . ثم تَفَقَّد من أمورهم ما يَتفَقَّد الوالدان من ولدهما ، ولا يَتفاقَمَنَّ (٦) فى نفسك شيء قَوَّيتهم به ، ولا تَحْقِرَن لُطْفا (٧) تعاهدتهم به وإن قلَّ ؛ فإنه داعِيَةٌ لهم إلى بذل النصيحة لك ، وحسن الظن بك . ولا تَدَعْ تفقد لطيفِ أمورهم اتكالا على جَسيمها ؛ فإن لِليَسير من لطفك موضعا ينتفعون به . وللجسيم مَوْقِعًا لا يَسْتغنون عنه ،

وليكن آثَرُ (٨) رءوس جندك عندك من واساهم فى معونته ، وأفضَل عليهم من جِدَته ، بما يَسعهم ويَسعَ مَنْ وَراءهم من خُلُوفِ أهليهم ، حتى يكون همُّهم همًّا واحدا فى جهاد العدو ؛ فإن عَطْفَك عليهم يَعطِفُ قُلُوبَهم عليك ؛

(١) منافعهم التى يجتمعون لأجلها (٢) التكسب (٣) معونتهم (٤) أطهرهم قلبا وحلما وعقلا (٥) يشتد (٦) لا تَعُدَّ شيئا قَوَّيتهم به غاية فى العظم زائدا عما يستحقون . (٧) كل تلطف وقع فله موقع من قلوبهم وإن قل (٨) أفضل أى على الرؤساء

وإن أفضلَ قرةِ عينِ الولاة استقامةُ العدل فى البلاد، وظهورُ مودّة الرعية، وإنه لا تَظهرَ مودتُهم إلا بسلامة صدورهم، ولا تصحُّ نصيحتُهم إلا بحيطتهم على وُلاة أُمورهم، وقلةِ استثقال دُوَلهم، وترك استبطاء انقطاع مدتهم؛ فافسَح فى آمالهم، وواصل فى حسن الثناء عليهم وتَعديد ما أَبلَى (١) ذَوُو البلاء منهم، فإن كثرة الذكر لحسن أفعالهم تهز الشجاع، وتُحرِّض الناكل (٢) إن شاء الله تعالى.

ثم اعرِف لكل امرىءٍ منهم ما أبلى، ولا تُضيفَن بلاء امرىء إلى غيره، (٣) ولا تقصّرَنَّ به، دون غاية بلائه، ولا يَدعُوَنَّك شرف امرىء إلى أن تُعظِّم من بلائه ما كان صغيرا، ولا ضَعة امرىء إلى أن تستصغر من بلائه ما كان عظيما

واردُدْ إلى الله ورسوله ما يُضلِعك (٤) من الخطوب، ويشتبه عليك من الأمور؛ فقد قال الله سبحانه وتعالى لقوم أحب إرشادهم: (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ) : فالرَّدُّ إلى الله الأخذ بمحكم كتابه، والرَّدُّ إلى الرسول الأخْذُ بسنته الجامعةِ غير المفرِّقة (٥)

ثم اختر للحكم بين الناس أفضلَ رعيتك فى نفسك، ممن لا تَضيق به الأمورُ، (٦) ولا يُمحِكُه الخصوم، ولا يَتمَادى فى الزلّة، ولا يَحصَر (٧) من الفىء إلى الحق إذا عرفه، ولا تُشْرف (٨) نَفسه على طمع، ولا يَكتفى بأدنى فهم دون أقصاه — وأوقفَهم فى الشبهات، وآخذَهم بالحجج، وأقلَّهم تبرما

(١) ماصنع أهل الأعمال العظيمة (٢) المتأخر المتقاعد (٣) لا تنسبن عمل امرىء إلى غيره، ولا تقصرن به فى الجزاء دون ما يبلغ عمله الجميل (٤) يُشْكل (٥) أى خذ بما أجمع عليه مما لا يختلف فى نسبته (٦) لا تحمله مخاصمة الخصوم على اللجاج والإصرار على رأيه (٧) حصر كفرح ضاق صدره أى لا يضيق صدره من الرجوع إلى الحق (٨) لا تخاف نفسه من فوت المنافع والمرافق

بمراجعة الخصم ، وأصبرهم على تكشف الأمور ، وأصرمهم(١) عند اتضاح الحكم : ممن لا يزدهيه إطراء ولا يستميله إغراء ، وأولئك قليل ؛ ثم أكثر تعاهد قضائه ،(٢) وافسح له فى البذل ما يزيل علته ، وتقل معه حاجته إلى الناس ؛ وأعطه من المنزلة لديك مالا يطمع فيه غيره من خاصتك ؛ (٣) ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك ، فانظر فى ذلك نظرا بليغا ؛ فإن هذا الدين قد كان أسيرا فى أيدى الأشرار ، يعمل فيه بالهوى ويطلب

ثم انظر فى أمور عمالك ، فاستعملهم اختبارا ، (٤) ولا تولهم محاباة وأثرة ؛ فإنهما جماع من شعب الجور والخيانة ؛ وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم (٥) فى الإسلام المتقدمة ؛ فإنهم أكرم أخلاقا ، وأصح أعراضا ، وأقل فى المطامع إشرافا ، وأبلغ فى عواقب الأمور نظرا

ثم أسبغ عليهم الأرزاق ، فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم ، وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم ، وحجة عليهم إن خالفوا أمرك ، أو ثلموا أمانتك ، (٦) ثم تفقد أعمالهم ، وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم ؛ فإن تعاهدك فى السر لأمورهم (٧) حدوة لهم على استعمال الأمانة ، والرفق بالرعية ، وتحفظ من الأعوان ؛ فإن أحد منهم بسط يده إلى خيانة (٨) اجتمعت بها عليه عندك أخبار عيونك اكتفيت بذلك شاهدا فبسطت عليه العقوبة فى بدنه ، وأخذته بما أصاب من عمله ، ثم نصبته بمقام المذلة ، ووسمته بالخيانة ، وقلدته عار التهمة .

---

(١) أقطعهم للخصومة (٢) تتبعه وتعرفه (٣) إذا رفعت منزلته عندك هابته الخاصة كما تهابه العامة فلا يجسر أحد على الوشاية به عندك (٤) ولهم الأعمال بالامتحان لا اختصاصا وميلا منك لمعاونتهم و استبدادا بلا مشورة (٥) القدم واحدة الأقدام أى الخطوة السابقة وهم الأولون (٦) نقصوا فى أدائها أو خانوها (٧) سوق لهم وحث (٨) اتفقت عليها أخبار الرقباء

وتَفَقَّد أمر الخراج بما يُصْلح أهلَه ؛ فإن فى صلاحه وصلاحِهم صلاحاً لمن سواهم ، ولا صَلاحَ لمن سواهم إلا بهم ؛ لأن الناس كلّهم عيال على الخراج وأهله .

وليكن نظرُك فى عِمارة الأرض أبْلَغ من نظرك فى استجلاب الخراج ؛ لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة ، ومن طلب الخراج بغير عِمارة أخرَب البلاد ، وأهْلك العبادَ ، ولم يَستَقم أمرُه إلا قليلا ؛ فإن شَكَوْا ثِقَلاً أو عِلّةً أو انقطاعَ شرب (١) أو بالّةٍ ، أو إحالةَ أرض اغتَمَرها غَرَق ، أو أجْحَفَ بها عطش — خَفَّفْتَ عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرُهم ؛ ولاَ يَثقُلَنَّ عليك شىء خَفَّفت به المؤنة عنهم ؛ فإنه ذُخر يَعُودون به عليك فى عمارة بلادك وتَزيين وِلايتك ، مع استجلابك حسَن ثنائهم ، وتَبَجُّحَك (٢ باستفاضة العدل فيهم معتمدا (٣) فضلَ قوَّتِهم بما ذَخَرْت عندهم من إجْمامك لهم ، (٤) والثقة (٥) منهم بما عوّدتهم من عدلك عليهم ورِفْقك بهم ؛ فربما حدَث من الأمور ما إذا عَوَّلت فيه عليهم من بعد احتملوه طَيِّبةً أنفسُهم به ؛ فإن العمران مُحْتَمل (٦) ما حَمَّلته ؛ وإنما يُؤْتى خراب الأرض من إعواز أهلها ، وإنما يُعْوِز أهلُها لإسراف (٧) أنفُس الولاة على الجمع وسوء ظَنِّهم بالبقاء ، وقلةِ انتفاعهم بالعبر .

---

(١) شكوا ثقل المضروب من مال الخراج ، أو نزول علة سماوية أو انقطاع ماء فى بلاد تسقى بالأنهار أو انقطاع ما يبل الأرض من مطر فيما تسقى بالمطر ، أو تحويل الأرض البذرَ إلى إفساد بالتعفن لما عمها من الغرق — إن شكوا ذلك — خَفَّفْت عنهم . (٢) سرورك (٣) متخذا زيادة قوتهم عمادا لك تستند عند الحاجة إليه (٤) إراحتك لهم (٥) معطوف على فضل (٦) مادام العمران ناميا فكل ما حملته أهله سهل عليهم أن يحتملوا (٧) تطلع .

ثم انظر فى حال كُتَّابِك فولِّ على أُمورك خيرَهم ، واخصُصْ رسائلَك التى تُدخِلُ فيها مكايدك وأسرارك بأجمَعِهم (١) لوجوه صالح الأخلاق ممَّن لاتُبْطِره الكرامة ، فيَجْتَرِئ بها عليك فى خلاف لك بحضرة ملأ ، ولا تُقَصِّرُ (٢) به الغفلةُ عن إيراد مكاتبات عُمَّالك عليك وإصْدار جواباتها على الصواب عنك ، وفيما يأخُذُ لك ويعطى منك ، ولا (٣) يُضْعِف عَقْداً اعتَقَده لك ، ولا يَعْجِزُ عن إطلاق ما عُقِدَ عليك ، ولا يَجْهل مبلغَ قَدر نفسه فى الأمور ؛ فإن الجاهلَ بِقَدْرِ نَفْسِه يكون بقدر غيره أجهلَ ،

ثم لا يكن اختيارُك إياهم على فِراستِك (٤) واستِنامتِك وحسن الظن منك ؛ فإن الرجال يَتعَرَّفون لفراسات الولاة بتَصَنُّعِهم وحسن خدمتهم ، وليس وراء ذلك من النصيحة والأمانة شىء ؛ ولكن اختَبِرهم بما وُلُّوا للصالحين قَبْلك ، فاعمِد لأحْسَنِهم كان فى العامة أثرا ، وأعرفهم بالأمانة وَجْها ؛ فإن ذلك دليلٌ على نصيحتك لله ولِمَن وُلِّيت أمرَه ،

واجعل لرأس كل أمر من أُمورِك رأسا منهم لا يَقهَرُه كبيرُها ، (٥) ولا تَتَشَتَّتْ عليه كثيرُها ، ومهما كان فى كُتَّابك من عيب فَتَغَابَيْت عنه (٦) أُلزِمتَه ،

---

(١) اخصص الرسائل الحاوية للأسرار بمن فاق غيره فى الأخلاق الصالحة الذى لا تطغيه الكرامة فيتجرأ على مخالفتك فى حضور جماعة من الناس (٢) لا تكون غفلته موجبة لتقصيره فى اطلاعك على ما يرد من عمالك ولا فى إصدار الأجوبة عنه على وجه الصواب (٣) يجب أن يكون خبيرا بطرق المعاملات بحيث إذا عقد لله عقدا جعله محكما جزيل الفائدة ، وإذا وقَّعتَ مع أحد عقدا فيه ضرر عليك كان قادرا على حل ذلك العقد (٤) يجب ألا يكون انتخاب الكتاب تابعا للميل الخاص ؛ فإنهم يتوسلون إلى الفراسات ليعرفوها (٥) لا يَقهَرُه عظيم تلك الأعمال ، ولا يخرج عن ضبط كثيرها . (٦) كان لاصقا بك .

ثم استوص بالتجار وذوى الصناعات ، وأوص بهم خيراً المقيم منهم والمضطرب (١) بماله ، والمترفق (٢) ببدنه ؛ فإنهم مواد المنافع، وأسباب المرافق (٣) وجلابها من المباعد والمطارح فى برك وبحرك وسهلك وجبلك ، وحيث (٤) لا يلتئم الناس لمواضعها ، ولا يجترئون عليها ؛ فإنهم (٥) سلم لا تخاف بائقته ، وصلح لا تخشى غائلته ، وتفقد أمورهم بحضرتك، وفى حواشى بلادك ،

واعلم مع ذلك أن فى كثير منهم (٦) ضيقاً فاحشا وشحا قبيحاً ، واحتكارا للمنافع ،وتحكما فى البياعات ، وذلك باب مضرة للعامة ، وعيب على الولاة؛ فامنع من الاحتكار ؛ فإن رسول الله صلى الله عليه وآله منع منه . وليكن البيع بيعاً سمحاً بموازين عدل وأسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع ؛ فمن قارف(٧) حكرة بعد نهيك إياه فنكل به وعاقبه من غير إسراف .

ثم الله الله فى الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم من المساكين والمحتاجين، وأهل البؤسى (٩) والزمنى ؛ فإن فى هذه الطبقة قانعاً ومعترا ، واحفظ لله ما استحفظك (١٠) من حقه فيهم ، واجعل لهم قسما من بيت مالك ، وقسما من غلات صوافى الإسلام فى كل بلد ؛ فإن للأقصى منهم مثل

---

(١) المتردد بأمواله بين البلدان (٢) المكتسب ببدنه (٣) مابه يتم الانتفاع كالآنية والأدوات (٤) يجلبونها من أمكنة بحيث لا يمكن التئام الناس واجتماعهم فى مواضع تلك المرافق من تلك الأمكنة (٥) يريد أن التجار وذوى الصناعات مسالمون لا تخشى منهم داهية العصيان (٦) عسر معاملة (٧) من التجأ إلى الحكرة وهي الاحتكار بعد النهى فأوقع به النكال من غير تجاوز حدود العدل (٨) البؤس شدة الفقر والزمنى جمع زمين وهو المصاب بعاهة(٩) القانع السائل، والمعتر المتعرض للعطاء بلا سؤال (١٠) طلب منك حفظه

الذى للأدنى ، وكلٌّ قد استُرْعِيت حقه ، فلا يَشغَلَنك عنهم بَطَرٌ ، فإنك لا تُعذَرُ بتضييع التافه لإحكامك الكثيرَ المُهم ؛ فلا تُشْخص همَّك عنهم ، ولا تُصَعِّر خدك لهم ، وتَفَقَّد أُمورَ من لا يصل إليك منهم ممن تقتحمه العيُون ، وتحقِره الرِّجال فَفَرِّغ لأولئك ثِقتَك من أهل الخَشْية والتواضع ، فليرفع إليك أُمورَهم ، ثم اعمَل فيهم بالإعذار إلى الله سبحانه وتعالى يوم تلقاه ؛ فإن هؤلاء من بين الرعية أحوجُ إلى الإنصاف من غيرهم ، وكلٌّ فاعذر إلى الله فى تأدية حقه إليه .

وتَعَهَّد أهل اليُتم وذوى الرقة فى السن ممن لا حيلة له ، ولا ينصب للمسألة نَفَسه ، وذلك على الولاة ثَقيلٌ ، والحق كله ثقيل ، وقد يُخفِّفه الله على أقوام طلبوا العاقِبَة ، فصبرُوا أنفسهم ، ووَثِقوا بصدق موعودِ الله لهم .

واجعل لذوى الحاجات منك قِسماً (١) تُفَرِّغ لهم فيه شَخْصَك ، وتجلِس لهم مجلسا عاما ، فتتواضع فيه لله الذى خلقك ، وتُقعِد (٢) عنهم جندَك وأعوانَك من حراسك وشُرَطك ؛ حتى يكلمك متكلِّمُهم غير مُتَتعتِع (٣) ؛ فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول فى غير موطن: « لَنْ تُقَدَّسَ أُمَّةٌ لا يُؤخَذُ لِلضَّعيفِ فِيها حَقُّه مِنَ الْقَوِيِّ غَيْرَ مُتَتَعتِع » ؛ ثم احتَمِل (٤) الخُرْق منهم والعِيَّ ، ونَحِّ عنهم الضيق (٥) والأَنَف يبسط الله عليك بذلك أكناف رحمته ، ويوجبْ لك ثواب طاعته . وأَعْطِ ما أعطيت هنيئاً (٦) ، وامنَع فى إجمال وإعذار ،

(١) تفرغ لهم فيه بشخصك للنظر فى مطالبهم (٢) تأمر بألا يتعرض لهم جندك وشرطك وهم المعروفون الآن بالضابطة . (٣) غير خائف والتتعتع التردد فى الكلام من عجز وعى . (٤) الخرق بالضم العنف (٥) ضيق الصدر بسوء الخلق ، والأنف الاستكبار (٦) سهلا لا مَنَّ فيه

ثم أُمورٌ من أُمورك لابد لك من مباشرتها : منها إجابة عُمّالك بما يعْيَا (١) عنه كُتّابُك ، ومنها إصدار حاجات الناس عند وُرودها عليك بما تَحْرَجُ (٢) به صُدُورُ أعوانِك ، وامض لكلّ يوم عَمَله ؛ فإن لكل يوم ما فيه .

واجعل لنفسك فيما بينك وبين الله تعالى أفضلَ تلك المواقيتِ ، وأجْزَل تلك الأقسامِ ، وإن كانت كلُّها لله إذا صَلَحتْ فيها النيةُ ، وسلمت منها الرعيةُ ،

وليكن فى خاصة ما تُخْلِصُ لله به دينك إقامةُ فرائضه التى هى له خاصة ؛ فأعط الله من بدنك فى ليلك ونهارك ، ووفّ ما تَقَرَّبتَ به إلى الله سبحانه من ذلك كاملا غير مَثْلوم (٣) ولا مَنْقُوصٍ بَالِغًا من بدنك ما بلغ ، وإذا قُمْتَ فى صلاتك للناس فلا تكوننَّ مُنَفِّراً (٤) ولا مُضَيِّعاً ؛ فإن فى الناس مَنْ به العِلةُ وله الحاجةُ ، وقد سألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وَجَّهنى إلى اليمن : كيف أُصلى بهم؟ فقال : (صَلِّ بِهِمْ كَصَلاةِ أَضْعَفِهِمْ وَكُنْ بالمُؤمِنِينَ رَحِيماً .)

وأما بعد فلا تُطوّلَن احتجابك عن رعيتك ؛ فإن احتجابَ الولاة عن الرعية شُعبة من الضيق ، وقلةُ علمٍ بالأمور ، والاحتجابُ منهم يقطع عنهم علمَ ما احتَجَبُوا دونه ، فَيَصغُرُ عندهم الكبيرُ ، ويَعظُمُ الصغيرُ ، ويقبحُ الحسَنَ ويَحْسن القبيحُ ، ويُشابُ الحقُّ بالباطل ، وإنما الوالى بشرٌ لا يَعرف

(١) يعجز (٢) حرج يحرج من باب تعب ، وأعوان الحاكم تضيق صدورهم بتعجيل الحاجات ويحبون المماطلة فى قضائها استجلابا للمنفعة أو اظهارا للجبروت.
(٣) غير مخدوش بشىء من التقصير أو الرياء (٤) التنفير بالتطويل ، والتضييع بالنقص فى الأركان

ما توارى عنه الناسُ بِهِ من الأمور ، وليست على الحق (١) سماتٌ تُعرفُ بها ضُروبُ الصدق من الكذب ، وإنما أنت أحد رجلين :

إما امرُؤٌ سَخَتْ نفسُك بالبذل في الحق ، ففيم احتجابُك من واجبِ حقٍ تعطيه ، أو فعل كريم تُسديه ؟

أو مبتلى بالمنع ، فما أسرع كفّ الناس عن مسألتك إذا أيسوا من بذلك ، مع أن أكثَرَ حاجاتِ الناس إليك مِمَّا لا مؤُونَة فيه عليك : من شكاةِ (٢) مظلمة أو طلب إنصاف في معاملة .

ثم إن للوالي خاصةً وبطانةً فيهم استئثارٌ وتَطاوُلٌ ، وقلةُ إنصاف في معاملة ، فاحْسِمْ (٣) مادَّة أُولئك بقطع أسباب تلك الأحوال ، ولا تُقْطِعَنَّ (٤) لأحد من حاشيتك وحامتِك (٥) قطيعةً ، ولا يَطْمَعَنَّ منك في اعتقاد عقْدةٍ تضير بمن يَليها من الناس في شرْبٍ أو عملٍ مشْتركٍ يحْملون مؤْنته على غيرهم فيكون مَهْنأ (٦) ذلك لهم دونك ، وعَيْبُه عليك في الدنيا والآخرة ،

والْزم الحقَّ من لزمه من القريب والبعيد ، وكن في ذلك صابرا مُحْتسباً ، واقعاً ذلك من قرابتك وخاصتك حيثُ وَقَع ، وابتغِ عاقبته بما يَثْقُل عليك منه ؛ فإن مَغَبَّةَ ذلك محمودةٌ ، وإن ظَنَّت الرعيةُ بك حَيفًا فأصْحر (٧) لهم بعُذْرك ،

(١) ليس لحق علامات ظاهرة ، وإنما يتميز بالامتحان والفحص (٢) شكاية (٣) اقطع أسباب تعديهم بالأخذ على أيديهم (٤) الإقطاع المنحة من الأرض ، والقطيعة الممنوح منها (٥) الحامَّة : الخاصة والقرابة ، والاعتقاد الامتلاك ، والعُقدة الضيعة : وإذا اقتنوا ضيعة فربما أضروا بمن يليها من الناس في شرب أي نصيب من الماء (٦) منفعته الهنيئة (٧) إن فعلت فعلا ظنت الرعية أن فيه حيفا فأصحر أي أبن لهم وبين عذرك فيه ، ونحِّ عنك ظنونهم بهذا الإصحار ؛ فإن ذلك تعويدا لنفسك العدل وإبداء عذر لهم

واعدل عنك ظنونهم بإصحارك ؛ فإن في ذلك رياضةً منك لنفسك، ورفقاً برعيتك، وإعذاراً تبلغ به حاجتك من تقويمهم على الحق .

ولا تدفعنَّ صلحاً دعاك إليه عدوك لله فيه رضاً ؛ فإن في الصلح دعةً (١) لجنودك ، وراحةً من همومك ، وأمناً لبلادك ؛ ولكن الحذر كلَّ الحذر من عدوّك بعد صلحه ؛ فإن العدو ربما قارب ليتغفَّل (٢) ؛ فخذ بالحزم ، واتهم في ذلك حسنَ الظن ؛ وإن عقدت بينك وبين عدوك عقدةً ، أو ألبسته منك ذمةً (٣) فحُط عهدك بالوفاء ، وارْعَ ذمتك بالأمانة ، واجعل نفسك جُنَّةً دون ما أعطيت ؛ فإنه ليس من فرائض الله شيء الناسُ أشدُّ عليه اجتماعا مع تفرق أهوائهم وتشتُّت آرائهم — من تعظيم الوفاء بالعهود ، وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين ؛ لما استوبلوا (٤) من عواقب الغدر ، فلا تغدرنَّ بذمتك ، ولا تخيسنَّ بعهدك ، ولا تختلنَّ عدوّك ؛ فإنه لا يجترئ على الله إلا جاهلٌ شقيٌّ ، وقد جعل الله عهده وذمته أمناً أفضاه (٦) بين العباد برحمته ، وحريماً (٧) يسكنون إلى منعته ويستفيضون (٨) إلى جواره ، فلا إدغال (٩) ولا مدالة ولا خداع فيه ،

ولا تعقد عقداً تجوز فيه العلل (١٠) ، ولا تعوّلن على لحن (١١) القول بعد التأكيد والتوثيقة ، ولا يدعونَّك ضيق أمرٍ لزمك فيه عهدُ الله إلى طلب انفساخه بغير الحق ؛ فإن صبرك على ضيق أمرٍ ترجو انفراجه وفضل عاقبته

(١) راحة (٢) تقرب منك بالصلح ليلقى عليك عنه غفلة فيغدرك فيها (٣) عهدا (٤) وجدوا عواقبه وبيلة (٥) خاس بعهده خانه ونقضه ، والختل الخداع (٦) أفشاه ونشره (٧) ما حرم عليك أن تمسه (٨) يفزعون (٩) الإدغال الإفساد ، والمدالة الخيانة (١٠) ما يصرفه عن وجهه ويحوله إلى غير المراد (١١) لحن القول ما يقبل التوجيه كالتورية

خيرٌ من غدر تخاف تبعته وأن يُحيطَ (١) بك من الله طلبةٌ فلا تستقيل فيها دنياك ولا آخرتك.

إياك والدماءَ وسفكَها بغير حلّها، فإنه ليس شيء أدعى لنقمة، ولا أعظمَ لتبعة، ولا أحرى بزوال نعمة، وانقطاع مدة — من سفك الدماء بغير حقّها، والله سبحانه مبتدئ بالحكم بين العباد فيما تسافكوا من الدماء يوم القيامة، فلا تُقوّينَّ سلطانك بسفك دمٍ حرامٍ؛ فإن ذلك مما يُضعِفُه ويُوهِنُه، بل يُزيله وينقُله؛ ولا عذر لك عند الله ولا عندي في قتل العَمْد؛ لأن فيه (٢) قَوَد البَدن؛ وإن ابتُليت بخطأ، وأفرط (٣) عليك سَوْطُك أو سيفُك أو يدُك بعقوبة؛ فإن في الوكزة فما فوقها مَقتلةً — فلا (٤) تطمحنّ بك نخوةُ سلطانك عن أن تؤدي إلى أولياء المقتول حقَّهم.

وإياك والإعجاب بنفسك، والثقة بما يُعجبك منها وحبَّ الإطراء؛ فإن ذلك من أوثق فرص الشيطان في نفسه؛ ليمحق ما يكون من إحسان المحسنين،

وإياك والمنّ على رعيتك بإحسانك، أو التزيُّد فيما كان من فعلك، أو أن تَعدهم فتتبعَ موعدك بخُلفك؛ فإن المن يُبطل الإحسان، والتزيُّد يذهب بنور الحق، والخلف يوجب المقت عند الله والناس، قال الله سبحانه

---

(١) أي كما تخاف تبعته تخاف أن تتوجه عليك من الله مطالبة بحقه في الوفاء الذي غدرته، ويأخذ الطالب بجميع أطرافك فلا يمكنك التخلص منه

(٢) القود بالتحريك القصاص، وإضافته للبدن لأنه يقع عليه

(٣) عجّل بما لم تكن تريده، والوكزة الضربة بقبضة اليد

(٤) جواب الشرط أي لا يرتفعن بك كبرياء السلطان عن تأدية الدية إليه في القتل

وتعالى : (كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللهِ أنْ تَقُولُوا مالا تَفْعَلُونَ) .

وإياكَ والعجلةَ بالأمور قبل أوانها ، أو التّساقط فيها عند إمكانها ، أو اللّجاجة فيها إذا تنكرت ، أو الوَهْنَ عنها إذا استَوْضَحَتْ ؛ فضع كل أمر موضعه ، وأوقع كل عمل موقعه ،

وإياك والاستئثار بما النّاس فيه أسوة والتّغابي عما يُعنى به ممّا قد وَضح للعيون ؛ فإنه مأخوذ منك لغيرك ، وعما قليل تنكشف عنك أغطية الأمور ، ويُنْتَصف منك للمظلوم ،

املك حمية أنفك وسَوْرَة حدِّك ، وسَطوة يدك ، وغَرْب لسانك ، واحترس من كل ذلك بِكَفّ البادرة ، وتأخير السطوة ، حتى يَسْكن غضبُك ، فتملكَ الاختيارَ ؛ ولن تحْكِم ذلك من نفسك حتى تكثر همومك بذكر المعاد إلى ربك .

والواجب عليك أن تتذكر ما مضى لمن تقدمك من حكومة عادلة ، أو سنة فاضلة ، أو أثر عن نبينا صلى الله عليه وآله ، أو فريضة في كتاب الله فتقتدي بما شاهدت مما عملنا به فيها ، وتجتهد لنفسك في اتباع ما عهدت إليك في عهدي هذا ، واستوثقتُ به من الحجة لنفسي عليك لكيلا تكون لك علةٌ عند تسرع نفسك إلى هواها . وأنا أسأل الله بسعة رحمته وعظيم قدرته على إعطاء كل رغبة — أن يوفقني وإياك لما فيه رضاه : من الإقامة على العذر الواضح إليه وإلى خلقه من حسن الثناء في العباد ، وجميل الأثر في البلاد ، وتَمام النعمة ، وتضعيف الكرامة ؛ وأن يختم لي ولك بالسعادة والشهادة ، إنا إلى الله راغبون . والسلام على رسول الله صلى الله عليه وآله الطيبين الطاهرين .

حقوق الرؤساء والمرءوسين

لقد اقتضى نظام هذا العالم المحكم عدم تساوى الأفراد فى الأعمال والأرزاق لتبقى الحاجة ماسة أبدا إلى العمل الذى هو روح العمران وأساس الترقى . ولما كان من أهم مقتضيات العمل أن يكون فيه رئيس ومرءوس كان من الضرورى وضع نظام بكل ما للاثنين من حقوق وما عليهما من واجبات حتى ينتظم الأمر :

فمن حق الرئيس على مرءوسيه أن يطاع ويحترم ، ومن حقوقهم عليه العطف والرفق . والسلطة هى أول حق لتنظيم العمل ؛ لأن عظم المسئولية الملقاة على عاتق الرئيس توجب الطاعة له على عماله ومرءوسيه . وتلك السلطة أدبية لا يصح أن تلبس ثوب الخشونة والشدة ، أو أن يساء استعمالها بهضم حقوق المرءوسين ضمانا لنجاح العمل

فالرئيس مكلف رعاية مرءوسيه ، والالتفات إليهم وبث روح الجد والمثابرة والفضيلة فى نفوسهم ، وإرشادهم إلى طرق النجاح بالقدوة الحسنة ؛ ليكتسب عطفهم واحترامهم . وعليه أن يعتنى دائما بأمر أجورهم ومرتباتهم وتأديتها فى أوقاتها ، وليذكر دائما أن العامل إذا لم يوف حقه من المكافأة والأجر قصر فى عمله ، وفترت حماسته له وإخلاصه فيه . ثم يجب على الرئيس ألا ينسى إظهار الاهتمام بعماله ، وحثهم على الاقتصاد والتدبير وتشجيع ذوى النشاط والمهارة منهم بالمكافآت والثناء استنهاضا لهمم الآخرين . ويخلق به أن يكون رحيما فلا يكلف نفسا مالا تطيق ، ولا يرهقها بزيادة ساعات العمل ؛ فالإنسان يستعبده الإحسان

تلك هى حقوق ذوى الرياسة على مرءوسيهم ؛ أما الواجبات على المرءوسين فيضاف إلى ما تقدم الإخلاص لهم حتى يحبهم الرئيس ، ويثق بهم ، وتؤدى الأعمال على خير وجه وأكمله . وخير ميزان للعلاقة بينهما : (لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق) :

ومبدأ هذا أننا مشتركون فى المسئولية عن الأعمال التى نؤديها ، مهما خفت تلك المسئولية بإسناد الرياسة إلى غيرنا ؛ فكل مرءوس قد ألقيت عليه مسئولية نصيبه من الشركة فى العمل ؛ فإذا أهمل أو عصى أو خان فإن عاقبة ذلك وبال عليه، وسينال ما يستحق من حرمان أو قصاص أو فقدان ثقة . والمنفعة الذاتية هى التى تحتم على ذوى الأعمال تطلب الصناع المهرة الأمناء ، وكسب العيش هو الذى يلجئ العمال إلى خدمة أصحاب رءوس الأموال ، والتعاون بين هاتين الفئتين ،ومعرفة مالهما من حقوق وما عليهما من واجبات — هو الذى ينهض بالعمل ويحقق آمال الجميع .

وليس هذا النوع من الأدب مقصورا على أصحاب الحرف اليدوية ،والأعمال التجارية ، والوظائف الحكومية ؛ بل هو عام يتناول جميع أصحاب المهن والصناعات الحرة كالمعلمين والأطباء والمحامين وغيرهم : فالمعلمون والكتاب مكلفون استعمال الرفق والهوادة وتلمس أفضل السبل لانتفاع الطلبة أو الجمهور ، والتزام الإخلاص والصراحة ، وتجنب المكابرة فى الحق

الحق والواجب

الصلة بين حقيقة الفضيلة والقانون والواجب والحق

الفضيلة بالنسبة للإنسان واجب وحق ؛ فهى واجب؛ لأن القانون الخلقى يأمر بها . وهى حق ؛ لأن القانون الخلقى مع تقريره إياها باعتبارها واجبا — ترك للإنسان حق العمل بها .

الواجب عهد خلقى يوجب عمل شىء ، أو الامتناع عن عمله ؛ والحق سلطة خلقية ، وسلطة شرعية تخول الإنسان عمل شىء أو أن يطلب من غيره عمله .

الحق والقوة : الحق أو السلطة الخلقية تقابلها القوة أو السلطة المادية :

قال الشهير بوسيه : « الحق لا يناقض الحق »: وقصده ليس هناك سلطة خلقية خارجة على القانون ؛ وقد تهجم القوة المادية على الحق ، ولكنها لا تستطيع

أن تقتله :

فإذا قال قائل : إن حجة القوى قوية أبدا — فإنما يريدها من جهة الفعل لا من جهة الحق ، ويريدها حيث كانت لا حيث يجب أن تكون ؛ لأن القوة لا تصرع الحق ، ولكن الحق هو الذى يصرعها ويعلو عليها فى النظر الخلقى ، إن قوة الظالم سواء أكان فردا أم جماعة مهما طال سلطانها أعواما أو قرونا — عاجزة عن أن تكون أساسا للحق ، أو عهدا واجب الحرمة

حقا قد يحتمل ذلك السلطان ، وتنحنى له الرءوس ، ولكن لا تخضع له أبدا ، ولا تقره النفوس بل تحاربه حرب المستميت ، وسلاحها الاستنكار الدائم كلما لاحت للأمل بارقة إلى أن تتداعى تلك القوة ، وينهدم ركنها . هنالك يعلو الحق ، ويهوى الباطل ؛ كذلك كان موقف الأمم والشعوب من الظلمة والحكومات الجائرة ومطامع الاستعمار ؛ فإنهم يكافحون حتى يعلو الحق على القوة ، وإن غلبتهم على أمره حينا من الدهر ؛ وما فوز القوة الغاشمة إلا وهم لا يلبث أن يزول إن عاجلا ، وإن آجلا ؛ ثم يتبوأ الحق مكانه ، وتصبح تلك القوة بين يديه يوجهها حيث شاء لتحقيق الغايات السامية للحياة المعنوية والاجتماعية

القوة تخدم الحق كذلك خلقها البارئ تعالى ؛ وكل قوة انقلبت على عقبيها ، وأبدت وجهها للحق لتصده عن سبيله — وهنت وبادت .

القوة مفتاح النجاح ، ومعقد الآمال ، ومتى أمدها العدل والحق بروحهما ازدادت قوة ومنعة ؛ وجلال الحق لا يموت ولا يقهر لأنه كما قال « ملتون » — اسم الخالق الأكبر .

« حقيقة الحق » : إن الحق فى ذاته من المعانى العقلية فهو فكرة أولية ،

وكان معناه ولا يزال متغيرا غير ثابت باختلاف الزمان والمكان . فهذه القوة المفروض وجودها فى الشخصية البشرية والواجب احترامها ليست بذات قيمة حقيقية إلا بقدر الاعتراف بها ؛ وفى دائرة ذلك الاعتراف ليس إلا : قال جانيه :

إذا كان فى يدى مطرقة مثلا وأمامى طفل نائم فلاشك أن فى استطاعتى إن شئت أن أهشم رأس ذلك الطفل بضربة واحدة ، ولكنى لا أفعل ذلك مهما بلغت قوتى ، لأن هناك شبحا يردنى ، ولا قبل لى بدفعه إذ قوته فوق قوتي ، وسلطانه أعلى من سلطانى ؛ فهو قادر على أن يجردنى مما أشعر به من قوة : هذا السلطان القاهر الذى لا يعلمه الطفل نفسه — هو حق ذلك المخلوق الذى يملك حق الحياة كما أملكها ويملكها غيرى . هذا ما يجب أن يكون . وكم يأخذنا العجب من أمم فى الأرض أحلت قتل الطفل إذا ولد عليلا ضعيف البنية !!

ومن صفات الحق أن يكون عاما أى لكل إنسان ، فالناس جميعا أمامه سواء ، يستوى فى ذلك الغني والفقير والعالم والجاهل والرفيع والوضيع ، وأن يكون مقدسا كالقانون نفسه ، أو كالواجب ؛ لأنه ضرورة مفروضة مطلقة غير مقيدة بشرط ، باقية ولو جحدها جاحد ، أو اعتدى عليها معتد .

والحق لا يتنزل عنه ؛ إذ لا نسلم بوجود شخص إنسانى لا يملك حقه الطبعى كما لا نسلم أن يتخلى عن هذا الحق دون تخليه عن الواجب المفروض عليه وهو الاحتفاظ بذلك الحق ؛ وفى ذلك إنكار لطبيعته هو باعتباره كائنا حرا .

والحق واجب الأداء ، واستخدام القوة لصيانته واحترامه مباح مشروع .

وبالجملة لما كان القانون الخلقى أسبق وأعلى من سائر القوانين الوضعية — كان الحق كذلك أسبق وأعلى من الحقوق الوضعية التى هى موضوع الشرائع الخاصة بهما ؛ فإن شرعية هذه الحقوق أساسها شرعية ذلك الحق

ارتباط الحق بالواجب : الواجب يستدعى الحق أبدا ؛ فوجوب عمل عليّ أو وجوب مجانبته يقضى لى بحق ذلك العمل أو الامتناع عنه ؛ وعلى غيرى واجب أيضا ألا يمنعنى هذا الحق ؛ وعلى ذلك كان كل حق لى واجبا على غيرى وبالعكس : فحق الدائن على المدين هو واجب المدين للدائن ، وكل حق للوالد على الولد هو واجب الولد لأبيه ، وكل حق للحكومة على الرعية هو واجب الرعية

للحكومة وهكذا .

حدود الحق : تتحد حقوقنا بواجباتنا؛ فكل ما منعنا الواجب من عمله لا حق لنا فى عمله : فقولك ليس لك حق فى عمل كذا يعادل قولك من واجبك ألا تفعله ؛ كذلك حقوق أمثالنا واجب علينا احترامها ، كما يجب علينا احترام حقوقنا

نعم قد تتعدى حقوقنا حدود واجباتنا، فيسوغ لنا أن نعمل أكثر مما نكلف أداءه ولنا الحق فى عمل كل مالا يمنعنا الواجب من عمله ، ولنا الحق فى الامتناع عن عمل كل ما لا يقضى علينا الواجب عمله ؛ وعلى الجملة فكل ما لا يحرمه القانون فهو حق لنا أن نعمله بشرط ألا يضر بحقوق غيرنا

أصل الواجب والحق : اختلف العلماء فى أصل الحق ولهم فى ذلك مذاهب شتى ونظريات عدة: منها نظرية الاتفاق ، ونظرية استقلال الإرادة ، والمصلحة ، والقوة ، والحاجة :

الحق والاتفاق : زعم روسو أن حق الفرد هو أصل الحقوق الاجتماعية ، وأن السلطة الاجتماعية كانت نتيجة عقد تم بين أفراد الجماعة الأولى ؛ وزعم بعض الفلاسفة أن الحقوق الاجتماعية هى أصل الحقوق الفردية أى أن الفرد لا يتمتع بحريته وملكيته إلا برضا وقبول من الحكومة ، والرأى الثانى شبيه بآراء أعوان الاستبداد ؛ فليست الحكومة مصدرا البتة لشىء ما؛ فلم تخلق الفرد ، ولا حريته ولا ملكيته ؛ ولكنها وجدت لحمايته ، وحماية حريته وملكيته

الحق والحرية : قال الفيلسوف « كنت » : الحق الطبعى هو جماع القيود التى بها تحفظ حرية الفرد بجانب حرية الجماعة . ويكون الحق « على هذا الرأى » لا تعلق له بالواجب ، أو العهد الأدبى لتجرده عن المعنوية التى هى القيمة الخلقية للأفعال البشرية ؛ لأن السلطة التى تحدد الحقوق لا تتعلق ولا ترتبط بالسلطة التى تقرر المبادئ الخلقية ؛ فالأولى هى الحكومة وهذه تصدر شريعتها بعنوان السلطة الخاصة التى لها لضبط الأفعال الخارجة لأفراد المجتمع بحيث يمكن بقاء

حرية الفرد بجانب حرية المجموع

والحرية المحضة دون نظر إلى القانون الخلقي لم تكن إلا سلطة اختيارية غير محدودة فلا تنشىء حقا .

ولا يفهم احترام حرية الأفراد إلا إذا كانت هذه الحرية شرطًا لازما لإتمام الواجب، فالحرية وحدها ليست مبدأ للحق ، وإنما مبدأ الحق هو الحرية محدودة بالواجب والخير

الحق والمنفعة : بين الفلاسفة من يخلطون الحق بالمنفعة، فيجعلون المنفعة مقياساً للحق ، ويصفون الحق بقولهم : إنه أداة يعمل بها الإنسان كل مالا يتناقض مع مصلحة غيره ، مع أن التاجر الذى ينافس غيره من التجار بشرف وصدق قد يضر بمصالح هؤلاء التجار ، ولكنه في الوقت نفسه لا يستعمل إلا حقه .

ويقول « استيوارت ميل » الذى هو من زعماء هذا الرأى : القول بأن عندى حقا معناه عندى شىء يضمنه المجتمع أى فى ضمانته وكفالته، فلا يمكن أن أقدم برهانا أقوى من المصلحة العامة . وإن الرفاهية التى ينشدها الفرد تتصل بالمجموع بعامل الجاذبية ، والميل الطبعى ، ثم ترجع إلى الأفراد بعامل آخر : وهو الاعتقاد بالتضافر المتين الذى يربط مصلحة الفرد بمصلحة العامة . هذا هو أساس الأدب الاجتماعى ، وأساس الحق عند أهل مذهب المنفعة .

الحق والقوة : « يرى هوبز » أن هنالك تلازما بين الحق والقوة : بمعنى أن الإنسان يقدر حقه بقدر ما يأنس فى نفسه من قوة ، وحق غيره بقدر مايرى فيه من قوة معادلة لقوته أودونها أوفوقها ، فالحق عنده لا يتميز عن القوة ولا يفارقها :

قال « فوستجريف » : إذا كان كل مايقع من الأمور يعد ضرورة ، وكان فى الدنيا عدل — يكون مايقع عدلا أيضا ، ولكن العدل أبدا فى جانب القوى القاهر، والمغلوب أبدا مذنب محقوق . فإذا كان أصحاب هذا الرأى يحسنون الظن بالدنيا،

ويرون أنها خير فى جملتها — وجب عليهم أن يحترموا الناجحين فى جهاد الحياة ، وينبذوا كل من سقط فى مضماره . أما إذا ظنوا بها شرا وكانوا من المسيطرين فقد تعين عليهم أن ينكروا وجود أى حق فى هذه الدنيا .

الحق والحاجة : أى النظرية الاشتراكية :

تتلخص هذه النظرية فى قولهم : « للانسان من الحقوق بقدر حاجاته » : أى له حق فى الخبز ، وحق فى الملبس ، وحق فى السكنى ، وحق فى العمل مادام قادرا ، وحق فى المساعدة إن كان عاجزا .

هذه النظرية لم يقرها الاجماع ، لأن الحق أبدا يتحدد بعلاقة الأشخاص الذين يهمهم ذلك الحق ، والموضوع الخاص بالحق ذاته ؛ والمشاهد أن الحاجات لا تدخل تحت حصر ولا تعيين ، فكيف يتيسر التفريق بين الحاجات الطبيعية والضرورية ، والحاجات الوهمية التى ليست إلا رغبات قد أصبحت بحكم العادة والحضارة من الحاجيات ؟ إنه من العسير الفصل بين شخصين أو أكثر يدعون المساواة فى حاجتهم إلى شىء واحد .

مما تقدم يتبين أن البحث عن أصل الحق يجب أن يكون فى طبيعة الانسان نفسه ، ويرى بعض الفلاسفة أن ما يكوّن هذه الطبيعة ، وما يجعل من الانسان كائنا خاصا مستقلا ممتازا عن باقى الكائنات — هو الحرية ؛ فقدرة الانسان ليست مقصورة على أن يحس ويشعر بما يدور بخلده ، بل منحه الله كذلك التأمل والروية ، فهو قادر على أن يسير بنفسه ، ويخلق أفعالا غير صادرة عن تأثير انفعالى يجىء من الخارج بل كسبها كسبا استقلاليا .

أما وقد وضح أن الحرية هى روح الصفة الانسانية فينا فقد وجب أن تكون عالية المنزلة جديرة بالاحترام إلى غير نهاية ، وأن كل عمل من شأنه قتلها أو انتقاصها — سوء معاملة ، أو تسوية له بالحيوان والجماد .

ومن ذلك يتجلى أن الحرية هى أصل الحق ، وما حقوقنا إلا مظاهر مختلفة لهذه الحرية بعينها .

هذا وقد تتضارب الحقوق والواجبات بعضها ببعض ، فيرتبك المرء ولا يدرى أيهما يعمل ؟ وأيهما يترك ؛ ولذلك كان لا بد من سن قوانين وقواعد توفق ما بينهما ، وتردهما إلى مبدأ أعلى نرجع إليه فى الفصل بين المتضاربين بما يقتضيه العقل الحكيم ، والضمير الحى ، والإرادة الحسنة ؛ والعبرة ليست فى لفظ القانون أو المبدأ أو الوصية ؛ ولكن المعول عليه النفوس المتأدبة الصالحة الراقية ؛ لذلك يجدر بنا أن نبذل الجهد فى تهذيب الأخلاق ، وتأديب النفوس أولا ؛ لأن الشخصيات هى التى تضع القوانين ، وليست القوانين هى التى تكون الأشخاص ؛ وجميع الواجبات تعتبر خلقية إذا قام المرء بها رغبا لا رهبا ، ولا خوفا من عقاب ، ولا طمعا فى ثواب ؛ لأن مكارم الأخلاق ليست بالقسوة والإكراه ؛ إذ الإكراه لا تتجلى فيه الإرادة ، وكلما بعد الواجب عن الإكراه كان فضيلة يندفع إليها الفاضل من تلقاء نفسه ؛ لهذا يجب أن يترك المرء وشأنه فى تقدير الواجب مادام له عقل يرشده وضمير حى يوحى إليه بالمكرمات

على أن بعض الواجبات قد حدد فى صيغته ، وهو ما كان أمرا أو نهيا كوصايا الدين ، ومنها ما ليس محددا بل يوكل أمره إلى طاقة المرء ، والمقتضيات الزمانية والمكانية كالمبرات التى يعجز عنها الفقير ، والنجدة التى لا يستطيعها الضعيف .

وهناك واجبات عرفية يجب احترامها كالمجاملة ، واحترام الشعائر الدينية ، والاعتراف بألقاب الشرف ، وإنزال كل شخص منزلته الاجتماعية ، وطاعة الابن للأب ، واحترام الصغير للكبير إلى غير ذلك .

الواجب لله جل وعلا

إن أول ما ينبغى أن يهتدى به المرء هو أن يعلم أن لهذا العالم صانعا : وطريقة ذلك أن يتأمل الموجودات كلها ليتبين أن لكل واحد منها سببا بطريق الاستقراء ، ثم ينظر إلى تلك الأسباب المباشرة : ألها أسباب أيضا أم ليست

لهـا أسباب ؟ حتى إذا وجد لهـا أسبابا تأمل ونظر : آلأسباب ذاهبة إلى مالا نهاية له ؟ أم هى واقفة عند نهاية ؟ أم بعض الموجودات أسباب لبعض على سبيل الدور؟ فإنه يجـد القول بأنها ذاهبة إلى غير نهاية محالا ؛ لأنه يقتضى التسلسـل وهو محال .

ويجـد القول بأن بعضها سبب لبعض على التعاقب محالا أيضا ؛ لأنه يلزم من ذلك أن يكون الشىء سببا لنفسـه ؛ فبـقى أن تـكون الأسباب متناهية ، وأقل ما يتناهى إليه الـكثير هو الواحـد ؛ فسبب الأسباب موجدها وهو واحد ، ولا يجوز أن يكون ذات السبب وذات المسبب واحدا ؛ فسبب أسـباب العالم منفرد بذاته عمـا دونه .

ولمـا لم يقدر الإنسان على معرفة شىء سوى ما شاهده بحواسه وفهمه بعـقله عمـا شاهده — لم يجد بدا من وصف البارىء الذى هو سبب الأسباب والتعبير عنه بمـا وجد السبيـل إليه من الألفاظ والأوصاف ؛ فلمـا أراد التعبير عنـه والوصف له وعلم أنه جل وعـلا لا يحده شىء من جميع الأوصاف التى شاهدها وعلمهـا لتفرده بذاته ولأنه منزه عن كل ما أحسه وعرفه — لم يجد طريقا أحسن من أن ينظر فى الموجودات التى لديه فإذا تأملها وجـدها صـنفين : فاضـلا وخسيسا ؛ ووجد الأليق والأجـدر بسبب الأسباب الواحـد الحق أن يطلق عليه أفضل الصنفين :

فمثلا إذا رأى الموجود والمعدوم وعلم أن الموجود أفضـل من المعـدوم أطلق عليه الوجود .

وإذا رأى الحى وغير الحى وعلم أن الحى أفضـل من غير الحى أطلق عليـه الأفضل وقال : إنه حى .

وإذا رأى العليم وغير العليم أضاف إليه العلم وكذلك جميع الأوصاف .

على أن الواجب على كل من يصف البارىء بصـفة ما أن يخطر بباله مع تلك

الصفة أنه بذاته منزه عن أن يشبه تلك الصفة ، وأنه لايتهيأ لأحد إحاطة العلم به كما هو مستحق له

على أن كل واحد يشعر بفطرته أن هناك فى الوجود قوة عظيمة : هى مصدر عجائبه وإبداعه ونظامه الدقيق . وهذا الشعور النفسى وإن بدأ فى العصور الأولى محدودا ومرتبطا بالتقاليد الأسرية — قد أخذ يعظم فى النفس باتساع نطاق التفكير والاختبار ، والتوسع فى المبادىء العلمية والعملية .

وإن من الفكر البدهية المقررة فكرة وجود ذات علية قدسية كاملة ، مبدعة لحياتنا ، ملهمة للخير والشر على أحكم نظام وأدقه . ولقد يشعر الإنسان فى أعماق نفسه بشوق عظيم نحو ذلك المصدر الكريم والينبوع الصافى .

والعلوم البشرية تقوى هذه الفكرة فكرة وجود الإله الأعظم والمعبود بحق سبحانه تقدس فى علاه ، وليس هناك ما ينفى مبدأها ؛ لأنها تكشف لنا الغطاء عن الأسباب التى تدهشنا فى هذا الكون العجيب : فقانون الجاذبية العام الذى كشفه إسحق نيوتن أبان لنا سِرّ التوازن فى النظام الشمسى ذلك التوازن المحكم بتقدير العزيز العليم .

وإذا كان الإنسان مرتبطا بهذا العالم كأعظم مخلوق وجد على ظهر البسيطة ، وأشرف كائن فيها ـ فليس غريبا أن تكون عليه واجبات للذات العلية القدسية التى أوجدته من العدم ، وشرفته بالعقل والسلطان القوى .

ومن التقديس لله تعالى الاعتراف بعظمته وإحكام السنن التى يجرى عليها هذا الكون العجيب ، وهذا يأتى بتهذيب العقل وترويض الوجدان على البر والخير ، وتجنب الرذائل والشرور التى هى من عمل الشيطان . وكل من يدرك أن الله سبحانه هو مصدر كل القوى الطبعية ونظمها وسننها يشعر بالعجز عن الاعتراف بجميله سبحانه اعترافا وافيا .

والطاعة لأمر الشرائع التى أنزلها الله على أنبيائه الكرام هى من الواجبات المقدسة التى تنفع المرء فى معاشه ومعاده .

ويدخل فى باب الواجبات الدينية من حيث تقديس الذات العلية تأمل هذا الكون العظيم وتدبر آيات الله البينات ، والتبصر فى بدائع العقول البشرية التى أحكمها الله ، فأبرزت عجائب الآراء والمخترعات .

ونذكر هنا موجزا من قول «جول ستيبج» فى كتابه الرجل الشريف :
« إن فى رقبة الإنسان واجبات لكل كائن ، أفلا تكون عليه واجبات لله تعالى ؟ لتلك القوة السائدة على الكون ؟ لذلك الخير المحض الذى لا حد لفضله ووجوده ؟

فهذا الإحساس الذى يلازم القلب البشرى هو الإحساس الدينى الذى تفيض عنه كل الواجبات التى تسمو بالحياة :

فمن تلك الواجبات الدينية إكبار شأن الخليقة والإعجاب بها ، وتمجيد خالقها عند مشاهدة بدائع القبة الزرقاء المزينة بزينة الكواكب ، وعجائب الأرض والسماء ، والذى يمر بهذه الآيات البينات غير مكترث بها لا يمكن أن يكون إنسانا !

ثم إن من الواجبات الدينية محبة الناس إخواننا فى الإنسانية ، ومحبة كل ماهو خير وحق ، وأن نفسح للضمير والوجدان باب الخير والحكمة ، مع حب الفضيلة والإخلاص والترفع عن الأثرة والكبرياء . »

وحرية الدين قد كفلها الإسلام : تأمل قوله تعالى : « لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ » وقوله تعالى : « وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ »

ومما يجمل ذكره قول بعض الحكماء : الدين الحق ما أحيا نفسك وأيقظها وأوجد فى نفسك ذلك الشعور بقيمة الوجود ، وفى فؤادك تلك الثقة وذلك الأمل العظيم ، مغريا لك بالظهور دائما بمظهر الرجولة مرشدا إياك إلى التسمح وحب الواجب .

إلى الإخلاص فى العبادة وتفهم كنهها هما أساس العبادة والتدين ؛ فليس معنى الدين مجرد القيام ببعض العبادات والمراسم دون أن يكون هناك أثر فى صميم النفس .

وخليق بالإنسان بعد أن يعلم أن الله متفرد بذاته لا شبيه له فى صفاته أن يتأمل أجزاء العالم كلها ؛ فإنه يجد أفضلها ماهو ذو نفس ، ويجد أفضل ذوى النفس الذى له الاختيار والإرادة والحركة التى عن روية ، وأفضل ذوى الإرادة والحركة عن الروية الذى له التمييز والفكر والنظر البليغ فى العواقب ، وهو الإنسان الكامل ؛ وأن يعلم مع ذلك أن الطبيعة لا تفعل شيئا باطلا فكيف مبدع الطبيعة ؟ والبارئ تعالى الذى وهب الاختيار والفكر والروية لم يكن ينبغى أن يهمل أمرها ، وكان من مقتضيات عدله وصنعه المتقن أن ينهج لها منهجا تسلكه ، ولهذا اقتضت حكمته ألا يرسل إلى ذلك الإنسان من ليس من طبعه ؛ لأنه لم يكن يقدر على الاستفادة ممن هو من غير طبعه : « وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا »

وظاهر أن فى الناس وفى عقولهم وقوى نفوسهم تفاضلا بينا ، حتى إن الواحد منهم قد يفوق بالفن الواحد جميع ذوى جنسه ويعجز الباقون عنه ، فممكن إذن أن يكون من الناس من يقوى على أن يوحى إلى قلبه بما يعجز ذوو جنسه عن مثله حتى يقوم ذلك الواحد بتبليغ ما يلقى إليه ، ويقدر بتلك القوة بتبليغ الأحكام ونهج السبل الداعية إلى صالح الخلق . ومتى صح الدليل على أن ذلك الواحد مرسل من عند الله وجب على كل ذى تمييز اتباعه والعمل بشريعته .

حق الله على عباده

مما تقدم يتضح أن الله هو الكمال والخير وأنا مدينون له بحياتنا وكل ما نتمتع به من النعم ؛ فإذا لم نشعر قلوبنا شكره على ما أسبغ علينا من آلائه كنا قد أتينا أشنع أنواع الجحود .

فأول واجباتنا إذن أن نمجده وأن نهمل أولئك الضالين الذين يعتقدون إمكان وجود الناقص من غير أن يكون الكامل موجودا ، أو أن الله ترك الخلق بعد أن أوجده : « سُبْحَانَهُ وتَعالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيراً » وكيف نمجد الله ؟ :

إن أول طريقة لتمجيده هى الخضوع لقانون الأخلاق وعدم معارضة الخير لأنه من صنع الله ، فمعارضته محاربة لله وعصيان لإرادته .

ويجب أن نطهر قلوبنا ؛ فكل عبادة صادرة من غير إخلاص لا ترضى الله ؛ إن الذى يخلط أعمال العبادة بما يفعل فى حياته من فساد يكون مزدرى حتى من غير المؤمنين ، ولن يعتقد أحد الإخلاص فى شعور دينى لا يلهم صاحبه سيرة شريفة ؛ إذ كيف يمكن أن نحب الله ثم لا نجل فى أنفسنا أكمل ما صنعت يداه ؟ كيف يمكن أن نحب الله ولا نحب العدل ؟ وإليك العبادة التى يرضاها الله :

أن تكون مستقيما عدلا خيرا برا بوعدك باذلا منفعتك فى سبيل واجبك غير متردد ولا كاره ، وألا تغض من نفسك باقتراف المخازى والدنايا ، فتضع من شرف الإنسانية ، وأن تجتنب ما استطعت كل اعتداء على حق غيرك ، وأن تضحى براحتك لسعادة أمثالك ، وأن يكون فى قلبك عطف على مخلوقات الله ، وأن تترك منْ بعدك مثلا للفضيلة وذكرى طيبة .

وهناك واجب هام وهو أن نشكر الله بأعمالنا كشكره بألسنتنا ؛ إننا لنتألم ممن لا يسدى الشكر لمن أحسن إليه : كذلك لا يمكن أن نكون أحباء لله من غير أن نردد اسمه على ألسنتنا ، ولا ينبغى أن نقول : إن الله غير محتاج إلى إجلالنا إياه ؛ فإن ما للمحسن من عظمة لا يبرئنا مما علينا من الواجبات ، فعلينا أن نشكره وإن لم ينله شىء من شكرنا أو جحودنا .

وشكر الله وإن كان لا ينفعه — مفيد لنا ؛ إذ كل شعور يتفق مع النظام يطهرنا ؛ وتقوى الله تحبب إلينا الخير وتجعل القيام به علينا يسيرا ، وكل ما للنفس التقية من توجه إلى الله إنما هو توجه إلى الفضيلة ؛ فإذا كان الحق أن الله يعلم

مافى الكون على سبيل التفصيل وأنه رحيم بالناس فإن هذا وحده يكفى لنرفع إليه أكفنا ونوجه إليه قلوبنا طالبين منه المعونة .

وينبغى ألا نقصر مطالبنا من الله على النجاح أو الثروة أو إرضاء الشهوات ، بل علينا أن نسأله الفضيلة التى تجعلنا أهلا لأن ننتسب إليه : لنطلب منه أن يوفقنا لاحتمال المصائب راضين ولنمتع بالسعادة متواضعين ، لتكن عبادتنا عملا من أعمال حبناله ورضانا عنه وثقتنا به .

مايجب على الانسان لخالقه فى نظر أرسطو

لم ينص أرسطو على العبادة التى يجب أن نلتزمها لخالقنا عزوجل غير أنه قال ما معناه : قد اختلف الناس فيما ينبغى أن يقوم به المخلوقون لخالقهم :

فبعضهم رأى أنه صلوات وصيام وخدمة هياكل وقرابين ،

وبعضهم رأى أن يقتصر على الإقرار بربوبيته والاعتراف بإحسانه وتمجيده على حسب استطاعته ،

وبعضهم رأى أن يتقرب إليه بأن يحسن إلى نفسه بتزكيتها وحسن سياستها، ثم إلى المستحقين من أهل نوعه بالمواساة والموعظة ،

وبعضهم رأى اللهج بالفكر فى الإلهيات والعمل على معرفة ربه عزوجل حتى تتكامل معرفته به وبحقيقة وحدانيته ،

وبعضهم رأى أن الواجب لله جل ذكره على الناس ليس سبيله واحدا ، ولا هو شىء بعينه يلتزمه الجميع التزاما واحدا ، وعلى مثال واحد ، لكنه يختلف على حسب اختلاف طبقات الناس ومراتبهم من العلم .

وذهب الفلاسفة من بعده إلى أن عبادة الله عزوجل على ثلاثة أنواع :

أحدها: فيما يجب له على الأبدان كالصلاة والصيام والسعى إلى المواطن الشريفة لمناجاة الله عزوجل

والثانى : فيما يجب له على النفوس كالاعتقاد الصحيح والعلم بتوحيد الله عز اسمه ، وما يستحقه من الثناء والتمجيد ، وكالفكر فيما أفاضه على العالم من

وجوده وحكمته ، ثم الاتساع فى هذه المعارف .

والثالث: فيما يجب له عند معاملة الناس ومعاونتهم وعند جهاد الأعداء والذب عن الحريم وحماية الحوزة

ثم قرر هؤلاء الفلاسفة أن للانسان مقامات ومنازل عند الله عزوجل :

فالمقام الأول للموقنين وهو رتبة الحكماء وأجلة العلماء .

والمقام الثانى مقام المحسنين ، وهو رتبة الذين يعملون بما يعلمون ،

والمقام الثالث مقام الأبرار ، وهو رتبه المصلحين ، وهؤلاء هم خلفاء الله بالحقيقة فى إصلاح العباد للبلاد ،

والمقام الرابع مقام الفائزين ، وهو رتبة المخلصين فى المحبة وليس بعدها منزلة ولا مقام لمخلوق

ويسعد الانسان بهذه المنازل إذا حصلت له أربع خلال :

أولها الحرص والنشاط ، والثانى العلوم الحقيقية والمعارف اليقينية ، والثالث الحياء من الجهل و نقصان القريحة اللذين يحدثان بالاهمال ، والرابع لزوم الفضائل والترقى فيها دائما على حسب الاستطاعة. وهذه كلها أسباب الاتصال بالله تعالى .

أما أسباب الانقطاعات عن الله عز وجل وهى التى تعرف بالمساقط :

فأولها السقوط الذى يستحق به الاعراض وتتبعه الاستهانة ،

والثانى السقوط الذى يستحق به الحجاب ويتبعه الاستخفاف ،

والثالث السقوط الذى يستحق به الطرد ويتبعه المقت ،

والرابع السقوط الذى يستحق به الخسأة ويتبعه البغض ،

وإنما يشقى المرء إذا حصل على أربع خلال :

أولها الكسل والبطالة ، ويتبعهما ضياع الزمن وفناء العمر بغير فائدة إنسانية ،

والثانى الجهل المتولد عن ترك النظر ورياضة النفس بالتعليم الصحيح ،

والثالث الوقاحة التى ينتجها إهمال النفس إذا اتبعت الشهوات وترك زمامها لركوب الخطايا والسيئات ،

والرابع الانهماك الذى يحدث من الاستمرار فى القبائح وترك الإنابة .

وهذه الأنواع الأربعة لها بلسان الشرع أربعة أسماء : فالأول الزيغ ، والثانى الرين ، والثالث الغشاوة ، والرابع الختم .

ولكل واحدة من هذه الشقاوات علاج خاص يذكر فى موضعه

وصفوة القول أن حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا : وعبادته الخضوع له فيما أمر ونهى : فنؤمن برسوله ، ونصدق بكتبه ، ونقيم الصلاة ، ونؤتى الزكاة ، ونهذب نفوسنا ، ونصح أجسامنا بصونها ، ونحسن عشرة الناس ، ونصدق فى معاملتهم ، ونخالقهم بخلق حسن ، ونقف عندما شرع الله ، لا نتعدى حدوده ، ولا نتجاوز رسومه ، ونجانب كل ما نهى الله عنه من الخبائث مما هو اعتداء على النفس أو المال أو العرض وإضرار بالخلق .

وأما توحيده فمعناه اعتقاد أنه وحده صاحب الخلق والأمر وأن غيره لا يملك ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله ، وجعل الأعمال خالصة لوجهه لا يشوبها خداع ولا رياء ولا تدليس ولا نفاق .

وأما حق العباد على الله إذا هم عبدوه حق عبادته وأخلصوا له الدين وأسلموا وعمروا القلوب بتوحيده وطهروها من دنس الإشراك — فهو ألا يعذبهم ؛ وكيف يعذب من توفى على طاعته ، وكان عبده السميع : تقرع آذانه آى الوحى فإذا به قد مثلها فى عمله وأظهرها فى خلقه ؛ ويسمع هدى الرسول فإذا به قد اتخذه إماما وقدوة وهاديا وأسوة .

اقتضى عدل الله ورحمته أن يسبغ نعمته على عباده المخلصين ؛ فهو البر الرحيم: اقرأ قوله تعالى : « وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى

فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى»

ويجمع حق الله على عباده وحقهم عليه ما روى عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال :

« بَيْنَمَا أَنَا رَدِيفُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا آخِرَةُ الرَّحْلِ فَقَالَ : يَا مُعَاذُ ! قُلْتُ : لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ . ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ، ثُمَّ قَالَ : يَا مُعَاذُ ! قُلْتُ : لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ . ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ، قَالَ : يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ ، قُلْتُ : لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ . قَالَ : هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ ؟ قُلْتُ : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ : حَقُّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا . ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ، ثُمَّ قَالَ : يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ ، قُلْتُ : لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ . قَالَ : هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ إِذَا فَعَلُوهُ ؟ قُلْتُ : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ : حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ أَلَّا يُعَذِّبَهُمْ » . رواه البخارى ومسلم وأحمد .

الواجب للمجتمع

إجمال

الواجبات المفروضة للناس بعضهم على بعض لا تخرج من دائرة العدالة والإحسان ، وإليك أساس تلك الواجبات :

إن أساس الواجب على الإنسان لأمثاله وحدة الأصل والطبيعة والغاية ، ثم ضرورة تقوية الناحية الاجتماعية فيه لتكمل له الوجهة الخلقية :

ألا ترى أننا نعتبر الناس أمثالنا ؟ : ذلك لأننا جميعا من أصل واحد ومن طبيعة واحدة ؛ فلنا عقل يهدينا ، وقلب يحركنا ، وحرية تجعلنا مسئولين عن أفعالنا ، ولنا غاية واحدة ،

وللوصول إليها يجب أن نتبع قانونا واحدا هو قانون الأخلاق ، وهو قانون عام مطلق منقوش على صفحة الضمير يفرض على الجميع واجبات واحدة . وللقيام بهذه الواجبات منحهم حقوقا واحدة فُرض على الجميع احترامها خلقيا ، كلٌّ بالنسبة لأخيه ، وذلك هو المعبر عنه بالعدل ،

وقد فُرضت علينا المعاونة على أداء تلك الواجبات بعضنا لبعض ؛ لأن الإنسان خلق بحيث لا يستطيع أن يستغنى عن بنى جنسه فى الشئون المادية والأدبية والعقلية ، ومن ذلك فُرضت المساعدة عليك لمن هو أقرب إليك من غيره ووجب الإخلاص له ؛ فالمساعدة عدل والإخلاص إحسان ، وكلاهما حق وواجب لتحقيق الوجهة الاجتماعية التى هى أساس الوجهة الخلقية

تفصيل

الحقوق الطبعية :

كل واجب من الواجبات التى يفرضها علينا الضمير بوصفها نتيجة لازمة للطبيعة البشرية التى لابد لكمالها من تحقيق الوجهة الخلقية فيها — يقابله حق من نوعه ليس لنا أن نتنزل عنه ، وإلا كان تنزلا منا عن عهودنا .

هذه الحقوق سميت بالحقوق الطبعية ؛ لأنها مشتقة من الطبيعة البشرية . وهى عامة بين الجميع لا يحرمها صغير أو كبير ، رفيع أو وضيع ، واجبة الاحترام من كافة الناس بعضهم لبعض . وهى فى الحقيقة ليست إلا الحرية الشخصية فى صورها المختلفة ؛ فالإنسان له حق فى احترام حياته وحريته وضميره وسائر قواه وشرفه وأمواله :

١ — احترام الحياة :

حق الحياة أول الحقوق وشرط لازم لقيام الحقوق الأخر ؛ فالإنسان لا يستطيع القيام بأى حق دون أن يتمتع بالحياة ، ولذلك كان حقه فيما يوصله إلى هذه الغاية واجب الاحترام حتما ، والحياة هى أولى الوسائل لبلوغ الغاية

المرجوة ، فحرمانه إياها جريمة من أكبر الجرائم ؛ لأن فى قتل النفس ضياع جميع الحقوق والعهود اللاصقة بالطبيعة البشرية . ومعلوم أن درجة الإجرام تزيد وتنقص بنسبة مافى الجريمة من عمد وسبق إصرار ، وما بين القاتل والمقتول من الروابط الحقيقية والمعنوية .

ويستثنى من احترام الحياة حالة الدفاع المباح وعقوبة الإعدام والحروب دفعا عن البيضة واستخلاصا لحق الأمة :

أما الدفاع المباح فهو استعمال كل وسيلة حتى القتل فى الدفاع عن الحياة متى حاق بها خطر محقق ،

والحروب دفاع مباح لحماية الأمم ، وهى بذلك مشروعة فإذا أعلنت دون وجه شرعى كانت مسئوليتها على رجال الحكومات إلا إذ وجدت أسباب تسوغها بأن كانوا مرغمين على أن يخوضوا غمارها بدافع قهرى عالمين أنها ظالمة جائرة ،

وتقوم الحروب على الأصول المقررة بالقوانين الدولية ، وكلها على أساس احترام الحياة البشرية كما انتفت الضرورة القاضية بإلقائها إلى التهلكة .

وقد شرعت عقوبة الإعدام لحماية المجتمع وهي من مقتضيات العدل: (وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ) بيد أن نبذ السنن الشرعية فى تنفيذ تلك العقوبة وركون القضاة إلى القوانين الوضعية جعل الفلاسفة يوجهون إليها اعتراضات لها قيمتها نجملها فيما يلى :

أحدها : نقص الشرائع البشرية وتقلبها ؛ فالمذنب فى نظرها الآن يصبح بريئا ، والبرىء اليوم يكون فى الغد مذنبا ،

وثانيها : فقد الإنسان الكمال والعصمة التى يأمن معها العثار والخطأ فى الحكم ؛ فقد يفلت من يده المذنب ، ويغمد سيف عقوبته فى صدر البرىء .

وثالثها : أنه ليس للإنسان حق قتل الإنسان ،

وتلك اعتراضات لها قيمتها وأثرها فى منع المجتمع أن يكون له حق القتل

والإعدام :

انظر إلى ما أصاب الأمة الفرنسية منذ أكثر من قرن حينما أصابتها حمى الثورة ، واحص الرءوس البشرية التى تناثرت تحت سكين (الجليوتين) وميزها : هل كانت كلها رءوس أشرار مجرمين ؟ : لقد كان من بينها جباه عليها سيما الطهارة والفضيلة التهمتها نار الثورة التهامها الأشواك وأزهارها .

إنك لترى الفضيلة فى أولئك الشهداء قد لقيت عقاب الرذيلة ، والرذيلة فى هؤلاء الذين دنسوا أيديهم بالقتل نالت أو كادت تنال جزاء الفضيلة ، وكل ذلك ثمرة الشرائع البشرية والقوانين الوضعية ،

وإذا كانت الشرائع البشرية يتطرق إليها مثل هذا الفساد وكان المحافظون عليها تتملكهم مثل تلك الأهواء — فمن الظلم أن يكون للمجتمع حق الإعدام على أساس ذلك النظام المضطرب وتلك الأهواء .

ليس هناك قاض ولا شريعة وضعية قيل بعصمتهما وكمالهما :

حكم قاض بإعدام زيد ونفذ فيه ؛ لأن جريمته السياسية ثبتت لدى القاضى ، ولكن ما كاد الناس ينسون هذا الحكم حتى انكشف الغطاء عن تلك الجريمة، وعن مقترفها وبان للمحكمة أنه عمرو لا زيد : كيف تكون حال القضاة وقتئذ ؟ :

إنهم يقضون بقية العمر فى مرارة يستحبون معها الموت ؛ لأن ضمائرهم لا تفتأ تمعن فى تبكيتهم قائلة : إنكم ضربتم بسيف العدل بريئا لا أثيما ، وإن ضربة الجلاد لم تصب عنق ذلك المسكين فقط ، بل أصابت معها العدالة فى قلبها .

وإن عجز المجتمع حينئذ عن إصلاح خطئه وعن رده ذلك الشهيد البرىء إلى أسرته ووطنه — إهانة للعدالة . ولو كان الرجل لايزال حيا فى السجن لأخرجوه فرحين قائلين له : لا بأس عليك ؛ لقد خدعنا ؛ فاخرج باسم العدل وادع للحكومة والأمة .

وأكثر ما يكون هذا الخطأ فى الضغائن السياسية التى تشتعل بين الأحزاب، وتجعل القانون فى يد الحزب الغالب نارا وانتقاما لا بردا وسلاما : فكم من

برىء حسبوه اليوم مجرما فأعدموه ولو أبقوا عليه إلى غد لرأوه بريئافأ كرموه وعظموه .

ولا نعنى بذلك الاغضاء عن المجرمين وتركهم يمرحون بين عباد الله مرح الذئاب بين فرائسها ، وإنما نريد أن نكف أذاهم ونقى المجتمع شرهم بدون إزهاق نفوسهم والعدوان على حياتهم : فما العقوبة التى تحل محل الاعدام وإزهاق النفس ؟ : أيحل محله التعذيب والتمثيل ؟ كلا ؛ فإن التمثيل قد نهت عنه كل الشرائع المتمدينة دينية كانت أو بشرية : قال صلى الله عليه وسلم : « إِيَّاكُمْ وَالمُثْلَةَ وَلَوْ فِي الْكَلْبِ الْعَقُورِ »

ومنذ إنشاء العالم إلى الآن نرى الاعدام جائزا فى كل الشرائع مقبولا لدى كل الأمم ، وهو من حق المجتمع فى حالة الدفاع فقط ، أما إذا ثبت أن المجتمع يمكنه الدفاع عن نفسه دفاعا أكيدا بغير سلاح الاعدام كالسجن المؤبد مثلا — سقط حق الاعدام سقوطا نهائيا ، ولم يعد من محل له فى الشرائع المتمدينة .

وإذ قد مسسنا الآن موضوع المسجونين والسجون لا يسعنا الانتقال من هذا الموضوع بدون أن نقول فيه شيئا :

إن إطلاق المجرمين فى سجن واحد والترخيص لهم فى الاجتماع وقتل الوقت فى القصص والمحادثة أمر يخالف مبدأ السجن وهو العزل والفصل عن بقية أعضاء المجتمع ، وربما كان ذلك سببا لزيادة الجرائم واستهانة المجرمين أمر السجن كما يشاهد فيهم : فالمسجون قد يألف سجنه حتى لا يرى فى الاقامة فيه عذابا وضجرا ،

وما يضره أن يسجن وهو فى سجنه آكل شارب لاعب منشد راقص ، وله فيه أصدقاء يختلف إليهم ويجتمع بهم ويقص عليهم تفاصيل جريمته مفتخرا بقوته وشجاعته حتى بجريمته أيضا ؟

ومن طالع رواية الكاتب الشهير أوجين سو الفرنسى « مكنونات باريس » — رأى ما انتقده هذا الكاتب على سجون بلاده وما أشار به عليها :

فقد أشار أن يعزل كل من المجرمين فى غرفة صغيرة نظيفة ويقدم له كل لوازمه لكى تقطع كل علاقة له مع الخارج ومع المسجونين رفاقه ، وذكر لهذه الطريقة منافع كثيرة منها :

(١) بقاء المسجون تلقاء ذنبه وضميره نهاره وليله ، وربما ساعد ذلك على انتباه ضميره .

(٢) منعه من الاجتماع برفاقه يبطل التنافس بينهم بذكر جرائمهم ، ولا يمهد لهم سبل ارتكاب جرائم جديدة فى السجن .

(٣) يرى المسجون أن العيش فى السجن ثقيل مضن لما يلاقيه من وحشة الوحدة وتأنيب الضمير ، فمتى أطلق اجتنب الشر حتى لا يعود إلى حيث يبغض المقام ويستثقله .

وكثير من الفلاسفة يرون أن سجن الجانى وعزله طوال حياته على هذا المبدأ يقوم مقام الإعدام وهو خير من الإعدام ؛ لأنه أقرب إلى التمدين والإنسانية .

أما المبارزة فغير جائزة أصلا سواء فى ذلك الهجوم والدفاع ؛ على أنه لا دفاع فيها ؛ وإذا كان المبارز يرى نفسه مضطرا للدفاع عن نفسه فى موقفه تجاه خصمه فلا يخليه ذلك من ذنبه ؛ لأنه كان فى استطاعته رفض المبارزة واجتناب ذلك الموقف ؛ وإذا حسب أن فى رفضه ضياعا لشرفه فما هذا الشرف الأثيل الذى أساسه الخشونة والقوة الوحشية ؟ وليس هناك حكمة فى أن يتحاكم اثنان إلى السيف تاركين الحكم الشرعى إلا ما عساه من إيثار البربرة والخشونة ميلا مع النفس إلى الفطرة الأصلية ،

وإن قيل: قد يضطر الإنسان إلى المبارزة حينما لا يتناول القانون إهانة لقيها أو حين يريد ألا يطلع أحد على تلك الإهانة — قلنا : تبا لعدالة لا تعرف غير القتل جزاء سوت فيه بين الجرائم كبيرها وصغيرها ، وما المبارزة إلا جناية فى نظر الشريعة الأدبية

٢ — احترام الحرية والضمير :

إن المبدأ الذى قرر لحماية الحياة ينطبق أيضا على حماية الحرية ؛ إذ كيف يُنتفع بالحياة إذا لم يمكن القيام بواجباتها واستعمال حقوقها للوصول إلى غايتها . وجلى أن الإنسان لا يكون حرا حتى يكون شخصا قادرا على أن يتكلم ما يريد ويفعل ما يريد طبقا لصوت الضمير ؛ ومن هنا جاءت الحرية الدينية والحرية الشخصية .

ولا يكفى أن يكون المرء غير مكره على عمل ما ينهى عنه ضميره ، بل لا بد أن يكون له حق العمل بما يأمره أيضا .

حرية الضمير :

هى الأولى فى درجات الحرية وأهمها ، ولما كان الضمير هو المرجع الأعلى للإنسان فى كل حالة من حالات الحياة الخاصة لخير يفعله أو شر يجتنبه كانت حرية الضمير هى الغاية التى ليس وراءها زيادة لمستزيد .

تكون الحرية صحيحة مشروعة متى كانت وفقا للضمير غير مخالفة له ؛ لأنه كمال الحرية فى حسن السير على نهج قانون الضمير ، أما الخطأ والهوى والإكراه غير المشروع فكلها قيود ضارة بالحرية ، وكل إكراه يراد به إبعاد الشر ومحوه ، وكل قوة يقصد منها أفعال يأباها الضمير ولا يقرها ـ كل ذلك لا يعتبر اعتداء على الحرية .

وتحريض غيرك بالقول أو القدوة السيئة على فعل الشر احتقار لضميره ومخالف لمقتضى القانون الأدبى ، وكذلك منعك غيرك أن يطيع ضميره أو إكراهك إياه على أن يخالفه غض من الكرامة الإنسانية .

حقا هناك قيد لا محيص عنه وقد أجمله « رينان » فى قوله :

لا تباح حرية القول إلا إذا كان جمهور المخاطبين على جانب من الذكاء وحسن التمييز بحيث يفهمون ما يقال لهم فيميزون صحيحه من فاسده ، وإذا وجد من بين الناس طبقة لا يقدرون على التمييز وحسن الفهم وجبت مراقبة ما يلقى عليهم ؛ لأن حرية القول وإن كانت حقا للمتكلم لا جدال فيه ولا حد له ـ

مقيدة بألا تمس حقوق غيره وبوجوب مراعاة حال المخاطبين :

والقيود التى وضعت لحرية التكلم إنما وضعت لمصلحة المخاطبين دون المتكلمين فمشروعيتها جاءت من ناحيتهم ولخيرهم .

ولما كان الضمير غير معصوم بل يخطئ ويصيب كان المجتمع ذا حق فى أن يقر أفعال الانسان أولا يقرها تبعا لمشروعيتها وصلاحيتها :

فالذى يريد أن يقتل عدوه مثلا انتقاما لشرفه إنما يسير تبعا لضميره المخطئ الضال ، وإذا أقدم على فعلته كان عليه تبعتها ، لا يبرئه أنه فعل الواجب وأطاع ضميره على غير هدى ،

كذلك الفتى الذى يناجيه ضميره بأنه غير مكلف الخدمة العسكرية لا يبرئه مافى ضميره من زيغ وضلال ؛ ومن ذلك كان على الانسان ألا يطيع إلا نداء الضمير الموفق السليم .

التسمح وعدم المبالاة :

هناك فرق عظيم بين التسمح وعدم المبالاة ؛ لأن عديم المبالاة لا يعلن عن رأيه بقول أوفعل ، بل هو إنسان غامض لاتعرفه لك أو عليك ؛ فهو أمام الخير والشر والحق والعدل ــ جبان مطيع لذاته : وقد قال السيد المسيح : من لم يكن لى كان علىّ .

أما التسمح فهو الاغضاء عن الشر والاحجام عن منعه وترك عقاب فاعله ، وهو نوعان : مقبول وممنوع :

فالتسمح المقبول هو أن تعرف الشر ثم لا تقدم على منعه أو معاقبة فاعله خوفا من شر أكبر أو أملافى خير أعظم ،

أما التسمح الممقوت فهو ما تم على ضعف إرادة صاحبه بغير تقدير للملابسات التى يقع فيها الشر ، فيمتنع عن درئه وربما حسنه وأقره فى ذاته ،

نعم إن التسمح مع غيرك فى آرائه والصبر فى المناقشات والمجادلات ــ من الفضائل الممدوحة ، ولكن يجب أن يكون له حد معين فلا يقف دون الدفاع

عن الحقيقة ؛ فإن الغضب عند الشر والسخط على الآراء والدعاوى المخالفة للآداب والاحتشام — من الواجبات العامة .

الاسترقاق :

يخالف الحرية الشخصية الاسترقاق والمكاراة ، والاسترقاق المطلق ينافى الحقوق الطبعية بالبداهة ؛ فهو جناية على البشرية وإهدار حرمتها ، وليس للإنسان أن يقبل التنزل عن حريته ليكون عبداً قناً ، ولا لإنسان أن يكره غيره على أن يكون كذلك .

قامت حملات العالم المتمدين على الاسترقاق ؛ فقضت عليه قضاء مبرما لا رجعة بعده ، وحاربه أنصار الإنسانية قائلين : إن الناس يجب عليهم أن يتحابوا وأن يتعاملوا معاملة الإخوة ، والاسترقاق ينافى الإخاء المطلوب والمحبة بين الناس .

وقد رد عليهم بعضهم قائلا : إن الاسترقاق لا يمنع حسن المعاملة ، وكثيرا ما شوهد بين الأرقاء من هم أرغد عيشا وأرفه حالا من الأحرار ؛ فلم ينهض قولهم دليلا ، وحاربه الاقتصاديون بسلاح المنفعة قائلين :

إن عمل الحر أكثر إنتاجا من عمل الرقيق ، وإن الاسترقاق عقبة فى سبيل تقدم الثروة ورفاهة بنى الإنسان . فرد عليهم بعضهم بأن المنفعة تنصح لا تأمر : أى أن الإباحة والحظر لا يكونان أبدا باسم المنفعة فلا سلطة لها ، وبناء على هذا لا يكون لها قوة الإلزام .

قد أثبت التاريخ أن براهين أنصار الإنسانية والاقتصاديين مع علو مكانتها وشرف منزلها لم تكن كافية للقضاء على الاسترقاق فى العالم القديم ، فظل قائما لم يهدم ركنه إلا بداهة الحقوق الطبعية وقوة القانون الأدبى الذى يفرض على الإنسان واجبات ويمنحه حقوقا لا يقف فى طريقها جبروت ولا طغيان ؛ شأن الحق الدائم مع القوة الزائلة مهما طاولتها الأيام والليالى :

فالإنسان كائن وجد فى هذه الدنيا لغاية يصل إليها من طريق خاص به ،

وليس لأحد أن يصده عنها أو يسعى ليحول بينه وبين استعمال ملكاته لبلوغ هذه الغاية ، والاسترقاق يسلب الإنسان حرمته وحقوقه وواجباته ، بل يجعله سلعة من سلع الأسواق ، وهذا منتهى الاعتداء على حقوق الإنسان الطبيعية .

وقال بعضهم : إن الاسترقاق حق من حقوق الغالب الظافر لأنه استعاض استرقاقه من أسره . ورد « منتسكيو » عليهم : بأن قتل المحارب لا يحل إلا عند الضرورة القاضية لقتله ، ومن أُخذ أسيرا سقطت الضرورة فيه وامتنع قتله .

المكاراة :

كان فى القرون الوسطى ضرب من الاسترقاق يتعلق بالتصاق الأشخاص بأراضى الأمراء الملتزمين ، وكانت بين المكارى والرقيق فروق عديدة :

فقد كان الرقيق سلعة أو عينا ، والمكارى لا يزال إنسانا وإن كان لاصقا بأرض الالتزام لا يمكنه الانتقال منها إلا أنه ذو حق فى امتلاك عقار بشروط مخصوصة ، فلم يسلب إلا جزءا من حريته لتأدية واجبات معينة ،

وأولاد الرقيق لسيده ، أما عيال المكارى فلأبيهم وإنما عليهم خدمة الأمير الملتزم .

وينعقد الزواج الشرعى وروابط القرابة والوراثة بين المكارين بخلاف الأرقاء ، فلا ينعقد بينهم زواج ولا توارث بينهم .

تجاوز حدود السلطة :

ومن ألوان الاسترقاق الإفراط فى استعمال حق السلطة أو الولاية من الحكام أو الآباء ورؤساء الطوائف أو المعامل ومعلمى المدارس بفرض أعمال غير مشروعة ،

وهذا هو الذى دفع إلى وضع القوانين واللوائح الخاصة بحقوق العمال وأصحاب المعامل وغيرها لصون حرية العمال والرفق بحالهم ومراعاة أعمارهم وحداثة خبرتهم وتعليمهم ، حتى لا يقعوا بسبب فقرهم فى الاسترقاق المعنوى .

٣ — احترام الذكاء :

يدخل فى حرية الضمير والمعتقدات وفى الحرية الشخصية حرية الفكر والذكاء : فإذا قلنا : إنه يجب على الإنسان أن يسير فى تصرفاته بحريته كان معناه السير تبعا لفكره وذكائه

والاعتداء على ذكاء الإنسان يتمثل فى أمرين : حرمانه التعليم، وخداعه بالفن:

أما حرمان الإنسان التعليم واستبقاؤه فى الجهالة وسلبه أسباب تقوية مداركه وملكاته — فجناية تنتهى إلى الاسترقاق حيث يعيش جسما بلا روح ، ولا ينال الإنسان قسطه من الحرية التى تطلبها طبيعته ، حتى يكون إنسانا يسير فى جميع أفعاله على منهج القواعد الأدبية : أى يعرف نفسه ويعرف واجبه ويحصل على المعارف الضرورية لازدياد قيمته الأدبية وتخفيف ويلات الحياة ؛ فكلما كان الإنسان متعلما كان مالكا لقياد نفسه ، وكان كَفِيًّا بتمييز الأسباب والبواعث التى تمهد له أعماله وتسهل بين يديه أسباب العيش . وكل سلطة لا تستقر إلا على جهل من تحت سلطانها وغفلتهم — هى سلطة جور وعار لا تليق ببنى الانسان .

والخداع بالغش من أكبر أفعال الخسة والجبن ؛ فمن كذب فى أقواله أضاع احترام نفسه وخان عهد أخيه وداس بقدميه الكرامة الشخصية والواجب الاجتماعى الذى حرَّم الله عليه أن يخدع أخاه ، فيلقيه فى مهاوى الضلال ،

ومتى ألِف الناس الزور وكان ظاهر القول مخالفا لباطنه — استحال العيش فى الجماعة ، وتقوضت دعائم العشيرة ؛ إذ لا يكون هناك علم ولا تربية ولا عدل ولا معاملة .

وعلى سبيل الاستطراد نقول : لم يفشو الكذب بين الناس؟ وما أسبابه ؟ :

لا جرم أن من أسبابه الغرور والادعاء ؛ لأن الكاذب يريد أن يفرض لنفسه شأنا أكبر ومنزلة أسمى ، فيحدث الناس بما ليس فيه ، أو يبالغ فى صفاته وحسناته .

ومنها الأثرة التى تدفعه إلى أن يطمع فى نيــل منفعة أو دفع مضرة بالأقوال الكاذبة ،

ومنها الجبن : فالكاذب حريص على أن يدرأ عن نفسه نتائج خطئه ، أو يهرب من لوم أو تعذير يلحقه ، أو يفقده الشجاعة على قول الحق .

ومنها الخبث والحسد والغيرة ، والمتصف بها يسعى فى الاضرار بأمثاله بالغيبة والنميمة ، وقد يصبح الكذب عادة عنــد من يألفه ويشب عليه ، فتراه يكذب لا لعلة إلا هوى النفس وارتياحها إلى هذا الكذب ،

والكذب فى الأفعال كالكذب فى الأقوال : ويكون ذلك بالنفاق والمكر ، فالماكر والمنافق ليسا شيئا غير مثال الكذب المجسم .

الصدق والصراحة :

الصدق والصراحة نقيض الكذب والنفاق ، وهما روح المعاملات ، وأساسهما امتلاء القلب شجاعة وطيبة ، فمن خلا قلبه منهما لا يقدر أن يكون صادقا ولا صريحا .

والصدق هو التعلق بقول الحق والحرص على أن تتطابق الأقوال والأفعال والأفكار الشخصية ، وهو فى ذاته يلائم تركيب طبيعتنا البشرية ، وهو ركن المعاملات الاجتماعية الصالحة ،

وقد شوهد كثيرا أن الصراحة الذاتية للعواطف مطابقــة دائمـا للحقيقــة ؛ فالكاذب خارج على طبيعته لغرور أو خوف أو منفعة أو حسد أو جبن أو خيانة .

حقا هناك من دأبهم الكذب ؛ غير أن هذا من علائم الاضــطراب الخلقى الدال على الاحتقار اللازم للباطل ؛ فالرجــل الصادق يفزع من مجرد التمويه ، كما تفزع الأذن الحساسة من الأصوات الشاذة .

ومن الصراحة الاخلاص فى مخاطبة الناس أو معاملاتهم : والفرق بينهما أن الاخلاص لا يغدر بالحقيقة ، ولا يبتعد عنها ، والصراحة الجهر بها .

ولا تختلط عليك الصراحة والصدق بالفظاظة وهى تجاوز الحد فى الصراحة ، والغفلة عن سلامة الذوق بايذاء الناس فى شعورهم ؛

فليست الصراحة أن تجبه المرء بعيوبه وحقيقة أمره، ولاسيما العيوب الفاضحة الشائنة، وإنما قاعدة الصراحة احترام إحساس الناس فى القول والفعل .

ومن دواعى الكذب فى بعض الأحايين الهجوم على الإنسان بسؤاله عن شئون لايود البوح بها ، فيلجأ إلى الكذب أو التمويه فرارا من حرج الموقف . هذه الرذيلة مع ما فيها من سماجة الخلق مصدر الإشاعات الباطلة والأقوال الملفقة والوشايات الضارة وعلى العاقل أن يتجافاها ما استطاع .

وجلى أن إفشاء الأسرار المودعة لدى الإنسان أو التى يعلمها بطريق المصادفة والملابسات قصدَ الإضرار بأهلها أو بسطَ اللسان وإطلاق عنانه فى الثرثرة إظهارا للعلم بأحوال كثيرة وأخبار شتى ـ كل ذلك ـ من أكبر الرذائل الممقوتة ،

أما استسرار الأخبار فهو من أكبر الفضائل التى يمتاز بها أُولو النُّهَى من الناس ، لا سيما الأطباء والمحامون والموثّقون وعمال البريد وسفراء الدول ورجال العسكرية .

٤ ـ احترام شعور الناس أو الليقان :

ليس لإنسان أن يجرح شعور غيره بشتم أو سخرية أو استهزاء أو بكلام غليظ لمنافاة ذلك للعدل والإنصاف اللائقين بأمثاله فى المرتبة البشرية .

لاريب أن الآداب لا تنحصر كلها فى رعاية حقوق الشخص البشرى، بل هناك أُمور أخرى جديرة بالملاحظة كالعطف والرقة وإدخال الفرح والسرور أو إذهاب الخوف والجزع ؛ لأن كل ذلك يدخل تحت فضيلة الإحسان .

والميزان الخلقى الذى لا يضطرب : عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به ، وأحب لهم ما تحب لنفسك .

٥ ـ احترام شرف الأشخاص وسمعتهم وأموالهم :

سمعة المرء أو شرفه أغلى ما يملك وأثمن ، وقد جاء فى الأمثال : « طِيب السمعة خير من نطاق من ذهب » ويقع الاعتداء على سمعة المرء بالغيبة والوشاية

والقذف والشتم والتشنيع والتبليغ والنميمة ونقل الكلام :

أما الغيبة والوشاية فذكر عيوب الإنسان فى غيبته : فإذا كانت العيوب حقيقة فهى غيبة فى رأى علماء الأخلاق ،

وإن كانت مكذوبة أو ملفقة فهى افتراء . والغيبة والافتراء من الرذائل الخسيسة ، وكل منهما يزرى بسمعة المذموم ، وهى بلا ريب أثمن من حياته ،

وأما القذف وهو ذكر السيئات والعمل على نشرها بالصحف وغيرها فمحرم ولو كان حقا ؛ لأن كل إنسان له الحق فى المحافظة على سمعته وإن كان جانيا ، وفى استطاعته إصلاح هفوته مادامت مستورة ، ولا ريب فى أن الذى ارتكب هفوة مستورة ثم ندم وأصلح من نفسه خيرٌ لنفسه وللمجتمع من ضياع سمعته لهفوة قد لا تستحق هذا العقاب الخطير التبليغ .

من المؤكد أن أداء الشهادة أمام القضاء وتبليغ الجرائم التي شاهدها الإنسان أو علم بها لرجال السلطة سواء أوقعت على الإنسان أم غيره ــ واجب من أكبر الواجبات ، ولا يختلط أمرهما بالقذف بحال من الأحوال، ولامحيص عن واجب التبليغ كلما تعرض العدل أو الحق للخطر أو الضرر ، أو كان كتمان الحقيقة يفضى إلى الإضرار بالحكومة أو طائفة أو فرد ،

ومما ينافى الإنصاف للمجتمع ارتكاب الجريمة أو عدم منع غيرك من ارتكابها مع القدرة على ذلك ، لأن الناس جميعا متواثقون فى الحياة ؛ فمن الواجب المحتّم عليهم اعتبار كل اعتداء على الحق والعدل فى شخص أحدهم اعتداء على أنفسهم ؛ لأن الحق ملك للجميع على السواء ،ومن واجب كل إنسان أن يدافع عنه فى سبيل المجتمع ، ومن واجب المجتمع أن يدافع عنه فى سبيل كل فرد:

فمن رأى اعتداء على إنسان ضعيف وكان ذلك الاعتداء على روحه أو جسمه بقوة أو إكراه أو غلظة أو تجاوز حدود السلطة ــ حق عليه الدفاع عن ذلك الضعيف المقهور ، وإن سكت عُدَّ جانيا شريكا للمعتدى .

ومن علم أن مجرما أوسيئ السمعة يسعى لتولى عمل مافى مصالح الحكومة وجب

عليه إظهار أمره لحماية الحكومة والشعب من شره ، وإن أحجم كان جانيا .

والفرق بين القذف والتبليغ أن الأول أساسه الإضرار بالشخص المقذوف ، والآخر أساسه الدفاع عن الحق أو الشرف والفضيلة ،

والتبليغ لا يكون إلا للجهة التى من شأنها كف الضرر ، وليس للشخص الذى ترفع إليها أخباره أن يشكو ما يلحق بسمعته ؛ لأن شكواه هذه تسقط أمام حقٍ هو أسمى وأعلى .

حقا قد يكون التبليغ سعاية إذا تجرد عن غرض الدفاع عن العدل وحماية الجماعة ، وكان الدافع له بواعث خسيسة من حب الانتقام أو السعى وراء منفعة أو الانقياد لعوامل الحسد والغيرة ؛ والساعى كالقاتل واللص .

والسعاية على صور شتى : فقد تأتى فى حديث ، أوفى مكتوب مجهول مرسله ، أفى مقال ينشر ، أو الإفضاء بأخبار إلى رئيس أوحاكم : وهى سلاح العاجز الجبان

ولا يعد من باب التبليغ النميمة وهى نقل الكلام إلى من قيل فى حقه بقصد الإضرار بالمتكلم أو بذر الشقاق بين الأصدقاء وتكدير صفو الأسَر ووقوع الاضطراب والانقسام والتقاطع بين الناس : قال تعالى : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا .... » الآية .

حق النقد :

قال أحد الحكماء : ما يقال من سوء فى حق الناس لا ينتج إلا سوءا .

تلك قاعدة قديمة فى علم الأخلاق ، ولكنها غير ذلك فى الآداب والفنون ؛ إذ للنقد فيها حقوق ومزايا لا تنكر ؛ فهو ليس بالغيبة ولا بالنميمة والسعاية ؛ لأنه لا يتناول الأشخاص وإنما يتناول المؤلفات ليس غير ، فيزنها الناقد بميزان الذوق السليم وقواعد العلم الصحيح والآداب الحقة دون التعرض للأشخاص .

حق الملكية :

كل ما تقدم من الحقوق لا نزاع فيه ولا جدال إلا حق الملكية ، فالقول فيه مختلف :

عرفه الفقهاء بأنه :

« حق المالك فى الانتفاع بما يملكه ، وفى التصرف فيه بالطرق الشرعية »

وحق الملكية فى جميع الشرائع وقوانين البلاد المدنية : « حق محترم مقدس »

ولحق الملكية عند علماء الأخلاق ما للحياة والحرية من الحرمة والذمار لأمرين :

الأول : أن الملكية ممتزجة بطبيعتنا بدليل ملكيتنا لجسمنا وقواه وعقلنا وملكاته ، فنحن نُولد مُلاَّكا

الآخر : لا يمكننا أن نعيش إلا بحيازة ما هو ضرورى للحياة ؛ فالإنسان الفطرى لا يعيش بغير الكوخ والفُؤُس والنُّشَّاب والصيد والقنص .

وكذلك الملكية لازمة ضرورية لحياتنا ورقيها ؛ لأن نظم المعيشة قد تغيرت وتكاليفها زادت وقوى الإنسان يدركها الضعف والوهن على اطراد الزمن وتقدم السن ؛ فإن لم يملك شيئا يتقى به عوارض الهرم أبهظته هموم حاجات العيش . ولما كان معنى الملكية مشتقا من طبيعتنا وهى ثمرة أعمالنا كانت مضافة إلينا وملحقة بنا : أى هى جزء متمم لوجودنا ، فأصبحت حتما محترمة مقدسة كنفسنا .

ويرتبط بحق الملكية حق الإرث . وكل ما يمتلكه الإنسان يمكنه أن يتصرف فيه كيفما شاء ، وله أن يوصى به من بعده لمن يشاء ،

ولكن لما كان الأبناء أقرب الناس إلى والديهم كان المفهوم طبعا أن

نية الوالد معقودة على أن أولاده ثم أقاربه هم ورثته فى أمواله ، وليس لأحد أن يمنع انتقال تلك الأموال إليهم أو حرمانهم الانتفاع بها ، وقد ذكر ذلك مفصلا فى كتاب الله وسنة رسوله وكتب الفقه

الملكية والعمل :

من الامور الواضحة ارتباط حق الملكية بالعمل ؛ لأن العمل مصدره الإنسان وجهوده . فإذا نتج من العمل شيء كانت له حيازته المشروعة ؛ لأنه ثمرة عمله ، ولولاه ما وجد ، فإذا زادت ملكيته بالمعاوضة والبيع والشراء ، وأصبح مالكا لثروة عظيمة ـــ لا يقال : إن صفة الملكية تغيرت بنمائها وازديادها ،

ومع ذلك فقد اعترض بعضهم بأن الملكية لم يكن أساسها دائما العمل ، بل كثيراً ما تكون آتية من ناحية الإرث .

وقد أجيب عن ذلك : بأن المعول عليه هو عمل المورث الذى تعب فى تكوين الثروة وإرادته ، وأن كل طعن فى حق الإرث يؤدى إلى اضمحلال العمل وإضعاف العامل الأقوى من عوامل الثروة ،

وهناك إيراد آخر محصله : أن العمل وإن كان عاملا أصليا فى تكوين الثروة ليس العامل الوحيد ، بل هناك عوامل أخرى بدونها لا يتم العمل ، ولا تجيء الثروة : كالمادة الأولية والآلات ؛ من الذى يقول : إن صاحب المصنع الغنى قد يجمع ثروته بعمله الفردى متجاهلا تعب العمال وإنه لولا كدحهم ما تجمعت هذه الثروة ؟

نعم قد يقال : إن هؤلاء العمال تدفع لهم أجورهم ، وبذلك لا يكون لهم عهد ما فى عنق صاحب المصنع وهو فى حل من مطالبهم بعدُ ؛ لكن كيف يظن عاقل أن أجورهم متناسبة مع عملهم فى تشييد تلك الثروة الضخمة التى يئول أمرها إليه وحده !

مما تقدم يتبين أن جعل أساس الملكية العمل الفردى ـــ مذهب ضعيف

حجة واهية

ومن المناقشات فى حق الملكية وتوزيع ثمرات العمل وربحه بين العامل والعمال وتفاوت أهل أوروبة فى الثروة بين غنى يملك القناطير المقنطرة وفقير مدقع لا يملك قوت يومه — من هذه المناقشات نشأت مذاهب الاشتراكيين والمشاكل الاجتماعية التى عز على الاقتصاديين حلها إلى اليوم .

(٦) متممات واجب المجتمع :

هى أمور أربعة : الذمة والانصاف وصدق النية والدماثة :

فالذمة هى العدل الشرعى ،

والانصاف العدل الطبعى ،

وصدق النية يتمثل فى الوفاء بالعهود والوعود ،

والدماثة تتجلى فى حدة الذهن وصفاء العواطف فى القيام بالعدل والاحسان :

فاذا قلنا : رجل ذو ذمة — كان معناه : أنه رجل يقوم بواجبات الحياة المدنية على وجهها ، إذا وجد شيئا رده إلى صاحبه ، لا يضر إنسانا فى حقوقه ، يرعى العدل بالتزام القانون

وفى لغة العرف يقال : رجل أمين ورجل ذو ذمة ، وهما متشابهان : ويراد بالانسان الأمين الذى يقوم بجميع واجبات العدل بوفاء تام ، وبالانسان ذى الذمة من لا يضر أحدا ، وبالانسان المنصف من يركن إلى ضميره فلا يتوارى خلف القوانين الوضعية ، حتى إذا منحته تلك القوانين من الحقوق ما زاد على حقه تنزل عنه ، وكذلك إذا رأى فى استعمال حقه بتمامه جورا وإجحافا :وقد جاء فى المثل : « الافراط فى العدل إفراط فى الظلم »

فبالانصاف تتلطف شدة العدل المجرد ،

والرجل المنصف يؤدى لكل واحد ما يستحقه .

والانسان الصادق النية يخضع لسنة الشرف ويفى بعهودها وكل كلمة تخرج من فيه تربطه بوعده كأنها عقد من العقود المكتوبة .

ليست الذمة وحدها كافية فى نعت صاحبها بالرجل الصادق أو الرجل الشريف ، بل لا بد من اتصافه بعواطف أعلى وأسمى ، وضمير أرق وأوفى ؛ لأن القوانين كفيلة بمعاقبة الإخلال بالذمة ، ولكن الإخلال بالصدق والشرف والدماثة لا عقاب عليه إلا من جانب الضمير والرأى العام

والرجل الدمث ذو حذق ومهارة فى إرضاء الناس ، لا ينصرف عن مجلسه الإنسان مجروحا فى عواطفه أو مهيضا فى آماله ، وهو ذو ذوق وكياسة فى العطاء أو المنع وفى إظهار شكره أو إبداء نصحه ولومه وأغراضه .

ومما يلحق بمتممات الواجب للمجتمع القيام بواجبات (الوظيفة) ؛ لأن الجماعة لا يستقيم أمرها إلا بتضافر الأفراد وتعاونهم كل فى أداء واجبه والخدمات المطلوبة منه ، ومن لم يقم بواجبه كان كاللص يعيش عيالا على غيره :

فالطبيب والصيدلى والتاجر والصانع والمهندس والموظف والنائب والمدرس والناخب والمحامى والكاتب وغيرهم يخلون بواجب الذمة ويضرون بمصالح الناس إذا لم يقوموا بواجبات الوظيفة حق القيام .

وخير ميزان لواجب الناس بعضهم على بعض قول على كرم الله وجهه :

اجعل نفسك ميزانا فيما بينك وبين غيرك : فأحب لغيرك ما تحب لنفسك ، واكره له ما تكره لها ، ولا تظلم كما لا تحب أن تظلم ، وأحسن كما تحب أن يحسن إليك ، واستقبح من نفسك ما تستقبح من غيرك ، وارض من الناس بما ترضاه لهم من نفسك .

وهذا الميزان يتضمن أمرين :

(١) الأمر الأول : العدل :

ذلك أن العدل من حيث كونه فضيلة اجتماعية هو أن تحترم حقوق غيرك ؛ فالحق كما تقرر فى موضعه مقدس والكائن الناطق الحر محترم فى استعمال ملكاته واستعمالها المباح :

قال شيشرون : العدل ينحصر بالذات فى عدم الإضرار بالناس ورد

ما يجب رده لكل إنسان . وعرف أحد فقهاء الرومان العدل فقال : العدل إرادة دائمة ثابتة لإعطاء كل ذى حق حقه .

وأساس موجبات العدل الحق ، ولما كان موضوع العدل حقا معينا محدودا ساغ الإكراه على اتباعه واحترامه : أعنى الالتجاء إلى قوة الجماعة والاستعانة بتدخلها بوساطة المحاكم والجهات المشروعة ، وأحيانا إلى استعمال حق الدفاع المباح لحماية النفس والمال بالشرائط المبينة فى القوانين الوضعية .

موجبات العدل : تنحصر موجبات العدل فى أربعة أمور :

(١) احترام حقوق الناس .

(٢) إصلاح كل إساءة إليهم مهما صغر شأنها .

(٣) الوفاء بالعهود.

(٤) الاعتراف بالجميل لصاحبه :

فالأول نتيجة صفة العدل الأولى وهى عدم الإضرار بغيرك ، والثلاثة الباقية نتيجة الصفة الثانية وهى رد ما يجب رده لكل إنسان .

ومن أهم مظاهر العدل حسن توزيعه : ومن ذلك توزيع رؤساء المصالح فى (الوظائف) والمراتب والدرجات على قاعدة الكفاية والاستحقاق والمساواة بين أعضاء الجماعة ، وكذلك فى الجماعات الصناعية والتجارية يجب أن يكون توزيع الأرباح على حسب ما لكل فى رأس المال ،

ومنها توزيع العقوبات وجعلها متناسبة مع درجات الجرائم فى التشريع والقضاء .

والظلم على نوعين : ظلم يأتيه الإنسان ، وظلم يتغاضى عنه وهوقادر على منعه. وجلى أن الناس متواثقون جميعا ، فيجب عليهم أن يعتبروا كل اعتداء على العدل واقعا عليهم جميعا ، ولو كان واقعا على واحد منهم .

وكذلك من الواضح أن الحق ملك لكل فرد وملك للمجتمع على السواء، فواجب كل فرد الدفاع عن حقوق الجماعة ، وواجب الجماعة الدفاع عن حقوق

كل فرد .

ومن أجل ذلك حظر علماء الأخلاق أن تقول : حق أو حقك . وإنما يعبرون عنه بالحق : « أى بأل العهدية فى مصطلح النحاة » فيقولون : انتهك الحق فينا أو فيكم بظلم أو حيف وقع من كذا . وقال منتسكيو : ظلم واحد خطر يتهدد الناس كافة .

وللعدل أربع درجات :

(١) عدم مقابلة الحسنة بالسيئة ، وإلا كان اللؤم ونكران الجميل

(٢) عدم إساءة أحد ممن لا يتعرضون لأذانا ، لا بل منع كل أذى يقع عليهم؛ وإلا كان فاعله خبيثا شريرا .

(٣) مقابلة الشر بمثله حذرا من الإفراط فى الانتقام : قال الله تعالى : « فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ »

(٤) مقابلة الإحسان بالإحسان ، وهو الاعتراف بالجميل : قل تعالى : « هلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إلاَّ الإِحْسَانُ ؟ » وقال أحد الفلاسفة : التعجيل بالإحسان على الإحسان عدل ، وإمهاله ظلم ،

ويشبه هذا المعنى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « مَطْلُ الْغَنِيِّ ظُلْمٌ »

(٢) الأمر الآخر : الإحسان : ومن ضروبه محبة القربى ، وهى التى تحملنا على أن نريد لهم الخير ونفعله معهم ما استطعنا إلى ذلك سبيلا . وهو من قبيل تضحية الخير الشخصى لخير الجماعة والسعادة الشخصية لسعادة المجموع : قال ليبنتز : المحبة أن تمزج سعادتك بسعادة غيرك ، وأن تجعل هناءة غيرك هناءتك .

والفرق بينه وبين العدل ما يلى :

(١) موجبات العدل ـ كما تقدم ـ محدودة : فلكى تكون عادلا ليس لك إلا طريقة واحدة : وهى القيام بما عليك وإصلاح أخطائك وعمل كل ما من شأنه احترام حقوق غيرك

أما موجبات الإحسان فغير محدودة ، بل متروكة لحرية الإنسان وسعة تصرفه ، وتختلف باختلاف الملابسات والزمان والمكان .

وللإحسان طرق شتى ودرجات مختلفة ، وكلها مصدرها طيب القلب وحنانه

(٢) الاعتداء على العدل يوجب الرد أو الإصلاح ، وليس التقصير فى الإحسان كذلك ، لأن واجبات الإحسان ليست حقوقا للفرد الذى يجب أن يتناوله ذلك الإحسان ،

نعم ليس بمنكور وجود هذه الحقوق ، بيد أنها حقوق لا يملكها الفرد ، ولا يطالب باستردادها ، بل هى حقوق للنوع الإنسانى فى مجموعه .

(٣) العدل يوجب حقوقا متساوية محدودة لكل إنسان ، أما الإحسان فلا يوجب إلا حقا غير محدود يجوز توزيعه على الناس أنصباء تختلف باختلاف أحوالهم ومواضع الحاجة فيهم

أساس الإحسان :

(١) إذا نظر الإنسان إلى الإحسان من وجهة علم النفس وجده يرجع إلى ميل الإنسان وانجذابه نحو أخيه الإنسان وإلى إخلاصه له وحبه لمساعدته ، وكلها من الميول العالية للقلب البشرى ، وإذا نظر إليه نظرا عقليا وجده من طبيعة الجماعة ومقتضيات المصلحة العامة الناشئة عن تقارض المساعدة الذى هو قانون الطبيعة ، وكذلك من وحدة الأصل والغاية فى بنى الإنسان ،

(٢) فى الإحسان أكبر معنى من معانى المساعدة والارتباط ؛ فإذا خلت الجماعة من روابط المحبة والمساعدة كانت لا خير فيها ولا فائدة منها ، وإن عاش كلٌّ لمصلحة نفسه استحال العيش واستحالت الجماعة ؛ فقد خلق الإنسان مدنيا : أى لا عيش له إلا بانضمامه إلى بنى جنسه يساعدونه فى مرافق الحياة ؛ لأن الناس جميعا يشبهون عمالا فى مصنع من المصانع ، كلٌّ له وظيفة يؤديها وعمل

يتمه

(٣) الناس جميعا من أب واحد وأم واحدة : أبوهم آدم والأم حواء : فهم إخوة والأخ يعطف على أخيه بالود والإخلاص والولاء والحب والثقة والتوائق فى العيش والاتحاد فى الوجهتين : المادية والمعنوية ،

(٤) بين الناس وحدة الغاية فى العمل للوصول إلى الكمال الإنسانى الذى هو الخير العام للجماعة ، وهذا لا يتحقق بغير اجتماع القوى واتحاد الإرادة ، وللإحسان آيات وأفعال تدل عليه ، ويظهر أثره فى الوجود : منها :

(١) العطف : وهو محبة الخير للناس

(٢) عمل الخير : وهو الانتقال من دائرة العواطف إلى دائرة العمل ، إذ كل حركة لا تنتهى إلى عمل طيب حركة لا خير فيها .

(٣) الإخلاص : وهو انشراح وارتياح لخدمة الناس وإشراكهم بنصيب فى سعادته وهناءته .

(٤) التضحية : وهى التنزل عن شىء من حق أو مال لخير الناس أو لمساعدة قريب أو لتخفيف ويلات بائس . والتضحية إذا بلغت حدها الأقصى سميت بطولة .

(٥) العفو عن الزلات : وهو الصفح عن الشتائم والهنات ، لأن الانتقام يزيد فى الأحقاد ، ويضرم نار البغضاء فلا يلبث أن يرى المنتقم نفسه بمعزل عن كثيرين من الناس: قال النابغة الذبيانى :

ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث أى الرجال المهذب

هل الإحسان إلزامى ؟ : متى قلنا « واجب » أو « عهد » كان معنى ذلك ارتباطا أدبيا أو حتما أدبيا ، والواجب غير الإلزامى لا يكون واجبا .

إن موجبات الإحسان ليست منزلتها بأقل من موجبات العدل ، ولا هى بأقل لزوما فى بناء المجتمع الإنسانى ، فأنت ملزم أن تكون محسنا ، كما أنك ملزم أن تكون عادلا .

ومخالفة القانون الأدبى تتحقق بالامتناع عن فعل الخير ، كما تتحقق بعمل

الشىء .

حقا إن علماء الأخلاق يفرقون بين واجب الإحسان وهو القيام بالضرورى منه رعاية للواجب — وبين فضيلة الإحسان وهى تجاوز حدود الواجب الضيق إلى تضحية الأثرة ومزج السعادة الشخصية بسعادة الآخرين .

من البدهى أن الإحسان يتضمن العدل : بمعنى أنه من المتعين دفع الديون قبل التفضل بالحسنة ، ومن الظلم أن يكون فى نفعك إنسانا وصولُ الأذى لغيره ، ومن الغلطة أن تسىء إلى الفقير أو تهينه بحجة مساعدته .

علاقة العدل بالإحسان :

العدل لا يتم بغير الإحسان ، والإحسان دون غيره هو الذى يجعلنا نفعل مايجب لتحقيق معنى العدل على الوجه الصحيح ؛ لأنه يجردنا من جميع الاعتبارات الشخصية ، ومتى تجرد الإنسان منها وصل إلى العدل من أقرب سبيل : فى الأمثال اللاتينية : الإفراط فى العدل إفراط فى الظلم : بمعنى أن العادل إذا تشدد فى عدله باستيفاء حقوقه لا يفرط فى واحد منها — كان عدله ثقيلا غير محتمل ،

فالعدل كما تقدم لا يتحقق بغير الإحسان ، والإحسان لا يقوم بغير العدل ، وإن الرجل الشريف لابد أن يكون إلى حد محدود — رجلا خيّرا ، وكل خيّر فى الناس شريف .

لذلك كان من الضرورى بيان الفرق بين العدل والإحسان وكذلك بين الرجل الشريف والرجل الخير ؛ لأن فى ذلك فوائد جمة :

فالعفة والأمانة هى قبل كل شىء أساس الحياة الخلقية وشرط وجودها ، والعدل قد يمتد نطاقه ، فيدخل فى دائرته ما يبعد على الأذهان إدراكه بادئ الرأى فمثلا :

يغلب على من يقصر فى واجب اللياقة ألا يظلم الناس ؛ لأن من أدب اللياقة إجلال أقدارهم واحترام شعورهم ، وذلك حق لهم يجب أداؤه إليهم . وهذاهو

العدل بعينه ، وليس هناك ما يسوغ إيلام الناس وإضجارهم وتكدير صفوهم والاعتداء عليهم بتنقيص أقدارهم وتهجين مطالبهم والغض من أذواقهم ، وكل هذه صور مختلفة من صور الظلم .

إن كان التسمح جزءا من العدل فرقة الطباع جزء من الأمانة ، والعدل مع الناس أى تقدير منازلهم ، وعدل الإنسان مع نفسه أى الاعتراف بغلطه وخطئه — ضرب من العدل أيضا ، والتحية أو تحية اللقاء التى هى فاتحة أدب اللقاء لم تكن إلا طريقة علنية تنبئ عن خضوعنا لحقوق غيرنا واعترافنا بمنزلته البشرية .

الرجل الشريف :

هو الذى يحترم حقوق أمثاله ويقوم بواجبات العدالة بأمانة لا يضر بأحد فى صحته ولا فى فضائله .

الرجل الشريف من كان صريحا مخلصا صادقا فى أفعاله وأقواله مستقيما بلا رياء ولا مواربة يأتى الخير لمحض الخير معترفا بالجميل لصاحبه ، لا ينسى معروفا أسدى إليه كبيرا أو صغيرا ، لا يعرف الانتقام ، ولا يضر بإنسان ، بل يمنع غيره من أن يضر إنسانا ، ولو لم يعرفه ؛ وإن لم يمنعه مع قدرته — كان شريكه فى الجرم .

ليس الشرف الاقتصار على عدم الاعتداء على الحقوق الطبعية وهى حقوق الحياة والحرية والضمير والكمال الأدبى والشرف والأموال ، وعلى الامتناع عن الخداع بالأقوال الكاذبة ، وعن المساس بالشهرة الخصوصية بالقذف ، وعن الوشايات الباطلة ؛ بل الشرف أيضا منع غيرك إذا أتى أمراً من ذلك .

الرجل الشريف من إذا قال كلمة أصبحت واجبة عليه ؛ لأنها صادرة عن شرفه وواجبة لغيره الذى تلقى وعده واعتمد عليه — ووعد الحر دين عليه — وواجبة للمجتمع ، لأن المعاملات والعلاقات تصبح لا قيمة لها بل مستحيلة التحقق إذا امتنعت على الناس الثقة بأقوالهم : قال بعضهم : « الكلمة عند

أهل الأمانة عقد »

الرجل الشريف يعمل وفق العدل ، والرجل الخير يعمل بالعدل والإحسان.

أمور لا تنافي الواجب للمجتمع

أوضحنا فيما سبق أن لأمثالنا علينا واجبات : منهـا ألا نؤذيهم وأن نحسن إليهم : فعدم إيذائهم ألا نعتـدى على حياتهم ولا أخـلاقهم ولا حريتهـم ولا شرفهم ولا ثروتهم ، فالقتـل منهى عنه بغـير نزاع إلا أن هناك أحوالا للقتـل لا بأس من إيرادها وهى :

(١) القتل فى سبيل الدفاع المشروع (٢) القصاص (٣) الحرب:

من المحقق أن الأخـلاق لا تنـكر القتـل فى سبيـل الدفاع المشروع: فإذا كانت حياتك مهددة بغير حق كان من حقـك الدفاع عنها فإذا ما اضـطررت إلى قتل المعتدى عليك لم تـكن معتـديا على الحق ، ولـكن تـكون معتـديا إذا ما استطعت أن تقاوم عـدوا من غـير أن تقتله فلم تفعل ، وكذلك إذا لم يكن الاعتداء الذى اتقيته يبيح قتل الإنسان .

وعلى هـذا يمكننا القول بأن كل قتل فى سبيـل الدفاع المشروع لم يكن ضروريا — يُعَدُّ جريمة خلقية .

أما القصاص ففيه حياة المجتمع وبقاؤه قال تعالى : (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ)

الحرب : إن الحرب التى يقصد بها الامتلاك لا دفع الاعتداء إنمـا هى جريمة

وتقدير أسبابها من عمـل الحـكومات فإذا جعـل الطيش أو الطـمع أو عـدم الـكفاية سببا للحرب فهى مسئولة أمام الله عن الدم الذى سيراق

ينبغى أن تظهر الحرب فى مظاهرها الصحيحة : فنبين كيف تفنى آلات الحرب الجيوش ، ونذكر ما يعانيه الجنود من المشاق وما يفجع الأسر من

الشكل ويصيب القرى من نقص السكان ، ويبهظ الخزينة من الفقر ويلحق العمل من الكساد .

والواجب أن نعود الأمة الشعور بالواجب وحب الوطن والإنسانية للقضاء على ما فيها من الميل إلى الحرب .

إن وجوب عدم الاعتداء على آداب أمثالنا وحريتهم وشرفهم وثروتهم كوجوب عدم الاعتداء على حياتهم . فالقانون يعاقب من يخالفه والرأى العام يمقته وما على علم الأخلاق إلا أن يرشدنا إلى المخالفات التى يتناولها القانون ويتسمح فيها الاجتماع تسمحا أثيما .

فى المجتمع كثير من المتناقضات الخلقية لها من الخطر أكثر مما نظن إذ يلتبس أمرها على كثير من الناس ويستبهم عليهم تعرف الفروق بينها فيتورطون فيها بحكم العادة من غير تفكير :

فكلنا يمقت الغيبة والمغتابين ، ولكنا نقبل كل يوم أشنع العبارات فى أشخاص شيمتهم الشرف ؛ نكرر هذه العبارات غير معنيين ، ونعد أنفسنا منصفين إذا احتطنا فأضفنا إليها بعض العبارات المبتذلة : (أنا لا أظن ذلك) (أو أنا لا أعرفه شخصيا) أو (أنا لا أذكر إلا مايتحدث به الناس)

إن أولئك الذين يشتركون فى اختلاس ما للناس من شرف يرون أنفسهم مجرمين إذا ما اختلسوا درهما : أفتكون الثروة أغلى من السمعة ؟ إذا مادل الصريخ العام على مجرم فإن القانون لا يعاقبه حتى يسأل ويواجه بالشهود ويناضل عنه المحامون ، ولكن المجالس لا تعرف كل هذه العناية ، بل يحكم أصحابها على الإنسان لأقل شبهة .

نعم لم نصل إلى القول بأن الظريف من أجاد الغيبة ، ولكن ذلك نفاق محض فليس من حديث خلاب إلا له أكثر من فريسة : تأمل قوله تعالى : « وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا

فَكَرِهتُمُوهُ » - نجد أن من يذكر إنسانا بما يكره كمن يأكل لحم أخيه الميت ، وذلك أمر مستبشع طبعا وعقلا وشرعا

من الخطأ أن يعتقد الإنسان لنفسه الشرف متى لم يؤذ أحدا ؛ فإن قانون الأخلاق يكلفنا الإحسان إلى الناس كما يكلفنا ألا نؤذيهم ، والأغنياء فى نظره خزنة الفقراء فالغنى الذى لا ينقذ الفقير المحتضر جوعا مجرم فى نظره وإن كان القانون المدنى لا يراه كذلك ؛ لم يمنحنا الله العقل والقوة لنخدم أنفسنا فقط ، بل خلقنا من العدم وطلب إلينا أن نحب إخواننا ونعينهم وأن نحبس قوانا ومزايانا لحمايتهم وتغذيتهم وإرشادهم والإحسان إليهم ، ولم يكتف منا بعدم الإساءة إليهم . ويجب أن نحسن إليهم مخلصين لوجه الله لا لفخر أو رياء . هذا .

والإحسان أكثر استهواء للنفوس من العدل ولا سيما إذا كان من الأعمال التى تستميل القلوب أو التى تعد من أعمال البطولة ، فتجمع لصاحبها بين إجلال الناس وإعجابهم . ومما لا ريب فيه أن للفقراء حقا معلوما فى مال الأغنياء يجب أداؤه على أن يكون مملوكا لهم من طريق مشروع .

العدل مطلق لا يعرف التسمح وكل ما يأمر به يجب أن يتم فى الحال دون نظر لمأرب ، بل لأنه عدل ، ولا لأنه يكسب نفعا أو مجدا .

بعض العظماء يأتون أعمالا تبهر الجماهير مع مخالفتها للواجب ، ولكن الخلقيين لا ينظرون إليها إلا ازارين . يجب ألا يخدعنا تصفيق الناس فهم يؤخذون لكل عمل من أعمال البطولة ولو مخالفا للحق : أبى الناس يأبى على الإسكندر ذلك الظالم الفاتح لآسيا لقب « الأكبر » ؟ فهاك أحكام الناس وهاك رأى الكثرة وهاك القول بأن قيمة المرء تقدر بنجاحه ولو ساءت الوسائل

ومما يجب للمجتمع على كل فرد الإيثار :

وحسبنا إيراد القصص الآتية :

الأولى:

فى الثامن عشر من شهر ينساير سنة ١٨٩١ م خرجت مفاخرة إخوان من

القوة إلى الفعل ، وتجلت محبتهم برداء الشجاعة والإقدام فى مدينة (شيكاغو) فتقدم منهم عدد كبير ليكونوا غرضا لمدية الجراح ؛ ليقطع جزءا من لحم ذراعهم فيلصقه على فخذ أحد إخوانهم وقاية لحياته ورجاء لراحته :

ذلك أن أحدهم أصيب بسرطان فى فخذه اليمنى وامتد مقدار قدم ، وكان الجراح يعتنى بالمصاب ؛ فرأى أن خير الأمور أن يجرد اللحم الفاسد من مكانه ويضع مكانه لحما آخر يسهل التحامه بالفخذ ، فذبح لهذه الغاية جديا كان فى دار المستشفى لتسلية المرضى ، وعالج المريض مدة عشرة أسابيع ، ولكن لسوء الحظ لم يلتصق لحم الجدى بفخذ المصاب ، فاضطر أن ينزع لحم الجدى ويجرب لحم الإنسان ، ولكن من أين له بإنسان يجود من لحمه بقطعة تلصق على فخذ إنسان آخر ، ويحتمل عذاب القطع والسلخ والشقاء ؟ وهل فى الكون من دافع يدفع قلب الإنسان إلى التضحية بجسده مساعدة لغيره ؟ أجل لم يعز وجودها بين أولئك الأصحاب أهل الإيثار إذ كان فى مشربهم من الدافع القوى ما يقضى على المرء أن يبذل كل ما فى وسعه لينقذ أخاه ، ويساعده فى السراء والضراء ، فلما علموا ما حل بأخيهم وما يتطلب شفاؤه عقدوا مجلسا وتداولوا فى شأن مساعدته ، فاتفق منهم ثلثمائة وقدموا أجسادهم لمدية الجراح ليقطع منها ما يشاء إكراما لأخيهم المريض وطمعا فى شفائه ، فضرب الجراح ميعادا لذلك اليوم الثامن عشر من الشهر المتقدم . وفى صباح ذلك اليوم ابتدءوا يتقاطرون حتى اكتمل عددهم ، فلما رأى الأطباء كثرتهم تخيروا منهم (١٧٥) ، وذهبوا بهم إلى المستشفى حيث كان المصاب ، فقُسِّمُوا ثلاث فرق ، وتقدمت الفرقة الأولى إلى المستشفى وفى مقدمتهم عدد من الأطباء حضروا لمساعدة الجراح فى عمليته الجراحية ، وكان الجراح قد سبق الجميع إلى المستشفى ، فخدر المصاب ، وغسل الجرح وجهز الأدوية والأربطة ، ثم شرع فى العملية على الفور ،

فتقدمت الفرقة الأولى ، فشمروا عن سواعدهم . أما كيفية قطع اللحم وسلخه فكانت هكذا : يأتى الشخص كاشفا ساعده الأيسر فيفركه أحد الأطباء فركا

شديدا ، ثم يغسل المحل المطلوب سلخه بالماء الحار والصابون ثم بالمطهر حتى ينظف الجلد جيدا ، ثم يتقدم طبيب آخر ، فيقطع المقدار المعين من الجلد ، ويسلمه إلى الجراح وهذا يضعه على فخذ المريض ، وللحال يتقدم طبيب آخر ويرش على الذراع المسلوخة مسحوقا معدا من المخدرات لتخفيف الهيجان ، ثم يضع قطنا مبتلا بالمراهم والسوائل،ويربط الذراع ربطا متقنا ، ثم يتقدم الثانى وهكذا إلى آخر العملية . وفى مدة ساعة ونصف انتهت الفرقة الأولى ، وتقدمت الفرقة الثانية ، فجرى برجالها ما جرى بالفرقة الأولى ، وكانوا كلهم يتقدمون بقلب ثابت غير مبالين بالجراح إلا اثنين من هذه الفرقة فإنهما غطيا وجهيهما بمنديل عند مس ذراعهما ، ثم حضرت الفرقة الثالثة ، ولم يقطع من لحم رجالها بقدر ما قطع من الفرقتين السابقتين ؛ لأن الطبيب اكتفى بماقطع ،فبلغ عدد الذين سلخت سواعدهم مائة وستة وأربعين (١٤٦) ومعدل ما قطع من ذراع الواحد مقدار قيراط مربع ، وقد استقل أصدقاء العليل وإخوانه هذا القدر لأنهم كانوا مستعدين أن يقدموا ما ينيف عن قدم ، وكان بينهم من أتى من مسافة بعيدة ليقدم ذراعه ضحية لأخيه ، ولم تستمر هذه العملية أكثر من ثلاث ساعات ونصف ساعة ،

أما العليل فكان ملقى على جانبه الأيسر ، وكان كلما دخل عليه واحد منهم يتبسم تبسما ينوب عن الكلام فى إظهار شكره وامتنانه ، وكان إخوانه يشجعونه ويعزونه فى مصابه برقيق الكلام ، واشترك فى هذه العملية جميع إخوانه على اختلاف أعمارهم ودرجاتهم ، فمنهم الشيخ الكبير والرجل الحازم والشاب النشيط الذى لم يخط عارضاه بعد ، وكان منهم أعمى واحد ، وغضب كثيرون من الذين رفض الأطباء قبولهم ، ولم يصلحوا اصحيا ،والذين خاب أملهم حينما أعلن الجراح أنه ليس فى حاجة بعد إلى اللحم .

وهذه المحبة التى لا توصف كانت سببا لشفاء العليل، وما برح يشكرهم إلى آخر نفس من حياته .

الثانيـــة : أقيم حفل فى شيكاغو ومما جاء على لسان رئيس الحفل ما يلى :

فى العاشر من شهر أكتوبر سنة ١٨٩٤م بينما كان صديق غائبا عن منزله فى أعمـاله وليس فى البيت سوى امرأته وولدها الصـغير وكان نائمـا فى سريره قامت والدته لتفتح درجا وبيدها مصباح منار بزيت الكروسين ، فالتهب قضاء وقدرا ، وسقط الزيت على الثياب فاشتعلت النيران بسرعة ، فذهبت إلى الباب تستغيث بالجيران ، ففطنت إلى ولدها ، فعادت ، ولفته بملاءة وحملتـه . ولمـا وصلت إلى الباب رأته مقفلا ، فلفت الولد جيـدا وخرجت من إحـدى نوافذ البيت ، وكانت النار قد علقت بها ولم تشعر لشغفها بخلاص ولدها وأتت مسرعة ولم تصل إلى بيوت الجيران إلا والنار قد شوهتها ، فألقت الولد أمامهم سالمـا وقد احترقت ذراعاها ، وكان لحمها يتساقط عند مسه فأطفأها الجيران ، ووقعت إلى الأرض من الألم ، ثم جىء بمركبة ، فنقلتها إلى المستشفى . ولمـا قضت مدة قليلة فيها تساقط لحمها قرر الأطباء أن لا بد من تعويض اللحم الساقط من جسـمها بلحم حى وإجراء عملية جراحية لعل الله يمن بالشفاء ، فقدم زوجها نفسه لقطع ما يحتاج إليه من لحم جسده أملا فى سـلامة قرينته التى ضحت حياتهـا لأجـل ولدها ، ولـكن الأطباء رأوا أنها تحتـاج إلى أكثر ممـا يمكنهم أن يأخـذوا منه ، فتبرعت بعض الممرضات بالمستشفى بأخذ قطع من لحمهن رحمة بتلك المصابة. ولمـا بلغ إخوان زوجها وأصدقاءه ما كان حركتهم النخوة والشهامة إلى مشاركة أخيهم وقرينته ، وقبل ابتداء العملية جاءوا أفواجا أفواجا وهم أصحاء البنية واندفعوا بكل قواهم مظهرين الإيثار بأعلى مظاهره ، وعـرضوا أنفسهـم على الأطباء ليقطعوا من أجسادهم ما شاءوا ومن أى جهة أرادوا لإنقاذ حياة امرأة أخيهم. ولمـا حضروا أمام الجراح مد أولا زوجها ذراعيه ، وقال للطبيب : خـذ منها ما تشاء. فقطع منها ثمـانى قطع طول كل قطعة قـيراطان وعرضها ثلاثة أرباع القـيراط ، وكان يقول : خذ بعد . ولم يبد أى إشارة تدل على الألم ، بل كان

مسرورا لأنه استطاع أن يضحى حياته لسلامة امرأته ، فأخذ الطبيب ما يحتاج إليه ، ثم قطع من صديقه ثمانى قطع أيضا ومن غيره خمسا وأتى بعدهم غيرهم يخيرون الأطباء بأخذ اللحم من أجسادهم من أى جهة أرادوا ، فكان الأطباء يقطعون اللحم وآخرون يخيطون مكان الجروح ، ويغسلونها بمزيلات الفساد ، وهلم جرا،وما زالوا حتى عوضوا من كل اللحم المحروق ، فكان جملة ما أخذوه نحو سبعمائة وخمسين قيراطا مربعا ، وهى تساوى نحو خمسة أقدام ، وكان جملة ما أخذ من كل رجل نحو قيراط أو أكثر ، والذين أخذ من لحمهم ثمانين رجلا عدا امرأتين تبرعتا أيضا ،

وجدت المريضة تعزية بإظهار حنو إخوان زوجها وسرورهم وشجاعتهم وتشجيعهم إياهافساعدها ذلك كثيرا على احتمال تلك العملية الغريبة النادرة المثال ولحمها مكشوف للهواء ، ثم جمعوا من أنفسهم ستمائة ريال قدمت لزوجها لمشترى أدوات للبيت بدلا مما التهمته النار

الثالثة : مرض أستاذ محفل فى (أوهايو) بسم الدم وكان محترما محبوبا فى تلك الولاية ، وكان كريم الخلق سمح اليد يساعد المحتاجين ، ولما أشرف على الخطر تواردت الأرامل والأيتام على منزله ، يسألون عن صحته ، ويقدمون ابتهالاتهم إلى الله لشفائه ، وينذرون نذورا قدر طاقتهم إذا شفى ،وعقد عدد من نطس الأطباء مجلسا وقرر أحدهم أن لا أمل فى نجاة الأستاذ إلا بأمر واحد ـ وهو أمل ضعيف جدا ، إن لم نقل مستحيل ـ وهو وجود من يسخو بجزء عظيم من دمه لمثل هذه الغاية ، وفى مساء اليوم عينه عقد المحفل مجلسا خاصا ، فنهض الرئيس فيه ، وأبان حالة أخيهم المريض والسبيل التى ارتآها الطبيب ، وطلب منهم أن يتضرعوا إلى الله أن يمن عليه بالشفاء . وكان أحد أصحابهم وإخوانهم حاضرا ـ وهو فى مقتبل العمر ـ قوى البنية صحيح الجسم فى أشده فوقف فى الوسط وقال : أيها الإخوان ، إننى أجود بما يحتاج إليه من دمى عن طيب

خاطر لانقاذ هذا الأستاذ . فأحدق به الحاضرون ، وأخذوا يثنون على شهامته وشجاعته ، ورأوا فى قوة جسمه وريعان صباه ما يؤيد قوله ، ثم اجتمعت لجنة الأطباء لفحص هذا البطل ، فوجدوه صحيح الجسم نقى الدم ، وحكموا أنه أهل للقيام بذلك ، ثم أخذ الأطباء فى اليوم التالى فى إجراء العملية بحضور جميع إخوان المريض ، فبدءوا باخراج الدم من جسم المريض فى دقة وانتباه حتى أخرجوا منه القدر المطلوب ، ثم فتحوا عرقا فى ذراع ذلك البطل ووصلوا منه أنبوبا إلى جسم المريض ، فجعل الدم يتدفق من جسم الصحيح إلى جسم المريض ، فيكسبه لونا جميلا وينعشه . وما زال البطل يجود بدمه لاحياء أخيه ، وهو محاط باخوانه الذين يمدحون شجاعته ويثنون عليه إلى أن اعتراه خوار شديد ، فنظر إليهم نظرة الوداع ، وأشار إليهم بعينه يريد الكلام ، فلم يقو عليه ثم أغمض عينيه وأغمى عليه ، وكان الأطباء ينتظرون ذلك فأوقفوا جريان الدم ، وانقسموا قسمين: قسم اعتنى بالمريض ، وقسم بالبطل :

أما الأستاذ المريض فتحسنت حالته حالا وأخذ يتقدم إلى الصحة بسرعة إلى أن شفى تماما وعاد إلى حالته الأولى ،

أما البطل فتأخرت صحته كثيرا وأشرف على الموت ، وكان يقول لزائريه: لست متألما ولا متكدرا ، بل أنا مسرور لقيامى بهذا العمل والشكر لله أن دمى أفاد أخى فأحياه . وبعد أن بذل الأطباء كل همة فى مداواته أخذ يتعافى وبدأت صحته بالتحسين ، وبعد ثلاثة أشهر من تاريخ تلك الحادثة المؤثرة قام من سريره وزار إخوانه . ولما سئل عن السبب فى إقدامه على هذ العمل قال : لو مات الأستاذ لقضى على المحفل ، أما إذا مت أنا فلا يكون الخسران كبيرا .

حقا إن هذه الحادثات الثلاث جديرة بالاعتبار والتأسى بها ومع ذلك فقد دون التاريخ ماهو أعظم منها :

فقد حكى الغزالى عليه الرحمة والرضوان فى باب حقوق الأخوة والصحبة ـ من (كتاب الاحياء) ـ أن أعلى مراتب المواساة أن تؤثر أخاك على نفسك وتقدم حاجته

على حاجتك قال : وهذه منتهى رتبة المتحابين ومنتهى هذه الرتبة الإيثار بالنفس أيضا كما روى أنه سُعِي بجماعة من الصوفية إلى بعض الخلفاء فأمر بضرب رقابهم ، وفيهم أبو الحسين النوري ، فبادر إلى السياف ليكون هو أول مقتول : فقيل له فى ذلك : فقال أحببت أن أوثر إخوانى بالحياة فى هذه اللحظة! وكان ذلك سببا فى نجاتهم فى حكاية طويلة

(وحكى عليه الرحمة) — فى باب الإيثار — عن حذيفة قال : انطلقت يوم اليرموك من أيام فتوح الشام، أطلب ابن عم لى ومعى شىء من ماء لأسقيه إن كان به رمق وأمسح وجهه ، فلقيته فلما أهويت لأسقبه سمع قائلا يقول: آه . فأشار ابن عمى : أن انطلق بالماء إليه . فجئته فسمع متأوها آخر ، فأشار إلىّ أن انطلق إليه فجئته فإذا هو مات، فرجعت إليه فإذا هو قد مات أيضا ، فعدت إلى ابن عمى فإذا هو قد مات رحمة الله عليهم أجمعين .

الإحجام عن تأدية الواجب

يحتال فريق من الناس فى الهرب من الواجب ، ويكون مثلهم فى ذلك مثل الطفل تكلمه فى موضوع لا يروقه ، فيحاول أن يشرد بك عن الموضوع بصرفك إلى حمامة تطعم أفراخها ، أو يكثر عليك من الأسئلة المملة مكرا منه حتى ينفذ صبرك .

ذلك شأن هذا الفريق إزاء الواجب يختلق من الأعذار ما يخاله مقبولا يشفع له عند التقصير عن واجب الإنسان الحى المميز .

وأول سبب يتعلل به المعتذر المقصر التساؤل عن حقيقة الواجب ، وزعمه أنه قائم على الحرية ، وأمرها غامض لم يهتد العالم إلى بيانه بيانا يرضى الناس جميعا .

ولعمرى إنهم يغالطون ، فلو أن أُمور الحياة نظريات عقلية فقط ما وسع الباحث أن يعنى بأمر الواجب قبل البحث فى مشكلة الحرية وتوضيح غامضها

وتعريفها تعريفا تاما ، ولكن الحياة ليست نظرية ، وليس بمعقول أن تقف حركة الحياة حتى يصل الباحثون إلى كشف الغطاء عن النظريات المحجبة وإلا توقف أداء الواجب على معرفة حقيقة الحرية ، وهذا ضلال ؛ فلا مندوحة عن أداء الواجب قبل معرفة قيوده ؛ لأن الواجبات عامة ولا يقبل العذر ممن يقصر فى أداء واجبه ، ولكن من تطوع له نفسه الفرار من واجب الإنسان لا يخجل من اختلاق الأسباب الواهية المؤدية إلى السقوط الأدبى .

حقا قد يكون الواجب فوق الطاقة ، ولكن لا يعدم معذرا من يقصر عن ضعف وعجز ،

وليس هناك من حرج على من يقصر فى القيام بأعباء الواجبات الثقيلة ، بل العار كل العار على من يحجم عن تأدية الممكن السهل منها إهمالا وتقصيرا .

يميل بعض الكرماء إلى بذل مافى الوسع من المساعدة سدا لحاجة المحتاج ، وتفريجا لكربته ؛ غير أنه يخيل إليهم أن ما يقدمونه قليل لا يسد جميع الحاجة ، ولا يشفى الغلة فيكفون عن المبرات وفى نفسهم ألم ؛ وهذا خطأ ؛ لأن مساعدة المنكوب واجبة على قدر الاستطاعة: (لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا) ، فليساعد الإنسان أخاه بقدر استطاعته ، فيقتدى به غيره ، فيكثر عدد العاملين على نصرة الضعفاء والمنكوبين ، ويقل الشر ويكثر الخير ؛ والجواد يحمد صنيعه ، والطامع لا يصل إلى ما تصبو إليه نفسه الجشعة .

من أجل ذلك وجب التفكير فى دقائق الأمور وحقيرها فهو سر النجاح المؤكد : ألا ترى أن الغريق ينجو من لجة البحر الهائج على قطعة من لوح ؟ وما أشبه الحياة بلجة البحر !

ما أكثر مفارقات الحياة !

فمن ذلك ترديد عبارات الحنو على المجهولين الذين أخنى عليهم الدهر بخطوبه وهم بعيدون عن الأبصار والآذان ، مع أن الصدور قاسية لا تتأثر بما

نسمع من أنين المنكوبين الذين تراهم أعيننا ، وتلمسهم أيدينا ، ويظلهم وإيانا سقف واحد .

وهناك ما هو أفظع من ذلك : ترى بعض النساء لا يعرفن عن أزواجهن شيئا كأنهم غرباء عنهن ، والأزواج كذلك جاهلون بنسائهم ، بل هناك من يجهلون شأن أولادهم ، ويجهلون ما يصيبهم من شقاء أو ينالون من نعيم وسعادة .

ولست أعنى بمن ذكرت القبائل الهمجية ، بل أعنى الطبقات الراقية من كل أمة ؛ فقد أهمل السراة ما يجب عليهم نحو ذويهم وأسرهم ومواطنيهم ، فليكن الرجل حكيما قبل كل شىء يقوم بما عليه لنفسه فأفراد أسرته فأبناء بلدته فبنى وطنه ، فإذا كان فى وسعه فوق ذلك أن يعمل خيرا شكر وأثيب .

إن عبر الدهر كثيرة ؛ فقد يخسر المرء ماله ، ويضيع ثمرة جهد متواصل ، فيقف أمام هذه الحوادث وما ماثلها مكتوف اليدين ، بل تنقطع عنايته بكل شىء لديه ، وهذا خطأ ؛ والواجب أن يفرغ المرء جهده فى القليل الباقى ليدرك ما قد يعزيه وينسيه ألم الضائع المفقود ؛ فمقاومة الكوارث خير من الانحدار والسقوط .

وليتذكر الإنسان أن نفرا قليلا من الناس عمروا الأرض بعد الطوفان ، وأن الشدة يعقبها اليسر والرخاء ، وأن خلال الثبات والصبر والحزم والعزم كلها سبيل الفوز والنجاح .

من الغريب أن بعض ألوان الوهم يغشى أبصار الخلائق ، فينظرون إلى الواجب ممسوخا أو من جانب واحد ، ويتشوقون إلى معرفة ما لا يضر ولا ينفع ، فيقضون على جزء عظيم من الإرادة والقوة بالتعلق بأمثال هذه الأوهام .

ومن الناس من يقول : إن المرء مسئول عن إصلاح ما أفسد : وهو قول حق يراد به باطل فى بعض الأحايين :

فإذا كان المطر يتطرق إليك من سقفك الخرب الذى لم يتقنه البناء — فهل تتركه يتلف أثاث البيت ورياشه حتى تجد العامل الذى كان سبب هذا

الائتلاف مثلا ؟ لا : ولكن العاقل من يبادر إلى إصلاح المختل ، وأن يتذكر أن ما يتلفه الواحد يصلحه الآخر ، وأن فريقا يخلق المشاكل وفريقا يصلح ذات البين ، وفريقا يسطو على الأموال ، وآخر يدافع عن الإنسانية ؛ هكذا نشأ الناس وهكذا يبقون إلى الابد .

الحق الذى لا مرية فيه أن الإنسان فى حاجة إلى قوة تساعده على تأدية الواجب : وهذه القوة هى ما ينبعث من حب الحياة على ما فيها من راحة وتعب ونعيم وشقاء ، وهذه القوة هى التى تتمكن من القلب ، وهى أكبر من أن تقهر ، وتظهر فى أشكال جمة :

منها قوة الإرادة والحنو والعطف على أبناء الإنسان ،

ومنها الإشفاق على اللقطاء الذين تركتهم أمهاتهم تحت رحمة الله والإنسان ،

وكل عمل من هذه الأعمال يدل على وجود هذه القوة ، وكل من أعطيها يغبط بها ويعرف أن قيمة الحياة فى قيمة العمل وفى الخير الذى يسديه إلى البائس والمنكود .

من كلام الإمام على فى الإحجام عن تأدية الواجب

وصف الإمام كرم الله وجهه للهارب من تأدية الواجب :

أيها الناس المجتمعة أبدانهم ، المختلفة أهواؤهم ، كلامكم يوهى الصم الصّلاب ، وفعلكم يطمع فيكم الأعداء ، تقولون فى المجالس كيت وكيت ، فإذا جاء القتال قلتم حيدى حياد ، ما عزّت دعوة من دعاكم ، ولا استراح قلب من قاساكم ، أعاليل بأضاليل ، دفاع ذى الدين المطول لا يمنع الضيم الذليل ، ولا يُدرك الحق إلا بالجد ، أى دار بعد داركم تمنعون ؟ ومع أى إمام بعدى تقاتلون ؟ المغرور والله من غررتموه ، ومن فاز بكم فقد فاز والله بالسهم الأخيب ، ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق ناصل ، أصبحت والله لا أصدق قولكم ، ولا أطمع فى نصركم ،

ولا أُوعد العدو بكم . ما بالكم ؟ ما دواؤ كم ؟ ما طبكم ؟ القوم رجال أمثالكم، أَقَوْلا بغير علم ؟ وغفلة من غير ورع ؟ وطمعا فى غير حق ؟

منيت بمن لا يطيع إذا أمرت ، ولا يجيب إذا دعوت ، لا أبا لكم ؛ ماتنتظرون بنصركم ربكم ؟ أما دينٌ يجمعكم ولا حميةٌ تُحْمِسُكم ؟ أَقُومفيكم مستصرخا وأناديكم متغوثا ، فلا تسمعون لى قولا ، ولا تطيعون لى أمرا ، حتى تَكشَّفَ الأمور عن عواقب المساءة ؛ فما يدرك بكم ثار ، ولا يبلغ بكم مرام ؛ دعوتكم إلى نصر إخوانكم ، فجرجرتم جرجر الجمل الأسَر ، وتثاقلتم تثاقل النضو الأدبر ، ثم خرج إلىّ منكم جنيد متذائب ضعيف كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون .

أف لكم ؛ لقد سئمت عتابكم ، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة عوضا ؟ وبالذل من العز خلفا ؟ إذا دعوتكم إلى جهاد عدوكم دارت أعينكم كأنكم من الموت فى غمرة ، ومن الذهول فى سكرة ، يرتج عليكم حوارى فتعمهون ؛ فكأن قلوبكم مألوسةٌ فأنتم لا تعقلون . ما أنتم لى بثقة سجيس الليالى وما أنتم بركن يمال بكم ، ولا زوافر عز يفتقر إليكم ، ما أنتم إلا كإبل ضل رعاتها ؛ فكلما جمعت من جانب انتشرت من آخر . لبئس لعمر اللهِ سعر نار الحرب أنتم ؛ تكادون ولا تكيدون ، وتُنتقص أطرافكم فلا تمتعضون ، لا ينام عنكم وأنتم فى غفلة ساهون ؛ غلب والله المتخاذلون ، وايم الله إنى لأظن بكم أن لو حمِى الوغى واستحر الموت قد انفرجتم عن ابن أبى طالب انفراج الرأس، والله إنّ امرأ يمكن عدوه من نفسه يَعرقُ لحمه ويهشِم عظمه ويفرى جلده ــ لعظيم عجزه ضعيف ما ضُمت عليه جوانح صدره . أنت فكن ذاك إن شئت ، فأما أنا فوالله دون أن أُعطى ذلك ضربٌ بالمشرفية تطير منه فراش الهام ، وتطيح السواعد والأقدام ، ويفعل الله بعد ذلك ما يشاء .

وله فى وصف الفار من الواجب أيضا :

استنفرتكم للجهاد فلم تنفروا ، وأسمعتكم فلم تسمعوا ، ودعوتكم سرا وجهرا فلم تستجيبوا ، ونصحت لكم فلم تقبلوا ، أشهود كغياب ، وعبيد كأرباب ؟ أتلو عليكم الحكم فتنفرون منها ، وأعظكم بالموعظة البالغة فتتفرقون عنها ، وأحثكم على جهاد أهل البغى فما آتى على آخر القول حتى أراكم متفرقين أيادى سبا ، ترجعون إلى مجالسكم ، وتتخادعون عن مواعظكم ، أقوّمكم غُدوة ، وترجعون إلى عشية كظهر الحية ؛ عجز المُقوّم وأعضل المقوَّم .

أيها الشاهدة أبدانهم ، الغائبة عقولهم ، المختلفة أهواؤهم ، المبتلى بهم أمراؤهم ، صاحبكم يطيع الله وأنتم تعصونه ، وصاحب أهل الشام يعصى الله وهم يطيعونه ؛ لوددت والله أن معاوية صارفنى بكم صرف الدينار بالدرهم :فأخذمنى عشرة منكم ، وأعطانى رجلا منهم .

يا أهل الكوفة ، منيت منكم بثلاث واثنتين : صم ذوو أسماع ، وبكم ذوو كلام ، وعمى ذوو أبصار ، لا أحرار صدق عند اللقاء ، ولا إخوان ثقة عند البلاء ، يا أشباه الإبل غاب عنها رعاتها كلما جمعت من جانب تفرقت من جانب آخر ،

الواجب كما يراه المسلم

المسلم الحق هو الإنسان الكامل الذى ينظر إلى ماضى الإسلام ، فيرى نورا سماويا أشرق على العالم ، فبدّله بالظلمات نورا وبالضلال رشادا ، ورفع الإنسان من عالم الحيوان ومصارعة الشهوات إلى مستوى الإخاء والحرية والمساواة .

بعث الله محمدا بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، فتجرّد هو وأصحابه الغُر الميامين من سلطان الشهوة إلى سلطان الله ، وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم دعوته بحرمان نفسه لذات الدنيا وتوزيع البر والرحمة بين الناس بمنزلة سواء ، وعلم أصحابه معنى الفداء فى سبيل العقيدة ، حتى إذا فتح الله عليهم

الدنيا فرقوها فى المحرومين وذوى الحاجات ، واتخذوا ذلك وسيلة لإحقاق الحق وإبطال الباطل ، وبذلوا النفوس رخيصة فى سبيل الله فى البدو والحضر وفى العالم المتمدين المعروف يومئذ أعنى بلاد القياصرة والأكاسرة : (وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا) .

وينظر المسلم إلى الحاضر ، فيرى الإنسان قد انغمس فى الدماء إلى أذنيه وهو يستتر وراء الإنسانية ورسالة الحضارة والمدنية ، ويتخذ الإصلاح وسيلة إلى إشباع الشهوات الدنيا والنور وسيلة إلى الظلام : ينادى ببعض مادعا إليه الإسلام من تكريم الإنسان ليشبع نهمه ، فإذا ماالتهم الفريسة وقف على أشلائها يُعزّيها عما أصابها بأنه لا يريد بها إلا خيرا : (يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ)

تتشابه الألفاظ وتختلف المعانى :

هذه الثورة الفرنسية دعت إلى الحق وتحرير الإنسان ، ولم تلبث أن انقلبت على مادعت إليه قبل أن يجنى زعماؤها ثمار دعوتهم ، وهم أنفسهم صاروا عوامل شر وإفساد واستعباد .

وهذه أمم العصر الحاضر تتداعى إلى الخير والبر والمعروف ، ولكنها تضل السبيل إلى ذلك ؛ ولو وردت شرعة محمد بن عبد الله لصلح العالم أجمع ، ولو أخلص قادة العالم إخلاص عمر بن الخطاب وصلاح الدين بن أيوب لعرفوا موضع أقدامهم ومسرح عيونهم ، ووجدوا أنفسهم وجها لوجه أمام هذا الإسلام ، فدخلوا فى دين الله أفواجا .

والسبيل إلى ذلك أنت أيها المسلم إذا تمثلت فيك روح أبطال الإسلام ، وجرت تعاليمه فيك مجرى الدماء ، واستمدت شرايينك غذاءها من معين القرآن الكريم ، وتجمعت هذه المادة الصافية فى قلبك ، فلا تعد أنت بعد ذلك دما ولحما وعظما ، بل تصير مشكاة فيها كوكب درّى يشع على العالم ، فيتخذك إماما ، ويضرب بك الأمثال . عند ذلك تكون قد أديت رسالتك وحملت الأمانة

كما كان يؤديها المسلمون فى الهند والصين وجزر البحار، حتى فتحوا قلوب الناس بحسن سلوكهم ، وانتشر الإسلام بنفسه

إذا فعلت ذلك كانت كلمة الله هى العليا: « وَلِلَّهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ » .

الدين الإسلامى شجرة مباركة يجد المسلم فى ثمارها الطعم والريح واللذاذة ، هى خالدة الأثر فى جسمه وعقله ، وتظل كذلك تؤتى أكلها فى وقتين فى الدنيا والآخرة ، ولكن من جنى الشهد تحمل فى سبيله صبرا ، ورضى ببعض العناء فى مقابل العاقبة الحسنى ، ومن ظفر بالحقوق فقد عاهد نفسه على احتمال الواجبات الإسلامية التى نجملها فيما يأتى :

(١) أول واجب على المسلم معرفة الله تعالى معرفة يصح بها الاعتقاد : فيكون على بصيرة من ربه ، ويعرف معنى كلمة التوحيد التى جاء الأنبياء من لدن آدم إلى خاتمهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بالتبشير بها وإيقاظ العقل البشرى للإيمان بقوتها وآثارها فى الكون وأن كل ما عداها زيغ وبهتان مبين ، ثم يتفهم هذه المذاهب المنتشرة فى العالم؛ فيدحض حجتها ويرد الناس إلى سواء السبيل . وأعجب ماأعجب له ألا يستطيع كثير من المسلمين العصريين فهم هذه الدقائق التى كان يجب أن يعلموها ويمرنوا أنفسهم على الحجاج فيها من مبتدأ حياتهم المدرسية كما فعل أسلافهم فى العصر العباسى حين انبثت بينهم المذاهب الكلامية والمقالات الجدلية التى دخلت عليهم من فلسفة اليونان وصابئة الفرس وغير ذلك ، فنصبوا أنفسهم للرد عليها وتصحيح العقيدة الإسلامية فى نفوس المسلمين ، ثم حرصوا أن يجعلوا تبرىء الشريعة مجيراهم ، ويتخذوها جزءا متمما لعلومهم التى ألفوا كتبها ، فتجدها فى كتب الأدب والفلسفة والطبيعة وعلوم البلاغة وتأديب الأطفال بله علوم الدين والشريعة كلها .

فإذا صحت عقيدة الإنسان وتمكن من دينه أشربت نفسه تعاليمه ؛ فعمل على محاربة الباطل وأخذ عليه السبيل من كل مكان ؛ فالحسن عنده ما حسنه الإسلام ،

والقبيح ماقبحه وازدراه .

ومن الغريب أن كثيرا من الناس يرون المنكر ، فيغمضون العين على القذى ، ويزعمون أن جبنهم هذا من الدين ، وحسبهم سلامة أنفسهم ، مع أن الدين أوجب على المسلم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ورغب أتباعه فى هداية الناس ، وجعل ذلك خيرا من أعلاق الدنيا : فقال النبي عليه السلام : (لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم »

وقد أوجب الله علينا ذلك ، وعلمنا طريقة الارشاد والحكمة فى الدخول على النفوس المستعصية بقوله لنبيه : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن »

(٢) أوامر الدين ونواهيه :

إن لكل دين من الأديان تكاليف وواجبات تكفل حفظ مظهره وتبسط سلطانه فى الناس ، وإن أوامر الدين الاسلامى من صلاة وصيام وحج وزكاة وما إلى ذلك ماهى إلا أعلام خفاقة تهوى إليها النفوس ، وتنتظم القلوب ، فتلبسها ثوب الدين ، وتعصمها من الشرور ، فتكون جنود الله فى الأرض تعبده وتأخذ نفسها بمرضاته . وإذا كان كل من ينتسب إلى عظيم أو زعيم يحمل شارته ويفاخر الناس بنبالته فما أجدر المسلم أن تكون سمات الاسلام أظهر شيء لديه ؟ ثم هى طهارة للنفوس وتهيئة لها للكمال : فالصلاة تغسل أدران الشيطان من نفس الانسان ، وتعوده الخير والتواضع ، وتحول بينه وبين المحظورات : (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى) ، وكذلك بقية التكاليف تذكر الانسان بعظمة ربه ، وترسم أمام ناظريه الحلال والحرام ، فيعرف ما يأخذ وما يدع . وليس هناك دين من غير عمل : فالمسلمون القائمون باسم الاسلام دون العمل بأوامره منعوا أنفسهم موارد السعادة ، ومكنوا لغريزة النفس الجامحة أن تتغلب على عقولهم إذلا تجد من جنود الدين الروحية حاجزا ، وحرمت قائدا حكيما يهديها سواء

السبيل .

(٣) ومجاهدة النفس ! ويالله من مجاهدة النفوس ؛ ولن يقدر على ذلك إلا أولو العزم وذوو النفوس المسلمة حقا .

ومن أجل ذلك عدّها النبي أكبر عند الله من خدمة الإسلام بحد السيف البتار وبيع النفس رخيصة فى معمعان القتال : فقال بعد أن عاد من إحدى غزواته : (رَجَعْنَا مِنَ الْجِهَادِ الأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الأَكْبَرِ) .

ومغالبة النفس إنما تصدر عن قوة الإرادة والإخلاص لله : فهذا سيف الله خالد بن الوليد : يفتح الفتوح ، ويرفع أعلام الإسلام ، وينكس أعلام الفرس والروم ، يهتف المسلمون به من أعماق قلوبهم ، ويشيرون إليه بالبنان : فحين ينتظر المكافأة والإعجاب من قائد الجيش الأعلى عمر بن الخطاب تجيئه رسالة العزل والتنحى عن القيادة ، فيسلّم الراية لأمين الأمة أبى عبيدة بن الجراح ، ويقسر نفسه على الطاعة ، ويتلقى أوامر أبى عبيدة كما يفعل الجندى الصغير مع رئيسه الكبير : ذلك أنه أذل نفسه لله قبل أن يحمل السيف ، وهذا سر من أسرار عظمة الإسلام وقوة نفس المسلمين .

وأين من ذلك ما يتبجح به أهل أوروبة اليوم من النظام ونبالة المقصد ؛ فلقد كان شاعر إيطاليا المشهور دانزيو يحارب ليفتح مدينة فيوم ، فجاءه الأمر من القيادة بالكف فأبى إلا أن يفتحها ويخرج عن طاعة حكومته . وإنه لانتصار خير منه الخذلان .

(٤) ثم من الحتم على المسلم أن يحوط دينه بعنايته ويرد هجمات العدو عنه ، وهذه جيوش المبشرين من أوروبيين وأمريكان تغزو دين الإسلام باسم الإنسانية والعلم ومعالجة المرضى ، فيتخذون سذاجة الطفل سبيلا إلى محو دينه وإدخال العقائد المسيحية عليه بصنوف الحيل وألوان الإغراء ، ويستضعفون المرضى المساكين الذين استسلموا بسبب قسوة المرض ، فلا يعالجونهم إلا أن

يسقوهم مع الدواء التثليث ، ولا يعملون المبضع فى جسم المريض إلا بعد أن يأخذوا منه صكا بردته عن الاسلام ، ويكونوا له من الظالمين .

والمسلم الكامل يغلى مرجل دمه بالدفاع عن حوزة الاسلام ويحله محل النفس والعرض ؛ فاذا أصاب الاسلام مكروه استوفز كما يستوفز الليث المصور ، حتى يدفع عن نفسه ما يوصم به من أخلاق الثعالب ، ولو كان فى ذلك إزهاق روحه ولله در القائل :

ولست أبالى حين أقتل مسلما على أى جنب كان فى الله مصرعى

(٥) ثم الأخوة الاسلامية وحمية الدين لمناصرة المسلمين وإن بعدت ديارهم وتباينت أوطانهم : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) والرسول الكريم كأنه كان ينظر بنور الله إلى تاريخ المسلمين فى مستقبلهم إلى أن تقوم الساعة ، فخاف عليهم أن يكون بأسهم بينهم شديدا ، وأن تكون قلوبهم شتى ، وكان يوجس خيفة كلما جر الحديث مع أصحابه إلى الرابطة الاسلامية ، فيوصيهم بالاتحاد وتآلف القلوب ، ويخشى أن يهدم الناس بعضهم بعضا ، فيسقطوا فى الهوة جميعا : وذلك بأن يحرص الناس أن يكونوا عبيدا لمنافعهم وأسراء لشهواتهم ؛ فمتى توافر لهم ذلك لا يعنيهم هلاك الناس جميعا : فقال عليه السلام :

(الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِماً سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

فهذا هو دستور المسلم فى العلاقة بأبناء ملته .

ولا يضير من ينصر الاسلام تخاذل المسلمين اليوم ؛ فليضع حجرا فى سبيل تدعيم القلوب ، وهنالك يقتدى المخلصون به ، وتصلح النفوس ، فيعود للاسلام عزه وللمؤمنين كرامتهم ، وتصان هيبة الاسلام ، فينصر المسلمون بالرعب كما قال الرسول :

(نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مِنْ مَسِيرَةِ شَهْرٍ)

(٦) أمّا أن الاسلام دين الانسانية كلها فهذا من مفاخره : فبينما يعنى أبناء كل دين بمراعاة حقوق أهل ملتهم و يتعصبون لهم ، ويهدرون حقوق الآخرين — إذا بالاسلام يرعى حقوق الناس كافة ، ولا يكتفى بذلك ، بل يأمر بالاحسان والمواساة لخلق الله عامة حتى الحيوان : قال النبى عليه السلام : (فِى كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ) ؛ ليعلم المسلمين العطف على كل ماخلق الله ؛ وإذا كان الحيوان مكفول الرعاية من كل مسلم فما بالنا بالانسان الذى يسكن الدنيا ويعمرها ؟

لذلك شعر الناس فى أزمان التاريخ بمروءة الاسلام ، فدخلوا فى دين الله أفواجا ، حتى العدو الذى فى قتله صلاح العالم ، والحيوان عند ذبحه الذى جعل الله لحمه متاعا للانسان — ينبغى الاحسان فى القضاء عليهما : قال الرسول : (إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ)

فماذا بقى من مفاخر الدنيا لم يتضمنها الاسلام منذ نحو أربعة عشر قرنا ونصف قرن ؟ . وماذا يبتغى العالم بعد هذه الشريعة السمحة الرحيمة التى أسعدت المهتدين ؟

هذه هى الأصول التى لا يجمل بالمسلم أن يغفل عنها ؛ فهى تراث أجداده ومعقل عزه والتى نصر الله بها الاسلام على الدين كله .

أمثلة من الشعور بالواجب

(١)

واجب الخروج عن المال فى سبيل تأييد المبدأ

فى غزوة تبوك جهز عثمان رضى الله عنه جيش العسرة بتسعمائة وخمسين بعيرا وأتم الألف بخمسين فرسا . وأخرج الترمذى عن أنس والحاكم وصححه عن عبد

الرحمن بن سمرة قال : جاء عثمان إلى النبي صلى الله عليه وسلم بألف دينار حين جهز جيش العسرة ، فنثرها فى حجره ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقلبها ويقول : ما ضر عثمان ماعمل بعد اليوم .(مرتين) .

(٢)

إنكار الذات في سبيل إعلاء الدين

فى أثناء فتح الشام وخالد بن الوليد القائد العظيم فى أوج مجده وفى خلال المعركة الناشبة بين المسلمين والروم جاء بريد المدينة وفيه خبر وفاة أبى بكر وخلافة عمر بن الخطاب وعزل خالد عن إمارة الجيش وتولية أبي عبيدة قائداً عاما مكانه ، فأخذ خالد الكتاب وأسره إلى أبي عبيدة ، ولم يذعه لئلا تهن به قوة الجنود ، وأخذ الكتاب فوضعه فى كنانته حتى انتهت الموقعة بالنصر ، فسلم الكتاب إلى أبي عبيدة، وسلم عليه بالإمارة ، وأصبح جنديا من جنود مرءوسه لايرى فخرا أعظم من أداء واجبه حرصا على اتحاد كلمة المسلمين وإعلاء شأنهم .

(٣)

واجب تفقد شئون الرعية

روى أسلم قال: خرجت مع عمر بن الخطاب إلى حرَّة واقم(١) حتى إذا كنا بصرار(٢) إذا نار تؤرث . فقال : ياأسلم ، إنى أرى هؤلاء ركبا قصر بهم الليل والبرد . انطلق بنا . فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم ، فإذا امرأة معها صبيان لها وقدر منصوبة على النار وصبيانها يتضاغون (٣) فقال عمر : السلام عليكم يا أصحاب الضوء (وكره أن يقول يا أصحاب النار) . قالت المرأة : وعليك السلام . فقال : أأدنو ؟ قالت : ادن بخير أودع . فقال : مابالكم ؟ قالت : قصر بنا الليل والبرد : قال: فما بال هؤلاء الصبية يتضاغون ؟ قالت : الجوع . قال : وأى شيء فى هذه القدر ؟ قالت : ماء أسكتهم به حتى يناموا ! الله بيننا وبين عمر !

(١) مكان بظاهر المدينة (٢) اسم لواد (٣) يصيحون

فقال: أي رحمك الله ما يدرى عمر بكم ؟ قالت : يتولى أمورنا ويغفل عنا ! فأقبل علىّ فقال : انطلق بنا . فخرجنا نهرول حتى أتينادار الدقيق فأخرج عدلا ، فقال : احمله علىّ . قلت : أنا أحمله عنك . قال : احمله على (مرتين أو ثلاثا) كل ذلك أقول : أنا أحمله عنك . فقال فى آخر ذلك : أنت تحمل عنى وزرى يوم القيامة ! لا أم لك !! فحملته عليه ، فانطلق ، وانطلقت معه نهرول حتى انتهينا إليها ، فألقى ذلك عندها ، وأخرج من الدقيق شيئا وجعل يقول : ذرى على وأنا أحرك وجعل ينفخ تحت القدر ، فجعلت أنظر إلى الدخان من خلال لحيته حتى أنضج الطعام وقال: ابغنى شيئا . فأتته بصحفة ، فأفرغها فيها ثم جعل يقول : أطعميهم وأنا أسطح لك . فلم يزل حتى شبعوا ، ثم خلى عندها فضل ذلك وقام وقمت معه فجعلت تقول : جزاك الله خيرا ، أنت أولى بهذا الأمر من أمير المؤمنين! فيقول : قولى خيرا إنك إذا جئت أمير المؤمنين وجدتنى هناك إن شاء الله . ثم تنحى ناحية ثم استقبلها وربض مربض السبع فجعلت أقول : إن لك لشأنا غير هذا . وهو لا يكلمنى حتى رأيت الصبية يصطرعون ويضحكون ثم ناموا وهدءوا ، فقام وهو يحمد الله ، ثم أقبل علىّ فقال : يا أسلم ، إن الجوع أسهرهم وأبكاهم ، فأحببت ألا أنصرف حتى أرى ما رأيت

(٤)

واجب إصلاح ذات البين

قال الحارث بن عوف المرّى لخارجة بن سنان فى إبان الحرب بين عبس وذبيان : أترانى أخطب إلى أحد فيردنى ؟ قال : نعم : أوس بن حارثة الطائى . فقال الحارث لغلامه : هيئ لى مركبا . ثم ركب هو وغلامه ومعهما خارجة حتى أتيا أوسا فوجداه فى داره ، فلما رأى الحارث رحب به وسأله عن مجيئه ، فقال: جئتك خاطبا . فقال أوس : لست هناك . فانصرف ولم يكلمه ، ثم دخل أوس

على امرأته مغضبا ، وكانت من عبس ، فقالت : من رجل وقف عليك فلم تطل ولم تكلمه ؟ قال : ذاك سيد العرب الحارث بن عوف . قالت : فمالك لم تستنزله؟ قال : إنه استحمق ، جاءني خاطبا . قالت : أفتريد أن تزوج بناتك؟ قال : نعم. قالت : فإذا لم تزوج سيد العرب فمن ؟ قال : قد كان ذلك . قالت : فتدارك ما كان منك فالحقه وقل له : إنك لقيتني مغضبا بأمر لم تقدم منى فيه قولا . فلم يكن عندى من الجواب إلا ما سمعت ، فانصرف ولك عندى كل ما أحببت ؛ فإنه سيفعل . ففعل ذلك أوس وورد حارثة ، فلما وصلوا إلى بيت أوس قال أوس لزوجه : ادعى لى فلانة (لكبرى بناته) . فأتته ، فقال : يا بنية ، هذا الحارث بن عوف سيد من سادات العرب ، وقد جاءنى طالبا خاطبا ، وقد أردت أن أزوجك منه . فقالت : لا تفعل ؛ لأنى امرأة فى وجهى رَدَّةٌ (١) وفى خلقى بعض العُهْدة(٢)، ولست بابن عمه فيرعى رحمى ، وليس بجارك فى البلد فيستحيي منك ، ولا آمن أن يرى منى ما يكره ، فيطلقنى ، فيكون علىَّ فى ذلك ما فيه !! قال : قومى بارك الله فيك . ثم دعا الوسطى ، فأجابته بمثل جواب الأولى وقالت : إنى خرقاء وليست بيدى صناعة ولا آمن أن يرى منى ما يكره ، فيطلقنى ، فيكون علىَّ فى ذلك ما تعلم ،

ثم دعا الثالثة وهى صغراهن ، فلما عرض عليها قالت : أنت وذاك . فأخبرها بإباء أختيها ، فقالت : لكنى والله الجميلة وجها الصناع يدا الرفيعة خلقا الحسيبة أبا ، فإن طلقنى فلا أخلف الله عليه بخير . فزوجها الحارث ، وهيئت إليه فى بيت أبيها ، فلما خلا بها وأراد أن يمد يده إليها قالت : مه ، أعند أبى وإخوتى ؟ هذا والله ما لا يكون . فارتحل بها حتى إذا كان ببعض الطريق وأراد قربانها قالت : أكما يفعل بالأمة الجالبية أو السبية الأخيذة ؟ لا والله حتى تنحر الجزر وتذبح الغنم وتدعو

(١) قبح (٢) ضعف

العرب وتعمل مايعمل لمثلى .

فرحل حتى إذا وصل إلى قومه أعدلهـا مايعد لمثلها ، فلما أراد قربانها قالت له : أتَفْرُغُ لنكاح النساء والعرب تقتل بعضها ؟ اخرج إلى هؤلاء القوم فأصلح بينهم ، ثم ارجع إلى أهلك فلن يفوتك . فخرج الحارث مع خارجة بن سنان فأصلحا بين القوم ، وحملا الديات وكانت ثلاثة آلاف بعير فى ثلاث سنين .

(٥)

التفدية بالأبناء فى سبيل المبدأ

لمـا هم المسلمون بفتح فارس حضرت الخنساء وقعة القادسية سـنة ١٦ ﻫ ثم أوصت بنيها الأربعة ليلا بقولهـا : يا بنى ، إنـكم أسلمتم طائعـين وهاجرتم مختارين والله الذى لا إله إلا هو إنـكم لبن رجـل واحد كما أنـكم بنو امرأة واحدة ، ماهَجَّنتُ حسبكم ولا غيرت نسبكم ، واعلموا أن الدار الآخرة خـير من الدار الفانية . اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلـكم تفلحون ، فإذا رأيتم الحرب قـد شمرت عن ساقهـا وجللت نارا على أرواقهـا فتيمموا وطيسها وجالدوا رسيسها تظفروا بالغنم والـكرامة فى دار الخلد والمقامة .

فلـما أضاء لهم الصبح باكروا إلى مراكزهم ، فتقدموا واحدا بعد واحد ينشدون أراجيز يذكرون فيها وصية العجوز لهم حتى قتلوا عن آخرهم . ولمـا بلغ الخبر إليها قالت : الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم ، وأرجو من ربى أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته

(٦)

افتداء الوطن بالنفس

عند ما أرسـل لويس الخامس عشر ملك فرنسا جيشا إلى ألمـانيا واسـتولى سنة ١٧٦٠ م على (كلستركامب) من أحصن مواقها — شبت نيران حرب سبع السنوات من سنة ١٧٥٦ م إلى سنة ١٧٦٣ م بين فردريك الأكبر ملك بروسيا

بألمانيا والجيوش النمساوية الروسية الفرنسية المتحالفة .

وفى ليلة الخامس عشر من أكتوبر سنة ١٧٦٠ م أرسل ضابط شاب اسمه (الشفاليه دى أساس) لكشف مكان العدو ، فخرج منفردا مخترقا غابة لا تبعد إلا قليلا عن رجاله ، وبينما هو جاد فى السير إذا به يجد نفسه على مقربة من جنود العدو صوبوا سهامهم نحو صدره ، وقال قائل منهم له : إذا تكلمت أيها الشاب أو بدت منك لفظة أو حركة كنت بلا ريب من الهالكين .

ففهم أن جيش العدو كان يتقدم بهدوء نحو الجيش الفرنسى حتى إذا أقبل الظلام فاجأه وأذاقه النكال ، فهانت عليه حياته فداء لبلاده وملكه ، فلم يسعه — وقد غلى فى عروقه دم الوطنية الصحيحة — إلا أن نادى بأعلى صوته قائلا : أيها الجيش الفرنسى المحبوب، خذوا حذركم من عدوكم ؛ فقد صار منكم على قاب قوسين أو أدنى .

وسرعان ما تأهب الجيش للحرب ، ولكن حراب العدو اخترقت جسم ذلك البطل الذى أفسد بعمله هذا خطتهم .

ولم يقدر (لويس الخامس عشر) عمل ذلك الشاب إلا أن (لويس السادس عشر) لما ارتقى العرش أمر بأن يجرى راتب كبير على سلالة (دى أساس) مادام على قيد الحياة فرد منهم ، كما جعل هذا الاسم الجليل شعارا لأعظم باخرة حربية فى الأسطول الفرنسى اعترافا بالواجب العظيم الذى استقل به ذلك البطل الشجاع .

(٧)

واجب الاستماتة في الذود عن الوطن

(١)

لقد أوقع نابليون بونابرت بخداعه وسياسته الأسرة الإسبانية المالكة فى شراك سياسته ، وسلب ملكها وتاجها ، وأعطاه أخاه (يوسف بونابرت).

وقد هب الشعب الإسبانى جميعه يدافع عن بلاده لمقاومة ذلك الملك الدخيل،

وعبثا حاولت الحكومة الجديدة تثبيط همة الشعب ؛ إذ قد تمثلت حمية القوم بأجلى مظاهرها لما حوصرت حاضرة ملك الأرجون القديمة ، ولم يكن هناك من وسائل التحصين سوى سور واحد يبلغ ارتفاعه عشرة أقدام وسمكه ثلاثة ، وكان للمدينة اثنا عشر بابا منها أربعة فى هذا السور ، وكانت منازل تلك المدينة رديئة البناء وشوارعها قذرة متعرجة إلا شارعا واحدا يسمى بالشارع المقدس ، وكان أهل هذه الحاضرة أغبياء بلداء ميالين إلى الكسل ، فاحتقرهم الفرنسيون عند مادخلوا المدينة .

وقد أرسل القائد (ليفيفر دسنويت) لإخماد الثورة وتسكين الفتنة التى قام بها الأهالى ضد الفرنسيين فى الأرجون ، فتمكن من تبديد شمل الثائرين ، فالتجأ الهاربون إلى الحاضرة ، فتبعهم الجيش الفرنسى إلا أن الإسبانيين تحصنوا بمنازلهم ، وردوهم على أعقابهم .

وقد قام (الدون هوذا بلافو) وهو نبيل إسبانى بقيادة جيش الثائرين الذى زوده بالعدد ، وبث فيه روح الحمية وبذل النفس فداء الوطن . ولقد حاصرهم الفرنسيون وسرعان ما سقط فى يدهم ذلك المكان المرتفع المعروف باسم (توريرو) ومنه استطاعوا إطلاق رصاصهم وقنابلهم

ولم يجد أهالى الحاضرة حيلة تقى منازلهم تلك المصائب إلا وضع كتل عظيمة من الخشب بجانب جدران البيوت ، كذلك أنزلوا مظلات النوافذ وعملوها وقايات بعد أن حفروا كثيرا من الخنادق .

ثم قامت المدينة يدا واحدة من رجال ونساء ورهبان وراهبات وأطفال للدفاع عن وطنهم .

عندذلك خشى الجيش الفرنسى عاقبة تلك الاستماتة فدسوا الجواسيس ، وبينما كان الأهلون فى عملهم إذ انفجر مخزن البارود فدمر أربعة عشر منزلا وقتل مائتى شخص ، وعلى إثر ذلك أخذ الفرنسيون يصلون الأهلين نارا من مدافعهم .

وبينما الأهالى فى حيرة وارتباك إذ أقبلت امرأة تحمل طعاما وماء للمحاربين، وهى فى الثانية والعشرين من عمرها ، جميلة الطلعة ، ترتسم على وجهها آيات الإقدام والبسالة : تلك هي البطلة (أغوستينا السرقسية) ؛ فقد رأت أن الرجال يحجمون عن خفر السور خوفا من أن يلاقوا حتفهم ، فانتزعت بندقية أحد القتلى، وتولت إطلاق المدافع الضخمة حالة محل زوجها الذى استشهد فى إحدى المواقع ، وما زالت تحمل البندقية وتؤدى عمله دفاعا عن الوطن وذودا عن الكرامة .

وقد كان ثباتها فى موقفها وتوليها أمر إطلاق ذلك المدفع سببا فى رد هجمات الفرنسيين عن (البورتلو) ونجاته من السقوط فى أيديهم ، وظلت الحرب سجالا بين الفريقين حتى تمكن الإسبانيون من نسف دير سانت أنجرثيا العظيم، فاشتعل المكان الذى يحتله الفرنسيون ، فدب اليأس فى قلوبهم ، وقرروا الجلاء عن العاصمة قبل أن يحل بهم الدمار

وبذلك تم الفوز للإسبانيين ، وأخذوا يطهرون شوارعهم من جثث القتلى المتجمعة .

ثم جاء الأمر بأن تعطى (أغوستينا) راتب رجل من رجال المدفعية ، وأن تمنح شارة شرف تعلق على ذراعها الأيمن اعترافا بفضلها وإقرارا ببسالتها وتفانيها فى حب الوطن .

(ب)

بعد خروج الملوك من رومة سنة ٥٠٧ ق.م. سعوا سعيا متواصلا للرجوع إليها بمساعدة أهل (أترورية) (قسم من أقسام إيطالية القديمة) . وما أن سمع أهلها هذا الخبر حتى علوا أسوار المدينة ، وكان نهر التيبر هو أحسن مايحميهم من أعدائهم ؛ إذ كان لايمكن اجتيازه إلا على جسر من الخشب ، وفى نهايته قلعة محصنة احتلتها طليعة جيش الأعداء ، ولم يكن ثم سبيل لخلاص المدينة من يد العدو إلا تدمير ذلك الجسر . وفى أثناء ذلك ظهر بطل مقدام يدعى (هوريشص كوكليس) ، وقد انتقى اثنين من أخصائه ثم خاطب قومه قائلا :

أهل وطني ، على ورفيقي دفاع العدو عن نهاية الجسر ، وعليكم تدمير الجسر بعزمكم ، وبذا ينصرنا الله على عدونا .

ولشد ماذهل جيش العدو عندما رأى ثلاثة أشخاص واقفين لمناجزتهم ، فلم يعبأ بل تقدم ثلاثة ثلاثة ، وما كاد يتوسط النهر حتى انهار الجسر ، فهوى الجميع إلى النهر ، ورجعت بقية الجيش القهقرى ، وولى رفيقا هوريشص فرقا من العدو ، فسقطا فى النهر على حين أن هوريشص ذلك البطل المغوار الذى سجل لنفسه ولبلاده الفخر ظل ثابتا فى مكانه لا يتزعزع ، وماهى إلا لحظة حتى رماه أحد الأعداء بسهم ففقأ إحدى عينيه ، ثم قفاه بآخر فى فخذه ، فسالت الدماء منه ، ثم أخذ ينظر إلى نهر التيبر مخاطبا له بما أذكى العزائم ، ثم ألقى بنفسه فى النهر خشية أن يأسره الأعداء .

ولما شاهده أهل وطنه ألقوا بأنفسهم فى النهر لإنقاذه ، وحملوه على رءوسهم ودخلوا به المدينة فرحين مهللين .

(٨)

واجب الإنسانية

حل بلندن سنة ١٦٦٥ م أروع ماعرف من أنواع الطاعون ؛ فقد انتشر هذا الوباء الخبيث انتشارا مروعا ، وتفشى جميع أحياء المدينة ، ففتك بها فتكا ذريعا .

ولقد قام الكثير من أهل البر والتقوى بأعمال جليلة لمقاومة هذا الوباء .

وفيما يلى نرى ما كان من أمر إحدى القرى الصغيرة التى سرت إليها العدوى واسمها (إيام) فى مقاطعة (دربيشير) بإنجلترة :

هذه القرية فى مكان جميل على مرتفع يحجبه جبل عال ، ومع جمال منظرها كانت فريسة للأمراض لاحتباس الهواء عنها بذلك الجبل الشامخ .

وكان من أهم أسباب انتشار ذلك المرض ازدحام القرية بالسكان الأجانب

والأصليين الذين كانوا يعملون فى مدخطوط المواصلات فى الجبل .

وكم كان رعب القوم وفزعهم عند ما رأوا أن (خياطا) قد ذهب إلى لندن ومعه بعض الأمتعة ، ثم عاد ، فظهرت عليه وعلى أهل بيته أعراض الطاعون ، وما لبثوا أن فارقوا الحياة !!

وما سمعت بذلك الخبر زوج قسيس القرية وهو الأب (وليم مُومْبِسُن) حتى توسلت إلى زوجها أن يرحل بها وبولديهما الصغيرين إلى مكان بعيد ؛ غير أن القسيس أبى أن يترك أهل القرية فى ذلك الوقت العصيب ، وأخذ يعد المعدات لإرسالها مع طفليها إلى مكان أمين إلا أنها كفت عن طلبها ، واتفقا على إبعاد الطفلين فقط .

وفى نفس ذلك اليوم كتب المستر (مومبسُنْ) إلى لندرة يطلب أنجع الأدوية وأنفع العقاقير ، كما أرسل كتابا إلى (إرل أوف ديفونشير) يقول فيه:

إنه أوصى أهل القرية ألا يتعدوا حدودها خوفا من انتشار الوباء فى البلاد المجاورة على أن يقوم (الإرل) بإرسال ما تدعو إليه الحاجة من مؤن وأدوية وغير ذلك. وقد وافق (الإرل) على ذلك وأخذ يوفد رجاله ومعهم ما لا بد منه من الطعام والشراب والدواء إلى مكان معين متفق عليه، فيضعون ما معهم ويبتعدون، فيأتى أهل (إيام) فيأخذونها ويضعون ثمنها حرصا على عدم تفشى الوباء . وقد لبثوا على هذه الحال سبعة شهور كاملة لا يغادرون قريتهم . لذلك لم تصل العدوى إلى أى قرية من القرى المجاورة . والفضل فى ذلك إلى هذا القسيس الذى كافح ومنع الاجتماع بضروبه .

وقد كان هو وزوجته لا ينفكان ليلا ولا نهارا عن مواساة المرضى ؛ غير أنه لم يمض كثير من الزمن حتى اعتلت زوجته ونحل جسمها وفارقت الحياة .

ولقد حزن عليها زوجها المنكوب حزنا شديدا ؛ غير أن ما كان عليه من إيمان راسخ ويقين ثابت قواه على احتمال ما ألم به .

وقد أملى فؤاده الكليم وقلبه الحزين على قلمه خطابين أحدهما لولديه والثانى إلى

أسقفه (السير جورج سافيل) الذى أصبح بعدئذ (لورد هلفاكس) ، وفيهما آيات الإيمان الصادق والاغتباط العظيم بتأدية الواجب واحتمال ما يصحبه من مشقة ونصب .

وقد عاش ذلك الرجل العظيم الذى نهض بواجب الإنسانية بما يستوجب الثناء المستطاب والذكرى الجميلة بضع سنين فى خلالها طلب إليه أن يتولى وظيفة أرقى من وظيفته ، فأبى تعففا عن المناصب واكتفاء بما ناله من راحة ضميره فى سبيل تأدية الواجب فى أحسن صوره .

(٩)

المخاطرة بالنفس برا بالوالدين

كان من أهالى سويسرا صبيان فقيران لا يملكان من حطام الدنيا شيئا ، وكان لهما والد ترادفت عليه الأسقام ، فذوت نضرته وذهبت كدنته ، ولم يكن لهذين الصبيين ما يسعفان به هذا المضنى .

وبينما هما فى حيرة ويأس إذ علما أن بالمدينة سائحا إنجليزيا يعرض قدرا كبيرا من المال ثمنا لنسرين صغيرين هو فى احتياج لهما ، وكانا يعرفان وكر نسر فى قنة جبل شاهق صعب المنال ، غير أن حرصهما على أداء الواجب لأبيهما الذى أثخنه الداء دفعهما إلى التغلب على كل صعب ، فتسلقا الجبل وأمسكا النسرين ، ونزلا بسلامة ، وذهبا إلى ذلك السائح ، فأنقدهما المال ، وتسلم الطير .

وبذلك تمكنا من مساعدة أبيهما ، فأثبتا لأنفسهما عملا مجيدا وفخرا على مر الأيام وكر الأعوام .

الروابط الاجتماعية

تختلف الروابط الاجتماعية اختلافا ظاهرا ، وأهمها تلك الروابط القومية الخاصة بكل مجتمع والتى تميز الوحدات القومية المختلفة ، وهذه الروابط القومية هى التى تربط أفراد الأمة الواحدة ، وتوثق بينهم عرا الائتلاف العام ، فهناك

روابط المدينة الواحدة التى يشترك أفرادها فى الانتفاع بكل مافيها من طرق مواصلات ، ومدارس ، ومساجد ، وحقوق الانتخاب والتصويت ؛ فيكون أفراد المدنية أشبه بأسرة كبيرة لها مصالح مشتركة ، مهما اختلفت ميول الأفراد ومراكزهم ؛ وأجدرها بالمنفعة روابط القرابة التي هى أمس الروابط الإنسانية ، والمحور الذى تدور عليه نظم المجتمع ؛ لأن الأسرة هى أصل المدينة ونواة الشعب . وأفضل المجتمعات ما ارتبط الأفراد فيها بميل مشترك إلى الفضائل ، واجتمعوا على الخير أعوانا ، ومتى اتحد الأفراد فى تلك الصفة الكريمة تقاربت نفوسهم ، وائتلفت أرواحهم ، ومثل هذا نلاحظه فى الأصدقاء ، وبين أفراد المهنة الواحدة .

ولئن بحثنا فى الروابط الاجتماعية لم نر أعظم وأجل من الجامعة الوطنية التى تربطنا بقومنا ؛ إننا نحب أقاربنا وأصدقاءنا ، ولكن هذا الحب يتضاءل إذا قيس بحب الوطن عند الرجل الشريف الذى لا يتردد عن التضحية بحياته فى سبيل الوطن .

وحب الوطن هو الشعلة التى توقد حب الأقارب والأصدقاء فى قلوبنا ؛ إذ لولا الروابط القومية التى تتمثل فى وحدة اللغة والعادات وغيرها ما استطعنا أن نستمتع بتذوق محبة أقاربنا وأصحابنا ، وما أمكننا أن نقوى تلك المحبة بالنصح ، والمواساة ، واللوم ، والعتاب

وإذا تعارضت الواجبات أو اجتمعت — فعلينا أن نقدم الأهم على المهم : بمعنى أن نقوم بأمسها بالحاجة وأقربها نفعا ؛ ومن هنا تتفاضل الواجبات والخدم التى نقوم بها : فإذا طلب إليك جارك مثلا أن تساعده فى حقل له كان من حق الجوار عليك أن تسرع إلى مساعدته ، فإذا استصرخك أخوك فى الوقت نفسه طالبا عونك وجب عليك أن تبادر إليه ملبيا النداء وتاركا جارك وحقله . وهذه الاعتبارات حرية بعنايتنا واهتمامنا ؛ فعلينا أن نعتادها بالتمرين والمثابرة .

واجبات القرابة

ترجع واجبات الأبوين إلى تلك المسئولية التى رضيا بحملها فى إيجاد الذرية، وتحميلها أعباء الحياة، وتوريثها مافيها من صحة أو سقم أو إملاق، ثم هى ترجع أيضا إلى طول زمن الطفولة فى أبناء الإنسان وما تقتضى الحضانة من التربية المضنية.

وأول هذه الواجبات القيام بتنمية جسم الطفل وعقله، وتهذيب نفسه إلى أن يبلغ من العمر مايؤهله لتولى شئون نفسه؛ ولهذه الواجبات ثلاثة أدوار تختلف العناية بها بحسب سن الطفل واستعداده:

ففى المرحلة الأولى وهى الطفولة يجب أن تصرف العناية فيها إلى تغذية الطفل تغذية كاملة صحيحة،

وفى الطور الثانى وهو الحداثة حيث يبتدئ ظهور الملكات العقلية، وينطبع فى ذهنه كل مايربى عليه، ويدرسه فى حداثته — يجب على الوالدين أن يجتهدا فى ألا يرى الطفل أو يسمع إلا ما يهذبه وينفعه؛ لأن التربية المدرسية لا تفيد كثيرا إذا لم تساعدها البيئة المنزلية.

وفى الطور الثالث وهو طور الشباب يخف عبء الواجبات على الأبوين إلى حدما، ويكتفى فى أمر التربية بالنصح والإرشاد، والسعى فى إيجاد عمل يناسب ماحصله الشاب من علم وثقافة، ويجب على الأم أن تلتفت بنوع خاص إلى فتياتها: فتعلمهن واجبات ربة البيت الصالحة، على ألا ينسى الأبوان ما للقدوة الصالحة من أثر فى تهيئة فتاتهما لملء مركزها إذا تزوجت.

وسلطة الأبوة على الأولاد يجب ألا تتعدى الحدود المقررة أدبيا من حيث تجنب الخشونة والقسوة، ويستعاض عن ذلك بالزجر والتأنيب أو الحرمان من المكافآت الأسرية، وبحيث لايلجأ الأبوان إلى هذا الزجر والحرمان إلا بعد النصح والإرشاد بالقدوة الحسنة

ومن المهم أن تكون عناية الأبوين بأولادهما عناية عادلة؛ لأن التفضيل فى المعاملة لا يثمر إلا الحقد فى نفوس الأبناء، وغرس بذور العداوة فى قلوبهم،

ومحبة الأولاد للوالدين واحترامهم مبنيان على مبدأ الاعتراف بالجميل؛ إذ أن كل شىء فى الولد مستفاد من أبويه، وإلى عنايتهما الكبرى يرجع فضل نعمة الحياة بكل ما اقتضت من تعب وتربية، وتثقيف وتعليم وتطبيب. ولا شك فى أننا ملزمون وفاء هذا الدين المقدس بالمحبة والبر والاحترام والطاعة.

لقد يقال: إن بعض الآباء يهمل تربية أبنائه، أو يورثهم السقم والمرض. ولكن هذا لا يمنع من القيام بواجب هؤلاء الآباء؛ لأن الحياة فى ذاتها نعمة كبرى.

وتنحصر واجبات صغار الأبناء لأبويهم فى الطاعة التامة التى يستلزمها ضعف الطفل وقصر إدراكه، ويقتضيها أمر التربية؛ والخضوع لأوامر الوالدين يثمر خير الثمر متى كان فى عهد الحداثة.

وتنحصر واجبات الأولاد المراهقين فى الطاعة الاختيارية عن عقل وإدراك؛ وعلى الناشئ أن يجعل أفعاله كلها موافقة لرضا والديه، ومبعثا لسرورهما؛ وعلى هذا النحو يتربى تربية قويمة، ويتعود الطاعة والعمل والإخلاص.

أما واجبات الأبناء البالغين فتقتضى الوداعة وتبادل الحب، وسماع النصح والإرشاد، والتوقير والاحترام، ثم هى تكون أيضا فى البر والمساعدة وتوفير أسباب راحة الوالدين وإكبارهما فى سن الشيخوخة جزاء وفاقا لما قاما به من جهد وتربية.

ولأنواع القرابة الأخرى واجبات مفروضة: كمحبة الإخوة واحترام الأعمام والأخوال، واعتبار أولادهم فى مرتبة الإخوة، وكالتأدب بأكمل الآداب مع الأصهار.

إن روح نظام الأسر وتماسك عصبياتها — يلزم الأخ الأصغر احترام الأخ الأكبر، ويقضى على الثانى أن يعطف على الأول لأنه بمنزلة أبيه، وإغفال هذه

الواجبات هو السبب الأول فى تنازع أفراد الأسرة الواحدة ، وهدم الوئام والوفاق .

ثم إننا فى المجتمع لا نعيش بأسرنا ، بل نعيش أيضا بالعشرة ، والصداقة ، والمحبة الأخوية ، ولقد يكون الصديق المخلص أحيانا ذخيرة ثمينة .

وشرف العواطف والمقاصد هو القاعدة التى يجب أن نبنى عليها صداقتنا ؛ لأن الصداقة التى لا تبنى على توافق الميول والترفع أضر من العداوة وهى قلما تدوم ؛ فمن الخير للإنسان ألا يصادق إلا من حسنت أخلاقهم ، وتهذبت نفوسهم ، وعلت أفكارهم حتى يشرف بصحبتهم ، ويستفيد من صداقتهم ؛ ولنذكر دائما قول « فيثاغورث الحكيم » : اختر لصحبتك من تراه أفضل الرجال. ولن يتيسر للمرء مصاحبة الأخيار إذا لم يكن هو نفسه صالحا فاضلا .

وللصداقة حقوق : أهمها الإخلاص فى المودة والنصح فى حالة الإعسار والغنى ، والمساعدة عند الشدة ، والتعزية فى الحزن ؛ فالصداقة الحقة ما كانت مبعث سرور ، وأداة تعاون ، ووسيلة إصلاح . وسيأتى ذلك مفصلا فى باب الصداقة .

من كلام الإمام على كرم الله وجهه فى القرابة

أيها الناس ، إنه لا يستغنى الرجل وإن كان ذا مال عن عشيرته ودفاعهم عنه بأيديهم وألسنتهم ، وهم أعظم الناس حيطة من ورائه ، وألمهم لشعثه ، وأعطفهم عليه عند نازلة إذا نزلت به . ولسان الصدق يجعله الله للمرء فى الناس خير له من المال يورّثه .

ألا لا يعدلن أحدكم عن القرابة يرى بها الخصاصة أن يسدها بالذى لا يزيده إن أمسكه ، ولا ينقص إن أهلكه ؛ ومن يقبض يده عن عشيرته فإنما تقبض منه عنهم يد واحدة وتقبض منهم عنه أيد كثيرة ، ومن تلن حاشيته يستدم من قومه المودة .

حياتنا الأدبية

واجبات الزوجين

هدى الله سبحانه وتعالى الناس إلى الزواج ليتسنى حفظ النوع وتعمير الأرض ، وهذا هو الغرض المقصود من الزواج مهما اختلفت السبل إليه ؛ تبعا لعادات الأمم ، وتقاليد الشعوب منذ القدم

وليس يعنيني فى هذا البحث أن أعدد فوائد الزواج أو اختلافه وتدرجه منذ تزوج آدم حواء عليهما السلام ؛ كما لا يعنيني الآن الموازنة بين الشرائع المختلفة من حيث تعدد الزوجات أو الاقتصار على زوجة واحدة ، وإباحة الطلاق والتنفير منه إلى غير ذلك مما هو مبسوط فى كتب الفقه

الزواج أمر يعتده الفلاسفة الخلقيون أمرا طبعيا من شأنه اقتران الجنس القوى بالجنس اللطيف ، ويحسبه علماء القانون الوضعى عقدا مدنيا بين اثنين ، ويراه أهل الأديان واجبا أو عملا مقدسا ، ويعده الاجتماعيون والاقتصاديون شأنا إنسانيا كريما وحادثا اجتماعيا عظيما من ورائه إكثار النسل ، وحفظ النوع ، وتوفير أسباب الهناءة والغبطة .

هذه هى أهمية الزواج فى الأنظار المختلفة ، فليس غريبا أن تكون له آداب تحقق تلك الفائدة العظمى ، وهذه الآداب أو الواجبات نوعان : نوع مشترك يعم الزوجين معا ، ونوع خاص لكل واحد منهما قبل الآخر :

فكلاهما مطالب بالأمانة التى هى روح الزواج وعماده ، ورأس السعادة النفسية والمودة والرحمة ؛ لقد أحل عقد الزواج ما أحل ؛ ليصرف النفس إلى أمره الطبعى بمقتضى القانون الأدبى ، فكل خيانة تصدر من أحد الزوجين تكون شر خروج على هذا القانون ؛ إنها تفسد النسل ، وتكدر صفو المنزل ، وتدعو إلى الشقاء والخراب ، والزوجان مطالبان بالأمانة فى كل الشئون الأسرية بقدر ماهما مطالبان بالأمانة فى العرض وعفة النفس .

والثقة من الواجبات المشتركة ، وهى التى تبعث على ارتياح القلب ، واطمئنان الخواطر ، وفى إفضاء كل من الزوجين إلى شريكه بشئونه وأسراره لذة لا تعادلها لذة ، وليس معنى هذا أن يفضى الزوج إلى زوجه بأسرار المهنة التى هو مطالب أدبيا بالمحافظة عليها .

وليس هناك من ينكر فائدة مطارحة الأفكار بين الزوجين ، وبخاصة ما يفيد المرأة فى شئونها ، وما يفضى إلى تشجيع الرجل وتسليته ؛ لأن عدم الاكتراث يوجب ضياع الثقة ، ويفضى إلى الكراهية والحقد . والثقة لا تمنع كما يتوهم بعض الناس الاحترام بين الزوجين ، بل هى تزيد فى الاحترام بقدر ماتزيد فى المحبة والألفة والارتباط . وإذا كان السباب والشجار فى الحياة الاجتماعية من أقبح مايتصف به إنسان فإن أمرهما فى الحياة الاسرية أخطر وأعظم ضررا ؛ فضرر المشاحنة والخصام يتعدى الزوجين إلى أولادهما ، ولنا فيما نسمع من بعض الصغار من قبيح الألفاظ شر مثال فى ضرر هذه الأمور المستهجنة التى قد تثور فى البيت لأتفه الأسباب ، ويشعل نارها الجهل وعدم الثقة والاحترام ؛ فالتعاون على الاحترام ، والتزامُ الوقار حتى لا يسمع الأطفال إلا ما فيه نفعهم وبه تهذيبهم — هو محمدة الأسرة المثقفة المرباة ومفخرة الأمم الصالحة .

ومن ألزم الواجبات المشتركة التعاون فى أُمور العيش ، والشئون الاجتماعية الحيوية بقدر الإمكان . أجل إن أُمور النفقة المنزلية من الواجبات على الزوج ، ولكن الزوجة مطالبة بما يحفظ عليه ثروته وينميها وبما يستعين به وقت الحاجة ؛ فتكثير موارد الثروة يعد من الوجهة الاقتصادية فائدة كبيرة لهما ولأولادهما ، وليس التعاون بينهما مقصورا على المساعدة المادية ، بل إن كليهما مطالب بالتعاون الأدبى والعقلى ؛ فيجب أن يكون للمرأة رأى فى معيشة بيتها ، وتدبير ثروة زوجها ؛ حتى تكون له المعين القوى ، لا بالتدخل فى دقائق مهنته ، بل بإبداء الرأى ، والإرشاد المعقول ، والتيقظ ، وضبط الميزان المنزلى . وتعويد المرأة مثل

هذه الشئون لا يفيدها من حيث كونها زوجة وأما فحسب، وإنما يحتل أيضا جزءا من تفكيرها واهتمامها ، ويشغل بعض فراغها ، فلا تسرف إسرافا فاحشا فى الاهتمام بالتبرج والزينة والأزياء .

وخلاصة القول أن التعاون بين الزوجين يحقق مصالحهما الذاتيـة على أكمل وجه تتطلبه الحياة .

وعلى الرغم مما تقرر من وجوب التعاون المادى والأدبى والعقلى بين الزوجين يجب أيضا ألا ننسى مراعاة حق القوة وهو أن يكون الرجل مدبر الأعمال الخارجة وذا الكلمة الفاصلة فيها ؛ إذ بنى على هذا مبدأ فضل الرجل فى العمل وميزته فى القوة الحسية والمعنوية ؛ فعمل المرأة فى التعاون المطلوب مقصور على المساعدة والمراقبة والإرشاد ، والاهتمام بميزان البيت ؛ فكأن المرأة تعمل من وراء حجاب ، وعلى الرجل الظهور فى ميدان الجهاد لجلده وصبره ، وليس هذا بالذى يجعل الرجل شبه « السيد المطلق » يحكم كيفما شاء وشاء هواه ، بل هو المدير لتلك « الشركة الأسرية » على أن يظل للمرأة عملها ووظيفتها .

أما الواجبات على الزوج الخاصة به فهى حماية زوجه وبيته من كل ما يضرهما حسا ومعنى :

فلضمان راحة أسرته يجب أن يكون الزوج المرشد الأمين ، والناصح الكريم ، والحامى المخلص . وليس معنى هذه الحماية مقصورا على الذود عن المرأة وحياتها فقد أصبح هذا ميسورا بفضل استتباب الأمن ، وإنما تقضى هذه الحماية ذلك الأمر الدقيق المعنوى من صيانتها من كل ما يثلم الصيت ويخدش الشرف . وكذلك هو مطالب بحمايتها من الجهل إذا كانت جاهلة وإنقاذها من الأفكار السيئة التى تهاجمها بحكم السن أو البيئة أو ضعف التربية

وصفوة القول أن أهم الحقوق التى للرجل على المرأة ترجع فى الغالب إلى ماله من حق السلطة التى له بامتياز خلقه ، وقوة بنيته ، واستعداده للسعى والجهاد .

على أن النساء بدأن يطابن مساواتهن بالرجال مدعيات أن فرق الجسم ليست له أهمية الفوق المعنوى الذى لهن فيه نصيب لا ينكر ؛ على أن النساء لن ينلن كل مايطلبن ، بل لن تزال السلطة من حق الرجال اتباعا للعرف والشرع والفطرة ؛ غير أن هذه السيطرة لاتخول الرجال أبدا العبث بحقوق النساء أو الاستبداد والقسوة فى المعاملة ؛ وإنما تنحصر أدبيا فى بذل العناية فى إدارة الشئون الزوجية بكل لطف ولين وفقا للحق والواجب .

وترجع واجبات المرأة الخاصة إلى أنها ضعيفة ، وعرضة لأمور الحمل والولادة . وتنحصر هذه الواجبات فى إدارة شئون البيت ، وتجنب الجهاد خارجه ؛ فمتاعب الحمل والولادة لاتتناسب مع مشاق الأعمال وقسوة الجهاد .

إنها خلقت لتكون ربة بيت فعليها تدبيره وإدارة كل ما يتعلق به ، ومن هنا يحدث التوازن الاجتماعى : الرجل يسعى ، والمرأة تهيئ البيت ، وتقوى زوجها على تحمل آلام الجهاد فى سبيل بيتها وأولادها .

وتدبير المنزل أمر هام ، وشأن خطير لا قبل للرجل بالتفرغ له أو القيام به . وهو يلزم المرأة أن تكون مدبرة لا بالاقتصاد والتوفير فقط ؛ وإنما بالترتيب والنظافة ، وحسن الإدارة .

إن البيت مملكة ، والمرأة ملكتها ، وخليق بكل ملكة « أن تبذل كل جهد ومهارة ليسعد كل من تظله سماء المملكة »

ومن ألزم واجبات المرأة الوداعة ، وإطاعة الزوج دون خوف أو ترفع أو رهبة ؛ والإصغاء إلى أوامره ونصائحه ، وتنفيذها بإخلاص ؛ فإن كان فيها ماهو خطأ فلترشده إلى موضعه برفق ولين إلى أن تقنع أو تقتنع .

الأسرة

قد ينفرد الإنسان لقلة الروابط الاجتماعية التي تقربه من الناس ، ولكن تظل أواصر القرابة والنسب لحمة التماسك بينه وبين غيره ، وتلصقه بأفراد المجتمع، وتجعل حياته من نوع حياتهم بحيث يشاطرهم الفرح والهناءة والحزن والشقاء . ولهذا النوع من الحياة الأسرية مزايا تشرح النفس ، وتجلو عنها صدأ الهموم وكآبة الوحدة والانفراد ، ولكنها على الرغم من هذا كله منشأ هموم ومتاعب كثيرة ؛ وإن كانت الموازنة بين ما تبعثه فى النفس من نشاط وأمل وما تثيره فيها من هم وشجن تجعل الإنسان يقتنع بأنها من دعائم الهناءة والاغتباط

فالأسرة هى التى تعنى بتربية الطفل وحمايته رضيعا وصبيا ، وتعاونه على انتجاع موارد العمل فى ميدان التزاحم شابا يافعا ؛ وهى التى تواسيه عندما تلم به كارثة ، وتجدد نشاطه وأمله إذا ماتسرب إليه الخمول واليأس ؛ وفى الأسرة يتعلم الإنسان المبادئ الأولى للمعاشرة ، ويكون ما يعتاده فيها من انعطاف وحب للتسمح أساسا ثابتا لتصرفاته مع إخوانه فى المجتمع .

ولكن الإنسان ملزم دفع الثمن ، وقد يكون الثمن غاليا ؛ فهو مقيد فى تصرفاته بقيود قد تنغص عليه العيش أحيانا ؛ لأن اختلاف مشارب أفراد الأسرة الواحدة وتباين مصالحهم يجعل الحياة مشوبة بالكثير من الأشجان ؛ فكثيرا مايشقى الوالد بسبب ولده الشرير ، ثم يصعب تخلصه من شروره قبل أن يبلغ سن الرشد ، كما قد تشقى الفتاة بسبب أمها المستهترة ، ولكنها لا تستطيع أن تصرخ أو تثور . وهذه القيود تنفر من الحياة الأسرية

غير أن وجود بعض أسباب الاستياء فى الحياة الأسرية لايمنع من الإيمان بها بوصفها خير أنواع الحياة وأكثرها نفعا للإنسان ؛ كما لا يمنع وجود الضعف فى ناحية من نواحى شىء قوى من الانتفاع بقوته ، ووجود عيب ما فى شىء حسن

لايمنع من الاعتراف بحسنه .

ويكفى لمنع البواعث على الاستياء فى الجملة أن يلطف الانسان من أثرته وطمعه لتزول من بين أفرادالأسرة الواحدة كل أسباب الخلاف والخصومات ، ويشمل الجميعَ السلامُ

وإذا أتيح للناس ألا يقصروا اهتمامهم فى مسائل الزواج على البحث عن الفوائد المادية ومراتب الجاه ، وإذا جعلوا لتبادل الحب والاحترام مكانا من الاعتبار ،وإذا جعلوا ذات الدين مقصدهم الأسمى ، وإذا عنى الآباء بغرس عاطفتى الحنان والحب والدين فى قلوب أطفالهم قبل أن تفسد وتخبث — إذا تحقق كل ذلك — زالت الأسباب التى تطلق الألسنة على الحياة الأسرية بالنقد والتحقير ، وإلا بقى العالم على ما هو عليه من الفساد

ومن الجريمة أن يهمل الانسان شأن الطفل الذى يدخل الحياة مثال الطهر والسذاجة والطيبة إلى حد تفسد معه فطرته ، ويموت ضميره . ومن الجريمة أن يلوثوا نفس هذا الكائن السامى بما يلقح قلبه به من النيات الخبيثة وحب الشر .

إن الطفل قوة تنفع من يحسن استخدامها ، وتضر من يسىء توجيهها . ولهذا المخلوق الضعيف تأثير حقيقى فى قوى الأمم ؛ حتى إن علماء الاجتماع يقضون أعمارهم فى درس ما يرقيه ويقويه ، ولا يغفلون شيئا يتعلق به حتى أسباب ضعفه جنينا ورضيعا حرصا على قوة البلاد .

لقد اهتدى الناس أخيرا إلى معرفة ضرورة الاهتمام بالحياة الأسرية ، فتعالت الصيحات من كل ناحية تطلب تعديل الأحوال وفقا لمقتضيات الإصلاح الحق ، ونشطت الأفكار إلى البحث عن موضوع الزواج وتربية الأطفال ، وتعليم الفتاة ، وتهذيب المرأة

ولكن الاندفاع فجأة إلى غير الاتجاه المعتاد يحدث هزة عنيفة ربما كانت إلى الأذى أدنى منها إلى النفع ؛ فاصلاح الخلل فى البناء لا يستدعى هدم البناء

كله ؛ لحقيق بالمصلحين أن يتدبروا قبل العمل ، وألا يسرفوا فى الإيمان بالطفرة

والعيوب التى تلابس الحياة الأسرية هى التى سترغم الناس على الإصلاح ؛ فالمعروف أنه كلما اشتد بالإنسان الألم نشط إلى طلب الشفاء

وللأسرة فضائل تنحصر فى القيام بكل مايفيد أسرة الإنسان، ويتمثل ذلك فى تدبير المنزل ؛ ومحبة الأبناء والزوجة والوالدين والإخوة ، والعطف على الخدم :

فتدبير المنزل كلمة جامعة : معناها حسن إدارة كل مايختص بحياة الأسرة ، ولما كان المال قوام كل شىء كان معتمد أمر تدبير المنزل عليه أولا ، ولقد عد هذا العمل من الفضائل ؛ لأن الإنسان الذى يعرف كيف يكسب عيشه ، ويحسن التصرف فى ماله — يأمن طوارئ الحدثان ، ويساعد على إيجاد الهدوء والسعادة المنزلية ، وفى هذا ما فيه من أثر حسن فى مبدأ حفظ الذات ، أما التبذير وسوء التدبير فيفضيان بالإنسان إلى الفقر ، ولو بعد حين ، وربما ساءت الحال إلى درجة خراب الدار وشقاء الأسرة وشماتة العدو ، ونفور الصديق .

وحب الأبناء ليس معناه تدليلهم ومنحهم كل ما يشتهون ، وإنما هو فى العناية التامة بتربيتهم وتعليمهم وتهذيب أخلاقهم ؛ حتى ينشئوا نشأة صالحة توفر لهم السعادة والعيش الهنىء فى حين لا يكسبهم التدليل ومنحهم كل ما يشتهون إلا النعومة والعجز عن مقاومة آلام الحياة وتحمل أعبائها ومسئوليتها

أما محبة الزوجين فأثرها واضح فى هدوء البيت واستقراره وسعادة كل من فيه ، وليس هناك ما يحفظ قوام تلك المملكة الصغيرة مثل تبادل المحبة والإخلاص بين رب البيت وربته ، هذا إلى أنهما بتبادل الاحترام والعطف يقدمان مثلا صالحا طيبا لأولادهما ، ويلقيان عليهما درسا عمليا فى الحياة . أما العشرة القائمة على البغض فتؤدى إلى خراب البيوت ، وربما دعت إلى خيانة الزوجين أو كليهما ، وهناك الطامة الكبرى .

وأما محبة الأبناء للآباء فتقوم على ثلاثة أسباب :

أولها العواطف : فإن عناية الوالدين بالطفل صغيرا تغرس فيه بذور الحب والاحترام بالجميل.

وثانيها:العدل وحسن الجزاء

وثالثها : المصلحة الذاتية ، لأن الأبناء إذا عقوا الآباء احتقرهم الناس وكانوا عرضة فى الغالب لأن يبغضهم أبناؤهم كذلك .

ولسنا نقصد بطاعة الوالدين تلك الطاعة العمياء الآلية ، وإنما نعنى الطاعة المؤسسة على الدين والأدب .

بقيت محبة الإخوة ، وتلك فضيلة هامة ؛ لأن الوفاق والاتحاد بين الإخوة يدعو إلى تقوية الجماعة وحمايتها من أسباب الشقاق الأسرى ، وواضح أن فى اتحاد أفراد الأسرة الواحدة مايوفر هدوءها ، ويدعو إلى راحتها ويحميها من أى اعتداء .

وفيما يتعلق بواجبات الخادم والمخدوم: يجب على الخادمأن يخلص فى عمله ، ويحترم سيده ، وأن يكون أمينا على أسرار الأسرة وأموالها وعرضها ؛ كمايجب على المخدوم أن يحسن جزاء خادمه وألا يكلفه مالا يطيق ، أو يرهقه بالعمل؛ ولا شك أن هذا أساس عظيم فى الهدوء والاستقرار.

وجهة الاسلام في الروابط الاجتماعية

١ — الأسرة

بحث واجبات الأسرة يتضمن بيان ما يجب على كل فرد منها للآخر سواء أكان زوجة أم ولداً أم أبا أم أما أم يتيما مكفولا أم غيرهؤلاء . وقد وجدت الأسرة على وجه البسيطة من يوم وجدت المرأة بجانب الرجل وولدتله أولاداً. والأعمال التى يزاولها كل من الرجل والمرأة فى أسرتهما تختلف باختلاف حال الأمة التى يعيشان فيها بداوة وحضارة ، رقياً وانحطاطاً

والأصل فى أعمال المرأة إدارة الأعمال البيتية ، وأعمال الرجل الشئون الخارجة عن المنزل ؛ فهو يشتغل ثمة ويتعب ويستثمر جهوده ، ثم يلقى بهذه الثمرات إلى زوجته ، ويتكل فى هناءته وراحته المنزلية عليها ، فالزوجة هى الرئيسة العاملة فى المنزل ، أما الزوج فهو بمثابة رئيس شرف له : وقد جاء التصريح بذلك فى الحديث الشريف : فقد قال عليه السلام (عن أبى هريرة): « كُلُّ نَفْسٍ مِنْ بَنِى آدَمَ سَيِّدٌ : فَالرَّجُلُ سَيِّدُ أَهْلِهِ ، وَالْمَرْأَةُ سَيِّدَةُ بَيْتِهَا » فانظر كيف جعل سيادة البيت للمرأة وخصها بها ، وإن كان لرجلها سيادة أخرى لا تنكر

وإذ كانت المرأة هى سيدة ورئيسة كان من أول واجبات الزوج أن يحسن اختيار تلك الرئيسة ، فيختارها من ذوات العقل والدين والتربية الصالحة ؛ فإنها إذا توافرت فيها هذه الشروط أصبح المنزل فردوس الرجل ، ومظهر كرامته فى قومه، والمنبت الخصب لذريته وأولاده ؛ ومن ثم كان للمنزل والأسرة المقام الأول فى نظر علماء الاجتماع حتى جعلوا نظام الحياة المنزلية أساساً لنظام الحياة الاجتماعية فى الأمة كلها : فإذا فسد النظام الأول فسد النظام الآخر وانحطت الأمة على أثره والعكس بالعكس : قالوا : وإذا دخلت إحدى المدن كان لك أن تحكم على ارتقاء الأسرة بمجرد نظرك إلى حال سكانها وما هم عليه من الأطوار والأخلاق فى أسواقهم وحوانيتهم ومحافلهم ومقاهيهم وسائر مظاهرهم الاجتماعية؛ فإذا رأيتهم على نظام خلقى ثابت حكمت باستحكام النظام الخلقى فى بيوتهم وأسرهم ؛ لأن هذا أصل ذاك .

ولا غرو فالمنزل هو المغرس الأول للذرية والأولاد ؛ فهم ينقلون منه إلى المغرس الثانى وهو المدرسة ، ومنها إلى ساحة التجارب والعمل والسعى فى خدمة أمتهم ووطنهم ، كما ينقل الفسيل من أرض إلى أرض : فإذا طابت تربة المغرس الأول (الأسرة) طابت إذ ذاك ثمار أبناء الأمة وغزرت ثمار عقولهم

وأخلاقهم ، وإن خبثت تلك التربة خبثت الثمار ، وقبحت الآثار ، وساءت الأخبار :

قال بعض علماء الأجتماع : « إن أحقر المنازل إذا تولت رياسته امرأة مدبرة باشة كان ملؤه الراحة والهناءة والسعادة وكان فيه أشرف العواطف الأسرية ، عزيزاً لدى الرجل لما يحتويه من دواعى السرور ؛ وكان شفاء للقلب وردءا من عواصف الحياة ، بل كان خير مكان للراحة من عناء الأعمال ومتاعب الحياة ، وفى الشدة مسليا ، وفى الرخاء فخراً ، وفى كل حال نعما : فالمنزل الصالح إذن خير معاهد التربية لا للشاب وحده بل للكهل أيضاً ، وفيه يتعلم الشاب والكهل البشاشة والصبر وضبط النفس ويتعرفان روح الحياة ومعنى الواجب »

فلتنظر الأمم كيف تضع نظام أسرها على أساس وطيد ثابت ، ولينظر الآباء واجبهم الشرعى والاجتماعى من هذا القبيل ، وأول واجب عليهم حسن اختيار سيدة المنزل كما قلنا .

وقد ورد فى الأحاديث النبوية الحث على العناية باختيارها ؛ لينجب أولادها ، ويطيب العيش معها : قال صلى الله عليه وسلم : « تَزَوَّجُوا فِى الحِجْرِ الصَّالِحِ فَإِنَّ الْعِرْقَ دَسَّاسٌ » رواه ابن عدى عن أنس به مرفوعا . وقد امتن حكيم من حكماء العرب على أولاده فى قيامه بهذا الواجب فقال :

وأول إحسانى إليكم تخيرى * لماجدة الأعراق باد عفافها

ومن الواجبات الأسرية أيضا العناية بتربية الأهل والعيال وتعليمهم ما به صلاح أمرهم وتثقيف عقولهم : وفى هذا المعنى ورد قوله صلى الله عليه وسلم : « ارْجِعُوا إلى أهْلِيكُمْ فَكُونُوا فِيهِمْ وَعَلِّمُوهُمْ وَبِرُّوهُمْ » رواه البخارى ومسلم

أما أحاديث الحث على حسن معاملة الأهل والعيال والرفق بهم وترك الغلظة عليهم فكثيرة : منها قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « خِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ

لِنِسَائِهِمْ » قال الترمذى: حديث: حسن صحيح. « خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي » رواه ابن‌عساكر عن على. « مَنْ كَانَ لَهُ صَبِيٌّ فَلْيَتَصَابَ لَهُ » ابن عساكر عن معاوية: أى ليتنزل إلى أن يفعل فى ملاعبته فعل الصبيان تطيباً لنفسه ، وإدخالا للسرور على قلبه .

وروى أنه صلى‌الله عليه‌وسلم خرج مع أصحابه يوما إلى طعام دُعُوا له ، فإذا بابن بنته الحسين وهو صبي يلعب مع صِبْيَةٍ فى السكة ، فاسْتَنْتَلَ رسولُ الله أمام القوم (أى انفرد عنهم وتقدمهم) وأقبل على الحسين فطفق يفر مرة هنا ومرة هنا ، ورسول الله يضاحكه ، ثم أمسكه فجعل إحدى يديه تحت ذقنه والأخرى تحت فأس رأسه (أى قفا رأسه من تحت قذاله) ، وأقنعه (أى رفعه) ، وجعل يقبله وقال : « أَنَا مِنْ حُسَيْنٍ وَحُسَيْنٌ مِنِّى . أَحَبَّ اللهُ مَنْ أَحَبَّ حُسَيْنًا »

ومن جملة الرفق والعناية بالأهل والعيال ما ورد فى الحديث الشريف وهو : « كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لاَ يَكَادُ يَدَعُ أَحداً مِنْ أَهْلِهِ فِي يَوْمِ عِيدٍ إِلاَّ أَخْرَجَهُ » : يعنى أنه كان فى صبيحة أيام الأعياد يُخرج كل واحد من أفراد أُسرته إلى خارج المدينة حيث يجتمع المسلمون لصلاة العيد فى مصلاها الخاص فيصلون ويشاهدون الناس فى هذا الاجتماع الحافل ، فيدخل عليهم السرور والفرح برؤية ذلك . وقال صلى الله عليه وآله وسلم : «مَشْيُكَ إِلَى الْمَسْجِدِ وَانْصِرَافُكَ إِلَى أَهْلِكَ فِي الأَجْرِ سَوَاءٌ» : سوى فى الأجر والثواب بين المشيتين : مشى الرجل إلى عبادة ربه ، ومشيه راجعا إلى مسامرة أسرته .

وكأن الشارع صلى الله عليه وسلم بقوله هذا يعرض بأولئك القساة الذين لا يجعلون من أوقاتهم نصيبا مفروضا لمعاشرة أسرتهم ، بل ينفقونها جزافا فى أماكن اللهو والبطالة ، وبذلك تسوء عيشة الأسرة ، وتتنغص حياتها ، بل ربما

أدى بها الأمر أحيانا إلى الفاسد والقبيح من الاعمال

ومن الواجبات الاسرية ترفيهها والتوسعة عليها بالنفقة وإعداد ما تحتاج إليه من وسائل الراحة والهناءة ومرافق الحياة والعيش .

٢ — الأولاد

الولد ثمرة الحياة وريحانة البيت وأمل الأسرة والغاية المقصودة من الزواج: قال صلى الله عليه وسلم : « بَيْتٌ لا صِبْيَانَ فِيهِ لابركَةَ فيه» أبو الشيخ بن حبان ،« الوَلَدُ مِنْ رَيْحَانِ الْجَنَّةِ » الترمذى

لكن ينبغى للآباء والأمهات أن يعلموا أن أولادهم ليسوا ملكا لهم كملكهم أشياءهم ،وأنه لم تمنحهم إياهم العناية الإلهية ليكونوا متاعا أوزينة فى البيت يتَنافَس فيها ويُحرص عليها وتتلذذ النفس بالنظر إليها فقط ، وإنما خلقوا ليقضوا زمن الصبوة بين ظهرانى الأسرة ، ثم يخرجوا منها أحرارا مستقلين ، ويكونوا مددا إلى الرجال والنساء العاملين .

فالأسرة إذن مكلفة تربية الطفل وتهيئته جسما ونفسا وخلقا للقيام بوظائفه المختلفة فى خدمة قومه ووطنه ، وإن العناية بالأولاد وتربيتهم هذه التربية الصالحة من أكبر واجبات الأبوين التى يفرضها الشرع ونظام الاجتماع عليهما ، كما أن إهمالهم والتفريط فى تربيتهم من أكبر الجنايات التى يمقتها الشرع ، وتعاقب عليها القوانين المدنية : قال صلى الله عليه وآله وسلم : « أَكْرِمُوا أَوْلَادَكُمْ وَأَحْسِنُوا آدَابَهُمْ فَإِنَّ أَوْلَاكُمْ هَدِيَّةٌ إِلَيْكُمْ » (البخارى)

ولا يخفى أن الشكر على الهدية إنما يكون فى تقبلها بالفرح ثم العناية بها والمحافظة عليها ، كما أن التفريط فيها كفران لحق من أهداها ، وباعث على غضبه ونقمته .

فالواجب على أولياء الأحداث اليوم أن يعلموهم ما هم فى حاجة ماسة إليه ، وإن الإسلام ليقدر الاختلاف الزمانى قدره كما ورد فى الأثر : « خَلقوا

أولادكم بغير أخلاقكم فقد خلقوا لزمان غير زمانكم »

فإذا كانت الأخلاق تختلف بين زمن الأب وابنه فكيف يكون مبلغ اختلافها بين زمن السلف وزمننا هذا .

وقال صلى الله عليه وسلم: « أَيُّمَا امْرَأَةٍ قَعَدَتْ عَلَى بَيْتِ أَوْلَادِهَا فَهِيَ مَعِي فِي الْجَنَّةِ » ابن بشران عن أنس :

يرشد الشارع المرأة فى هذا الحديث إلى واجبها فى تربية أولادها ؛ وهى أجدر بهذا الخطاب الشرعى من الرجل : فهو يقول لها : إن تركها الاشتغال بما لا ينفعها، والعكوف على تربية أولادها فى بيتها — خير وسيلة إلى دخول الجنان .

« إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ حَتَّى فِي الْقُبَلِ » ابن النجار عن النعمان بن بشير الأنصارى : وفى هذا الحديث نهى عن إيثار بعض الأولاد على بعض ومثله :

« سَاوُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ فِي الْعَطِيَّةِ ، فَلَوْ كُنْتُ مُفَضِّلًا أَحَدًا لَفَضَّلْتُ النِّسَاءَ » الطبرانى فى صحيحه والخطيب

ولعل السبب فى استحقاق النساء للتفضيل أنهن سريعات التأثر ، رقيقات الشعور ، ضعيفات الجانب ، فهن لذلك أجدر بالعطايا وأنواع البر واللطف من إخوتهن الذكور .

ومع هذا فالشارع ينهى عنه خشية التنافس والتحاسد بين الأولاد . وفى الحديث إشارة لطيفة إلى وجوب العناية بالنساء ومراعاة شعورهن وعواطفهن

وإن من أهم الأغراض التى جاء الإسلام من أجلها هدم ما كان عليه أهل الجاهلية من هضم المرأة وإذلالها والتفريط أحيانا بحياتها حتى عاب عليهم القرآن ذلك ، وعيرهم : إذ يقول تعالى : « وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ؟ » :

هذا هو حال أهل الجاهلية قبل الإسلام : كانوا إذا وُلد لأحدهم أُنثى اكفهر وجهه واستخفى عن أعين الناس حياء وخجلا ، ثم فكر : كيف يتخلص من هذا الضيف الثقيل ؟ : أيصبر عليه أو يئده تحت التراب ؟ فجاء الإسلام ناعيا عليهم حالتهم هذه ، ورفع مقام المرأة وحتم وجوب العناية بها وإعطائها حقها من الوجود وحظها من الحقوق : ومما قاله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فى هذا المعنى :

« لاَ تَكْرَهُوا الْبَنَاتِ ، فَإِنَّهُنَّ الْمُؤْنِسَاتُ الْغَالِيَاتُ » مسند أحمد والطبرانى فى صحيحه عن عقبة بن عامر. وكان صلى الله عليه وسلم يصلى فتشبثت به أُمَامَةُ ابنة ابنته زينب فكان يحملها على عاتقه . فإذا سجد وضعها، وإذا قام حملها .

وإنما نهى الشارع عن تفضيل أحد الأولاد بالعطية تفاديا من التحاسد والتحاقد بينهم ؛ بل قد يحقدون أحيانا على أبيهم نفسه والأب مأمور بألا يعمل ما يثير شيطان العقوق فى نفس ولده : ومن قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فى ذلك : « رَحِمَ اللهُ وَالِداً أَعَانَ وَلَدَهُ عَلَى بِرِّهِ » ، أبو الشيخ فى الثواب عن على. « أَعِينُوا أَوْلاَدَكُمْ عَلَى بِرِّكُمْ ، مَنْ شَاءَ اسْتَخْرَجَ الْعُقُوقَ مِنْ وَلَدِهِ » الطبرانى فى معجمه الأوسط : أى أنه فى إمكان الأب أن يحمل ابنه على العقوق وترك الطاعة : وذلك يكون بتفضيل أخيه عليه بوصية أو عطية أو تقريظ أو ابتسامة أحيانا ؛ فليكن الأب حكيما فطنا ضابطا لعواطفه وتوزيعها بالعدل بين أولاده ، وإلا جر على نفسه وأسرته من بعده تعبا وبلاء

وكما يطالب الولد ببر والده يُطالب الوالد نفسُه ببر ولده أيضا . وبرُّ كل منهما على حسبه .

ومن جملة بر الوالد لولده ألا يعد صبيّه ثم لا يفى له ؛ فإن هذا — فضلا عن كونه يحمل الولد على احتقار والده واعتقاد الكذب فيه — يسهل أمر الكذب

على الولد نفسه ، ومن شابه أباه فما ظلم ؛ فينشأ كذابا لا يصدق فى قول ، ولا يفى بعهد .

ومما نبه إليه الشارع من أمر تربية الأولاد ألا يتشاءم الوالد بأحد أولاده ، ولا ييئس منه إذا رآه عنيداً شرساً ذا شِرَّةٍ وبَطَر ؛ فقد يتحول كل هذا فيه إذا أحسنت تربيته إلى أخلاق فاضلة : كالشجاعة والثبات وقوة الإرادة وكبر العقل والشمم وطلب المعالى : قال صلى الله عليه وسلم : « عُرَامُ الصَّبِىِّ فِى صِغَرِهِ زِيَادَةٌ فِى عَقْلِهِ فِى كِبَرِهِ » (الحكيم الترمذى فى النوادر) : والعرام بالعين المهملة الشراسة ومفارقة القصد والخروج عن الحد

ومما ورد فى فضل الولد قوله صلى الله عليه وسلم : « إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلَاثٍ : صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ » ، البخارى فى الأدب

والحنو على الولد والرأفة به والصبر على مايبدو منه أحيانا من العناد والطيش ودواعى الصبوة أمر طبعى فى الآباء إلا من ندر منهم : فقد رأى الأقرع بن حابس رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل ولده الحسن ، فقال له : إن لى عشرة من الولد ماقبلت واحداً منهم . فقال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ مَنْ لاَ يَرْحَمُ لاَ يُرْحَمُ » مسند أحمد

وقال معاوية رضى الله عنه للأحنف بن قيس : ما تقول فى الولد ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، ثمار قلوبنا ، وعماد ظهورنا ، ونحن لهم أرض ذليلة ، وسماء ظليلة ، وبهم نصول على كل جليلة . فإن طلبوا فأعطهم ، وإن غضبوا فأرضهم ؛ يمنحوك ودهم ، ويحبوك جهدهم . ولا تكن عليهم قفلا ثقيلا ؛ فيملوا حياتك ، ويودوا وفاتك ، ويكرهوا قربك . فقال له معاوية : لله أنت يا أحنف : لقد أرضيتنى عمن سخطت عليه من ولدى . ثم وصله وأكرمه .

٣ — الوالدان

إن كان الولد ثمرة الأسرة فإن الأبوين أصلها وعمادها ، وإن كان لأحد حق على الولد بعد الله فهو لأبويه ، وإن كان الله هو خالق الولد فإن الأبوين هما مظهر ذلك الخلق وأداته ووساطته ؛ فلا عجب بعد هذا إذا رأينا الدين الاسلامى يصيح من فوق رءوس الأبناء موجها نظرهم إلى حقوق الوالدين على لسان سيد الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم قائلا :

« رِضَا الرَّبِّ فِي رِضَا الْوَالِدَيْنِ وَسُخْطُهُ فِي سُخْطِهِمَا » ، الطبرانى عن ابن عمر. « أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ ؟ : الإِشْرَاكُ بِاللهِ وَعُقُوقِ الْوَالِدَيْنِ » . وقال تعالى :

« وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا » : أى ووصيناه بأن يحسن إليهما إحسانًا يكافئ حقهما وفضلهما عليه ، ثم أثنى الله تعالى على ذلك الانسان الذى وصاه تلك الوصية واصفًا من جميل بره لوالديه إذ يقول فى دعائه لهما اعترافا بحقهما : « رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ، وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي » فهذا الولد البار قرن فى دعائه لربه بين البرين : بره بأصله إذ شكر له تعالى ماسبق من إنعامه على أبويه ، وبره بفرعه إذ سأله تعالى أن يصلح له ذريته .

وقد ذكر القرآن الكريم فى آية أخرى واجبات الولد لوالده بأكثر إيضاح وتفصيل فقال تعالى:

«وَقَضَى رَبُّكَ أَنْ لاَ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ ؛ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ، وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ،

وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً » : نُهِيَ الولد عن الإساءة إلى والديه حتى فى قول (أف) فما بالك بغيرها ؟

وقد قال صلى الله عليه وسلم :

« إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ . قِيلَ : كَيْفَ يَلْعَنُهُمَا يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ »

والإسلام وإن أمر ببر الوالدين معاً — يخص الأم أحيانا بالذكر عناية بها ورعاية لها ، كما هو شأنه فى التوصية بجنس النساء والحث على تقديمهن فى مواطن الرفق والترفيه؛وقد سمع النبى صلى الله عليه وسلم يوما حاديا يحدو بأظعانهن فقال له : « رِفقًا بِالقَوارِيرِ » : أى ارفق ياهذا بهؤلاء النساء اللواتى يشبهن رقيق الزجاج؛وإن حداءك بهذا التلحين العجيب يهيج عواطفهن ولطيف شعورهن ويثير فى نفوسهن كامن الشوق والحنين إلى أهليهن وذويهن ، كما أنه يتعب أجسامهن ويجهدها مما يحدثه فى النياق من السرعة والكردحة (١)

وانظر كيف أن الشارع قدم المرأة على الرجل إذ أوصى ببر الأقارب وصلة الأرحام عامة : فقال صلى الله عليه وسلم : «أُمَّكَ ثُمَّ أُمَّكَ ثُمَّ أُمَّكَ ثُمَّ أَبَاكَ ثُمَّ الأَقْرَبَ فالأَقْرَبَ » « الْجَنَّةُ تَحْتَ أَقْدَامِ الأُمَّهَاتِ » أحمد والنسائى وابن ماجه والحاكم فى مستدركه.والأخ الأكبر والعم والخالة فى مقام الأبوين فقدقال صلى الله عليه وآله وسلم فيهم : « حَقُّ كَبِيرِ الإِخْوَةِ عَلَى صَغِيرِهِمْ كَحَقِّ الْوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ » رواه الحاكم وأبو الشيخ والخطيب عن سعيد ابن عمر عن أبيه

ومن أسوأ آثار العقوق أن العاق أباه يعقه ابنه ويجرؤ عليه فلا يجله ولا يطيع له أمرا ، وهذه التجربة معهودة فى الناس ، وطالما مثلت أدوارها تحت مواقع

(١) الكردحة : ضرب من العدو فيه تقارب خطو

أنظارهم . وهـذه المكافأة التى يتلقاها العاق من ابنه من جملة التعجيل بالعقوبة الدنيوية قبل العقوبة الأخروية : وقد قال صلى الله عليه وسلم :

« كُلُّ الذُّنُوبِ يُؤَخِّرُ اللهُ مَاشَاءَ مِنْهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلاَّ عُقُوقَ الْوَالِدَيْنِ ، فَإِنَّ اللهَ يُعَجِّلُهُ لِصَاحِبِهِ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا قَبْلَ الْمَمَاتِ » الطبرانى

وقد نبـه الشارع إلى وجوب الاعتدال فى واجب الحب الأبوى فلا يجعل الولد أباه إلهه : يحلف به كلما قام وقعد ، وأوعد ووعد ؛ فقال صلى الله عليه وآله وسلم :« إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ ، فَمَنْ كَانَ حَالِفاً فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ »

٤ — النساء والأيتام

قلمـا يخلو أرباب الأسر من وجود نساء أو أيتام يعيشون فى كنفهم ، فكان البحث فيما يجب لهؤلاء النساء والأيتام من العناية والرعاية من جملة الواجبات الأسرية التى ذكرنا فيما سبق طرفا من حض الإسلام على الرفق بجنس النساء وتقديمه لهن ، وذلك لأنهن موصوفات بضعف الجسم ولين الجانب ودماثة الأخلاق ورقة العواطف ، فهن يتأثرن من سوء المعاشرة ، وتتكسر أنفسهن عند أدنى مشاكسة أو مشادة .

وإذا وازنا بين ما جاء به الإسلام من العناية بهن وتوفير حقوقهن وماعليه حالهن فى الأمم الذين يتساءلون : هل للمرأة نفس ناطقة ؟ وهل لها حق التملك ؟ — رأينا أن الإسـلام إنمـا جاء بإنقاذ النساء من تعسهن وسوء حالهن فقرر لهن الحق فى الحياة والتملك والعمل وحرية التمتع بكل ماخلق الله لهن وللرجال فى هذا العالم ضمن القواعـد الشرعية والسنن الأدبية والاجتماعية ، وقد هتف الإسلام بحقوقهن هـذه على لسان السيدة عائشة رضى الله عنها ؛ إذ روت عن النبى صلى الله عليه وآله وسـلم أنه قال : « إِنَّمَا النِّسَاءُ شَقَائِقُ الرِّجَالِ »

وهن وإن قدم الرجال عليهن فى مواطن الخوف والقوة والنجدة والأعمال

الشاقة — قد يتى لهن حق التقديم فى مواطن الدعة والرفق والأدب والحياة والاحتشام ، ولا حاجة للاستشهاد على ذلك من السنة وأعمال السلف ؛ فإن الأمر بين ، ومادة الاستشهاد غزيرة ؛ ويكفى فيه مانقل إلينا بالتواتر من حسن معاملته صلى الله عليه وسلم للنساء وإكثاره من مجاملتهن والوصاية بهن وتصريحه بحبهن. فقد كان صلى الله عليه وآله وسلم هو ومن سبقه من الأنبياء والرسل يعطفون على النساء والأيتام والأطفال والأرامل والأرقاء وكل من كان مظنة الضعف والعجز والتعب تحت أثقال هذه الحياة ، ويعدون ذلك من أركان شريعتهم وأغراض بعثتهم : فمما ورد عن الشارع بشأن الرفق بالنساء والعطف عليهن قوله صلى الله عليه وسلم : « اتَّقُوا اللهَ فِى الضَّعِيفَيْنِ الْمَرْأَةِ الأَرْمَلَةِ وَالصَّبِىِّ الْيَتِيمِ » البيهقى فى السنن عن أنس .

أما اليتيم فقد ورد فى الحض على حسن معاملته والرفق به قوله تعالى: « فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ » : أى فلا تدعه ولا تؤذه ولا تظلمه ولا تأكل ماله ولا تهمل تربيته إذا كنت وليا له؛ فإن إبقاءه فى الجهل إذلال له وظلم وقهر ؛ وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِى الْجَنَّةِ هَكَذَا » (قال): وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما شيئا . البخارى .

حقا إن اليتيم معرض للضياع فى تربيته وآدابه ، وفيما يملك من مال ونشب وعقار . فإذا كفله كافل فرباه وأدبه وصان ماله ووفره له حتى بلغ أشده ونزل بنفسه إلى ساحة العمل والسعى — كان ذلك الكافل كأنما أحيا اليتيم بعد الموت ، وتلافى سعادته قبل الفوت ؛ فلا جرم بعد أن قام بواجبه هذا أن تجب له دار الجنان ، وينادى عليه : هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟

٥ — فى الأسرة الوطنية

يتألف هذا المجموع فى الغالب من طوائف متعددة ذات ملل وأديان مختلفة ، وهذا الاختلاف لا يمنع من أن تسمى تلك الطوائف أمة واحدة أو أسرة واحدة

ما دام وطنهم واحدا ولغتهم واحدة ومصالحهم السياسية والاقتصادية واحدة ؛ فإن فرق الدين أو المذهب بينهم فإن الوحدات الأخرى تجمعهم وتضم شتاتهم، فما نذكره فيما يأتى من أن الإنسان مكلف واجبات اجتماعية يؤديها لغيره لا نريد بغيره أبناء دينه والمشاركين له فى معتقده فقط ، بل نريد كل مشاركيه فى الوطن ومصالحه السياسية والاقتصادية من أية ملة كانوا :

ذلك بأن الإسلام دين خاص بالمسلمين من حيث العقائد والشعائر وطرق التعبد ، أما من حيث أحكامه السياسية والإدارية والمدنية والاجتماعية والخلقية والأدبية — فهو دين عام يقبل أن يدخل فى أوامره ونواهيه المذكورة أبناء ملته وسائر أبناء الطوائف الأخرى المختلطين بهم والمشاركين لهم فى وطنيتهم ؛ فهو إذا أمر بوجوب الوفاق والتحاب والأمانة والعدل والرحمة والصدق وفعل الخير وترك الحسد والتجسس وسائر الشئون الاجتماعية — لا يريد بذلك أتباعه من المسلمين وحدهم ؛ لأن المسألة ليست مسألة صلاة وتيمم واستقبال قبلة ، ولا صوم واعتكاف وطواف حول الكعبة ، وإنما هو يريد المسلمين ومن التف بهم عهدا ووطنا وحكومة ومصلحة .

ومن أهم تلك الواجبات الاجتماعية التى أمر بها الإسلام الاتحاد أى وجوب الاندماج فى الجماعة الكبرى وتجنب الافتراق عنها: وفى هذا المعنى يقول صلى الله عليه وآله وسلم : « الْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ والْفُرْقَةُ عَذَابٌ » رواه عبد الله ابن أحمد : ومعنى هذا : أن اجتماع المسلمين على عقائد دينهم رحمة وتفرقهم شيعا فيها عذاب

ومثل هذا الحديث أحاديث أخر : منها قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « مَنْ فَرَّقَ فَلَيْسَ مِنَّا » الطبرانى . « يَدُ اللهِ عَلَى الْجَمَاعَةِ ، وإنَّمَا يَأْكُلُ الذِّئْبُ مِنَ الْغَنَمِ الْقَاصِيَةَ » رواه الترمذى : ويد الله نعمته وبركته على أبناء

الوطن الواحد إذا كانوا جماعة واحدة متضامنة على حفظ الحوذة وصيانة المصلحة ، أو على أبناء الدين الواحد إذا كانوا جماعة واحدة في الوحدة المذهبية لا تفرق فيهم ولا انقسام ، ثم قال: إن الذى ينفرد عن الجماعة هذه أو تلك يصبح كالشاة القاصية (أى البعيدة) عن جماعة القطيع لا تلبث أن يأكلها الذئب :

وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

« لَا تَخْتَلِفُوا فَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ اخْتَلَفُوا فَهَلَكُوا » البخارى عن ابن مسعود

وجلى أن الشارع الحكيم يوجه نظرنا إلى تاريخ الأمم التى كانت قبلنا وقد اختلفت وتفرقت كلمتها فهلكت وبادت وأديل منها ؛ لنعتبر بها ونزدجر عن مثل فعلتها .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « اثْنَانِ خَيْرٌ مِنْ وَاحِدٍ ، وَثَلَاثَةٌ خَيْرٌ مِنِ اثْنَيْنِ ، وَأَرْبَعَةٌ خَيْرٌ مِنْ ثَلَاثَةٍ ، فَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ ؛ فَإِنَّ اللهَ لَنْ يَجْمَعَ أُمَّتِى إِلَّا عَلَى هُدًى » رواه أحمد فى مسنده عن أبى ذر الغفارى قال الشيخ :حديث صحيح .

وهذا الحديث يُرْشد إلى أن استقرار الحق والصواب فى الفئة التى زاد عددها على أختها ولو بواحد. ويشبه أن يكون قد استرشدت بهذا الحديث الأمم المتمدينة : فإنهم فى مجالسهم النيابية يرون العمل بقول الفريق الذى يزيد عدده على عدد الفريق الآخر ولو بصوت واحد ، على أن هذا الحديث الذى يعتبر الحق فى جانب الكثرة إنما يعتمد الأعم الأغلب من جهة ، كما أنه من جهة أخرى يراعى حال من لم يقدر على تمييز الحق من الباطل بنفسه ؛ فمثل هذا ينبغى له أن ينضم إلى

السواد الأعظم ويغلب الثقة به .

أما إذا كان للمرء فكر ثاقب وقلب مخلص خال من الشوائب ورأى الحق في جانب الأقلية فلا عليه أن ينضم إليها ويعول فى الأمر عليها ويناضل بكل قوته دونها حتى يهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيّ عن بينة : وقال صلى الله عليه وسلم فى بيان ترابط المسلمين وشعور كل بما يشعر به الآخرون:(مَثَلُ المُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى) رواه أحمد فى مسنده وابن ماجه عن النعمان بن بشير: يعنى أنهم من شدة التحامهم وقوة ارتباطهم يصبح كل واحد منهم بالقياس إلى مجموعهم ككل عضو بالقياس إلى مجموع الجسد : فإذا نزل بواحد منهم مكروه شعر به كلهم على السواء وعملوا جميعا على إزالته ، كما يتأثر الجسد إذا ما أصاب عضوا منه وجع أو ألم .

ومن آيات القرآن فى الحض على الوحدة قوله تعالى : « وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا » «وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ » : « ريحكم » قوتكم وصولتكم : ولا ريب أن اتحاد أبناء الأمة واتفاق كلمتهم من أكبر العوامل فى ثبات أمرهم ، وبقاء دولتهم :

والشواهد على ذلك لا يحصيها العد، وكم من أمة ذهب تفرق الكلمة بعزها وسلطانها

وكما حض الشرع الإسلامى على اتفاق الكلمة أرشد إلى رأب الصدع وإصلاح ذات البين إذا اعترى الروابط القومية وهن أو ضعف : من ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم عن أبى الدرداء : « ألاَ أُخْبِرُكُمْ بِأفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيامِ وَالصَّلاَةِ وَالصَّدقَةِ » ؟ قالوا: بلى . قال « إصْلاَحُ ذَاتِ الْبَيْنِ فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ » قال الترمذى وروى أنه قال : « هِيَ الْحَالِقَةُ لاَ أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعْرَ وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ »

وكان المسلمون فى سالف عهدهم يتأدبون بأدب القرآن فى توحيد كلمتهم وطاعة أميرهم حتى روى الحسن البصري أن الرجل منهم كان إذا عرضت له حاجة وأميره يخطب لم يذهب من دون أن يستأذنه : فيقوم ويمسك أنفه مشيراً إلى أنه أصابه رعاف ويريد الوضوء، فيشير إليه أميره بالخروج وإذذاك يخرج. وعلمهم هذا تأدب بقوله تعالى :

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ » :

(أمر جامع) : شأن من الشئون الجامعة العامة : كحرب حضرت ، أو خطبة تليت ، أو مشورة أديرت :

قال الحسن : اتفق أن رجلا مل الحرب والاغتراب عن أهله فأحب الرجوع إليهم ، فقام إلى أميره (هرم بن حبان) وهو يخطب ، فأخذ بأنفه على حسب العادة مستأذنا بالانصراف فأذن له ، فانصرف ولكن إلى بلده وعشيرته ، فأقام فيهم أياما ثم رجع ، فسأله أميره :

أين كنت ؟

فى أهلى .

أبإذن ذهبت ؟

نعم : قمت إليك وأنت تخطب فأخذتُ بأنفى فأشرتَ إليَّ أن أذهب فذهبت . فقال الأمير :

أفاتخذت هذا دَغلا وخديعة ؟ اللهم أخر رجال السوء إلى زمن السوء .

وصفوة القول أن من الواجبات الاجتماعية على كل واحد من أبناء الأمة أن يتمسك بعرا الوحدة الوطنية ، فلا يفصمها ، ويحافظ على كعبة استقلال قومه فلا يهدمها ، وليعمل جهده على إصلاح ذات البين كيلا يؤدى بهم النزاع إلى البلاء والحين .

وإن وطنا كوطننا مؤلف من جماعات وملل مختلفة لا يمكن نجاحه مالم تتفق طوائفه ، ولا يتفقون مالم تكن كل طائفة منهم متفقة فى نفسها غير منقسمة على ذاتها ، وإذا وقع شقاق أونزاع فى طائفة من طوائف الوطن لا تضر نفسها فقط ، بل يتعدى أثره إلى أخواتها ثم إلى الوطن نفسه وإلى مجموع مصالحه ؛ فكان من الخير للطوائف الذين يتألف منهم الوطن الواحد أن يحرصوا على توثيق روابط الألفة بينهم من طريق توثيقها بين أبناء كل طائفة منهم .

وإن النصوص الإسلامية الآمرة بالاتفاق الناهية عن الافتراق لا تؤثر أثرها المطلوب مالم يوجه فيها الخطاب إلى مجموع أبناء الوطن مسلمين وغير مسلمين ؛ فإن فى اتفاقهم وجمع كلمتهم الخير لهم أجمعين .

بذل المعونة لأفراد الأسرة الوطنية والتحبب إليهم

سبق القول فى تبيان ما يجب على طوائف الأمة وأحزابها من التعاون على مصالحها العامة ، واطراح أسباب التنازع والشقاق .

والآن يراد بيان مايجب على كل فرد من الأفراد لقريبه وجاره وصديقه فى معاملتهم . فيخلص فى حبهم ويحرص على نفعهم ، ويمد إليهم يد المعونة فى حين ضائقتهم ونكبتهم فيعيشون متوادين متحابين ، وعلى البر والعمل الصالح متساندين متعاونين . وقدعاب القرآن الكريم قوما من الأشرار يمنعون الناس رفدهم ومعونتهم : فقال تعالى : « وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ » :

(الماعون) : مشتق من المعونة : فالمعنى أنهم إذا سئلوا أى ضرب من ضروب التعاون والمساعدة أبوا وامتنعوا ، وخص بعض العلماء الماعون بما يعار عادة من أمتعة البيت ومرافقه كالقدر والفأس .

ونصوص الشريعة الواردة فى بذل المعونة عامة شاملة لكل واحد من أبناء الأمة على اختلاف مذاهبهم وأديانهم ما دامت مصالحهم مشتركة ومراميهم متحدة .

والإسلام بطبيعته يحرص على هـذه المصالح والمقاصد ، وهو يأمر بالتحاب والتعاون بين أهل الوطن؛ كيلا يؤدى تواكلهم وتباغضهم إلى ضياعها وفسادها أو إلى النكد الدائم والشقاء الواصب .

أما تخصيص المسلمين أو المؤمنين أحيانا بالذكر فى بعض النصوص فلأنهم كانوا المخاطبين بهذه النصوص حين ورودها ، أو لأنهم أربابُ الواقعة التى ورد النص بشأنها ؛ فلا يفهـم منه أن غيرهم من أبناء الملل الأخرى غير داخلين فى عموم حكمها المتعلق بالمصالح العامة والمنافع المشتركة :

فمثال النص المطلق العام قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

« الْخَـلْقُ كُلُّهُـمْ عِيَـالُ اللهِ وَأَحَبُّهُمْ إِلَى اللهِ أَنْفَـعُهُـمْ لِعِيَـالِهِ » الطبرانى:فهل يريد الشارع بالعيال المسلمين وحدهم بعدقوله : « الْخَـلْقُ كُلُّهُمْ » الصريح فى أن مراده كلُّ فرد من بنى آدم ، بل كل فرد منهم ومن العجماوات أيضا ؟

كلا ؛ فالإسلام إذن يحض كل فرد من الخلق على نفع كل فرد من الخلق .

وكذلك قرر أن منزلة المرء من ربه تـكون على مقدار ما يوصـل من النفع والخير إلى البشر . وفى معنى هذا الحديث أحاديث أخرى : منها قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « خَيْرُ النَّـاسِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّـاسِ » القضاعى عن جابر قال الشيخ:حديث حسن لغيره.« رَأْسُ الْعَقْلِ بَعْدَ الإِيمَانِ بِاللهِ التَّحَبُّبُ إِلَى النَّـاسِ » الطبرانى فى معجمه الأوسط :

ومن كلام أمير المؤمنين على رضى الله عنـه فى هذا المعنى : قلوب الرجال وحشية فمن تألفها أقبلتْ عليه . وقال أيضا : البشاشه حبال المودة والاحتمال قبر العيوب . وقال : أعجز الناس من عجز عن اكتساب الإخوان وأعجز منـه من ضيع من ظفر به منهم .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « لاَ تَبَاغَضُوا وَلاَ تَحَاسَدُوا وَلاَ تَدَابَرُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا وَلاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ » رواه أنس ، « مَنْ عَامَلَ النَّاسَ فَلَمْ يَظْلِمْهُمْ ، وَحَدَّثَهُمْ فَلَمْ يَكْذِبْهُمْ ، وَوَعَدَهُمْ فَلَمْ يُخْلِفْهُمْ فَهُوَ مِمَّنْ كَمَلَتْ مُرُوءَتُهُ وَظَهَرَتْ عَدَالَتُهُ وَوَجَبَتْ مَحَبَّتُهُ »

ومثل بعض الحكماء للأخوة الإنسانية فقال : أمسى علىّ المساء فى الصحراء فلاح لى من بعدٍ شبح أسود على رأس رابية فذعرت منه ، ولما أقبلتُ نحوه وجدتُه إنسانا ، ولما صرت بجانبه وجدته أخى : وهكذا البشر يتعجلون فى بغض بعضهم بعضا ، وهم لو فكروا لعلموا أنهم إخوة يستحقون التحابّ بدل التباغض والتصافى مكان التحاقد .

ولا دليل فى الشرع الاسلامىّ ينهى عن معاملة غير المسلمين بغير ما ذكر من مكارم الأخلاق بعد قوله صلى الله عليه وآله وسلم فى الحديث السابق : « الْخَلْقُ كُلُّهُمْ عِيَالُ اللهِ ، وَأَحَبُّهُمْ إِلَى اللهِ أَنْفَعُهُمْ لِعِيَالِهِ » وبعد قوله :

«لاَ ضَرَرَ وَلاَ ضِرَارَ فِى الإِسْلاَمِ »

«الْمُؤْمِنُ آلِفٌ مَأْلُوفٌ ، وَلاَ خَيْرَ فِيمَنْ لاَ يَأْلَفُ وَلاَ يُؤْلَفُ»

وبالجملة فالمسلم باعتبار الدين الإسلامى هو من كان مثال الكمال الإنسانى فى حبه لغيره من بنى البشر ، والمسارعة إلى معونته ونفعه ، وكفّ أذاه عنه ، وتحملّ الأذي منه ومسامحته على أذاه ، بل مقابلته عليه بالبر والإحسان : كما قال تعالى فى صفة الأبرار : « وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ » وكما قال صلى الله عليه وآله وسلم : « أَفْضَلُ الْفَضَائِلِ أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ ، وَتَصْفَحَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ » رواه الطبرانى عن معاذ بن أنس .

وإن قيام المسلم بهذا الواجب لبنى جنسه هو فى الوقت نفسه من جملة قيامه بالواجب لخالقه تعالى .

والإسلام لا يسمح للمسلم أن يقف موقف صولة أو خصومة بحال من الأحوال مالم تتعرض حقوق بنى الإنسان للضياع أو يلحق المصالح العامة أو الخاصة غبن أو فساد ؛ فإنه إذ ذاك يسمح بالمقاومة ضمن شرائط العدل والاعتدال .

ومن تتبع الأحاديث الواردة عن الشارع بشأن حب الناس وإيصال الخير إليهم وجدها تُربى على النصوص الواردة بشأن الواجبات الاجتماعية الأخرى ، وإن مجرد سردها هنا يستوعب عدة صفحات فلذلك نقتصر على ما هو آت :

« مَا تَحَابَّ اثْنَانِ فِى اللهِ تَعَالَى إِلاَّ كَانَ أَفْضَلُهُمَا إِلَى اللهِ أَشَدَّهُمَا حُبًّا لِصَاحِبِهِ » رواه البخارى عن أنس ، « اصْنَعِ الْمَعْرُوفَ إِلَى مَنْ هُوَ أَهْلُهُ وَإِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ : فَإِنْ أَصَبْتَ أَهْلَهُ أَصَبْتَ أَهْلَهُ وَإِنْ لَمْ تُصِبْ أَهْلَهُ كُنْتَ أَنْتَ أَهْلَهُ » رواه الخطيب عن ابن عمر ، « إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ الْمُعَبِّسَ فِى وُجُوهِ إِخْوَانِهِ » رواه الديلمى ، « إِنَّ اللهَ يُحِبُّ إِغَاثَةَ اللَّهْفَانِ » رواه ابن عساكر عن أبى هريرة ، « إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُدَاوَمَةَ عَلَى الإِخَاءِ الْقَدِيمِ فَدَاوِمُوا عَلَيْهِ » رواه الديلمى ، « بُلُّوا أَرْحَامَكُمْ وَلَوْ بِالسَّلَامِ » رواه العسكرى من حديث أنس مرفوعا ، وقال أيضا :

« لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ » ،

« لاَ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا ، وَلاَ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا »

« مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِى تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ : إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى »

« الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا » رواه البخارى عن أبى موسى ، « مَنْ نَفَّسَ عَنْ غَرِيمِهِ أَوْ مَحَاعَنْهُ كَانَ فِى ظِلِّ الْعَرْشِ يَوْمَ

الْقِيامَةِ) رواه مسلم عن أبى قتادة .« مَنْ أَغاثَ مَلْهُوفًا كَتَبَ اللهُ لَهُ ثَلاثًا وَسَبْعِينَ مغفِرَةً وَاحِدَةٌ فِيها صلاحُ أَمْرِهِ كُلِّهِ وَثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ لَهُ دَرَجاتٌ يَوْمَ الْقِيامَةِ) رواه البخارى عن أنس

(إنَّ اللهَ تعالَى يُحِبُّ السَّهْلَ الطَّلِيقَ) رواه الشيرازى عن أبى هريرة.

لا جرم أنه بقدر مايكون لتوثيق علائق التحاب بين الناس فى نظر الشارع من الشأن والاعتبار يكون للمجترئ على تقطيعها من المقت والاستنكار. والكلمة الجامعة فى الحض على التعاون والتساند هذه الآية الكريمة :

«وتَعاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، وَلا تَعاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ»

ومثلها فى الحض على مبادلة عواطف الحب والتوصل إليه من أسهل طرقه قوله تعالى :

« وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْها أَوْ رُدُّوهَا » :

الأفضل أن تقابل صديقك بأحسن مما قابلك به من وسائل الألفة ودواعى التحاب؛ فإن لم تفعل كان عليك أن تقابله بمثله على الأقل ،

على أن عرب الجاهلية لم يكونوا خلوا من روح التعاون ومساعدة غيرهم : انظر إلى قول حاتم الطائى :

إذا كنت ربا للقلوص فلا تدع رفيقك يمشى خلفها غير راكب

أنخها فأركبه فإن حملتكما فذاك وإن كان العقاب فعاقب

أى وإن لم تحملكما معا وكان اللازم أن تتعاقباها : أى تتناوبا الركوب عليها : فتركبها أنت مرة وهو مرة — فافعلا .

وأفضل من هذا مارواه البيهقى قال : شتم رجل ابن عباس فأجابه : أتشتمنى وفىَّ ثلاث خصال ؟ :

إنى لأسمع بالحاكم يعدل فى حكمه فأحبه ، ولعلى لاأقاضى إليه أبدا ،

وإنى لأسمع بالغيث يصيب البلد ، فأفرح به ومالى به سائمة ولا راعية ، وإنى لآتى على آية من كتاب الله ، فأود أن المسلمين كلهم يعلمون منها مثل ما أعلم .

وقد أخذ أبو العلاء المعرى المعنى الثانى من معانى ابن عباس فنظمه شعراً فقال :

ولو أنى حبيت الخلد فرداً لما أحببت بالخلد انفرادا

فلا هطلت علىّ ولا بأرضى سحائب ليس تنتظم البلادا

وليس من مظاهر التحابّ والتعاون بين الاخوان أن يرى المرء صديقه مقيما على الشر والمنكر وفعل السوء ، فيتحبب إليه بالسكوت عليه والاغضاء عنه أو استحسان ما فعل أحيانا ؛ فإن هذا النوع من المجاملة والتحبب ممقوت فى الشرع منهى عنه فى الكتاب العزيز ، وقد ذم الله تعالى هذا الخلق فى قوله تعالى : « كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ »

وفى الحديث الشريف :

« انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِماً أَوْ مَظْلُوماً » قيل : كيف أنصره ظالما ؟ قال : « تَحْجُزُهُ وَتَرُدُّهُ عَنِ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ » رواه البخارى .

« مَنْ نَصَرَ أَخَاهُ بِظَهْرِ الغَيْبِ نَصَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ » رواه البيهقى عن أنس:والمعنى أن من سمع شتما أو علم ظلما أو اتهاما باطلا ألصق بصديق له وصديقُه غائبٌ غير شاعر بالأمر فدافع عنه وصان كرامته وحفظ له حقه — كان له ماذكر من الثواب . وقال عليه الصلاة والسلام :

« المُؤْمِنُ أَخُو المُؤْمِنِ لاَ يَدَعُ نَصِيحَتَهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ » رواه ابن النجار عن جابر .

وهناك أقوام رأوا من الورع اعتزال الناس ، فلا يسمعون سوءا ، ولا يرون

منكرا ، ولكن فى عزلتهم حرمان الناس نصحهم ووعظهم وإرشادهم ، ولاسيما إذا كان هؤلاء المعتزلون علماء مسموعى الكلمة قادرين على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وقد نهى الشارع عن منازعة الناس وكثرة اللجاج فى الخصومة لهم خشية أن يؤدى ذلك إلى تسلسل العداوات ، فيسوء العيش ، وتتنغص الحياة : من ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « أبغَضُ الْخَلْقِ إِلَى اللهِ الأَلَدُّ الْخَصِمُ » للبخارى ومسلم :

(الألد الخصم) الشديد الخصومة الصبور على النزاع الذى يظهر له وجه الحق مع خصمه فيتصام عنه ، ويثابر على مناصبته إلى ماشاء الله .

ولم يغفل الشارع أمرا متعلقا بالحب والبغض إلا أرشد إلى وجه الصواب فيه : تأمل قوله صلى الله عليه وسلم :

« أحبِبْ حَبِيبَكَ هَوْنًا مَا ، عَسَى أنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْمًا مَا ، وَأَبغِضْ بَغِيضَكَ هَوْنًا مَا عَسَى أنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمًا مَا » : رواه الترمذى .

ومن دلائل اهتمام الشريعة الإسلامية بتوثيق عرا التحاب إباحة المزاح بين الإخوان لامتزاج قلوب بعضهم ببعض حتى يكون لهم فى مجالسهم شىء من اللهو واللعب المعتدلين بحيث لا يخرجون فيهما عن حدود المطايبة والمفاكهة ؛ فقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يمزح ولا يقول إلا حقا كما فى البخارى .

وذكروا من مزاحه أشياء غاية فى اللطف والصدق وإدخال المسرة على المخاطبين كالأطفال والنساء والعجائز : فمن ذلك قوله لغلام مات له طير فحزن عليه : « يَاأَبَاعُمَيْرُ مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ (١) ؟ »

وقوله أيضا لتلك المرأة التى شكت شيئا من أمر زوجها : « زَوْجُكِ

(١) النغير : تصغير نغر وهو طائر يشبه العصفور أحمر المنقار .

الذِى فِى عَيْنَيْهِ بَيَاضٌ »

وإن فى المزاح على هذه الصوة تفريجا للكروب وتسرية عن القلوب : وفى ذلك يقول أمير المؤمنين على كرم الله وجهه : إن هذه القلوب تمل كما تمل الأبدان فابتغوا لها طرائف الحكم .

والمرء الذى يتكلف العبوس وفرط الوقار فى مجالس الناس أو يلتزم الجد فى عامة أحواله يمقتونه ويستثقلونه ، بل ربما تجنبوا مجلسه ، واستحلوا أحيانا غيبته

ومما ورد عن الشارع فى الحض على الانتباه لهذا الأمر قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

« الهُوا وَالعَبُوا ، فَإنِّى أَكْرَهُ أنْ يُرَى فِى دِينِكُمْ غِلظَةٌ » رواه الديلمى

(الغلظة) : الجفاء والشدة وهما مما ينغص العيش ويجعل الحياة مرة .

ولكن على العاقل أن يتفطن لما يريده الشارع من اللهو واللعب ويحسن فهمهما وصورة استعمالهما ، فلايتجاوزهما إلى مانهى الله ورسوله عنه : مما فيه ضياع وقت أومال أو مس عرض أوكرامة أو تجديد عداوة أو قطيعة أو تفريط بحق أو فريضة :

قال سعيد بن العاص لابنه :

اعتدل فى مزاحك ، فإن الإفراط فيه يذهب البهاء ، ويجرئ عليك السفهاء ، كما أن التقيل منه يبعد عنك المؤانسين ، ويوحش منك المصاحبين .

وروى أن سيدنا صهيبا رضى الله عنه كان يعجبه أن يمزح فقال له النبى صلى الله عليه وآله وسلم : « أَتَأْكُلُ التَّمْرَ وَبِكَ رَمَدٌ ؟ »

فأجابه : إنى أمضغ على الناحية الأخرى يارسول الله ! فضحك صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه الشريفة .

وقد يكون المراد باللهو واللعب فى حديث « الهُوا والعَبُوا » إباحة إقامة

المهرَجانات فى أيام المواسم والأعياد والأعراس : فيضرب الجوارى على الدفوف ، ويلعب الفتيان ألعابا ممـا لاسوء فيها ولا أذى ممـا يحقـق مقاصـد الشريعة السمحة .

الواجب للمعلمين

على المرء أن يعتقد فضلهم ، وأنهم أفضل من الوالدين ، لأن الوالدين سبب نشوئه ؛ وأما المعلمون فهم سبب حياة نفسه العاقلة حياة طيبـة ، وجوهر النفس أشرف ، فهم إن لم يزيدوا شرفا على الوالدين لا ينقصون عنهما ، فإن لم يعتقـد ذلك ولم يعمل بموجبه كان ظالمـا لهم ، وغير أهل لمـا أوصلوه إليه .

وعليه أن يقوم بقضاء حقوقهم مبالغا فى خدمتهم ، وألا يكره ما يلقى منهم من الغلظة فى التأديب لأنهـم هم الذين يتولون تربيته بعـد تربية أسرته ، وبيـدهم سعادته ، وبين أيديهم مستقبل حياته ، وقد أخرجوا الناس من ظلمات الجهل إلى نور العلم ، ورقوا الأفراد والأمم فأصبح العالم فى حضارة ومدنية بفضلهم .

حسنت أخلاقهم فـكانوا خير قدوة لتلاميذهم ، ونضجت عقولهـم فصاروا أهلا للقيام بوظيفة الرسل ، فحق إجلالهم من الناس عامة ومن كل تلميذ خاصـة لذلك وجب عليه :

١ ـ احترامهـم احترام الأب لينزل منهـم منزلة الابن البار من الأب الرحيم :وقد أجاد المغفور له أحمد بك شوقى إذ يقول :

قـم للمعـلم وفه التبجيـــلا كادالمعلم أن يكون رسولا
أرأيت أفضل أو أجل من الذى يبنى وينشىء أنفسا وعقولا

٢ ـ اتباع نظم المدرسة فى أثناء الدراسـة لتنشرح صـدورهم فيتفانوا فى إفادته .

٣ ـ التأدب فى السؤال ، والتودد إليهم ، وإطاعة أوامرهم بنفس طيبة ، وإنجاز الواجبات فى أوقاتها والاقتداء بمحاسن أخلاقهم وشكرهم على حسن صنيعهم

٤ ـ عدم اغترار التلميذ بغنى أبيه أو جاهه ، وإلا جفاه معلموه فحرم ثمرة العلم

٥ ـ عدم الامتعاض منهم إذا رأى قسوة قصد إصلاحه ؛ فهى فى حقيقة أمرها إصلاح ورحمة: فقسا ليزدجروا ومن يك حازما فليقس أحيانا على من يرحم

الواجب للمدرسة

الأسرة والمجتمع الإنسانى مدينان للمدرسة لعظيم فضلها وكبير منتها ؛ لأنها تنشر العلوم والمعارف ، وتغرس الأخلاق الفاضلة ، وتعد النوابغ من أبناء الأمة ، ولا يتحقق مقصدها على أكمل وجه إلا باتباع نظامها واحترام قانونها وتأدية كل من فيها الواجب بإخلاص

والمدرسة تحوى أناسا مختلفى الأجناس والديانات ، متغايرى الأخلاق والعقول ، متباينى الأحوال والثروات ، يقضون فيها من الشباب زهرته ، ومن الأيام ناضرها تثقيفا للعقول واستنارة للأفكار ، وتهذيبا للأخلاق

فواجب عليهم احترام قوانينها ، وتقديس نظمها طوعا لا كرها ، ورغبة لا رهبة ؛ لتسودها المودة ويعمها العدل ، وتدوم المحبة بين تلاميذها ؛ وإذ ذاك يرون من المعلمين عطفا أبويا ، وإخلاصا فى تعليمهم مرضيا ؛ فينشئون نشأة صالحة يسلمون بها من الزلل فى دراستهم وفى حياتهم العملية ، فيجد الوطن منهم خداما أمناء يضحون بأنفسهم وبأموالهم فى سبيل إعزازه ، ويحمد الشعب للمدرسة هذا الغرس الكريم .

الواجب على المعلمين

(١) رأى أفلاطون

جاء فى وصية أفلاطون فى تأديب الأحداث ما يلى :

لست أخاطب الطبقة العالية فى الفلسفة والبلاغة ، ولا الطبقة الدنيا ؛ لكن أتوخى الطبقة الوسطى بين الطبقتين فأقول : إنه يجب أن أذكر نفسى وأحضها

على الأدب دون أن أحوج غيرى إلى تأديبى وتقويمى ؛ فإن آية العقل أن أقيم نفسى مقام الممتحن لها وعليها ، فإذا فعلت ذلك كنت من الذين قومهم الأدب .

أقر أنى لا أعرف نفسى فإنى لست بالحكيم ، ولا المستقل بالتعليم ؛ لأنى إلى هذه الغاية متعلم وطالب حكمة ، فليت شعرى من الكاتب البليغ الذى يأتى بعدى ؟ ومن الواضع للسنن الذى جاد طبعه وكرم أصله ؟ والذى يحسن أن يكون وساطة بين الأستاذين والمدرسين ، وأن يقنع الفريقين معافيرضى الطبقة العالية ، ويؤدب الطبقة التى دونها من غير أن يتعسف مع الأولين ، ولا يكون بذيئا مع الآخرين ؟

أيها المعلمون، افهموا عنى ما أوصيكم به وأرسمه لكم :

لتكن سيرتكم مع تلاميذكم سيرة مستقيمة بلا زيادة ولا نقصان ، وبالله المنشئ لكل أدب وعلم أستحلفكم وأقسم عليكم ألا تتجاوزوا الحدود . اعرفوا عاداتكم واحفظوا درج مراتبكم ، وكونوا لهؤلاء التلاميذ مرآة صافية مضيئة فكونوا دليلا لمروءتهم ليتأدبوا بالمروءة ، وأبعدوهم من كل لائمة قبيحة ، وامتنعوا من الشهوات المذمومة ومن أفعال الخطايا ولا تضنوا بحسن مناظرتهم ، ولا تقربوا شيئا يلحقكم منه عذل ، ولا تكونوا سببا لعادة مذمومة يجترئ عليكم بها تلاميذكم ، ولا تتكلموا بشىء يكره بين أيديهم ، ولا يكون لكم معهم سر ولا خلوة ، فإذا أدبتموهم فلا تكلموهم بكلام يكون مستوراً عن جماعة من بحضرتكم ، ولا تهذبوهم بالخدع ، ولا تتقربوا إليهم بالهبات والصلات ، وعاملوهم بحسب استحقاقهم ، وعلموهم ألا ينحطوا عن مراتبهم من العلم فتنحطوا أنتم عن مراتبكم فى التعليم لهم ، ولا تحفلوا بالظل الزائل ولا باللذة التى لا دوام لها فتفسدوا إخلاص أنفسكم ورياسة تعليمكم ، واستحيوا منهم وتصونوا وتوقروا وتحفظوا أنتم وتلاميذكم أيضا بالوصايا المرتفعة عن كل طعن وقدح ، ولا تؤدبوهم بالأدب إلا فى موضعه وعلى حقيقة من حيث لا يلحقكم

فيه شك ولا ارتياب بأنكم ظلمتموهم ، وتعديتم عليهم ، وإن ترفعوا لخطوا منهم ولا ترِقُوا للمتجاسرين منهم برقة الآباء ، ولا تحبوهم محبة ذوى الأنساب منكم بل أدبوهم كالغرباء منكم ، ومن أول ابتدائكم بهم خذوا فى رياضتهم ، وإن أحد من أهلهم وأقاربهم منعوكم تأديبهم وسألوكم أن ترحموهم وترقوا لهم فأخرجوهم من عندكم .

ولا يكن تقويمكم لهم وضربكم إياهم على غضب وهياج ، ولا تتركوهم إهمالا لقلة عنايتكم بهم ، ولا تتركوهم من غير حد تعرفونه لأنفسهم ، ولا تنسوا التعليم الروحانى من قبل الكرامة العالمية ، وداووهم إذا احتاجوا إلى الأدوية الملطفة حتى تصفو أذهانهم ليكون لهم بما تفيدونهم من علومكم شرف وافتخار، وعودوهم الاحتماء من الأطعمة الضارة، وعودوهم ألا يأكلوا إلا فى أوقات معلومة محدودة من أطعمة لطيفة ، وحذروهم الشره والسكر والخروج عن الاعتدال فى كل مايصلح ويشاكل حالة علمهم ، وامنعوهم من النظر الشهوانى المردى ، وأقيموا عليهم رئيسا منهم يشرف عليهم وليكن متقدما ، غنيا كان أو فقيرا ، جميلا كان أو قبيحا ؛ ولا تنظروا إلى حسن الوجه مع قبح السيرة ، بل انظروا إلى حسن العقل .

وليكن المدبر لهؤلاء الأحداث موثوقا به ذكيا عالما مهيبا غير معروف بسوء اللقاء وقبح المعاملة وفساد السيرة ، ولا تصحبوا المعروفين بالأفعال القبيحة وتباعدوا منهم .

وقابلوا كل من تؤدبونهم بما يشاكلهم من التأديب ، ولا يكن تأديبكم لهم بغير تمييز وترتيب . حملوهم مايقوون عليه من التأديب ، ولا تميتوا قلوبهم بالإلحاح عليهم وتجشيمهم مالا يقوون عليه ، وأقيموا عليهم منهم رؤساء ألوف ورؤساء مئين ورؤساء خمسين ورؤساء عشرة وكل واحد منهم يأمر تلاميذه وينهاهم . ومتى زال رئيس منهم عما تأدب به وأدبهم ، ولم يستعمل ما يجب عليه مما يوصيهم به فلينح ذلك الرئيس منهم عن مرتبته وليقم فيها غيره ؛ فليس من

الحزم أن يوثق بخائن ولا كاذب ، ولا يقبل اعتـذار ممن يقتل النفس عامداً . فإن أخطأ حدث ممن يسمع التأديب أو زل غفرت زلته ، واحتمل دفعتين أو ثلاثا فإن عاد بعد الثلاث نحى عن جملة المتأدبين وحجر لئلا يفسد سائر من يروم التأديب .

أيها الإخوة المحبون للعلم ، اسمعوا واحفظوا وصاتى ؛ فإنى كاتب لـكم مقالة سهلة أبين لـكم المدخل إلى العلم بكل صناعة شريفة يتنعم بها كل محب متعلم :

فأول ذلك أن تـكونوا طاهرين لاعيب فيـكم قبل أن تشرعوا فى هـذا العلم ؛ فإنه يجب ألاتتقرب الأشياء الطاهرة إلى الأشياء الدنسة ولا الأشـياء الدنسة إلى الأشياء الطاهرة ، ولايقرب ذوالعيب الدنس من المبرأ ، ولا المبرأ من الدنس ؛ وليعلم أنه لا يستطيع مكيال من ماء عذب صاف لطيف أن يقاوم جب حمأة منتنة.لاقبح أقبح بالعاقل من أن يسم نفسه عندالناس بالعقل ويأمرهم به وهو خلو منـه صفر الأدب مرتـكب للمـآثم ؛ إن الحـكمة التشبه بالله عز وجل وهو المعلم للحكمة والمرشد إلى الأفعال الجميلة الفاضلة الموفق لها .

إياكم والحسد فإنه المفرق المشتت ، وليتواضع بعضكم لبعض . تساووا فى المحبة الكاملة . أسلموا نفوسكم لله وللعقلاء الكاملين الذين يستحقون الرياسـة بأفعالهم واقتصادهم وقناعتهم ، ولاتتـكلوا على المفتخرين بالآباء الذين لم يؤدبوهم بأدب النفس ولزوم ما وجب عليهـم ؛ أولئك حزب الظلمة وأعـداء الحـكمة ومصيدة الشياطين ، والهرب منهم والتباعد عنهم أولى . وليجعل كل واحد منكم صاحبه كنفسه ، وليحفظ كل واحـد منـكم صاحبه حتى يكون بعضكم حافظا لسر بعض .

كونواسامعين مطيعين حريصين على طلب الحق والحـكمة مجتهدين مناضلين عن الحق محبين للصـدق مجادلين عن العـلم عارفين بالأزمنة واختلافها مبغضين المعايب عاملين على تمـكين الصلاح والسكون والهدوء والسلامة متكلمين عن أهل الخير ناظرين بأعينهم وقلوبهم نظر المتواضعين لا المتـكبرين ، آنفين أنفة

ذوى العزة متذكرين دائما الموت الاختيارى محبين للفضائل متمسكين بكل المحاسن .

لا تتحملوا ثقل التكبر ، ولا تتعدوا أقداركم ولا تترفعوا بالصلف ، ولا تتعظموا بالافتخار ، ولاتأخذوا بأخلاق الجبابرة، وكونوا علماء بما تعلمون ، ولا تتجاسروا على تعدى حدودكم ، ولا تتماروا فيما لاحقيقة له ، لا تجادلوا بالكذب ولا تتكلموا بالهذر .

واحذروا الشهوات القبيحة ، ولا تعودوا أنفسكم الميل إليها ، والزموا قراءة الكتب الأدبية ولا تملوا ، وأحسنوا الإنصات للحكماء ، وارهبوا آباءكم ، وأكرموا أمهاتكم ، ولا تركنوا إلى البطالة والكسل ، وميزوا بين الخير والشر ، واعرفوا الربح من الخسران ، وإذا لم تسألوا فلا تجيبوا ، وتنكبوا الخصومات ، واستعملوا الأغذية اللطيفة ، وتباعدوا عن الشره للأطعمة ، ولا تشربوا الخمر ، وليكن لغذائكم وقت معلوم ، وأكثروا ذكر الله عز وجل وإحسانه إليكم فرادى ومجتمعين ، ولا ترفعوا أصواتكم عند من هو أسن منكم ، ولا ترادوهم الكلام ، ولا تطلقوا ألسنتكم بحضرتهم بكلام جاف ، ولا تؤثروا لذة المآكل على لذة العلوم ، ولا تشتغلوا بذكر مساوى غيركم ، وإذا صح كلامكم وظهرت حجتكم فلا تعجبوا بأنفسكم ، ولا تفتخروا بما ظهر منكم من غلبة خصومكم .

وآثروا الوحدة والدعة والسكون ، ولا تطلبوا الرياسة ، وإن أكرمكم إنسان فتواضعوا أنتم فى أنفسكم ، وإن سلطكم مسلط على أمر من الأمور فأحسنوا فيه ، واكظموا الغيظ ، ولا تسرعوا إلى الغضب ، وأكرموا أنفسكم فإنكم بذلك تصيبون كرامة كثيرة ، ولا تمضوا شيئا فى وقت الضجر ، وامتحنوا الأصدقاء قبل أن تصادقوهم ، ولا تصادقوهم قبل الامتحان .

ولا تقوموا فى الأسواق ، وإن استطعتم ألا تمشوا فيها فافعلوا فإن الأسواق

مزابل المدن ، وليس يجد الإنسان على المزابل شيئا نظيفا ولا طيبا طاهرا . ولا تصغوا إلى أقاويل العامة ، وبخاصة أهل السوق فإنهم همج رعاع ولا تحصيل عندهم ولا رأى لهم ولا معرفة حقيقية ؛ ولا تطلعوا أحداً على أسراركم ، وكلموا الرؤساء بتواضع ولطف .

ولا يعظمن فى صدوركم مايعظم فى عين كثير من النساء من أعراض هذه الدنيا . وإذا أنكرتم شيئا على إنسان يهمكم أمره فعاتبوه عليه من وقته ، ولا تكونوا ذوى وجهين ولسانين ، ولا تكن مودتكم متقلبة كاختلاف ضوء القمر ، وكونوا كالشمس التى نورها فيها دائم لا يزيد ولا ينقص ، ولا تتبعوا شهوات الناس فى الأحكام ، لكن كونوا حكماء بلا محاباة لأحدمنهم ، ولا تغتابوا من غاب عنكم ، ولا تحلفوا يمينا لإرضاء للناس ، ولا تقيموا فى ظل ملوك إن كانوا لكم غاصبين ، واحذروا الملاهى الشائنة لكم واللعب المضل لأذهانكم ولا تواصلوا الضحك ، ولا تميلوا إلى الخدع الآخذة بالعين التى تحدث فى أنفسكم اضطرابا ، ولا تجالسوا من يزينوا لكم الشهوات القبيحة .

احذروا العدو الذى يريكم الصداقة ، والأخ الذى لا صدق لكلامه ، ولا صحة لضمانه ، ولا صواب فى منطقه . والذى ينبغى للأحداث أن يأخذوا طرفا من الأسباب التى يحتاج إليها فى تدبير الحروب وترتيب الصفوف ، وتعلم المثاقفة والرمى والمصارعة ، والطلب والهرب من غير استهانة ولا انهماك فيه ، وليتعودوا ركوب الخيل وجريها والعمل بالسلاح .

وينبغى أن ينظروا فى الموسيقى فإنها من التعاليم الأربعة (١) حتى يقفوا على المناسبات وتأليف اللحون ، وأصناف ماينسب إليها من العود والمعرفة بسائر آلات الموسيقى .

واعلموا أنكم إذا اتصفتم بهذه الحكمة وتمسكتم بها كنتم كالنور المشرق

(١) هى التصوير ، ونحت التماثيل ، والموسيقى ، والرقص .

على الخلائق ؛ فاجعلوا شكركم لله المدبر للكل الأزلى القديم القائم بالحق والقسط .

ومن خالف هذه الوصايا فالواجب على من يشرف على المتأدبين تقويمه وتأديبه فإن لكل خطأ عقابا إما عاجلا وإما آجلا ، ويجب أن تقدم عقوبة العاجل لئلا يفسد الناس ، ويقتل بعضهم بالقهر والغلبة ، فتضيع ثمرة التعليم والتأديب .

ب — « رأى »

صاحب كتاب سلوك المالك ، فى تدبير الممالك

١ ـ أن يغتنم الحياة التى بها فارق الأموات والجماد فيصرف زمانه فى المهم دون غيره .

٢ ـ أن يعمل بما يرمى إليه قول بعضهم : إن امرأ ذهبت من عمره ساعة لحرى أن تطول حسرته عليها .

٣ ـ أن يكون متفقدا لجميع أخلاقه ، مستيقظا لسائر أحواله ، متنقصا لمذموم العادات .

٤ ـ أن يحترز من دخول النقص عليه ، وليجتهد فى بلوغه غاية الكمال .

٥ ـ أن يكون أبدا محبا لصورة الكمال مستلذا محاسن الأخلاق ومحمودها .

٦ ـ أن يعتنى بتهذيب نفسه فلا يستكثر ما يقتنيه من الفضائل والعلوم النافعة .

٧ ـ أن يكون غير متهيب للرتبة العليا طالبا غايتها جهده جاعلا غرضه الإحاطة بها .

٨ ـ ألا يقف عند غاية من العلم إلا ويومئ بطرفه إلى ما فوقها ليزداد بصيرة .

٩ ــ أن يأخذ نفسه بأوامر الله ورسوله وأولى الأمر من بعده ليؤدبها بآدابهم .

١٠ ــ أن يسدد طرفا من علم اللسان ويعتنى بالبلاغة والفصاحة والدرس .

١١ ــ أن يجعل لشهواته قانونا راتبا يقصد فيه الاعتدال ويجتنب الإسراف .

١٢ ــ أن يقمع أبدا سورة القوتين الغضبية والشهوانية ، ويستعمل قوة العقل عليهما .

١٣ ــ أن يلازم الصمت عما لا ينبغى .

١٤ ــ أن يجتنب استعمال السفه بالألفاظ القبيحة ويترك الحلف .

١٥ ــ أن يكون سهل اللقاء والبشر والتسليم سابقا بها بعيداً من الأشرار مستعمل القصد فى كل أموره؛ فإنه إذا فعل ذلك كان خليقا أن يملك نفسه ، ويألف حسن السيرة، وصار محببا إلى الناس مقبول القول معظما عندهم موقرا عند الرؤساء ، مكرما عند الله تعالى .

والباحث فى طرائق التعليم الحديثة لايسعه إلا أن يعترف بما لأفلاطون فى وصيته من الفضل على التعليم وطرائقه .

مايجب أن ينشأ عليه الأحداث

أجمع الباحثون فى أحوال العمران وقوانين المدنية على أن التربية والتعليم هما السبيل الوحيد والوسيلة العظمى فى ارتقاء الأمم على منصات الحضارة ، وبلوغها ما تطمح إليه من الآمال الكبار . لذلك كان من أهم واجبات الأمة التى تجعل بلوغ مثل هذه الأمنية نصب عينيها أن تكل أمر تربية أبنائها وتعليمهم إلى أهل الدين الذين يطبعون فى فطرة الناشئ أصول الفضائل وآداب الشريعة ، ويلقنونه دروس الحياة ، ويرقون عواطفه ، ويربون شعوره . فإذا فارقت الآباء هذا المبدأ، فوسَّدت الأمر غير أهله ، وأسندت شئون التعليم إلى غير

الكفاة من أعداء دينها — فلا تلبث أن يلم بمزاج مجموعها ما يضعفه ، وينمى جراثيم الداء فيه ، فتظهر أعراضه عليه ، فتصبح فى حضيض خسران الدنيا والآخرة ؛ فالتربية الدينية هى أس الفضائل ، وروح الاجتماع الحيوى .

إذا تدبر المرء ماينشأ من التربية المنزلية وجد أنه كما يكون الأهل يكون الطفل فى الغالب : فإن كانوا ذوى نظام وطباع كريمة شب الطفل كذلك لما عُلم من أنه ميال للمحاكاة ، وإن كانوا جهلاء أغبياء وذوى خمول أو ضعف فى العزيمة شب الطفل على ذلك . فمن هذا يستبين أن تربية البيت إما أن تكون عضدا ومساعدا للمعلم فى المدارس ، وإما أن تكون عقبة كأداء فى سبيل التربية المدرسية .

تقرر فى سنة البشر أن الفروع كما ترث من أصولها جانبا من الصفات الجسمانية كذلك ترث منها كثيرا من الطبائع الخلقية ؛ فلقد نجد أولاد الرجل الأبله كأبيهم ، وأبناء العاقل الداهية كذلك . ولا حاجة إلى إيراد البراهين على ذلك ؛ لأنه يكفى فى إثباته أدنى التفاتة إلى دراسة أصول العالم الذى نحن بين ظهرانيه . على أنه وإن كان فى الحدث طباع موروثة فالمربى الحكيم يمكنه أن يصلح منها مافسد ، ويقوم ما اعوج ، وإن احتاج المرء إلى عناء زائد وجهد كبير على شريطة أن يتدارك ذلك قبل أن تتمكن تلك الوراثة الفاسدة وتصير ملكة وخلقا ، ولذا قلما تفيد التربية فى الكبير :

قالت الحكماء : ينبغى أن يؤخذ الطفل بالأدب من صغره ؛ فإن الصغير أسلس قيادا وأسرع مواتاة ، ولم تغلب عليه عادة تمنعه من اتباع مايراد منه ، ولا له عزيمة تصرفه عما يؤمر به ؛ فهو إذا اعتاد الشىء ونشأ عليه — خيرا كان أو شرا — لم يكن ينتقل عنه : فإن عود من صباه المذاهب الجميلة والأفعال المحمودة بقى عليها ويزيد فيها إذا فهمها ، وإن أُهمل حتى يعتاد ما تميل إليه طبيعته مما جبل عليه ، أو عود أشياء رديئة ليست فى طبيعته ثم أُخذ بالأدب بعد غلبة تلك الأمور عليه — عسر انتقاله مع الذى يؤدبه ، ولم يكد

يفارق ما جرى عليه ؛ فإن أكثر الناس إنما يؤتون فى سوء مذاهبهم من عادات الصبا .

قال الحكيم المستعصمى فيما ينبغى أن يؤخذ به الطفل فى تربيته : يجنب النوم الكثير فإنه يقبحه ويغلظ ذهنه ويميت خاطره ، ويمنع من الفراش الوطىء وجميع أنواع الترفه حتى يصلب بدنه بتعود الخشونة،ويعود ألا يكذب ولا يحلف لا صادقا ولا كاذبا ،ويعود الصمت والكلام كلا فى موضعه ، ويمنع من خبيث الكلام وهجينه ولغوه ، ويعود حسن الكلام وجميل اللقاء وخدمة نفسه ومعلمه ومن هو أكبر منه،ويعود طاعة والديه ومعلميه ومؤدبيه وأن ينظر إليهم بعين الجلالة والتعظيم ويهابهم ، ويعود ضبط النفس عما تدعو إليه من اللذات القبيحة والفكر فيها .

وقال حكيم : إنى لأكثر التعجب ممن يعلم أولاده ذكر الحروب والضغائن ومن انتقم ووثب على صاحبه ، ولا يخطر بباله أن يعلمهم أمر المودة وأحاديث الألفة وما يحصل من الخيرات العامة لجميع الناس بالمحبة والأنس ، وأنه لا يستطيع أحد من الناس أن يعيش بغير المودة وإن تمت له الدنيا بجميع رغائبها .

وقال بعضهم : خليق بالآباء — وإن كانوا فى غنى أو جاه — أن يربوا أولادهم على مبدإ الاعتماد على النفس والاستقلال بأن يستعد فى حياة والديه للعمل لأن الحياة لا تقوم إلا بالحركة والسعى والعمل والتدبير وحسن السلوك لإصابة العلم والرزق والراحة والجاه ؛ فإن المستقبل صفوة الحياة ؛ ومتى نما فيهم هذا المبدأ المذكور رفضوا المعيشة الاتكالية التى هى أليفة الخمول والصغار ، وأصبحوا أولى جد ونشاط يجدون المسرات فى التعب والعناء . وعلى الآباء أيضا أن يعلموهم من اللغات ما استطاعوا إليه سبيلا فإنه يقال : كل لسان إنسان . ومن عرف لغتين فهو بمنزلة شخصين . ولاسيما فى هذا العصر الذى اتسع فيه مجال المعاملة

والعمل وكثر اختلاط الناس من أمم مختلفة .

ما يجب أن يكون عليه المرء في طلب العلم

من أهم ما يجب عليه أن يسترشد بمعلم خبير ناصح حكيم سمح بعلمه متأن فى تعليمه ، وأن يرغب فى العلم رغبة متحقق لفضائله واثق بمنافعه ، وأن يكون الباعث له طلب مرضاة مولاه والعمل بوصاياه ، وألا يطلبه لمراء أورياء ؛ فإن المرائى به مرذول لا يرتفع ، والممارى به منبوذ لا ينتفع ؛ وأن يبتدئ بأوائل العلوم ليتدرج إلى آخرها ، ومن لم يحسن البداية ، وتخيل مساواته بذوى النهاية كان ممن رضى بخداع نفسه ، وقنع بمداهنة حسه ؛ وألا يدعوه ما استصعب عليه إلى تركه فإن ذلك مطية المقصرين ، وأن يكثر من الاستذكار ليستفيد مالم يعلم ، ويحفظ ماعلم ، وألا يؤيسه تبلد ذهنه ، ونبو فطنته ؛ فإن الدأب يذلل الصعاب : ويدك الهضاب ، وألا يلهيه عن طلبه كثرة مال وجدة ، ولا نفوذ أمر ، وعلو منزلة ؛ فإن من نفذ أمره فهو إلى العلم أحوج ؛ وألا يمنعه كبر سنه ، وتقصيره فى صغره عن الجد فى إعلاء منزلته بالتعليم فى كبره ، وألا تصده شئون كسبه عن أخذ حظ منه ، وأن تكون سيرته الشخصية ملائمة لشرف العلم والدين ، وأن يحرص على كتابة كل مايسمعه من تحقيق فى بحث ، وحكمة فى تشريع ، ونكتة غريبة ، وقصة بديعة ، كما كان عليه السلف الصالح الذين خلدوا لهم بذلك ذكرا لا ينسى ، وأن يعتنى بإجادة خطه ونظامه ، وأن يصحب معه على المدى كناشة ليكتب فيها خواطره ونفيس مايسمعه من أى شخص كان ؛ فإن إهمال الفوائد خسران مبين ، والحكمة ضالة المؤمن يلتقطها حيث وجدها .

وعليه أن يكد فى النظار نفسه ، وأن يكثر فى المقروء درسه ، وألا يضجر من معاناة الحفظ ومراعاته .

ومن أهم ما يُوَصى به الثبات والصبر وعدم التقلب والتضجر ؛ وكل عمل

فى الوجود محتاج للثبات بنسبة مافيه من المشاق ، ومايحول دونه من العوائق التى لايزيلها إلا المثابرة عليه والثبات له ؛ فإن الدنيا ميدان تتسابق فيه الهمم ، وتتبارى عليه الأمم : فمن سبق فاز بالحسنى ، وكانت يده فى الوجود هى العليا ، ومن قصر باء بالخيبة وكانت يده هى السفلى ، وعاش عيشة الأذل الأدنى ؛ وإنما يُنالُ السبق بالثبات : تأمل ماحكي : من أن كسرى سئل : أى أولادك أحب إليك ؟ قال : أرغبهم فى الأدب ، وأجزعهم من العار ، وأنظرهم إلى الطبقة التى فوقه .

وما ألطف قول بديع الزمان فى نصيحته لابن أخته : أنت ولدى مادمت والعلم شانك ، والمدرسة مكانك ، والمحبرة حليفك ، والدفتر أليفك . فإن قصرت ولا إخالك فغيرى خالك والسلام .

وليحذر الانبساط مع معلمه وإن آنسه ، والإدلال عليه وإن تقدمت له صحبة ، وألا تدعوه جودة ذكائه إلى إعنات معلمه والازدراء به ، وألا يغلو فى تعظيمه غلوا يبعثه على قبول الشبه منه ، والتقليد فيما أخذ عنه ؛ حتى يرى قوله دليلا وإن لم يستدل ، واعتقاده حجة وإن لم يحتج ، ويفضى به إلى التسليم الأعمى ، بل لا بد من النقد بمحك النظر وقبول مارجحت صحته بميزان الحق ، وألا يستحى من السؤال فى موضعه إزالة لشكه ونفيا لشبهته .

وعلى الطالب أن يجلس فى محفل الدرس بوقار تام وأذن واعية وذهن حاضر ، وأن ينظر إلى الأستاذ حين إلقائه ، وينظر إلى الكتاب إذا قرأ منه الأستاذ ، وأن يتجنب الالتفات ساعة الإلقاء يمنة ويسرة ، وكذا محادثة أحد أو الإشارة إليه أو أمره بالتقدم أو التأخر ، وليهتم بشرح أستاذه وتفهمه حرصا أن ينفلت بغفلته شيء منه ، وأن يجتنب إجابة سائل للأستاذ قبله فإن المبادرة لذلك زلة كبرى ، وأن يصغى لمن سأل إصغاء تاما ، وأن يتجنب الهزء بمن زل فى سؤال فإن الأفهام تتباين ، وأن يحذر مسابقة الأستاذ فى إلقائه إذا سكت لتنفس أو تأمل ، وألا يضحك بلاداع

وألا يتغامز مع أحد ولا يمزح معه ، وألا يقوم لداخل إلا إذا قام الأستاذ أو أذن بذلك، ولا يشمت بمن زجره الأستاذ أو أنبه ، ولا يحقد عليه ، وأن يقفل باب الخصام والشحناء مع أخيه .

ما يجب على الطالب لإخوانه

ينبغى أن يعلم الطلبة أنهم إخوان حب واستفادة وخروج من ظلمة الجهل إلى نور العلم ، فليتراحموا وليتآلفوا ، ولا يتخالفوا . والأخوة فى العلم آكد من وشيج الرحم ؛ فليناضلوا عن صاحبهم بالمدافعة عنه وحفظ غيبته ، وعليهم أن يعرفوا للذكى والمحصل قدره .

وعلى الغنى من الطلبة أن يتفقد البائس من إخوانه ، وعليهم أن يسألوا عن الغائب فيعاد لمرض ويهنأ لفرح ، ويعزى لمصيبته ، ويشاطر فى الأسى ، ومن قعد عن ذلك فلا ثقة به، ومن تبين أنه فاسد الأخلاق والآداب وجب نبذه . ومن مخايل النجابة ودلائل التوفيق ـ ألا تكاد تبدر من الطالب بادرة إلا وهو يعض أنامله ندما على تفريطه فى جانب الأدب والعلم لما يشعر به من تأنيب ضميره قبل تأنيب أستاذه ، فتراه يحرص بعدها على أن يكون قدوة فى الطاعة والامتثال وحسن السيرة شعورا منه بأن وازع الأدب يزجره ويناقشه الحساب على كل ما يفرط منه .

وجدير بمن استشعر هذه الخلال ألا يمضى عليه ردح من الدهر حتى يصبح رجلا فى العزم والقول والعمل ، واقفا من أسرار الحياة على مالم يكن يعرفه ، ناشئا على أمتن الدعائم التى أسس عليها بناء الشريعة السمحة ، عاملا بما علمه من ثمار آدابها ، ولكل عصر حاجيات ، ولكل طور من أطوار الأمم النامية كماليات لابد من استيفائها كلما تدرجت الأمة فى معارج الارتقاء ، وجرت فى ميدان الفلاح والتقدم على السنة الفطرية التى تدور حول محور هذا الكون البديع النظام .

وعليه أن يعلم أن رفقاءه فى المحلة والمكتب والمدرسة هم أقرب الناس إليه بعد والديه وإخوانه وأقاربه ، ويراهم أكثر من غيرهم فوجب أن يعاشرهم بالمعروف ليدخل عليهم السرور برؤيته وتنشرح صدورهم من ملاقاته ، ويكلمهم بالمعروف ، ويقابلهم بالبشاشة واللطف ، ويساعدهم على دفع المضرة وجلب المنفعة بالطرق الحسنة ، ولا يقابلهم بمكروه ، ولا يتكلم فى حقهم بما يكدر الخاطر ، ولا يسلط عليهم مؤذيا ، ولا يصادق منهم سيئ الخلق قليل الأدب . ومن سابّه فلا يجبه إلا بالنصيحة والنهى عن السباب ، وإن لم ينته احترز من ملاقاته واستعان بإخوانه الكاملين على تهذيب أخلاقه ، ولا يطيل النزاع فإنه يجر إلى أقبح منه ، ولا يتعاظم على رفقائه ولا غيرهم ، ولا يخاطبهم بما يكرهونه أو بأمور خرافية غير معقولة ولا مقبولة لئلا ينفروا منه ، ولا يصح أن يخبر أحدا بما يقع فى بيته من أبيه أو أمه أو أحد إخوانه لئلا يكون خائنا لا يكتم السر فيستخف بعقله ويهزأ به ، ولا يصرف أوقاته مع رفقائه إلا فيما يعود على نفسه وعليهم بالمنفعة ، ولا يترك درسه أو قضاء مصلحته لأجل أن يسر رفقاءه .

وينبغى ألّا يكون الطالب عبوس الوجه بادى الكمد والنكد؛ فإن هذا يضره وينفر الناس عن معاشرته ومصافاته ، ويجعله ثقيلا على القلوب مكروها فى النفوس؛ والخروج عن الاعتدال مذموم فى كل شىء ، بل ينبغى أن يكون باش الوجه ظاهر النشاط والانبساط ، وعليه أن يكون نظيف الوجه والعينين واليدين وسائر البدن والثياب فإن الوسخ بغيض للناس تسرع إليه الأمراض وضيق النفس .

ولا ينبغى أن يطأطئ رأسه ويثنى رقبته فى مشيه أو قعوده كالذليل الجبان ، بل يستعمل النشاط والهمة فى جميع الأفعال

مايجب أن يكونه الروح المدرسى

تعنى المدارس بوضع أنواع المكافأة للمجتهدين من طلبتها فى مقابلة إحسانهم رغبة فى حملهم على النشاط والمثابرة على العمل ، وفى إحداث الغيرة فى نفوسهم؛ لان المتعلم المجتهد حريص على الارتقاء ، ومن طبعه مقارنة نفسه بغيره : فمن المكافآت ترفيع الأماكن والاشادة بالامتيازات المدرسية ، وإهداء تحف وقطع أدبية ، والمدح والثناء إلا أنه ليس من الرأى الاكثار منه؛ حتى يكون له وقع فى النفوس . وهذا مرجعه حكمة المعلم وعقله

وكما دعت الضرورة إلى وضع أنواع للمكافأة الحسنة ـ كما قدمنا ـ كذلك قضت الضرورة بوضع أنواع للمجازاة على الاساءة حذر الوقوع فى مخالفة القوانين المدرسية : فمنها اللوم والتعزير والمنع من الفسح والرياضة وعمل واجبات منزلية إذا كان سبب العقاب إهمال التلميذ دروسه . وآخر العقوبات الطرد ، ولا يصار إليه إلا إذا لم يفد غيره .

ويجب على المعلم أن يكون حكيما فى مجازاته مهذبا فى عباراته ، مجانبا لفحش الكلام وبذاءته فى الزجر ؛ فإن لذلك أضرارا منها : اعتياد التلميذ حفظها فيشيب على ماشب عليه ،

ومنها تأريث الغل والحقد فى نفسه إذا توالى على سمعه الحط من كرامته أو كرامة أهله والمبالغة فى احتقاره وازدرائه .

ومنها انقباض نفسه عند رؤية المعلم والاجتماع به مما يدعو إلى الخيبة وعدم النجاح بسبب عدم الاستفادة منه ؛ إذ هو الذى صرف ميوله عنه ، وكره إليه طلعته وسماع صوته

وقد أجمع علماء التربية على أن استعمال العقوبات البدنية ضرورى فى بعض الأحوال : أى فيما إذا ارتكب التلميذ ما ينافى الآداب والسلوك الحسن ، أما

فى مثل انتهاك حرمة قانون من قوانين النظام المدرسى فإنه يكتفى بغير ذلك من أنواع العقوبات ، ويكفى فى تقدير العقوبة حزم المؤدب وتبصره ، ومن المعلوم أن تكرار العقوبات البدنية تدعو إلى التنافر بين المعلم والمتعلم مما لا يرجى معه نجاح ولا فلاح ؛ لأن المتعلم متى انقبضت نفسه عن معلمه انقبضت نفسه عن كل شىء يلقيه إليه ذلك المعلم أو يسمعه منه

ما يجب أن يكون عليه المعلم

« ا » المعلم وهو الأستاذ والمؤدب والمربى — إنسان أكملته التربية، يحاول أن ينقل صورته ونظام أحواله إلى غيره ليكون خلفا منه ، فلم يمنح حق سياسة التهذيب لإظهار جلاله والرغبة فى تعظيمه ، ولكن ليدبر شئون تلاميذه ، ويبحث عن الطرق المهمة لإفادتهم ؛ فمن أهم واجباته التواضع ومجانبة العجب ؛ فإن التواضع عطوف ، والعجب منفر ؛ وأن يدع التكلف لما لا يحسن ، وألا يستنكف من تعلم ما ليس يعرفه ، وأن يستقل ما أوتيه ليستزيد ، وألا يتصنع بما أدرك ، وألا يجهل من نفسه مبلغ علمها ، ولا يتجاوز بها قدر حقها ، وأن يكون من شيمته العمل بعلمه وحث النفس على أن تأتمر بما يأمر به ، وأن يكون فى مشيه وسكونه وإشارته بالتحية وفى منظره إذا تبسم ، وفى منطقه إذا تكلم — ما يشير إلى وقاره وكمال عقله وحسن خلقه ، لاسيما فى المجامع والمحافل ؛ وألا يبخل بتعليم ما يحسن ، ولا يمتنع من إفادة ما يعلم ؛ فإن البخل به لؤم وظلم ، والمنع منه حسد وإثم ، وفى التعليم زيادة العلم وإتقان الحفظ ؛ وأن ينقب طوال حياته عن أهم المؤلفات وأقربها فائدة وأبدعها أسلوبا ، وأن ينظر فى شئون تلامذته ، ويمهد لهم سبيل المجد والارتقاء وأن يكون لهم مثال العقل ونموذج الوقار والصلاح ، وأن ينصح لهم ويرفق بهم ، ويبذل المجهود فى رفدهم ومعونتهم ، وألا يحتقر ناشئا ، ولا يتصغر مبتدئا ، وأن يوجه ذهن الطالب إلى تعقل المسائل وفهم المعانى ومن أقرب الوجوه متجنبا الاحتمالات البعيدة وتكلف التعسفات

الممقوتة ، وأن يحضر درسه قبل إلقائه ، فيراجع مايحتاج إلى مراجعته من الكتب لتصحيح ألفاظ وتحقيق بحث ، وألا يأتى للطلبة فى أثناء الدرس بما يهوش الفهم ، فلا يغرب بالإكثار من الاعتراضات اللفظية والجواب عنها بالاحتمالات فإن ذلك مضيعة للأوقات ، وألا يخلط مسائل علم بمسائل علم آخر إلا ماجاء عرضا وتوقف عليه فهم المقام ،وأن يمرنهم على المناقشة فيما يصل بهم إلى المطلوب فليس بنافع أن يلقن المعلم الطلبة ما يريد من الأحكام والمسائل ليحفظوها عن ظهر قلب ، بل يستمر معهم فى أخذ ورد وبحث وتمثيل حتى يصل بهم إلى ما يريد، وأن يعودهم أيضا القدرة على التعبير عما يدركونه بعد إيضاح الموضوع لهم إيضاحا تاما ، وأن يمرنهم على إثبات الشىء بالبرهان الصحيح الثابت الذى لا يقبل النقص لتجرى فى نفوسهم حركة المعقولات ، ويحيي فيهم قوة التأمل والتعقل ، حتى تصير ملكة راسخة ، وأن يقتلع جذور التعصب من قلوب المتعلمين ، ويحبب إليهم الإنصاف ، فإن التعب يسبب تفريق الناس بعضهم عن بعض ويحجب العقول عن الحق ، والإنصاف راحة لأنه يرفع الخلاف ، ويوجب الائتلاف .

(ب) المعلم كما يراه الغزالى :

قال الغزالى : اعلم أن للإنسان فى علمه أربعة أحوال كحاله فى اقتناء الأموال؛ إذ لصاحب المال حال استفادة فيكون مكتسبا ، وحال ادخار فيكون غنيا عن السؤال ، وحال إنفاق على نفسه فيكون منتفعا ، وحال بذل لغيره فيكون به سخيا متفضلا ، وهى أشرف أحواله .

فكذلك العلم يقتنى كما يقتنى المال : فله حال طلب واكتساب ،وحال تحصيل يغنى عن السؤال ، وحال استبصار وهو التفكر فى المحصل والتمتع به ، وحال تبصير وهو أشرف الأحوال :

فمن علم وعمل وعلّم فهو الذى يدعى عظيما ؛ فإنه كالشمس تضىء لغيرها

وهى مضيئة فى نفسها ، وكالمسك الذى يطيّب غيره وهو طيب .

والذى يعلم ولا يعمل به كالدفتر الذى يفيد غيره، وهو خال عن العلم ، وذبالة المصباح تضىء لغيرها وهى تحترق كما قيل :

ما هو إلا ذبالة وقدت تضيء للناس وهى تحترق

ومن اشتغل بالتعليم فقد تقلد أمرا عظيما ، وخطرا جسيما فليحفظ شرائطه :

الشرط الأول : الشفقة على المتعلمين ، وأن يُجْرِيَهُم مجرى بنيه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ مِثْلُ الْوَالِدِ لِوَلَدِهِ » البخارى: فيقصد إنقاذهم من نار الآخرة ، وهو أهم من إنقاذ الوالدين ولدهما من نار الدنيا ، ولذلك صار حق المعلم أعظم من حق الوالدين ؛ فإن الوالد سبب الوجود الحاضر والحياة الفانية ، والمعلمَ سببُ الحياة الباقية ، ولولا المعلم لانساق ماحصل من جهة الأب إلى الهلاك الدائم ، وإنما المعلم هو المفيد للحياة الأخروية الدائمة إذا علّم علوم الآخرة أو علوم الدنيا على قصد الآخرة ، وإلا فهو هلاك وإهلاك نعوذ بالله منه . والذين يطلبون الرياسة بالعلوم خارجون عن موجب قوله تعالى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » وداخلون فى مقتضى قوله تعالى : « الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ »

الشرط الثانى : أن يقتدى بصاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه : فلا يرى لنفسه على المتعلمين منة وإن كانت المنّة لازمة عليهم .

الشرط الثالث : ألا يدع من نصح المتعلم شيئا : وذلك بأن يمنعه من التصدى لرتبة قبل استحقاقها والتشاغل بعلم خفى قبل الفراغ من الجلى ، ثم ينبهه على أن الغرض من طلب العلم القرب من الله دون الرياسة والمباهاة والمنافسة ، وأن يقبح ذلك فى نفسه بأقصى ما يمكن ؛ فليس ما يصلحه العالم الفاجر بأكثر مما يفسده ،

فإذا تعلم الطالب وقصده الدنيا فلا بأس أن يتركه ؛ فإنه يثمر له طمعا في الوعظ .

الشرط الرابع : وهو من دقائق صناعة التعليم أن يزجر المعلم المتعلم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ما أمكن ولا يصرح ، وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ ؛ فإن التصريح يهتك حجاب الهيبة ، ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف ويهيج الحرص على الإصرار : إذ قال صلى الله عليه وسلم وهو مرشد كل متعلم : « لَوْ مُنِعَ النَّاسُ عَنْ فَتِّ البَعْرِ لَفَتُّوهُ وَقَالُوا مَا نُهِينَا عَنْهُ إلاَّ وَفِيهِ شَيءٌ » البخاري، ولأن التعريض أيضا يميل النفوس الفاضلة والأذهان الذكية إلى استنباط معانيه، فيفيد فرح التفطن لمعناه رغبة فى العلم به ليعلم أن ذلك مما لا يعزب عن فطنته .

الشرط الخامس : إن المتكفل ببعض العلوم ينبغى ألا يقبّح فى نفس المتعلم العلوم التى وراءه : كمعلم اللغة إذ عادته تقبيح علم الفقه ، ومعلم الفقه عادته تقبيح علم الحديث والتفسير ؛ فهذه أخلاق مذمومة للمعلمين ينبغى أن تجتنب ، بل المتكفل بعلم واحد ينبغى أن يوسع على المتعلم طريق التعلم فى غيره ، والمتكفل بعلوم ينبغى أن يراعى التدريج فى ترقية المتعلم من رتبة إلى رتبة .

الشرط السادس : أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه ، فلا يلقى إليه مالا يبلغه عقله ، فينفره أو يخبط عليه عقله اقتداء فى ذلك بسيد البشر صلى الله عليه وسلم حيث قال : « نحنُ مَعَاشِرَ الأنبِيَاءِ أُمِرْنا أَنْ نُنْزِلَ النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ ونُكَلِّمَهُمْ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ » البخارى . فليبثُّ إليه الحقيقة إذا علم أنه يستقل بفهمها . وقال صلى الله عليه وسلم : « مَا أَحَدٌ يُحَدِّثُ قَوْماً بِحَدِيثٍ لاَ تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ إلاَّ كَانَ فِتْنَةً عَلَى بَعْضِهِمْ » وقال على رضى الله عنه وأشار إلى صدره : « إن ههنا لعلوما جمة لو وجدت لها حَمَلَة » وصدق رضى الله عنه ؛ فقلوب الأبرار قبور الأسرار ؛ فلا ينبغى أن يفشى العالم

كل مايعلم إلى كل أحد . هـذا إذا كان يفهمه المتعلم ولم يكن أهلا للانتفاع به فكيف فيما لا يفهمه ؛ ولذلك قيل : « كِلْ لكل عبد بمعيار عقله ، وزن له بميزان فهمه ؛ حتى تسلم منه وينتفع بك ، وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار » .
وسئل بعض العلماء عن شئ فلم يجب فقال السائل : أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ كَتَمَ عِلْمًا نَافِعًا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُلْجَمًا بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ » فقال : أترك اللجام وأذهب ؟ فإن جاء من يفقه وكتمته فليلجمنى ؛ فقد قال تعالى : (وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ) تنبيها على أن حفظ العلم ممن يفسده ويضره أولى وليس الظلم فى إعطاء غير المستحق بأقل من الظلم فى منع المستحقين .

الشرط السابع : إن المتعلم القاصر ينبغى أن يلقى إليه الجلى اللائق به ، ولا يذكر له أن وراء هـذا تدقيقا وهو يدخره عنه؛ فإن ذلك يفتر رغبته فى الجلى ، ويهوش عليه قلبه ، ويوهم إليه البخل به عنه ؛ إذ يظن كل أحد أنه أهل لكل علم رقيق ؛ فما من أحد إلا وهو راض عن الله سبحانه فى كمال عقله . وأشدهم حماقة وأضعفهم عقلا هو أفرحهم بكمال عقله ، وبهذا يعلم أن من تقيد من العوام بقيد الشرع ورسخت فى نفسه العقائد المأثورة عن السلف من غير تشبيه ولا تأويل وحسنت مع ذلك سريرته ، ولم يحتمل عقله أكثر من ذلك — فلا ينبغى أن يهوش عليه اعتقاده ، بل ينبغى أن يخلى وحرفته؛ فإنه لو ذكر له تأويلات الظاهر انحل عنه قيد العوام ، ولم يتيسر قيده بقيد الخواص ، فيرتفع عنه السد الذى بينه وبين المعاصى ، وينقلب شيطانا مريدا يهلك نفسه وغيره .

وعلى الجملة يجب أن يقتصر مع العوام على تعليم العبادات ، وتعليم الأمانة فى الصناعات التى هم بصددها ، ويملأ قلوبهم من الرغبة فى الجنة والرهبة من النار كما نطق به القرآن ، وينبغى ألا يفتح للعوام باب البحث فإنه يعطل عليهم صناعاتهم التى بها قوام الخلق ودوام عيش الخواص .

الشرط الثامن: أن يكون المعلم عاملا بعلمه فلا يكذب قوله فعله ، لأن العلم يدرك بالبصائر ، والعمل يدرك بالأبصار ، وأرباب الأبصار أكثر؛ فإذا خالف العمل العلم منع الرشد ، وكل من تناول شيئا وقال للناس لاتتناولوه فإنه سم مهلك سخر الناس به واتهموه ، وزاد حرصهم على مانهوا عنه ، فيقولون : لولا أنه أطيب الأشياء وألذها ما كان يستأثر به .

ومثل المسترشدين من المعلّم المرشد مثل الظل من العود ، ومتى استقام الظل والعود أعوج ؟ . وقد قيل :

لاتنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

وقال الله تعالى : « أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ » ولذا كان وزر العالم فى معاصيه أكبر من وزر الجاهل ، إذ يزل بزلته عالم كثير ويقتدون به ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها ، ولذلك قال على رضى الله عنه: قصم ظهرى رجلان : عالم متهتك ، وجاهل متنسك ؛ فالجاهل يغر الناس بتنسكه ، والعالم يغرهم بتهتكه . والله أعلم

العالم الذى نوه الدين بذكره وخطأ الناس فى ذلك

(١) يعتقد كثير من أهل العلم أنه ممن وردت فيه الآيات والأحاديث اغترارا بما معه من شهادة ماأنزل الله بها من سلطان أو تصنيف فى الفقه أو النحو أو البلاغة أو الأصول أو نحو ذلك جاهلا أنماافتخر به من ذلك قد يوجد فى

(١) هذا المقال لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ يوسف الدجوى وقد نشرته مجلة نور الإسلام فى الجزء الثانى من المجلد الأول : صفر سنة ١٣٥١ هجرية .

غير المسلمين ، وها هى ذى كتب مدارسهم التى ألفها آباؤهم وعلماؤهم ، يشهدلها لهـا الناظر ويعترف بفضلها المنصف ، وما تسمعه عن مستشرقى أوروبة أعجب وأغرب ، فهم شركاؤك فيما علمت ، فلابد أن يكونوا شركاءك فى خاصة ذلك العلم ، وإلا وجد الشىء بدون خاصته وهو محال . فإذا يجب أن يكون سر تفضيل العالم والثناء عليه من الله ورسوله راجعا إلى شىء آخر ، وأن تكون هذه العلوم التى ترفعنا بها على الجهلاء ، وامتلأنا بها عجبا وكبرا وغرورا ، وزالت بها سلامة فطرتنا ، وطهارة قلوبنا ، بمـا أورثتنا من الصفات المهلكة — أشبه شىء بالصنائع لتى يتعلمها المسلم واليهودى والنصرانى ، ولايرجع بها الفاسق عن فسقه ، ولا يتميز بها عن بنى نوعه إلا على قدر مايتميز العالم بصنعة من الصنائع على الجاهل بها .

نعم يجب أن يكون سر التفضيل أمراً وراء ذلك كله ، وهو الذى جعل العلماء ورثة الأنبياء ، وجعل خشية الله خاصة من خواصهم: «إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ » وجعل مجلسا واحدا من مجالس العلم خيرا من عبادة ستين سنة ، ذلك العلم الذى يبلغ بك تلك الغاية ، ويحلك تلك المنزلة الرفيعة ، ومن أجله احترمك الجهلاء ، وعظمك الكبراء معتقدين أنك عرفت مالم يعرفوه ، ووصلت إلى مالم يصلوا إليه ؟ والقلوب الإنسانية تحس بشرف العلم الأعلى ومكانة ذويه ، وتجل الروحانيين الربانيين إجلالها للملائكة المقربين ، وتنظر إليهم نظر أهل الأرض لأهل السماء على موجب ذلك الإحساس الذى لايكاد يخلو منه إنسان فيه روح الإنسانية — ذلك العلم — يجل عن أن يكون هو العلم بأحكام الفاعل والمفعول ، والتصغير والتكسير ، والمسند والمسند إليه ، والحقيقة والمجاز ، وتناقض الموجبات وأحكام المختلفات ، وفروع الطلاق ، والبيع والجنايات ، إلى آخر ما اشرأبت به الأعناق ، وعظم فيه السباق ، وتبجحت به النفوس ، وارتفعت به الرءوس ؟ بل يجب أن يكون هو العلم بجلال الله تعالى وعظمته وبديع آياته ،

وعظيم أسراره فى خلقه ، مع معرفة خفايا النفوس ، ودقائق مكرها وتلبيسها وكثرة دسائسها وسرعة طيرانها نحو شهواتها ، فتراهم يتهمونها فى كل شىء ، ويعاملونها معاملة العدو المحتال باحثين وراءها فى كل ماتشير به ، خائفين من أن يكون لها فيه هوى دفين ، وشهوة خفية ، مجاهدين لها ماعاشوا ، ذائقين لقوله تعالى : (وَمَا أُبَرِّئُ نَفسى إنَّ النَّفسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ) قائلين : (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر) (أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك) وجلين من أن يكونوا ممن اتخذ إلهه هواه ، وأضله الله على علم ، فكانوا ممن عرفوا نفوسهم فعرفوا ربهم فامتثلوا قوله تعالى : (وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ) فعزلوها عن منصب الرياسة ، فتخلصوا من غوائلها كلها ، فلم يتحركوا إلا لله ، ولم يسكنوا إلا لله ، ولم ينطقوا إلا لله ، ولم يسكتوا إلا لله ، متحققين أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم ، فصبروا على بلائه ، وشكروا على نعمائه ، بل رضوا بقضائه ؛ وسارعوا إلى رضاه ، فلم يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضى وقدر ، بل سلموا له تسليما شأن العبد الصادق فى العبودية مع مولاه ، فرقين أن يندرجوا فى سلك من قال الله فيهم : (وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقتُلُوا أَنفُسَكُمْ أو اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ) سائرين فى الدنيا على قدم الأنبياء ، يتجرعون فى سبيل الحق شدة الأذى كاظمين غيظهم ، صابرين على ماأصابهم ، بل عافين عن الناس محسنين إليهم مشفقين عليهم على نهج من قال الله تعالى فى وصفه الكريم : (حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا) زاهدين فى الدنيا راغبين فى الآخرة ، مقبلين على الله تعالى بكليتهم ، داعين إليه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، عالمين أنها محل المحن ، ودار الفتن ، فلا يحبونها إلا على نحو مارسم الشرع لهم ، مشفقين من قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ

الغَرُورُ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ) مستبصرين فيها بما بصرهم سيدهم ، موقنين بما وعدهم من نعيم وملك عظيم ، عالمين أنها سريعة الفناء ، وشيكة الانقضاء يرون قريبا مايراه الناس بعيدا :

أرى الموت يغتال النفوس ولا أري بعيدا غدا ما أقرب اليوم من غد

(إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ) مقتفين أثر من قيل له : (وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى) واصلين إلى روح قوله تعالى : (سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ) ، (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى الْخَيْرَاتِ بَلْ لاَ يَشْعُرُونَ) محبين للمرشد الأعظم والنبى الأكرم الذى هداهم الصراط المستقيم ، وأخرجهم من الظلمات إلى النور محبة تزيد على محبة الوالد لولده ، والولد لوالده ، متحققين بما جاء فى حديث البخارى من قوله صلى الله عليه وسلم : (وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) وماورد فى حديث البخارى : (لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ) فوصلوا بذلك إلى روح اليقين ، حتى صارت مظانُّ ثوابه ومواقعُ مرضاته تعالى مما تنشرح له صدورهم ، وتلتذ به نفوسهم عالمين أنهم لا يبلغون درجة الكمال ، وينتفى عنهم الحرج

والمشقة ، ويصلون إلى محل الأمن إلا إذا تخلل ذلك جميع أجزائهم ، ورسخ فى كل ذراتهم ، فيميلون إليه ميلا طبعيا يتقاضى منهم المسارعة إليه والعكوف عليه ؛ إذ هو محل الأنس ، وحضرة القدس ، مجتلين فى تلك الحضرات من عرائس الجمال الإلهى ما يفوق كل نعيم ، ويحتقر معه كل لذة سواه حتى قال قائلهم : نحن فى لذة لو علمها الملوك لقاتلونا عليها بالسيوف . فكادوا يهيمون بما يشاهدون من سبحات هذا الجمال ، ويذوبون عند مايوغلون فى سرادقات ذلك الجلال ، مد هو شين مما يذقونه فى تلك الحضرات من مناجاة لهامات ، وملاطفات ، وأنوار ، وأسرار ؛ فكانوا من قوم : (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةً عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةً عَلَى الْكَافِرِينَ) يتيهون على ملوك الدنيا استغناء وعزة على حين أنهم يتواضعون للفقراء ، ويخضعون للضعفاء ، ولكن أبى لهم مقامهم الذى يعرفونه من أنفسهم ، وعزتهم التى يحسون بها من أعماق قلوبهم أن يتواضعوا لأهل العظمة والكبرياء وقد قال تعالى : (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ) إلى آخر مايطول شرحه ، ولا يمكننا الآن أن نأتى عليه

وبالجملة فقد اتصفوا بكل فضيلة ، وتخلصوا من كل رذيلة ، وأدركوا من شريف الأحوال ورفيع المقامات مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فكانوا بذلك ورثة الرسل وقادة الأمم ، ودواء العلل ، وكواكب الظلمات ، وسرج المشكلات ؛ بهم تنحل العقد ، وتنفرج الكرب : « وراثة نبوية وخلافة إلهية » : ولذلك كانوا مرجع الأمراء والكبراء حتى قال القائل قديما :

إن الأكابر يحكمون على الورى وعلى الأكابر تحكم العلماء

وقد قالوا : إن الأمة تفسد بفساد الأمراء ، والأمراء يفسدون بفساد العلماء ، فانظر أين أنت من تلك المقامات ، وإلى أى حد وصلت من البعد عن

تلك الصفات ، أيها المتبجح بعلمك؛ المترفع على بنى نوعك ، الغافل عن كون الانسان لايزال متعلما ، طالبا من العلم ما يكون وراء ماعلم ، وكلما ازداد منه ريًّا ازداد عطشا ، وكلما زاد فضله بان له جهله : وقد قال تعالى لأعلم العلماء وأعظم العظماء : (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا) وقال : (وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ) وقال : (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) وإن العالم حقا ليستحى من الله أن يتبجح بعلمه ، وهو يعلم أنه جعله محل الضعف والجهل والنقص والغفلة والنسيان ، ويرى أن العلم أمامه متسع الفجاج متلاطم الأمواج، وهو بساحله يرجو أن يتطاير عليه من بحره رشاش ينقع به مزيد غلته ، ويشفى به بعض علته ؛ وإن لم يعرف ذلك فهو من الجهلاء لا من العلماء .

انظر إلى ذلك كله ثم قل لى بعينك: هل أحببت النبى صلى الله عليه وسلم حبا وجدانيا يزيد على محبتك للناس أجمعين ؟ وهل صار هواك تبعا لما جاء به ؟ بل هل سعيت إلى ذلك سعيه يوما من الأيام وآلمك من أجله ضميرك وعاتبتك عليه نفسك ؟ أم هل أحسست بحب الله تعالى من أعماق قلبك حبا يهون عليك قضاءه ويخفف عنك بلاءه ؟ أم هل صدقت فى بيع نفسك لله تعالى وقد جعل ذلك من صفات المؤمنين فضلا عن العلماء منهم ؟ فخلصت أعمالك من الأغراض والشوائب حتى صارت كلها لله ، فلم تتكالب على أمورك الشخصية ، ولم تتهالك على شهواتك النفسية ، ولم تذل لأهل الدنيا ذل العبيد ، ولم تنافق لهم نفاق صغار النفوس لئام الطباع ، وهل ذقت لعزة المؤمنين طعما ؟ أو عرفت لها معنى ؟ وهل أنت ممن قال الله فيهم :(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) أو ممن قال فيهم : (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) وهل أنت ممن يحب لأخيه مايحب لنفسه ؟ وهل أنت ممن يقول لأخيه عندما يقابله : (اجلس بنا ساعة نؤمن) : كما كان يقول ذلك أصحاب النبى صلى الله

عليه وسلم بعضهم لبعض؟ وهل أنت ممن: (إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيًّا) ؟ وهل؛ وهل الخ

أم أنت ممن أخلد إلى الأرض واتبع هواه ، وقد أحاط به الشره ، واستعبده حب الدنيا ، فليس يهمه إلا شيء يعود عليه ، ودرهم يصل إليه ، ففاتته عزة العلماء ، وثروة الأغنياء ، فهو لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، وهو بالجهلاء أشبه منه بالعلماء ؟ نعم يوشك أن تكون من العلماء الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أَوَّلُ مَنْ تَسْعَرُ بِهِ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَالِمٌ لَمْ يَعْمَلْ بِعِلْمِهِ فَيُطِيفُ بِهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ لَهُ مَا لَكَ وَقَدْ كُنْتَ تَأْمُرُنَا وَتَنْهَانَا ؟ فَيَقُولُ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ وَأَنْهَاكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ). كما يوشك أن تكون ممن قال الله فيهم : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ) وقد أوحى الله إلى بعض أنبيائه : (قُلْ لِعُلَمَاءِ السُّوءِ: أَلْسِنَتُكُمْ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ ، وَقُلُوبُكُمْ أَمَرُّ مِنَ الصَّبْرِ ، فَبِي يَسْتَهْزِئُونَ ، وَإِيَّايَ يُخَادِعُونَ ، فَوَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَأُتِيحَنَّ لَهُمُ الْفِتْنَةَ مَا يَدَعُ الْحَلِيمَ حَيْرَانَ) وفي الأثر لا تجالسوا من العلماء إلا من يأخذ بكم عن محبة الدنيا إلى محبة الله ، وعن الكبر إلى التواضع ، وعن التباغض إلى التحاب) ولا قدر للدنيا حتى تبتاع بها السعادة الأبدية ؛ وقد قال بعض الملوك عند ما حضرته الوفاة: كنت أظن أني ملكت كل شيء ، فإذا كل شيء لا شيء . وقال بعض الحكماء : أعظم الناس ندامة صانع المعروف عند من لا يشكره ، وعالم فرط في علمه فلم يعمل به حتي حضره الموت .

وقد سقت لك ذلك عسى أن يحرك مني ومنك شوقا إلى العمل بالعلم وندما على ذلك العمر العزيز ، وخوفا من أن يخاطبنا الله عزوجل يوم القيامة بقوله :

(أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) ورجاء أن نكون مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا

ما يجب فى الصديق

حقيقة الصديق :

قيل للهاشم أبى على : من تحب أن يكون صديقك ؟ قال : من يطعمنى إذا جعت ، ويكسونى إذا عريت ، ويحملنى إذا كَلَلْتُ ، ويغفر لى إذا زللت .

وقيل للبنوى : من تحب أن يكون صديقك ؟ قال : من يُقيلنى إذا عثرت ، ويقومنى إذا ازوررت ، ويهدينى إذا ضللت ، ويصبر على إذا مللت ، ويكفينى مالا أعلم وما علمت .

وسُمع أبو عامر النجدى يقول : الصديق من صدقك عن نفسك لتكون على بينة من أمرك ، ويصدقك أيضا عنه لتكون على بينة منه ؛ لأنكما تقتسمان أحوالكما بالأخذ والعطاء ، فى السراء والضراء ، والشدة والرخاء ؛ فليس لكما فرحة ولا ترحة إلا وأنتما تحتاجان فيهما إلى الصدق

خير أسس الصداقة

وخير أسس الصداقة التقوى والثقة : قال ابن الجَلَّاء الزاهد لأصحابه: اطلبوا خلق الناس فى هذه الدنيا بالتقوى تنفعكم فى الدار الأخرى ؛ ألم تسمعوا قوله تعالى : (الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ) وتوفى ابن ليونس بن عبيد فقيل له : إن ابن عون لم يأتك . فقال : إنا إذا وثقنا بمودة أحد لا يضرنا ألا يأتينا . وقال العروضى : لما عاد السلطان على بن عيسى من مكة تلقاه قوم من بغداد إلى زبالة ، وإلى ما فوقها ودونها . فلما قرت به الدار بمدينة السلام أتاه قوم كانوا بها لم يتجشموا لقاءه . فقال : كم

من إنسان قعد لم يرِمْ مجلسه حتى وافيناه فكان أنْوَط بقلوبنا ، وأسكن فى أسرارنا من قوم تجشموا المسير إلى زيالة ؟ ألا إن المودة هى الأصل ، والصداقة هى الركن ، والثقة هى الأساس ، وما عدا ذلك فمحمول عليه ومردود إليه !

وقال يحيى بن أكثم : كنت أرى شيخا يدخل على المأمون فى السنة مرة ، وكان يخلو به خلوة طويلة ، ثم ينصرف فلا نسمع له خبرا ، ولانرعى له أثرا ، ولا نقدم على المسألة عنه . فلما توفى قال لنا المأمون : وا أسفاه على صديق مسكون إليه ، موثوق به ، يُلقى إليه العجر والبجر وتُقتبس منه الفوائد والغرر . قلنا : ومن ذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : أما كنت ترى شيخا يأتينا فى الفرْط (١) ونخلو به من دون الناس ؟ قلت : بلى . قال : قد تأخر عن إبانه ، وأظنه قد قضى. قلت : الله يمد فى عمر أمير المؤمنين ، ومافى ذاك ؟ قال : كان صديقى بخراسان ، وكنت أستريح إليه استراحة المكروب ، وأجد به ما يوجد بالولد السار المحبوب ، ولقد كنت أستمد منه رأيا أقوّم به أود المملكة ، وأصل به إلى رضا الله فى سياسة الرعية ، وآخر ماقاله لى عند وداعه أن قال : يا أمير المؤمنين ، إذا استشنّ (٢) ما بينك وبين الله تعالى فابلله . قلت : بماذا يا صاحب الخير ؟ قال : بالاقتداء به فى الإحسان إلى عباده : كما تحب الإحسان إلى ولدك من حاشيتك ؛ والله ما أعطاك القدرة عليهم إلا لتصبر على الإحسان إليهم بالشكر على حسناتهم والتغمد لسيئاتهم ؛ من لى يا يحيى بمثل هذا القائل ؟ وأنى لى بمن يذكرنى ما أنا إليه صائر ؟

وقال يحيى بن معاذ : بئس الصديق صديق تحتاج معه إلى المداراة . قيل لأبى سليمان : ما الفرق بين الصداقة والعلاقة ؟ قال :

الصداقة أذهب فى مسالك العقل ، وأدخل فى باب المروءة ، وأبعد من نوازى

(١) لا ألقاه إلا فى الفرط أى فى الأيام مرة (٢) أخلق ووهى

الشهوة ، وأنزه عن آثار الطبيعة ، وأشبه بذوى الشيب والكهولة ، وأرمى إلى حدود الرشاد ، وآخذ بأسباب السداد ، وأبعد من عوارض الغرارة والحداثة .

فأما العلاقة فهى من قبيل العشق والمحبة ، والكلف والشغف والتيم والتهيم ، والهوى والصبابة ، والتدانف والتشاجى ؛ وهذه كلها أمراض أو كالأمراض تصيب النفس الضعيفة وتجانس الميل الطبعى ، وليس للعقل فيها ظل ولا شخص ؛ ولهذا تسرع هذه الأعراض إلى الشباب من الذكران والاءناث ، وتنال منهم ، وتملكهم ، وتحول بينهم وبين أنوار العقول ، وآداب النفوس ، وفضائل الأخلاق ، وفوائد التجارب ؛ ولهذا وأشباهه يحتاجون إلى الزواجر والمواعظ ليفيئوا إلى ما فقدوه من اعتدال المزاج ، والطريق الوسط

خير خلال الصديق

أمهات الخلال فى الصديق أربع خصال :

الأولى : عقل موفور يهدى إلى مراشد الأمور؛ فإن الحمق لا تثبت معه مودة ، ولا تدوم لصاحبه استقامة ، وفى ذلك يقول النبى صلى الله عليه وسلم : (الْبَذَاءُ لُؤْمٌ وَصُحْبَةُ الأَحْمَقِ شُؤْمٌ) ويقول بعض الحكماء : عداوة العاقل أقل ضررا من مودة الأحمق ؛ لأن الأحمق ربما ضر وهو يقدر أن ينفع ، والعاقل لا يتجاوز الحد فى مضرته ؛ فمضرته لها حد يقف عليه العقل ، ومضرة الجاهل ليست بذات حد ، والمحدود أقل ضررا مما هو غير محدود : قال المسيب بن زهير : (مادة العقل مجالسة العقلاء) وقال بعض البلغاء : (من الجهل صحبة ذوى الجهل) وقال بعض الأدباء : من أشار عليك باصطناع جاهل أو عاجز لم يخل أن يكون صديقا جاهلا ، أو عدوا عاقلا ؛ لأنه يشير بما يضرك ، ويحتال فيما يضع منك

الثانية : الدين الواقف بصاحبه على الخيرات ؛ فإن تارك الدين عدو لنفسه

فكيف يرجى منه مودة غيره ؟ وإلى هذا يشير بعض الحكماء إذ يقول :اصطف من الإخوان ذا الدين والحسب والرأى والأدب؛ فإنه رده لك عند حاجتك ، ويد عند نائبتك ، وأنس عند وحشتك ، وزين عند عافيتك . وقال حسان بن ثابت رضى الله عنه :

وكل أخ يقــول أنا وفى ولــكن ليس يفعل مايقول
سوى خل لهحسب ودين فذاك لمــا يقول هو الفعول

الثالثة : أن يكون محمود الأخلاق ، مرضى الفعال ، مؤثرا للخير ، آمرا به ، كارها للشر ناهيا عنه ؛ فإن مودة الشرير تـكسب الأعداء ، ولا خيرفىمودة تجلب عداوة وتورث مـذمة ومـلامة؛ فإن المتبوع تابع صاحبـه : قال بعض الحكماء : مخالطة الأشرار خطر والصبر على صحبتهم كركوب البحر الذى من سلم منه ببدنه من التلف فيه لم يسلم بقلبه من الحذر منه .

وقال بعض البلغـاء : صحبـة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار . وقال بعض الشعراء :

مجالسة السفيه سفاه رأى ومن عقل مجالسة الحكيم
فإنك والقرين معا سواء كما قد الأديم من الأديم

الرابعة : أن يكون من كل واحد منهما ميل إلى صاحبه ، ورغبة فى مؤاخاته ؛ فإن ذلك أوكد لحال المؤاخاة ، وأمد لأسباب المصافاة ؛ إذ ليس كل مطلوب إليه بطالب ، ولا كل مرغوب إليه براغب ، ومن طلب مودة ممتنع عليه ورغب إلى زاهد فيه ـ كان معنًى خائبا كما قال البحترى :

وطلبت منـك مودة لم أعطها إن المعـنى طالب لايظفر

وقال العباس بن الأحنف :

فإن كان لايدنيك إلا شفاعة فلا خير فى ود يكون بشافع

فإن اسـتـكملت هذه الخصال فى إنسان وجب إخاؤه ، وتعين اصـطفاؤه ،

وعلى قدر وفورها فيه يكون الميل إليه ، والثقة به؛ فالإخوان على طبقات مختلفة ، وأنحاء متشعبة ، ولكل واحد منهم حال يختص بها فى المشاركة ، وثلمة يسدها فى الموازرة والمظافرة ، وليس تتفق أحوال جميعهم على حد واحد ؛ لأن التباين فى الناس غالب ، واختلافهم فى الشيم ظاهر وإلى هذا يشير بعض الحكماء إذ يقول : الرجل كالشجر : شرابه واحد وثمره مختلف . ومن رام إخوانا تتفق أحوال جميعهم رام متعذرا : قال المأمون : الإخوان ثلاث طبقات : طبقة كالغذاء لا يستغنى عنه ، وطبقة كالدواء يحتاج إليه أحيانا ، وطبقة كالداء لا يحتاج إليه أبدا .

ولعمرى إن الناس على ماوصفهم، ولكن ليس من كان منهم كالداء من الإخوان المعدودين، بل هم من الأعداء المحذورين ، وإنما يداجون المودة استكفافا لشرهم وتحرزا من مكاشفتهم ، فدخلوا فى عداد الإخوان بالمظاهرة والمساترة وفى الأعداء عند المكاشفة والمجاهرة : ألم تر قول بعض الحكماء ؟ : مثل العدو الضاحك إليك كالحنظلة الخضراء أوراقها ، القاتل مذاقها . وقول بعض الفلاسفة ؟ : لا تغتر بمقاربة العدو ؛ فإنه كالماء الذى إن أطيل إسخانه بالنار لم يمنع من إطفائها . وقال ابن الحكم الثقفى :

تكاشرنى ضحكا كأنك ناصح وعينك تبدى أن صدرك لى دوى

لسانك معسول ونفسك علقم وشرك مبسوط وخيرك ملتوى

فليت كفافا كان خيرك كله وشرك عنى ما ارتوى الماء مرتوى

فإذا خرج من كان كالداء من عداد الإخوان فالإخوان هم الصنفان الآخران: من كان منهم كالغذاء أو كالداء :

فالغذاء قوام للنفس وحياتها ، والدواء علاجها وصلاحها ، وأفضلهما من كان كالغذاء ؛ لأن الحاجة إليه أعم .

وإذا تميز الإخوان وجب أن ينزل كل منهم حيث نزلت به أحواله إليه ،

واستقرت خصاله وخلاله عليه : فمن قويت أسبابه قويت الثقة به ، وبحسب الثقة به يكون الركون إليه والتعويل عليه : قال الشاعر :

ما أنت بالسبب الضعيف وإنما نجح الأمور بقوة الأسباب
فاليوم حاجتنا إليك وإنما يدعى الطبيب لشدة الأوصاب

وقد اختلفت مذاهب الناس في اتخاذ الإخوان :

فمنهم من يرى أن الاستكثار منهم أولى ليكونوا أقوى منعة ويدا ، وأوفر تحببا وتوددا ، وأكثر تعاونا وتفقدا : وفي ذلك يقول بعض الحكماء : العيش إقبال الزمان ، وعز السلطان ، وكثرة الإخوان .

ومنهم من يرى أن الإقلال منهم أولى ؛ لأنه [illegible] أثقالا وكلفا ، وأقل تنازعا وخلفا : وفي هذا قال الإسكندر : المستكثر من الإخوان من غير اختبار كالمستوقر من الحجارة ، والمقل من الإخوان المتخير لهم كالذي يتخير الجوهر .

وقال عمرو بن العاص : من كثر إخوانه كثر غرماؤه . وقال إبراهيم بن العباس : مثل الإخوان كالنار : قليلها متاع وكثيرها بوار . ولقد أحسن ابن الرومي في هذا المعنى إذ يقول :

عدوك من صديقك مستفاد فلا تستكثرن من الصحاب
فإن الداء أكثر ما تراه يكون من الطعام أو الشراب
ودع عنك الكثير فكم كثير يعاف وكم قليل مستطاب
فما اللجج الملاح بمرويات وتلقى الري في النطف العذاب

وقال بعض البلغاء : ليكن غرضك في اتخاذ الإخوان واستماع النصحاء تكثير العُدّة لا تكثير العدد ، وتحصيل النفع لا تحصيل الجمع ؛ فواحد من أهل الإخلاص والوفاء خير من ألف من ذوي النفاق والرياء .

وإذا كان التجانس والتشاكل من قواعد الأخوة وأسباب المودة كان وفور العقل وظهور الفضل يقتضيان من حال صاحبهما قلة إخوانه لأنه يروم مثله ويطلب شكله ، وأمثاله من ذوي العقل والفضل أقل من أضداده من ذوي الحمق

والنقص ، لأن الخيار فى كل جنس هو الأقل ، فلذلك قل وفور العقل والفضل قال الشاعر :

لكل امرئ شكل من الناس مثله فأكثرهم شكلا أقلهم عقلا
وكل أناس آلفون لشكلهم فأكثرهم عقلا أقلهم شكلا
لأن كثير العقل لست بواجد له فى طريق حين يسلكه مثلا
وكل سفيه طائش إن فقدته وجدت له فى كل ناحية عدلا

وقال بعض العلماء : التمس ود الرجل العاقل فى كل حين ، وود الرجل ذى النكر فى بعض الأحايين ، ولا تلتمس ود الجاهل فى كل حين .

وسمعت العوامى يقول لعلى بن عيسى الوزير : إن الحال بينك وبين ابن مجاهد صفيقة ، فما الذى قربه منك ، ونفّقه عليك ، وأولعك به ؟ قال : وجدته متواضعاً فى علمه ، هشا فى نسكه ، كتوما لسره ، حافظا لمروءته ، شفيقا على خليطه ، حسن الحديث فى حينه ، محمود الصمت فى وقته ، بعيد القرين فى عصره ، والله لو لم يكن فيه من هذه الأخلاق إلا واحدة لكان محبوبا ومقبولا .

وقال بعض الأفاضل : سمعت برهان الصوفى الدّينَورى يقول : سمعت الجنيد يقول : لو صحبنى فاجر حسن الخلق كان أحب إلىّ من أن يصحبنى عابد سيئ الخلق ؛ قال : لأن الفاجر الحسن الخلق يصلحنى بحسن خلقه ، ولا يضرنى فجوره ، والعابد السيئ الخلق يفسدنى بسوء خلقه ، ولا ينفعنى بعبادته ؛ لأن عبادة العابد له ، وسوء خلقه على ، وفجور الفاجر عليه ، وحسن خلقه لى .

وقال العتابى لصاحب له : ما أحوجك إلى أخ كريم الأخوة ، كامل المروءة ، إذا غبت خلفك ، وإذا حضرت كنفك ، وإذا نكرت عرفك ، وإذا جفوت لاطفك ، وإذا برزت كافأك ، وإذا لقى صديقك استزاده لك ، وإن لقى عدوك كف عنك غرب العادية ، وإذا رأيته ابتهجت ، وإذا باثثته استرحت . وفى وصف خير الأصدقاء يقول ابن المقفع :

كان لى أخ أعظم الناس فى عينى ، وكان رأس ما عظمه فى عينى صغر الدنيا فى عينه ،

وكان خارجا من سلطان بطنه ، فلا يشتهى مالا يجد ، ولا يكثر إذا وجد ، وكان لا يأشر عند نعمة ، ولا يستكين عند مصيبة ، وكان خارجا من سلطان لسانه ، فلا يتكلم بما لا يعلم ، ولا يمارى فيما علم ، وكان خارجا من سلطان الجهالة ، فلا يتقدم أبدا إلا ثقة بمنفعة ، وكان أكثر دهره صامتا ، فإذا قال بذ القائلين ، وكان ضعيفا مستضعفا ، فإذا جد الجد فهو الليث عاديا ، وكان لا يدخل فى دعوى ، ولا يشارك فى مراء ، ولا يدلى بحجة حتى يرى قاضيا فهما وشهودا عدولا ، وكان لا يلوم أحدا فيما يكون العذر فى مثله حتى يعلم ماعذره ، وكان لا يشكو وجعه إلا عند من يرجو عنده البرء ، ولا يستشير صاحبا إلا أن يرجو منه النصيحة ، وكان لا يتبرم ولا يتسخط ، ولا يتشكى ولا ينتقم من العدو ، ولا يغفل عن الولى ، ولا يخص نفسه بشىء دون إخوانه من اهتمامه وحيلته وقوته ؛ فعليك بهذه الأخلاق إن أطقتها ـ ولن تطيق ـ ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع .

وقال أبو سليمان : الصديق لا يراد ليؤخذ منه شىء أو ليعطى شيئا ، ولكن ليسكن إليه ، ويعتمد عليه ، ويستأنس به ، ويستفاد منه ، ويستشار فى الملم ، ويُنْهَض فى المهم ، ويتزين به إذا حضر ، ويُتشوق إليه إذا سَفَر ، والأخذ والعطاء فى عرض ذلك جاريان على مذهب الجود والكرم .

وقيل لأرسطاطاليس معلم الإسكندر : من الصديق ؟ : قال : إنسان هو أنت ؛ إلا أنه بالشخص غيرك : سئل أبو سليمان عن هذه الكلمة ، وقيل له : فسرها لنا ؛ فإنها وإن كانت رشيقة فلا نظفر منها بحقيقة. فقال : وإنما أشار بكلمته هذه إلى آخر درجات الموافقة التى يتصادق المتصادقان بها : ألا ترى أن لهذه الموافقة أولا منه يبتدئانها ؟ كذلك لها آخر ينتهيان إليه ، وأول هذه الموافقة توحد وآخرها وحدة ، وكما أن الإنسان واحد بما هو إنسان كذلك يصير بصديقه واحداً بما هو صديق ؛ لأن العادتين تصيران عادة واحدة ، والإرادتين تتحولان إرادة واحدة ؛ ولا عجب من هذا ؛ فقد أشار إلى هذه الغريبة الشاعر بقوله :

روحه روحى ، وروحى روحه إن يشأ شئت ، وإن شئت يشا

وليس يبعد هذا عليكم إلا لأنكم لم تروا صديقا لصديق ، ولا كنتم أصدقاء على التحقيق ، بل أنتم معارف ، يجمعكم الجنس المقتبس من الحيوان ، وينظمكم النوع المقتبس من الانسان ، ويؤلفكم بعد ذلك البلد أو الجوار ، أو الصناعة أوالنسب ، ثم أنتم فى كل ذلك الذى اجتمعتم عليه ، وانتظمتم به ، وتألفتم له — على غاية الافتراق للحسد الذي يدب بينكم ، والتنافس الذى يقطع علائقكم والتدابر الذى يثير البينونة منكم ؛ فلو ثبتّم على الصراط المستقيم ، وعلقتم بحبل العقل المتين المستبين ، واعتصمتم بالعروة الوثقى من الهدى والدين — كنتم كنفس واحدة فى كل حال ذللت أو صعبت ، تجمعت أو تشعبت ، تعرفت أو تنكرت ، وكانت هذه الشريفة — أعنى — (الموافقة والوحدة) تسرى فى الصديق والصديق ، ثم فى الثانى والثالث ، ثم فى الصغير والكبير ، وفى المطيع والمطاع ، والسائس والمسوس ، ثم فى الجار والجار ، وفى المحلة والمحلة والبلد والبلد ؛ حتى تبلغ الأغوار والنجود ، وتشتمل على الأدانى والأقاصى ، فحينئذ ترى كلمة الله العليا ، وطاعته العالية . قال : فعلى هذا يحمل رأى الحكيم فى قوله : الصديق إنسان هو أنت ، إلا أنه بالشخص غيرك .

ضروب الخلطاء

قال زيد بن رفاعة : رأيت الوزير يصف ندماءه بكلام يصح أن يكتب على الأحداق ، ويعرض على أهل الآفاق ؛ ليستفيده الصغير والكبير : قال : أصحابى طرائق قدد : كما قال عبد الحميد الكاتب : الناس أخياف مختلفون ، وأصناف متباينون .

أما ابن زرعة فكبره بالحكمة ، وخيلاؤه بالثروة ، قد قدحا فى عقله وهو لا يحسن بذلك القدح ، فليس لنا منه إذا جالسنا إلا النفخ والتعظم ، والتهويل بأرسطاطاليس وأفلاطون وسقراط وبقراط وفلان وفلان ، ومجالس الشراب تتجافى عن هؤلاء ، وهؤلاء يجلون عن مجالس الشراب ؛ يا نائم يا غافل . وأين أنت من هؤلاء الحكماء القدماء : أسيرتك سيرتهم ؟ أحالك حالهم ؟ إنما تدعى

عقائدهم باللسان وتنتحل أسماءهم باللفظ ، فإذا جاءت الحقيقة كنت على الشط تلعب بالرمل ، ولولا أنه يكدر هزل جدنا بجد هزله لكان محمولا مقبولا ، ولكنه يأبى إلا ما ألفه ، وأفادالمرانة عليه .

وأما ابن عبيد فكانه بالخطابة والبلاغة ، والرسائل والفصاحة — قد طرحه فى عمق لج لامطمع فى انتقاذه منه ، ولا طريق إلى صرفه عنه . هذا مع حركات غير متناسبة ، وشمائل غير دمثة ، ومناظر مخلوطة بذلّة أهل الذمة ودالّة أهل الحجة .

وأما ابن الحجاج فقد جمع بين جد القاضى أبى عمرو فى جلسته وحديثه ، وقيامه وتخطئته مع حياء كأنه مستعار من الغانية الشريفة ، وبين سخف شعره الذي لايجوز أن يكون لراويه مروءة به فكيف لقائله ؟ فنحن إذا نظرنا إليه تخيلنا صورة سخف شوهاء فى صورة عقل حسناء ، ولا تخلص هذه من هذه ، ولاجرم ! استمتاعنا به قاصر عن مرادنا منه ، ودنوه منا ناب عن مراده له .

وأما مسكويه فإنه يسترد بدمامة خلقه ما يتكلفه من تهذيب خلقه ، وأكره له المشاغبة فى كل مايجرى ، لايجد فى نفسه من السكانة والقرار مايعلم معه أن مضاهه فى فن هو فيه طويل الذيل ، مديد السيل - لا يأذن له فى تعاطى فن آخر هو فيه قصير الباع بايد الطباع ، وصاحب هذا المذهب ممكور به ، مصاب بجيد رأيه ، وقد أفسده : قال المهلبى : قال ابن العميد ، وفعل ابن العميد ، وما ذكره لهذين إلا استطالة على الحاضرين ، والتشبع بذكر الرجال واضع من قدر الرجال .

وأما ابن بكر فهو تميمة المجلس ، ولا بد للدار وإن كانت قوراء من مخرج . وهو بجهله مع خفة روحه وقبح وجهه أدخل فى العين ، وألصق بالقلب من غيره مع علمه ، وثقل روحه وحسن ظاهره .

وأما الأهوازى أبو القاسم فلا حلاوة ولا مرارة ، ولا حموضة ، ولا ملوحة ، وإنما هو كالبصل فى القدر ، وكالإصبع الزائدة فى اليد . على أنا نرعى

فيه حقا قديمـا ، ونرحمه الآن رحمة حديثة .

وأما سيدى أبو سعد فوالله إنى لأجد به وجدا أتهم فيـه نفسى ، وما وجدت ألم سهر معه قط ، وإنى أرى حديثه آنق من المنى إذا أدركت ، ومن الدنيا إذا ملكت ، وإن تمـازجنا بالعقل والروح والرأى والتدبير والنظر والإرادة والاختيار والعادة ليزيد على حال توءمين تراكضا فى رحم، وتراضعا من ثدى ، وتوغيا فى مهد ، وما أخوفنى أن يؤتى من جهتى أو أوتى من جهته ، وأن عاقبته موصولة بعاقبتى لأنى مأمنه وهو مأمنى ، وكثيرا ما يؤتى الإنسان من مأمنه ، والله المستعان .

وأما ابن شاهويه فشيخ ليس لنا فيه فائدة إلا ما يلقى إلينا من تجاربه ومشاهداته، ولولا زيادته التى تصنع بها من نفسه وبعض من خطراته لـكان هدك (١) من رجل ولـكن من لك بالمهذب ؟ : ألم يقل الأول : أى الرجال المهذب ؟ قال زيد بن رفاعة : قلت : طلوعك أيها الوزير على خبايا ضمائرهم ، وعلمك بخفايا سرائرهم — يطالبانك بالإفراج عنهم وقلة الاكتراث بهم . قال : لا تفعل ؛ والله ما لهذه الجماعة بالعراق شكل ولا نظير وإنهم لأعيان أهل الفضل، وسادة ذوى العقل . ولقد يستدل على الصديق بصديقه : قال الشاعر :

إذا لم تدر ما الإنسان فانظر   من الخدن المفاوض والمشير

وقال آخر :

لا تسألن عن امرئ واسأل به   إن كنت تجهل أمره ما الصاحب

ذكر عند النبى صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه رجل كان يألفه قبل أن بعثه الله نبيا يقال له أبو السائب فقال ، نعم الصاحب كان أبو السائب ، لا يمارى ، ولا يشارى : سمع أبو سعيد السيرافى يقول فى تفسير هذين : أى كان لا يشغب ولا يلج . قيل لصوفى : من الصديق ؟ : قال : من لم يجدك سواه ،

(١) هذا رجل هدك من رجل: إذا وصف بجلد وشدة:أى غلبك وكسرك .

ولم يفقدك من هواه . وقيل للشبلى : من الرفيق ؟ : قال : من أنت غاية شغله وأوكد فرضه ونفله . قيل له : فمن الشفيق ؟ قال : من إن دهمتك محنة قذيت عينه لك ، وإن شملتك منحة قرت عينه بك . قيل له : فمن الوافى ؟ قال : من يحكى بلفظه كمالك ، ويرعى بلحظه جمالك . قيل له : فمن الصاحب ؟ قال : من إن غاب تشوقت إليه الأحباب وإن حضر تلقحت به الألباب .

منزلة الصديق

حدث أبو حامد العلوى ـ وكان من الحجاز ـ سنة سبعين وثلثمائة بمدينة السلام قال : رُمى أعرابى من بنى هلال عن حيه بأطراف الشام . فقيل له : من خلفت وراءك ؟ فقال : خلفت والداووالدة وأختا وابن عم وبنت عم وعشيقا وصديقا . قيل له : فكيف حنينك إليهم ؟ قال : أشد حنين. قيل : فصفه لنا . قال :

أما حنينى إلى والدى فللتعزز به ، فإن الوالد عضد وركن يعاذ به ويؤوى إليه ،

وأما نزاعى إلى الوالدة فللشفقة المعهودة منها ولدعائها الذى لا يعرج إلى الله مثله .

وأما شوقى إلى الأخت فللصيانة لها والتروح إليها .

وأما شوقى إلى ابن العم فللمكاتفة له والانتصار به .

وأما ابنة العم فلأنها لحم على وضم ، أعنى أن أُشبِل (١) عليها بالرقة وأصلها ببعض من يكون لها كفئا ويكون لنا أيضا إلفا .

وأما صبابتى بالعشيق فذلك شىء أجده بالفطرة والارتياح الذى قلما يخلو منه كريم له فى الهوى عرق نابض ، وفى المجون جواد راكض .

وأما الصديق فوجدى به فوق كل من نعتُّه لك ، لأنى أباثه بما أجل أبى

(١) أعطف

عنه ، وأجبأ أمى فيه ، وأطويه عن أختى خجلا منها ، وأداجى ابن عمى عليه خوفا من حسد يفقأ ما بينى وبينه . وكل هؤلاء مع شرف موقعهم منى وانتسابهم إلىّ دون الصديق ؛ أرى الدنيا بعينه إذا رنوت ، وأجد فائتى عنده إذا دنوت ، وإذا عزت له ذل لى ، وإذا ذللت له عز لى ، وإذا تلاحظنا تساقينا كأس المودة ، وإذا تصامتنا تناجينا بلسان الثقة ، لا يتوارى عنى إلا حافظا للغيب ، ولا يتراءى لى إلا ساترا للعيب . قيل : فهل نمى إليك خبره منذ بان عنك أثره ؟ قال : نعم لحقنى بعض فتيان الحى أمس فسألته عن قرابتى وعشيرتى ، فنعت لى كلا ، وأطاب أخبارهم ، حتى إذا ما سألته عن الصديق قال : ماله هجّيرَى سواك ؛ إن عبر فباسمك يستقل ، وإن تنفس فبذكرك يقطع ، وإن آوى إلى ندوة الحى فبلسانك ينشر ، وجودك يذكر ، لا يمر بمعهد لك إلا حياه ، ولا بمكان حله معك إلا انتواه . فقلت له : كف قليلا ؛ فقد أججت فى صدرى نارا كانت طافئة ، وأبديت منى صبابة كانت خافية . قال أبو حامد: فضرب والله كبد راحلته إلى حيه .

وقال العوامى : الصديق يرتفع عن الإنصاف ، ويجل أيضا عن الهجران ؛ لأن الإنصاف ينبغى أن يكون عاما مع الناس كلهم ، وأما الهجران فالعاقل لا يسرع إليه لعدم الإنصاف ، بل يستأنى ويقف ويكظم ويتوقع ، ويرى أن العارض فى الأمر لا يزال به الأمر الثابت والعرق النابت :

إذا رأيت ازورارا من أخى ثقة ضاقت على برُحب الأرض أوطانى
فإن صددت بوجهى كى أكافئه فالعين غضبى وقلبى غير غضبان

وقال الأصمعى : دخلت على الخليل وهو جالس على حصير صغير . فقال : تعال واجلس . قلت: أضيق عليك . فقال : مه ! فإن الدنيا بأسرها لا تسع متباغضين وإن شبرا فى شبر يسع متحابين .

شر الأصدقاء

قال بزرجمهر : إياك وقرناء السوء ؛ فإنك إن عملت قالوا راءيت، وإن قصرت قالوا أثمت، وإن بكيت قالوا شهرت ، وإن ضحكت قالوا جهلت، وإن نطقت قالوا تكلفت، وإن سكت قالوا عييت، وإن تواضعت قالوا افتقرت ، وإن أنفقت قالوا أسرفت ، وإن اقتصدت قالوا بخلت

أهل الرياء

قيل لعبد الله بن المبارك : إن قوما يلتقون بالبشر والسلم ، فإذا تفرقوا طعن بعضهم على بعض قال : أعداء غيب ، إخوة تلاق ؛ تبا لهذه الاخلاق ، كأنما شقت من النفاق .

وقال بعض السلف : ضربة الناصح خير لك من تحية الشانئ

سبيل المحافظة على الصديق

أخبر أبو الحسن على بن عيسى : أخبرنا ابن دريد عن عبد الرحمن عن عمه الأصمعى : قال عبد الله بن جعفر : كمال الرجل بخلال ثلاث : معاشرة أهل الرأى والفضيلة ، ومداراة الناس بالمخالفة الجميلة ، واقتصاد من غير بخل فى القبيلة. فمن لم تكن فيه واحدة من الثلاث لم يسلم له صديق ، ولم يتحنن عليه شفيق ، ولم يتمتع به رفيق .

كان ابن كعب يقول : لم لا أرى لصديقى فوق ما يرى لى ؟ ولم لا أعتبده بالإغضاء والإحسان والفضل والصبر ؟ ولم أعارضه وأقايضه ؟ ولم أرانى مغبونا إذا كان الربح له ؟ ولم لا أظلم نفسى فى مرضاته وإن وجب أن نتساوى أبدا فى الفعل والقول ، ونتحافظ على اختلاس الحظ والنصيب ؟ فهل تركنا لأرباب التطفيف شيئا من الدناءة إلا أخذنا به ، ورأيناه مرغوبا فيه ؟ تالله ما هذا من الصداقة فى شيء ، وإنه إلى الخساسة والنذالة أقرب .

وكتب أبو النفيس إلى صاحب له كان يغشاه كثيرا ويباثه طويلا : بسم الله الرحمن الرحيم : ليس ينبغى أبقاك الله أن تغضب على صديقك إذا نصح لك فى

جليلك ودقيقك ؛ بل الأقمن بك والأخلق لك أن تتقبل مايقوله ، وتبدى البشاشة فى وجهه ، وتشكره عليه ؛ حتى يزيدك فى كل حال ما يكملك ، ويكبت عدوك ، والصديق اليوم قليل ، والنصح أقل ، ولن يرتبط الصديق إذا وُجد بمثل الثقة به والأخذ بهديه والمصير إلى رأيه ، والسكون معه فى سرائه وضرائه ، فتى ظفرت بهذا الموصوف فاعلم بأن جدك قد سعد ونجمك قد صعد ، وعدوك قد بعد . والسلام

وكتب غسان بن عبدالحميد المدنى إلى جعفر بن سليمان الهاشمى يعاتبه : بلغنى أن غاشا ظلمك لما أتاك بأمر لم أكن له أهلا ، ولم تكن بقبوله خليقا ؛ لأنى لم أكن بأشباهه معروفا ولم تكن على استماع مثله مخوفا ، فوجد له فيك مساغا وعندك مستقرا ، وكنت أحسب منازل إخوانك عندك والثقة لهم منك فى حصن حصين ومحل مكين ، لاتناله أكاذيب الكاذبين ، ولا أقاويل المفترين ؛ وذلك أن الكاذب كان بالتهمة على ــ فى منزلتى وحرمتى ــ أحق بالتهمة على رأيى وخلقى ، وكنت أنا عندك بالثقة فى وفائى أحق منه بالتصديق فى عضيهته إياى ؛ فإن الأخ المخبور أولى بالثقة من الساعى بالكذب والزور . وإذا كان تحافظ الإخوان معلقا بأيدى السفهاء إذا شاءوا سعوا فقبل قولهم فكيف تبقى على ذلك أخوة أو ترعى معه حرمة أو يصلح عليه قلب أو يسلم معه صبر ؟

وحدثنا أبو عبدالله النفرى قال : لما استوزر أبو محمد المهلبى سنة أربعين بعد وفاة أبى جعفر كتب إلى أبى الفضل العباس بن الحسين وكان بينهما تواصل : بسم الله الرحمن الرحيم : إنى حفظك الله ، وحفظنى لك ، وأمتعك بى وأمتعنى بك ــ قد بلوتك طول أيام أبى جعفر ــ قدس الله روحه ــ فوجدتك ذا شهامة فيما يناط بك ، حسن الكفاية فيما يوكل إليك ، كتوما للسر إذا استحفظته ، حسن المساعدة فيما يجمل بك الوفاق عليه ، وقد حدا بى هذا كله إلى اجتبائك وتقريبك ، وإدنائك وتقديمك وغالب ظنى أنك تعيننى على ذلك بميمون نقيبتك ، ومأمون ضريبتك ، وجعلت

دعامة هذا كله أنى أجريك مجرى الصديق الذى يقارض فى الخير والشر ، ويشارك فى الغث والثمين ، ويستنام إليه فى الشهادة والغيب ، ولى معك عينان إحداهما مغضوضة عن كل ماساءنى منك ، والأخرى مرفوعة إلى كل ماسرنى فيك . فإن كنت تجد فى نفسك على تولى هذا شاهدا صدوقا وأمارا نطوقا فاعرفنى ، لأعلم أن فراستى لم تفل ، وحدسى عن طريق الصواب لم يمل ، والحال التى قد جددها الله لى محروسة لك ، ومفرغة عليك ، ومستقلة بك ، فأشركنى فيها بخالصة الوفاء ، أو تفرد بها إن شئت بحقيقة الصفاء ، فلك الأمنة من حيلولة الاعتقاد ، والسكون إلى عفو الاجتهاد ، وثق أن الذى خطبته منك إنما أريده لك ، فلا يقعن فى وساوس صدرك أن لكاشح فيما نحن عليه طريقا لنقص ، أو لمحب لنا فيه بابا إلى الزيادة ؛ واكتف بهذا القدر الذى دللتك عليه ، واستقبل أمرى وأمرك بالذى أرشدتك إليه ، وإياك أن تستشير فيه غير نفسك ، فإنك بعرض حسد يكون عقالا لحظك . والله يهديك للحسنى ، ويقينى فيك غوائل العيون المرضى ، والسلام

الواجب للخدم

إن مثل الخدم والقوام من الإنسان مثل الجوارح من الجسد . وكما أن قوما قالوا : حاجب الرجل وجهه ، وكاتبه قلمه ورسوله لسانه كذلك نقول : إن خادم المرء يده وساعده ، لأن من كفاك التعاطى بيدك فقد قام عندك مقامها ، ومن كفاك السعى بقدمك فقد ناب عنك منابها ، ومن حفظ لك ماتحفظه عينك فقد كفاك كفايتها فغناء الخدم عن الإنسان كثير ، ونفع القوام إياه جزيل ولولاهم لأرتج دون الناس باب من الراحة كبير ، ولانسد عنهم طريق من النعمة فسيح ، ولاضطروا إلى مواصلة القيام والقعود وإلى مواترة الإقبال والإدبار ، وفى ذلك إتعاب الجسد وهو يعد من أمارات الخفة ودلائل النزق وسبل المهانة والضعة ، وفيه سقوط الهيبة وذهاب الرزانة ، وطرح السمت والوقار .

فينبغى للمرء أن يحمد الله عز وجل على ما سخر له منهم وما كفاه ، وأن يحوطهم ويتفقدهم ولا يهملهم ويرفق بهم ؛ فإنهم بشر يمسهم من الكلال واللغوب ومن السآمة والفتور ما يمس البشر ، وتدعوهم دواعى حاجاتهم وإرادات أجسامهم إلى ما فى طباع البشر إرادته والحاجة إليه

وطريق اتخاذ الخدم ألا يتخذ الانسان خادما إلا بعد المعرفة والاختيار له، فإن لم يستطع ذلك فينبغى أن يعمل فيه التقدير والفراسة والحدس والتوسم ، وأن ينظر لأى أمر يصلح الخادم الذى يتخذه وأى صناعة ينتحل ، وما الذى يظهر رجحانه من الأعمال فليسنده إليه ، وليستكفه إياه، ولا ينقلن الخادم من عمل إلى عمل؛ فإن لكل إنسان بابا من المعارف وفنا من الصناعات قد سمح له به طبعه وأفادته إياه غريزته ، فصار لديه كالسجية التى لا حيلة فى تركها والضريبة التى لا سبيل إلى مفارقتها . فمتى نقل الإنسان الخادم مما قد أحسنه وأتقنه ومارسه ولابسه وألفه واعتاده إلى ما يختاره له برأيه وينتخبه له بإرادته مما ينافى طباعه ويضاد جوهره فسد عليه نظام خدمته وأضله عن طريق مهنته ، فعاد كالمبتدئ ، ثم لا يفيده مما نقله إليه بابا إلا بنسيان أبواب مما نقله عنه ، ومتى عاد به إلى الأمر الأول وجده فيه أسوأ حالا منه فيما نقله إليه .

ولا ينبغى أن يكون نكير الانسان على الخادم إذا أراد الإنكار عليه صرفَه عنه ؛ فإن ذلك من دلائل ضيق الصدر وقلة الصبر وخفة الحلم ، ولأنه إذا صرفه احتاج إلى غيره بدلا منه وخلفا عنه، وغيره مثله أو قريب منه، وإذا استمرت به هذه العادة أوشك أن يبقى بلا خادم ، بل ينبغى له أن يقرر فى قلوب خدمه أن أحدا منهم لا يجد إلى مفارقة منزله والخروج عن داره وكنفه سبيلا ؛ فإن ذلك أتم للمروءة وأدل على الوقار والكرم .

وبعد فإن الخادم لا يناصح ولا يشفق ولا يحتاط ولا يحامى ما لم يتحقق عنده ، ويصح لديه ـ أنه شريك صاحبه فى نعمته ؛ حتى يأمن العزل ولا يحذر

الصرف . ومتى ظن الخادم أن أساس حرمته غير واطدة ووشائج ذمامه غير راسخة وأن مكانه ناب به عند الذنب يوافقه والحزم يفارقه كان مقامه على صاحبه كعابر سبيل : فلا يعنى بما عناه ، ولا يهتم بما عراه،ولم يكن همه إلا ذخيرة يعدها ليوم جفوة صاحبه ومتاعا يرجع إليه عند نبوته وازورار جانبه .

وليكن عند المخدوم لخدمه دون صرفهم وإخراجهم وسوى نبذهم واطراحهم منازل من الاستصلاح والتقويم:فمن استقام له بالتأديب ثوِّجه واعتدل بالثقاف أوده فليشد عليه يدا ، ويوسعه عند الزلة عفوا ، ومن راجع الذنب بعد التوبة ونقض العهد بعد الإنابة فليذقه طرفا من العقوبة،وليمسه ببعض السطوة ، ولا ييئس من رشده مالم تنحل عقدة حيائه ويكاشف بإصراره. ومن عصاه معصية صلعاء أو جنى جناية شنعاء لا بقيا معها ولا فى شرط السياسة اغتفارها فالرأى للمخدوم البدارُ إلى الخلاص؛وإلا أفسد عليه سائر الخدم .

وصفوة القول : إن الخدم هم المساعدون على الأعمال والمذللون طرقها والمعاونون على إنجازها . والوسيلة إلى إخلاصهم فى الخدمة وتأديتها على أكمل وجه معاملة مخدومهم إياهم بما يكفل لهم الخير، وهذه المعاملة تتلخص فيما يأتى :

(١) تعيين العمل المكلفين القيام به بشرط أن يكون فى طاقتهم
(٢) إرشادهم إلى طريقة العمل المرضية ومراقبتهم حين التنفيذ
(٣) شكرهم عند الإحسان وتعنيفهم عند التقصير
(٤) معاملتهم بالرفق واللين والعدل والإحسان
(٥) نقدهم الأجر كاملا فى زمنه المحدود وإعطاؤهم من حين إلى آخر ما تيسر زائدا على راتبهم تشجيعا لهم على الإخلاص فى العمل

(٦) مواساتهم فى الشدة وعيادتهم عند المرض ودعاء الطبيب لهم إذا ساءت حالتهم

(٧) أن يكون المخدوم خير مثال يحتذيه الخادم فى القول والعمل

(٨) عدم إطلاعهم على الأسرار

(٩) المحافظة على جعل الأموال والجواهر فى حرز حريز ومكان مكين حتى لا يسهل عليهم اختلاسها

(١٠) وأن يرشدهم لمواقع الصواب وأصول واجباته وما ينبغى أن يتصف به وأن يربيهم باللطف والحزم ولا يهينهم ببذىء الكلام وجافى اللفظ مما يجرح قلبهم ويذل نفوسهم؛ إذ ليس للسيد أن يتسلط على خادمه بذلك لا شرعا ولا عرفا

(١١) أن يسمح للخادم بساعة فى النهار يتروح فيها ويتمتع بشئونه وأن يجرى عليه مرتبا يكفه عن التشوف لما قد يسرقه ويختلسه ؛ فإن ما ينتقصه السيد من مرتبه ربما اختلس من ماله؛ وأن يزيد فى راتبه كلما رآه يزيد فى صدق الخدمة وحسن المعاملة .

وقد كان من آخر ماأوصى به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ أن قال فى شأن الخدم :

« اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم : أطعموهم مما تأكلون ، واكسوهم مما تلبسون ، ولا تكلفوهم من العمل مالا يطيقون: فما أحببتم فأمسكوا ، وما كرهتم فبيعوا ، ولا تعذبوا خلق الله ؛ فإن الله ملككم إياهم ولو شاء لملكهم إياكم »

ويروى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه رأى رجلا على دابته وغلامه يسعى خلفه فقال له : ياعبدالله ، احمله خلفك ؛ فإنما هو أخوك روحه مثل روحك . فحمله ثم قال : لا يزال العبد يزداد من الله بعدا مامشى خلفه ، وقال صلى الله عليه وسلم : « إنَّ الْعَبْدَ إِذَا نَصَحَ لِسَيِّدِهِ وَأَحْسَنَ عِبَادَةَ اللهِ فَلَهُ أَجْرُهُ

مَرَّتَيْنِ »

الوطن

معنى الوطن

الوطن كلمة صغيرة واحدة ولكن معناها عظيم جليل ؛ فهو التربة التى منها خرجنا ، وعليها درجنا ، وفيها حياتنا ، وإليها مرجعنا ومآبنا .

وهل كان الوطن إلا أنت وتلك العظام التى اختلطت بأرضه من عظام آبائك وأجدادك من القدم ؟ فأنت بعض الوطن والوطن كلك ، فى حياته حياتك ولو مت ، وفى موته موتك ولو حييت .

ولا تحسبن حياتك هى تلك الأيام القصيرة التى تقضيها فى هذه الحياة الدنيا تأكل وتشرب ، وتلهو وتلعب ؛ إنما حياتك أجل من ذلك وأعظم : هى ذكرى الماضى ، وهى عظة الحاضر ، وهى أمل المستقبل ، هى كل هذا ، وكل هذا هو الوطن .

الوطن هو الأرض التى طوينا فيها ثوب طفولتنا المرحة ، ولا نزال نطوى فيها رداء شبابنا وشيخوختنا والتى نشأنا فيها وأحببناها ، وفضلناها بحكم الطبع واللغة والنشأة على كل بلد سواها .

هذه هى فطرة الإنسان ، وتلك هى سنة الله فى خلقه . وكل فريق من الناس ينشأ فى بلد يصبح جزءا من أمة له أخلاقها وعاداتها ولغتها ، ويدافع عن مصالح هذا البلد ومنافعه العامة ويسعى فى رقيه : يختلط بأهله وبنى وطنه ، ويتبادل وإياهم المنافع بحب وإخاء ومساواة تحت كنف حكومته .

فمحبة الوطن غريزية فى الإنسان ، وتكون على أكملها بالتعليم والتثقيف حيث يعرف الفرد واجب الوطن عليه ، والسبيل الصالح لأداء كل حقوقه عليه ؛ حتى يعلو شأنه ، ولا عبرة بأقوال بعض الاشتراكيين التى تنكر الوطن ، وتجحد الوطنية ؛ إذ لا إخاء فى العالم إلا بعد سلامة الأوطان ، وهناءة كل قوم فى عصبيتهم

القومية ، وأمنهم على حريتهم الوطنية واستقلالهم ، وهـذا أمر طبعى ، وما عدا ذلك ليس إلا توسعا لا يمـكن تحقيقه .

الإنسان فى الوطن مرغم على مساعدة الجماعة ، وتدبير مصالح أفرادها لتضمنها مصالحه الشخصية ، والعمل معهم لتحقيق غرض واحد ، والاطمئنان إلى سلامة النفس وصيانة العرض بسبب الجماعة وما وضعوه من النظم ؛ فليس عجيبا أن يشعر الإنسان بأن العيش بين الجماعة أكثر سرورا وهناءة منـه فى حال الانفراد ، وأن يحس بأن محبته لوطنه واجبة .

ويربح الإنسان من هذا التواثق الشىء الكثير ، وهو يخدم ذاته تبعا لخدمته وطنه ؛ لأنه يستفيد من عظمته المـادية والأدبية ، ومن قوته واستتباب الأمن فيه ، ومن آراء بنى وطنه .

فإذا خطر للإنسان إمكان التجاوز عن هذه الضروريات فإنه يعجز حتما عن معرفة اللغة ؛ فاللغة للوطن وللأمة ، لا للإنسان ، وقد خلق لا يعرفها ، فتعلمها فى وطنه ، ومن أهله .

الوطن والحـكومة

أهم ما يجب الالتفات إليه أمر الحـكومة ؛ فلا صلاح للأمة إذا لم تحـكمها طائفة صالحة جديرة بتحمل مسئولية إدارة شعب بأكمله . ووجود الحـكومة وتـكوينها غير مقيد اجتماعيا ؛ فمن الممـكن أن يتبدل ويتغير على حسب المقتضيات ونصيب الأمة من الرقى ؛ فمنشأ الحـكومة فى الوطن الحاجة المـاسة إليها ؛ وإن التواثق فى القيام بالأعمال ليقتضى توزيعها بين الأفراد : فهناك الرجل الحربى والزارع والقاضى والواعظ والصانع والتاجر وغيرهم .

وإذا نشأ المجتمع على هذا النمط احتيج إلى سلطة عالية تدير شئون البلاد . وهذه السلطة كانت أولا ترجع فى الأقوام إلى رئيس العشيرة وشيخ القبيلة ، ثم تقدمت باتساع نطاق العمران إلى أن صارت من حقوق السلاطين والملوك : وانتهت فى الترقى إلى أن جعلت فى أيدى الأمم بفضل النظم الدستورية الحديثة

وليس لمجتمع أن يستغنى عن السلطة الحاكمة مهما ارتقى وعظم ، وإلا اهتم كل شخص بمصلحته الذاتيـة ، وارتبك الحال وساء نظام المجتمع .

ثم إن تلك المصالح العامة فى الأمم دقيقة إلى الغاية ، ومتشعبة الأطراف فى الوقت نفسه ؛ فالحكومة كما تختص بالنظر فى المصالح الداخلة العامة تهتم كذلك بالعلاقات التى تربطها بغيرها من الأمم ، وهذه المسئولية أعظم من أن تتحملها قوة الفرد غير الملم بها ؛ فمن الواجب أن يسلم الزمام إلى أكفأ الناس . على أن الكفاية وحدها لا تغنى فى إصلاح الحال ، وإنمـا الواجب أن ينظر فى اختيار كبار المستخدمين الحاكمين إلى الاستقامة والنزاهة فوق الكفاية ؛ لأن هؤلاء الذين تسلم إليهم مقاليد الأعمال فى الحكومة ـ ينبغى أن يكون لهم حرية فى العمل أوسع ممـا هى لباقى الأفراد ، ويجب أن تكون لهم سلطة محترمة ؛ ليتمكنوا بها من عمل ما يرونه مفيداً للأمة ، وفى هذا الامتيـاز خطر ظاهر إذا أسىء استعمال الحرية الممنوحة ، والنزاهة هى التى تكفل التزام حدود الواجب فى هذه الحال .

ومن هذا كله نفهم أن الحكومة تؤسس فى أسباب قيام سلطتها ، ودواعى انتظام أحوالها الموجبة للطاعة الشرعية على ثلاثة أمور : الحاجة العامة المـاسـة إليها ، والكفاية العملية والعلمية فى العمال القائمة بهم ، ثم الاستقامة والنزاهة التى هى روح النظام وباعث الطاعة .

وكل مجتمع يتكون من فئتين : الشعب والحكومة : أما فئة الشعب فمعلوم أن الحاجة الاجتماعية أوجبت توزيع الأعمال فيها واطراح القيود الطائفية التى هى ضرر اجتماعى عظيم ؛ فلقد يكون الفقر مهداً لكثير من العباقرة والفلاسفة العظام ، ولهـذا أخذت الأمم تعدل فى نظامها عن مبـدأ الطوائف إلى مبـدأ الديمقراطية المؤسس على مبدأ الحرية العامة والتنافس المؤدى إلى خير النتائج .

أما الطبقة الحاكمة فلها فى كل زمان ومكان صورها وأشكالها : فإذا كانت السلطة العليا ترجع إلى قبضة إنسان واحد ـــ كانت « دولة ملكية » . وهذا

النوع إما أن يكون حكما مطلقا إذا كان الملك صاحب الرأى وحده ، وإما أن يكون دستوريا إذا اشتركت الرعية فى إدارة شئون البلاد . وترجع الحكومة الملكية بنوعيها إلى الوراثة .

وهناك الحكومة المتعددة الرآسة : لكل عظيم فيها زعامة يتصدر بها بلا مراقبة ولاسيطرة: كما كان الشأن فى حكم المماليك بمصر ، ومساوى هذا النظام أكثر من أن تذكر .

ومن تلك الأشكال حكومة الأشراف حيث تكون السلطة فى يد كبار الملاك يستبدون بها على من دونهم : كما كان فى عهد الاقطاع فى العصور الوسطى .

ومنها الحكومة الجمهورية حيث يمثل الشعب أو الولايات نواب ينتخبون للنيابة عنها ، وتكون رياسة الجمهورية إلى منتخب من الأمة بالاقتراع. والكفاية والنزاهة فى هذا النظام قد توصلان إلى أعلى المناصب . وسواء أكانت الطبقة الحاكمة ملكية أم جمهورية فإن واجباتها كثيرة ومهامها عظيمة ، كما أن على الشعوب أدبيا واجتماعيا حيال حكوماتهم واجبات كثيرة تكفل هناءة الجميع واستتباب الامن

لا يصح اتخاذ حب الوطن وسيلة إلى العدوان على الشعوب

إن عظمة الوطن غاية كل وطنى ، ولكن التطرف فى حب الوطن وتعمد محاربة الناس ، وإزهاق الأرواح لامتلاك البلاد كل أولئك ليس من الوطنية الصحيحة ؛ فإنها أعمال أدنى إلى الأثرة والظلم والتوحش منها إلى الوطنية والعدل والانسانية .

حقا إن الدفاع عن الوطن يقتضى محاربة الخصم المعتدى ، ويسوغ قتله ؛ ولكن يجب أن نفرق بين الذود عن الحق والاعتداء وبين الدفاع عن النفس والوطن والعدوان على الشعوب لسلب الحقوق وبسط السلطان ، ولكن الخلائق لم تنتبه إلى إضرار الحروب إلا بعد أن أودت بكثير من النفوس ، وبعد أن أروت الأرض بالدماء التى لم تمحها دموع اليتامى وصرخات الأرامل .

إن اعتياد الشر يقتل فى نفس الشرير كل العواطف النبيلة ، كذلك تعود الناس ارتكاب هذه الجرائم جعلها أمرا مألوفا : قاموا يطلبون السلم وألحوا فى الدعوة إليها بيد أنها لم تخالط قلوبهم ، ولم تصبح جزءا من عقيدتهم ، ولاتزال عاطلة من آيات الإخلاص ، ولو كانوا جد مخلصين لها لرجعوا فى أعمالهم إلى شرائع الإنسانية وإلى الدين والعقل ، فهل تبشر ظواهر الحال بهذا الانقلاب ؟

إن مانسمع عنه من ازدياد القوات المسلحة ومن المباراة فى الافتنان لابتداع أساليب القتل يدلان على امتداد أجل المظالم إلى حين طويل ،ويؤكدان تفشى جنون الوطنية بين أعداء المجتمع .

لقد يفتخر الناس بالعدل و بغيرتهم عليه ، ولكنهم يزهقونه بأعمالهم ، ويحملونه ماهو براء منه بالرغبة فى امتلاك ماليس لهم ، وبإباحة قتل من يدافع عن بلاده ضد اعتدائهم كأن العدل يتبدل وفق شهوات النفس القاهرة ؛ أماوالعدل يسمو عن هذه المرونة فإن الصور التى تصوغها القوة لإخفاء الظلم وراء ألوانها الزاهية لاتحط من قيمة العدل الحق ، وإنما تشعر بأن الخادعين لازالوا يحسون بفظاعة مايذيقونه الناس من أنواع العذاب على الرغم من تجردهم من عواطف الطيبة ، وهم حين يسرفون فى القسوة والظلم يحاولون تلطيف ظواهرها بما يختلقونه من الصور الكاذبة ؛ فما أجدر الإنسان أن يقول : ما أضعف القوة الظالمة أمام الحق والإنسانية !

إن إثما دونه كل إثم أن ينصرف أبناء (الوطن) عن القيام بحقوقه قانعين من الوطنية بالفخار بماسلف من أخباره ، والتباهى بما درس من آثاره ؛ فما كانت الوطنية إلا تلك العاطفة التى تزكى فى نفوسنا حب الوطن وتحبس أبلغ جهودنا وأنبل مساعينا لخيره والعمل لمجده ، وإذا كان للوطنية الصادقة مظاهر عدة فإن أجلاها وأوضحها الشعور بالواجب الوطنى فهو مادة القومية الحق ، وهو دليل الوجود السياسى فى هذا الوجود ؛ فحق علينا أن نؤثر وطننا بكل ما أوتينا

من جهد وقوة ، وأن نخلص له الحب ، ونفرح الفرح كله لما يناله من خير ونحزن الحزن أجمعه لما يصيبه من أذى وضير ، وما كان الوطنيون حقا ليتكلفوا تلك العاطفة؛ فلقد أجرتها الأزمان مجرى الطبيعة ، وإنها لتزكو وإنها لتمتد إلى أقصى غاية كلما كان (الوطن) فى خطر ؛ أليس فى بلاء الوطن بلاؤهم وفى شقائه ذلهم وشقاؤهم ؟

ولقد يؤذن النفير بالحرب ذيادا عن حرمة الوطن فسرعان ماينسى أبناؤه منافعهم ولذاتهم وكل ماتطلعوا إليه من متع الحياة وأسبابها ، بل سرعان ما ينسون أبناءهم وأهليهم وأدنى الخلق إلى قلوبهم ، ينسون كل أولئك ولا يذكرون إلا شيئا واحدا هو (الوطن) ، ولهذا (الوطن) ينفرون خفافا ليبذلوا فى سبيل حريته ومجده واستقلاله مهجهم طيبة بها نفوسهم ؛ إذ كان (الوطن) كما سلف عليك هو كل تراث الآباء ، وهو كل مجد الأبناء ، وماخير العيش بعد كل هؤلاء ؟

ذلك واجب الوطنى وقت الحرب ، وعليه (للوطن) واجبات أخرى وقت السلم : وهى التعاون مع سائر الأفراد على العمل لعظمته وتنمية ثروته الأدبية والمادية ، وليس يتهيأ ذلك إلا إذا قام كل امرئ فى دائرة عمله بواجبه جهد الطاقة : أما الأبناء فبالتوافر على الجد فى تحصيل العلوم وحذق الفنون ، وأما الآباء فبالعمل على ترقية أسرهم وتهذيب أبنائهم وتدريبهم على الفضائل وأخذهم بمحمود الخلال ، وأما العمال فبالاجتهاد والصدق فى مهنهم وفنون صناعتهم ، وأما النواب فبسن النظم والقوانين الكفيلة بإسعاد قومهم ، وأما الحكام فبالسهر على مصالح الشعب وأخذه بالمعدلة وجمهور الأمة باحترام القوانين والتزام حدودها وهكذا .

واجب وطنك عليك

حب الوطن يذوى فى كثير من النفوس التى شغلتها الأثرة والأعمال ، أما كبار النفوس فلا يشغلهم شاغل عن حب وطنهم والعمل لرفعته . إن كثيرا من

الناس حتى الخواص يخلطون بين الوطنية والشهوة السياسية التى لا تكون مشروعة إلا إذا كانت الوطنية أساسها ، ولكن منفعة الوطن حين يقع النزاع بين الأحزاب تكون أقل مانفكر فيه ، تدفعنا إليه البغضاء ثم العناد والاندفاع الأعمى الذى يوجه إلى حب الغلب مالنا من الأفكار والمشاعر والقوى ثم مالنا من الطمع والمنفعة الشخصية التى هى الشغل الشاغل للإنسان أبداً .

ينبغى لكل من يريد أن يشتغل بأعمال وطنية ولو عن رغبة أن يفحص عن قلبه ويسأل نفسه : أيريد مجد وطنه حقا ؟ أم نجاح فريق معين ؟ إن لنا مهارة فى إخفاء شهوات رديئة تحت ألفاظ فخمة حتى إننا لنخدع أنفسنا فى كثير من الأحيان . نعرف طهارة نياتنا إذا أحسسنا من أنفسنا العجز عن تغيير شعورنا أوسيرتنا بتغير الحظ ، وإذا كنا مستعدين للعمل فى أى صف من غير أن نطمع فى الصف الأول ، وإذا كنا نحب كل ما هو خير للوطن وإن لم ينله على أيدينا أو على أيدى من نحب . إن المدرسة الحقيقية للإنسانية هى الوطنية ومدرسة الوطنية هى فكرة الأسرة . إنما نتعلم حب الناس والوطن بجانب مهد أطفالنا . كل المشاعر الطيبة تنشأ من هذا الينبوع كأنها نتيجة عدوى صالحة راضية ؛ فكما أن عقلى يسلك طريقة التحليل ولا يشمل العالم بنظرة واحدة فقلبى يحب أولا من يجاورنى ، ثم يقوى ، فيمتد حنانه إلى الإنسانية .

صفوة القول : وصفوة القول أن الوطنية توجب أن يبذل المرء ما يقدر عليه مما أعطاه الله من العلم والمال والخبرة والنصح فى عامة الأحوال والأزمان لمنفعة أهل وطنه : فيستقيم فى (وظيفته) ، وينصح فى تجارته ، ولا يغش فى حرفته ، ويبذل جهده فى تحسين حالته ولو بالسفر إلى الممالك البعيدة لتحصيل علم يفيد به قومه أو صنعة ينتفع بها فى وطنه أو تجارة يجلب منها لبلاده ما تمس إليه الحاجة ونحو ذلك من المقاصد الصحيحة .

وعلى المحب لوطنه أن يدافع العدو الذى يحاول اغتصاب الوطن واحتلاله ، وأن يجاهد فى سبيله بالأموال والأنفس احتفاظا بما لأهله فى وطنهم من إقامة شعائر دينهم وتقلبهم فى أملاكهم وصون حريمهم وتصرفهم فى معايشهم والقيام على تربية أولادهم وذريتهم .

وقد أصبح للجهاد معنيان : معنى شرعى ومعنى مدنى :

أما معنى الجهاد الشرعى فهو بذل الجهد والطاقة فى مدافعة العدو عن البلاد كما يبذل أبناء وطن جهدهم فى الدفاع عن وطنهم ، فإذا نادينا بالجهاد فى المسلمين كان المراد استنفارهم للدفاع عن وطنهم وعن أبناء وطنهم من أى ملة كانوا ، وليس معناه حض المسلمين على مقاتلة غيرهم ممن لم يكن على دينهم ولو كان من أبناء وطنهم المكلفين معهم الدفاع عنه .

وأما معنى الجهاد الذى دعوناه مدنيا فهو أن أهل أوربا وبعض (المواطنين) من أهل الكتاب يفهمون من إطلاق كلمة الجهاد أنه عبارة عن تهييج عامة المسلمين على المخالفين لهم فى الدين أيا كانوا وحضهم على الهجوم عليهم من كل صوب ، وإعمال السيف فيهم ، وهو معنى يبرأ المسلمون ودينهم الطاهر إلى الله منه ؛ فإن الجهاد فى هذا المعنى من صنيع من لا يقيم للدين وزنا ، ولا يفهم للاجتماع الإنسانى معنى ، وهو مناف لتعاليم الإسلام وأوامر القرآن الكريم فى مثل قوله تعالى : (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) فليفقه هذا من يظن أن الإسلام يحض على مقاومة سائر من لم يكن على دينه من متعصبة الإفرنج ، إذ ليس بعد هذه الآية الكريمة موضع للريب والاشتباه فى طهارة الإسلام وبراءته مما يصمونه به ، وليس (الجهاد) بمعناه الشرعى القرآنى غريبا عن أصول مدنية أوربا التى تربى أبناءها على حب الوطن والدفاع عنه إلى حد الاستماتة فى سبيله ، فكيف تكون استماتة الغربيين فى الدفاع عن وطنهم كرامة وشرفا وفخرا لهم ، وتكون استماتتنا

معشر المسلمين فى الدفاع عن وطننا همجية و توحشا وعارا علينا ؟ أذلك لأننا نسمى هذه الاستماتة جهادا وهى كلمة عربية فصيحة مؤداها بذل الجهد والطاقة فى الدفاع عن الوطن وما يتبعه مما فسرناه به ؟ ! !

الوطن لايخليك من :

(١) أن تدافع عن البلاد إذا هاجمها عدو ، أو تعدى على حريتها متعد ، وهذا شأن الجنود .

(٢) وأن تقف حياتك على خدمة الوطن ، وهذا شأن السياسيين والمصلحين

(٣) وأن تؤدى الواجب على أكمل وجه وهذا شأن الناس كلهم .

(٤) وأن تشجع المصنوعات الوطنية والمحصولات البلدية ، وتفضلها على غيرها من المصنوعات والحاصلات الأجنبية .

وعلى الصانع والمنتج أن يبذلا الجهد فى جعل المصنوع والمنتج فى حالة لاتقل عن أمثالهما مما يرد من الخارج لينصرف الناس عن السلع الأجنبية ، ويقبلوا على عروض التجارة المصرية ، فتزداد ثروة البلاد ، ويدوم سيرها فى طريق الرشاد

أهم الخلال التى يجب أن يتصف بها قادة الوطن ونوابه

تعرف الرجال من أقوالهم وأفعالهم وإحسانهم واستعدادهم وتفانيهم فى عمل المنافع ، وحب الانسانية ، وعضد المشروعات الخيرية ؛ فالنائب لايُطلب بين خزائن النقود حيث يكون محجوبا ، ولا من وراء سجوف النعمة ورغد العيش حيث يتوارى عن عينك ؛ فإن من ترفع عنك لايهبط إليك ، ومن ابتعد عنك لايتبعك إذا مشيت إلى خير ، ولا يمتزج بين أفرادك فى ضيقك ، ولا يقودك فى حاجتك إلى الهداية فهذا ليس هو ؛ إنما نائب الوطن من كان له فى سرائه وضرائه ، ومن يضحى بنفعه لينفعه ، ومن يضع نفسه ليرفعه ، ومن يرصد معارفه وقوته وأوقاته له .

النائب مشترع للقوانين ، وأول ماتجب عليه معرفته أن يحسن علم الحقوق ،

ويعرف حركة المجالس النيابية عند الأمم الراقية ، ويحسن تاريخ أمته واجتماعها ، ويعرف ما يخفضها ويرفعها ، ويدرك علائق حكومتنا بالحكومات الأخرى وما تم بيننا وبينها من المعاهدات وما نالوه منا من الامتيازات . فإذا توسم الشعب جميع هـذا في شخص جمع بين العلم وعلو الهمة وحسن الإدارة والتنزه عن التحزب والأغراض فعليه أن يلتمس رياسته ولو كان الكوخ مسكنه أو كانت الدسكرة موطنه ، فإن هذا من تطلبه (الوظيفة) وإن كان هو لا يطلبها .

ومن لم تكن له هـذه الصفات فليس هو ولو أعجبتك وعوده وأقواله ؛ لأنه ليس كل من قال تحقق فيه الآمال . وقال بعض الفضلاء : إن (وظيفة) النائب الذي يصبح بنيله النيابة حائزا على الوكالة المطلقة عن الشعب ويغـدو ذا حق واسع في المراقبة التشريعية والمالية وذا سلطة كبيرة بالهيمنة على مصالح الأمة وصونها وينقـد أعمال ذوي الوظائف الخطيرة — هـذه (الوظيفة) لا يكفيها حب الوطن أو الوجاهة في القوم أو الثراء أو الجراءة ، بل تستدعي اطلاعا واسعا وفكرا ثاقبا وعقلا مثقفا ، ولا تقاس (بالوظائف) التي دونها ؛ فإن النائب لم يقلد مقاليد الطائفة التي انتخبته فقط نائبا عن إقليمها بل مقاليد مئات الألوف التي تقطن جميع أرجاء الوطن الواسع ليتصرف بها تصرفا اجتهاديا واستقلاليا : من حيث سن الشرائع الجديدة وتشذيب الموجود منها بما يلائم الحاجات العصرية والعنصرية ، ومن حيث تنظيم القوة التي يرتكز عليها شرف الأمة السامي تنظيما يحفظ الحوزة وينفي عن الوطن التسلط والتحكم الأجنبي ، ومن حيث التشبث بالأمور الاقتصادية والنافعة التي هي مبـدأ سعادة الشعوب في كل حين وآن . . .

من أجل ذلك وجب أن يكون النائب :

أولا : عالما بالقوانين القضائية والإدارية الموضوعة علما واسعا يستطيع أن ينقد به حسنها من منقودها ، ويكون عارفا بمواضع خللها ونقصها وصعبها وسهلها ؛

ليتمكن من تعديل ما يجب تعديله وتهذيب ما يجب تهذيبه ورد ما يكون محظورا وقبول ما يكون مصيبا ؛ ليكون كل منها قريب المأخذ سهل التطبيق ، فتحصل الفائدة المطلوبة من كلمة النظام .

ثانيا : أن يكون مطلعا على قوانين الأمم الراقية التى سارت عليها ، فوصلت إلى غايتها ومأمنها من الخير والمكانة لكى يستطيع أن يقيسها إلى حاجاتنا ، فينقل أو يحاكى منها ما يراه موافقا .

ثالثا : أن يكون دارسا نظريات أرباب الحقوق والإدارة واقفا على آرائهم ومطالعاتهم ليكون بعيد مرامى النظر فيما يرتئيه لا يقترح أمرا ولا يعزم على تنقيح شىء أو زيادته إلا وهو مدعم بثاقب الفكر مبنى على أساس متين وركن ركين .

رابعا : أن يكون آخذا بقسط وافر من الفنون الاقتصادية نظريا وتطبيقيا واقفا على أسباب النهضات الاقتصادية فى البلاد الراقية ودواعى الانحطاط الاقتصادى فى بلادنا ؛ ليستطيع التفكر فى إحيائها بعد موتها ، ويتشبث فى المشروعات العامة خصوصا وليتمكن من اتخاذ التدبيرات المحتومة التى ترقى الزراعة فى بلادنا .

خامسا : أن يكون دارسا علم حقوق الدول العامة والخاصة مطلعا على المعاهدات والعقود الدولية واقفا على تواريخ الأمم السياسية من حيث أطوارها التى تطورت بها حتى وصلت إلى ما عليه الآن ؛ ليكون ذا بصيرة فى الحقوق المتقابلة والمناسبات الموجودة بين كل من دولتنا والدول الأخرى وبين كل دولة وأخرى .

سادسا : أن يكون متتبعا سير الحوادث الكونية من سياسات ونهضات واختراعات وكشف وما يطرأ من الطوارئ والأحوال وذلك بمطالعته الصحف والمجلات ؛ لئلا يكون غافلا عما يجرى فى المجتمع العام جاهلا بشئونه المتحولة

وتطوراته المتجددة .

سابعا : أن يكون دارسا حق الدرس فن تقويم البلدان (الجغرافيـة) الطبيعي والسياسي والاقتصادي ؛ ليكون ذا خبرة بمواقعها وقابليتها واحتياجاتها .

ثامنا : أن يكون واقفا تمام الوقوف على احتياجات الوطن من الشرائع والمنافع وعلى أخلاق الشعب من حيث نزعاته وميوله وعلى ماتقتضيه مشارب كل إقليم وأمزجته على حدته وعلى الأخص مايؤمن حقوق العناصر المختلفة المجتمعة تحت لواء واحد ؛ لتعيش بعضها مع بعض بكل صفاء وتعاون ، وتظهر أمام عدوها الخارجي بكل قوة وارتباط .

تاسعا : أن يكون ذا حزم في فطرته وعزم في همته ودماثة في أخلاقه ورصانة في أفكاره ويقين في آرائه لا بالأهوج ولا بالأرعن ، وأن يكون قوى الحجة شديد العارضة ثابت الجنان قادرا على الخطابة في ذلك المحفل العظيم بجراءة واسترسال ؛ ليستطيع أن يؤيد آراءه ويدعم اقتراحاته ، ومطالبه التي يتشبث بها سعيا وراء سعادة موكليه في حياتهم الاجتماعية .

هذه أهم صفات النائب العلمية والخلقية التي تؤهله لأن يهيمن على حقوق الوطن ويجاهد في سبيل سعادته .

الوطن كما يصفه أمير الشعراء المغفور له شوقي بك

الوطن موضع الميلاد ومجمع أوطار الفؤاد ، ومضجع الآباء والأجداد ، والدنيا الصغرى ، وعتبة الدار الأخرى ، الموروث الوارث ، الزائل عن حادث إلى حادث ، مُؤَسَّسٌ لِبَانٍ ، وغَرس لجان ، وحيٌّ من فانٍ ، دواليك حتى يكسف القمران ، وتسكن هذى الأرض من دوران .

أول هواء حرك المروحتين ، وأول تراب مس الراحتين ، وشعاع شمس اغترق العين ، مجرى الصِّبا وملعبه ، وعُرس الشباب وموكبه ، ومراد الرزق ومطلبه ، وسماء النبوغ وكوكبه ، وطريق المجد ومركبه ، أبو الآباء مُدت له

الحياة مخلد ، وقضى الله أن لا يبقى له ولد ، فإن فاتك منه فائت فاذهب كما ذهب أبوالعلاء عن ذكر لا يفوت ، وحديث لا يموت .

مدرسة الحق والواجب ، يقضى العمر فيها الطالب . . . حق الله وما أقدسه وأقدمه ، وحق الوالدين وما أعظمه ، وحق النفس وما ألزمه ـ إلى أخ تنصفه أو جار تسعفه ، أو رفيق فى رحال الحياة تتألفه ، أو فضل للرجال تزينه ولا تزيفه ، فما فوق ذلك من مصالح الوطن المقدسة ، وأعباء أماناته المعظمة : صيانة بناته ، والضنانة بأشيائه ، والنصيحة لأبنائه ، والموت دون لوائه ؛ قيود فى الحياة بلا عدد ، يكسرها الموت وهو قيد الأبد . رأس مال الأمم فيه من كل ثمر كريم ، وأثر ضئيل أو عظيم ، ومدخر حديث أو قديم ؛ ينمو على الدرهم كما ينمو على الدينار ، ويربو على الرذاذ كما يربو على الوابل المدرار ، بحر يتقبل من السحب ، ويتقبل من الأنهار .

فيا خادم الوطن ماذا أعددت للبناء من حجر ، أوزدت فى الفناء من شجر ؟ عليك أن تبلغ الجهد ، وليس عليك أن تبنى السد ؛ فإنما الوطن كالبنيان فقير إلى الرأس العاقل والساعد العامل ، وإلى العتب الوضيعة ، والسقوف الرفيعة ، وكالروض محتاج إلى رخيص الشجر وثمينه ، ونجيب النبات وهجينه ؛ إذ كان ائتلافه فى اختلاف رياحينه ،

والوطن شركة بين الأول والآخر ، وبين الحاضر والغابر ، لا يرثّ لها عقد وإن تطاول العهد ، مؤسسةٌ بالمهد حينا وباللحد ... والوطن مستودع المفاخر ، وصوان المآثر ، وخزانة الأعلاق والذخائر ، لكل متقَن منها موقعه ، ولا ينبو بصالح فيها موضعه .

صحيفة الأخبار ، وكتاب الأبرار ، وسجل الهمم الكبار ، أسماء المحسنين فيه مرفوعةَ ، وأفعالهم مُثُلٌ للخلف منصوبة ، وحروف بماء الذهب مكتوبة ، فإذا أتت السنون ، ودارت على الرجال المنون ، ولحقت بالمُشايع الشّيع ، وذهب

المتبوع والتبع ، ونامت الحرابي عن الشموس ، وحيل بين النار وبين المجوس . انفتح كتاب الوطن من نفسه، وإذا الحسنات ثمَّ على الصدق مخضباة ، فلا الحصاة درة ولا الدرة حصاة ، وإذا الرجال يعظمون على الأفعال ، وإذا الوقائع قد نجبت منها الأبطال ، على قدر العمل يأتي الجزاء ، وبقدر جمال الأثر يكون حسن الثناء ، وليس أحد أولى بالوطن من أحد : (فما باستور) والشفاء فى مصله ، ولا (كال) والحياة فى نصله ـ أولى بأصل الوطن وفصله من الأجير المحسن إلى عياله ، الكاسب على أطفاله ، الفادى الوطن بأشباله وهم رأس ماله؟ فلا تتحمد على الأوطان بآثار كرم ، وإن حملت عليها الهرم ، أو نقلت إليها إرم ؛ فإنك لم تزد على أن أقمت جدارك ، وحسنت دارك . ولا تنس أنها الآلة التى رفعتك ، والهالة التى أطلعتك . ولا تحجب ذات الوطن بذاتك ، أو تطرف العيون عن وجهه بهذاتك . ولا تكن كالسرح نسى خلقه إذ علا على الارض وهى أمه ، ماؤها عصارة عوده ، وطينها جرثومة وجوده ، حتى إذا ترعرع وكبر أخفاها وظهر ، وحجب عنها الشمس والقمر ، خلعت عليه ما نضر ورف ، وألقى عليها ما يبس من الورق وجف .

فاطبع اللهم كنانتك على هذا الغرار ، وأعدها كما بدأتها محلة الأبرار ، واجعل أبناءنا أحرارا ، ولا تجعلهم أنصاف أحرار .

الوطن كما يصفه الأستاذ محب الدين الخطيب

إن كنت قد أسديت إلى الوطن معروفا بأن زدت فى عداد أهله فتى أو فتاة فاعلم بأن واجبك لم ينته بوجود فتاك أو فتاتك يعيشان كما يعيش أبناء الجيران وبناتهم ، بل إن هنالك واجبات أخرى إن لم تعمل على تحقيقها كنت أنت وفتاك وفتاتك نكبة على الوطن

إن وطنك ينشد الاستقلال ، هذا شيء ظاهر ، أنت تلهج به فى حديثك والصحف اليومية على اختلاف حزبياتها ونزعاتها ، تتحدث به فى كل يوم ، والشعب

يتغنى به في أناشيده وأسجاعه هو المشتغلون بالسياسة الوطنية يزعمون أنهم يعملون له

إن فتاتك وفتاتك يجب أن يكونا لبنتين فى سبيل الاستقلال ، بل يجب أن يكونا لبنتين صلبتين لا يتطرق الوهن لبناء الاستقلال من ناحيتهما . إن الذين ليس من مصلحتهم استقلال الشعوب الاسلامية يبثون فيها بمهارة ودهاء أنواعا من جراثيم أمراض إذا سرت فى الشعوب التى تنشد الاستقلال تصير غير صالحة للاستقلال ، وأكبر نكبة على الوطن أن يغفل قادته وساسته وأذكياؤه وأفاضله عن هذه الجراثيم حتى تدخل بيوتهم ، وتتسلط على فتيانهم وفتياتهم ، فيكونوا مصدرا من مصادر الوباء الذى يقضى على آمال الوطن فى الاستقلال

التخنث والاستخذاء للشهوة نوع من أنواع الجراثيم التى إذا سرت فى أمة فاقدة استقلالها تجعلها غير صالحة للاستقلال ، وإذا سرت فى أمة مستقلة تعرض استقلالها للضياع .

كل الأمم التى استقلت وتبوأت مقعد العز بين الأمم إنما نالت هذه المكانة بشيوع خلق الرجولة والمروءة فيها وبتغلب رجالها ونسائها على شهواتهم ، وكل الأمم التي فقدت استقلالها وانقادت لسلطان الأجانب كما ينقاد الحمار للانسان إنما سقطت فى دركات الذل لأنها انقادت أولا لشهواتها فقادتها شهواتها للعبودية

إن طريقة التعليم التى يسير عليها شبابنا لم تردعهم عن صرف مداركهم وذكائهم وجميع قواهم الفكرية لمخاصرة امرأة واقتناصها ، على حين أن أمثالهم من شباب أوربة يصرفون مداركهم وذكاءهم وجميع قواهم الفكرية لزيادة تحسين فى الطيارة ، أو إزالة عيب من عيوب الغواصة ، أو إفادة وطنهم وأنفسهم بضرب من ضروب الفائدة

إن كون الشاب من شباننا ناشئا فى بيت علم ، ومن أب فاضل تقى صالح لا يمنعه من أن يكون شابا مخنثا أسيرا لشهواته

إن دعوى الوطنية التي يتشدق بها بعض شبابنا لا تحول بينهم وبين إفساد أعراض نساء الوطن

إن أبناء الوطن هم ابني وابنك ، وأبناء أصدقائنا وأقاربنا وجيراننا وأمثالهم، فإن لم نبدأ أنا وأنت وأصدقاؤنا وجيراننا بتحويل أبنائنا وبناتنا إلى طريق الفضيلة ، فنجعلهم شبانا وطنيين حقا وشابات وطنيات حقا ـ كنا نحن الجانين على الوطن، بل على أنفسنا ؛ لأن الوطن هو أنا وأنت والآخرون

النكبة كلها آتية من طريق القدوة السيئة ، والخلاص منها يأتي من طريق القدوة الصالحة ، فلنكن أنا وأنت ممن يسن سنة حسنة في حياة الوطن، فيكون لنا أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ونربأ بأنفسنا أن نسن سنة سيئة ، فنبوء بخزيها وخذلانها إلى يوم الدين .

يجب أن نبدأ أنا وأنت بإصلاح منازلنا ، وتنشئة صغارنا على تقوى الله ، واحترام الفضيلة والتحلي بالرجولة، فإنها إذا ملأت صدر الفتى كانت أعراض بنات الوطن في نظره كأعراض شقيقاته ؛ لأن وطن الإنسان هو بيته مكبرا ، وأبناء الوطن هم أبناء أسرته الشاملة، وأنذل الشبان تنبو نفسه عن أن يمد عينيه إلى بنات يمت إليهن بقرابة ، وإن قرابة الوطن قرابة أجسام وأنساب مهما بعدت ، وقرابة الدين قرابة أرواح وعقيدة مهما تراخت .

ويجب مع العناية بإصلاح منازلنا أن نطالب وزارة المعارف بأن تدخل على نظام المدارس الأميرية تعديلا جديدا يشمل التربية العملية، ويجعل المدرسة متصلة بنفس التلميذ في جميع أدوار الدراسة . ومما يؤسف له كثيرا أن طائفة من الناس وفيهم فريق من العلماء والأعيان يدخلون أولادهم وبناتهم في مدارس الفرير والجزويت والراهبات ، لأن هذه المدارس مع أنها تبشيرية تتصل بأخلاق التلميذ والتلميذة وتراقبها مراقبة دقيقة ، فيتخرج المتخرج فيها قويم الأخلاق إلا نادرا ، على حين أن المتخرج في المدارس الأخرى يخرج منها كالقربة المملوءة بالرذائل

إلا أن يكون ممن عصم الله ، وكان أولى بمدارسنا أن تكون هى المعتنية بمراقبة الأخلاق .

وعامل ثالث من عوامل الفساد : هذه الصحف المصورة التى تحض على الفجور ، وتهون أمر الأعراض ، وتملأ رءوس القراء والقارئات بحكايات الفسق كأنه أمر عادى ، وكأنما هو الأصل وماعداه شىء غريب . هذه صحافة يجب على الحكومة أن تضع لشرها هذا حدا بنظام تسنه ، ورجال تراقبه ، وعقوبة تتناسب مع نتائجه .

وقد يبطئ علينا الزمان فى تحقيق أمنيتنا من جهة إصلاح المدارس ، والقضاء على الصحافة الفاسدة ، فيجب علينا منذ اليوم أن نبدأ بتربية أولادنا على علو الهمة ، وتحرير نفوسهم من أسر الشهوة بجميع أنواعها . ومتى جعلنا أساس التربية قمع الشهوة ، وتغلب الفتيان على أهواء النفس ـ كان لنا من أبنائنا جنود للفضيلة مؤيدون من الله فى كل ما ينشدونه من أسباب الغلبة والظفر

الوطن والانسانية

دلت الملاحظات التاريخية على أن عاطفة حب الوطن قد ترقت تدريجا ؛ إذ لم تكن فى صدر التاريخ تتجاوز دائرة الأسرة ، ثم امتدت شيئا فشيئا حتى تناولت القبيلة فالأمة ، وأصبح يحس الإنسان أن عليه لأهل وطنه واجبات عظيمة قد تقتضيه فى ساعة الشدة بذل ما يملك من مهجة ومال أداء لواجب الوطنية ، غير أن وراء هذا الواجب واجبا آخر هو حب الإنسانية جمعاء ، ولا يصح أن يقال حب الوطن من أداء الواجبات للمجتمع البشرى لأنه الأسرة الكبرى لبنى الإنسان ، والتوفيق بين هذين الواجبين ميسور فى زمن السلم ؛ فحق أن نحب الإنسانية ونصرف من جهودنا لمعونتها أسوة بحبنا وطننا وما نبذل من قوانا لمنفعته ومجده ، وكثيرا ما تستفيد الإنسانية نفسها من طريق عملنا لمصلحة الوطن

وإن هذا التوفيق على سهولته غير ملحوظ دائما؛ إذ يذهب الظن ببعض الناس إلى أنهم لا يحبون وطنهم إذا هم لم يبغضوا ماعداه ، وأن كل ما يعمل لمنفعته خير وكل ما يصنع لمنفعة سواه شر . يريد هذا الفريق أن يعظم من شأن بلاده وهو قدر مشروع ، ولكنه يتوسل إلى ذلك بكل ما يتهيأ من الوسائل حتى المجافي منها للعدل والمروءة ، وذلك مناف لما تدعو إليه الأخلاق .

وقد يتعذر التوفيق بين حب الإنسانية وحب الوطن إبان الحرب بحكم التدافع والتناحر من جهة ، وبما يملك العواطف من وجد في النفوس وغل في الصدور من جهة أخرى . على أنه قد يخف أثر هذا كله إذا ذكر الناس أن الغرض من القتال هو الدفاع عن الوطن يضحى فى سبيل صونه بكرائم الأموال ومهج القلوب ، وهذا القدر لا يحجب حب الإنسانية ، ولا يجانب مكارم الأخلاق ؛ فحق أن يعامل الظافر بالرحمة كل خصم لم تعد له طاقة على القتال جريحا كان أو أسيرا ، إذ ليس الغرض من الحرب إبادة الخصم بل تعطيله عن القتال .

لا جرم أن الإنسانية هى الوطن الأكبر لجميع الأفراد ، وهى التحلى بالمحامد مثل الجود ، وكرم الأخلاق والعطف على الناس وحب العدل . ومحال أن ينال الإنسان شرف الاتصال بها إذا لم تكن له نفس عالية ، ورغبة صادقة فى الخير . وأقرب المسالك إلى الإنسانية هو الحنان على التعساء ، وحب الوطن ، فحب الناس جميعاً لأنهم من الينبوع الإنسانى ؛ ومن المحقق أن هناءة العالم تكون على قدر التوائق بين الناس ، وعلى قدر رغبة هؤلاء فى إزالة الحوائل التى تحول دون تقرب الطوائف والأمم والشعوب بعضها من بعض ، ودون تبادل الاحترام والحب .

والطريق المؤدى إلى هذا النوع من السعادة بعيد الشقة كثير العقبات يحتاج قطعه إلى الزمن الطويل والصبر والحكمة ؛ فالطفرة تؤدى إلى عكس الغاية ،

وإلى خلق المثبا كل بدلا من إزالتها ؛ فهى أدنى إلى الرعونة منها إلى الصواب والحكمة .

فمن الجريمة أن ينتهج أنصار الإنسانية نهجا لا يكون كفيلا بتحقيق مارغبوا فيه ، وحرام أن تزول السعادة عن العالم بسبب الإنسان ذاته عاشق السعادة .

وعاطفة الحب هى العامل الأقوى فى تحسين حال الإنسانية ؛ لأنها تقلل الشرور ، وتقوى لحمة التقارب بين الناس ، وتفتح مصراعى الباب المؤدى إلى الغبطة .

وليس من المتعسر إيجاد هذه العاطفة الشريفة ؛ فالجميع يعرفون تأثيرها النافع فى حياتهم الأسرية ، وفى نفوس كل من يقاربهم من الناس .

وما يشعر به الإنسان رقيق العواطف من اللذة والهناءة مع الحب – يتعذر على القلم رسم حقيقته رسما صادقا ، اللهم إلا إذا كانت نفس الكاتب تفيض بهذا الإحساس .

وتمكن هذه العاطفة من القلوب يسمو بالناس إلى درجة الإحساس حتى مع الجهل ، وإلى رقة الشعور حتى مع توافر أسباب القسوة .

فليس ما يمنع أن تكون نفس الإنسان المغمور طيبة ، وشعوره حيا ، وعواطفه رقيقة كنفس أنبه الناس وأكرمهم أصلا .

إن الانعطاف والحب يطهران القلوب ، ويبلغان بالمرء إلى ما لا يصل إليه بدونهما من الطيبة والإنسانية ، وينابيعهما موجودة فى كل القلوب لا تحتاج إلى غير العناية ؛ فيتفجر منها كل ما يسعد الإنسان ويسعد الوطن ، ويسعد المجتمع .

الوطنية الانسانية لاتنافى الحقوق الدولية المرعية

لاغنى لأية دولة فى العالم عن تبادل الآراء والمتاجر مع الدول الأخري ، وهـذا الاتصال الحتمى كان وما زال منشأ للحروب والتصـادم والمعاهـدات وغيرها ، ولذلك كان من الضرورى وضع قواعد وآداب للتعامـل بين الأمم والشعوب ، وهذه القواعدمهما اختلفت وتعـددت لابد من الرجوع فيها إلى أساس من الحقوق الطبعية ، وهي حقوق الأمم فى أوطانها كيفما كانت أحوالها وملابساتها .

تتألف الأمم والشعوب من أفراد تجمعهم رابطة الجنس واللغة والتقاليد القومية والمصالح الأهليـة المشتركة،وكل فرد من هؤلاء يكتسب حقوق الجنسـية من هذه الأمة . والشعوب بهذا تعتبر حيال الشعوب كالأفراد فيما بينهم : فلـكل شعب حقوق يجب أن يتمتع بها ، وعلى الشـعوب الأخرى احـترام هـذه الحقوق ، كما يجب على الطبقة الحاكمة أن تدافع عن شعبها بالوسائل السلمية ، ثم بالوسائل الحربية إذا اقتضى الحال .

أما الشعوب التابعـة لشـعوب أخرى بناء على اتحاد اختيـارى أو حماية أو سيادة اسمية مع بقاء اسـتقلالها الإدارى ـ فحق المخابرات والدفاع عنهـا يتبع نظما قد لا تختلف كثيرا عما تقدم ، وإن كان للحماية حقوقها المحدودة على حسب منزلة الأمة شبه المستقلة من صاحبة السيادة .

وتعيين السفراء المعتمـدين السياسـيين يرجع إلى كثرة المصـالح المتبادلة ، والعلاقات المتعددة بين الأمم ، وما لهذه العلاقات المتبادلة من أهمية ، وسواء فى ذلك العلاقات السياسـية والمخابرات الدولية ، أو ما اتصل منها بمصالح الأفراد من رعايا تلك الحـكومات

وتقضى الآداب الدولية بأن تحترم الأمم ممثلى غيرها من السفراء والمعتمدين فى أشخاصهم وجميع مظاهرهم وشاراتهم القومية ، وأن يكون لهم فى الرسميات مقامات واعتبارات ؛ كذلك يحتم الأدب الدولى أن يعتبر نزيل البلاد ضيفا مكرما ، وأن تجرى محاكمات الأجانب على أعدل المبادئ المتبعة وأحكمها ، ومن جهة أخرى يقضى الأدب الدولى على كل نزيل فى غير بلاده أن يحسن معاملة أهل تلك البلاد التى تضيفه وينتفع بخيراتها ، وألا يكون فظا أو شرها أو مسيئا إلى النظام المحلى مستندا على قوة دولته .

وتبدو مساوى الإخلال بالنظام اعتمادا على قوة الدولة الأصلية واضحة جلية فى الامتيازات الأجنبية التى ابتليت بها مصر ؛ فهذه الامتيازات ليست من اللياقة أو الأدب الدولى فى شىء ، وإنما هى مبنية على القوة والعسف . وإن كانت الملابسات فى الأيام الغابرة قد أباحت هذه الامتيازات فإن النهضة الشاملة التى انبثق نورها فى الشرق تأنف منها وترى فيها شر مايجلب الضرر، ويعرقل سير النهوض القومى ، ويخالف مبادئ العدل والحرية والمساواة

والاتفاقات الدولية واجبة الاحترام ، والعهود التى تبرم بين الدول يجب فيها الوفاء التام ؛ وإن كانت هناك اتفاقات بين شعوب متآلفة تقضى بمجاملة الرعايا فإن هذا لايجيز بأى حال أن يعامل غيرهم بالقسوة والظلم انقيادا للأهواء السياسية .

وللحروب إذا اشتعلت نارها بين الأمم آداب ومجاملات تختلف فى هذا العصر عما كان عليه الأقدمون من شن الغارات ، والفتك بالأرواح لمجرد إشباع أطماع الملوك والقواد ، أو إرواء نفوسهم المتعطشة للدماء على حساب الشعوب المسكينة . أما الآن فلايجوز أن تقوم الحروب بين الدول إلا لأسباب جوهرية ، ومهما يكن الحال فالحرب قوة فعالة تنهك قوى الأمم والشعوب ، وتحصد الأرواح والأموال، فالالتجاء إليها لايجوز إلا لأقوى الأسباب وبعد إخفاق

المفاوضات السلمية والتحكيم . وليس للدولة العدوة مباغتة عدوتها وأخذها على غرة بل هي مكلفة أن تفاهم معها ثم تنشر البلاغ الختامى معلنة فيه الحرب بمسمع من العالم ، وفى هذا البلاغ تبين الأسباب التى دفعتها إلى هذا المسلك الوعر ، وتعطى المدة الكافية لاسترجاع السفراء وتدبير أمن ومصالح رعايا الدولتين المتحاربتين .

وحين يحمى وطيس القتال لا يجوز أن يمثل فى القتلى بجنود الدولة المتحاربة ، أو تساء معاملة الجرحى والأسرى ، وألا تترك الأمر فوضى فى يد صغار الجنود وجلة المتطوعين ينهبون ويسرقون وينتهكون الحرمات .

والدولة المحايدة مكلفة ألا تعين عدوا على عدو من المتحاربين ، وألا تنتصر لأحدهما على الآخر وإلا انتهكت حرمة الحياد . ومتى انتهت الحرب بشروط من الصلح وجب الوفاء بها فى دقة وأمانة .

والآن ننتقل إلى مسألة « السلطة على البحار » : فلكل دولة حقوقها وسلطانها على البحار التى تغمر سواحلها وسواحل البلدان التابعة لها ، ومن أجل هذا يقال : « المياه الانجليزية ، والمياه اليابانية ، والمياه المصرية الخ » ولكن هناك ملابسات تبيح التصرف الدولى فى بعض المياه القومية لفوائد محدودة أو موازنة مطلوبة : كما أقفل الدردنيل العثمانى فى وجه السفن الحربية باتفاق دولى ، وكما جعلت قنال السويس دولية يباح اجتيازها لسفن كل الدول الحربية وغير الحربية . ولقد صارت التجارة البحرية والملاحة حرة إلى حد ما ، وصار لها فى القوانين المحلية لكل أمة باب مخصوص .

وصفوة القول أن الآداب الدولية تقضى بأن تعيش الأمم فى سلام وأن تتبادل المنافع الحسية والمعنوية في وئام واتفاق ، فإذا تعارضت المصالح وقامت الحرب بين الأمم وجب عليها أن تراعى الله والإنسانية والآداب الدولية فى حروبها وأن تثق أن الحرب يتساوى فيها الغالب والمغلوب من ناحية الخسائر الفادحة

فى الأموال والأرواح .

الواجب على الانسان للانسانية

الانسان عضو فى أمته وفى المجتمع الانسانى ، لأن أصل الناس واحد : (أبوهم آدم والأم حواء) ، ومطلبهم واحد يتعاونون على إدراكه ، وهو القيام بأعباء الحياة وتذليل ما فيها من الصعاب :

الناس للناس من بدو وحاضرة   بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

ولا تسعد الأمة ولا يعيش المجتمع في الخير والنعيم إلا إذا أدى كل فرد ما عليه من الواجبات التى تتجلى فى مواساة الناس والرحمة بهم والعطف عليهم والرفق بضعفائهم وإنشاء الملاجئ والمستشفيات لفقرائهم ولعجزتهم ومرضاهم .

والانسان الكامل يعتبر نفسه عضوا من المجموع الانسانى يلحقه ما يلحق ذلك المجموع من خير وشر ورفعة وضعة وشقاء وسعادة ، فلا يعمل لمصلحة ذاته فحسب ، وإنما ينظر فى كل أعماله إلى مدى أوسع وغاية أبعد تشمل المجتمع البشرى عامته ، لأن الانسان مهما نال بسطة فى العلم والمال والجسم لا يستطيع أن يستغنى عن معونة المجتمع فى جميع الأمور المادية والأدبية : فمثل الانسان من المجتمع كمثل العضو من البدن أو الفرد من الأسرة : فكما يشرف الفرد بشرف أسرته ويقوى العضو بقوة سائر الجسم كذلك يشرف الفرد بشرف الجماعة البشرية ويسعد بسعادتها . ومن كان كذلك فهو الجدير بصفة الانسانية والخليق بتقدير الناس واحترامهم ، أما من كان ينظر فى تصرفاته إلى خدمة نفسه فحسب فهو الأنانى المرذول الذى لا يشعر الناس بحياته أو موته .

أول الواجبات الانسانية الرحمة

الرحمة سر إلهى أودعه الله قلوب عباده يدفعهم إلى عمل الخير والبر وينهاهم عن الغلظة والقسوة، والرحمة من الصفات التى تكسب صاحبها محبة الناس ورضا الله وتضمن له سعادة الدارين : قال تعالى مخاطبا نبيه عليه السلام : (وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ) وقال عليه الصلاة والسلام : « الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ » وقال حكيم فاضل : ألن جانبك لقومك يحبوك وتواضع لهم يرفعوك . فليكن كل منا رحيما بالناس: يعطف على ضعفائهم ، ويشفق على اليتيم والمسكين ؛ لينال الثواب الجزيل : قال تعالى : (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ) .

ويجب على المرء أن يقوم للعجزة والضعفاء الذين لا يستطيعون حيلة فى درء أذى يلحقهم أو مكروه ينزل بهم ـ بأوفر نصيب من رحمته وعطفه ، فيشفق عليهم ، ويعتنى بهم ، وينتصر لهم ممن يريد ظلمهم ، بل يعد نفسه منهم، ولا يأنف من الانتماء إليهم تطييبا لقلوبهم وحماية لهم من صولة الظالمين : قال صلى الله عليه وآله وسلم : « لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلاَّ رَحِيمٌ » وقال : « خَابَ عَبْدٌ وَخَسِرَ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ فِى قَلْبِهِ رَحْمَةً لِلْبَشَرِ » وقال أيضا: « اللَّهُمَّ أَمِتْنِى مِسْكِيناً وَأَحْيِنِى مِسْكِيناً وَاحْشُرْنِى فِى زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ » تطييبا لقلوبهم وصيانة لهم من صولة الظالمين .

والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم إنما بعثوا لأجل هداية البشر إلى الحق والعدل ، ولما كان ضعفاء البشر معرضين لضياع حقوقهم ولحاق الظلم بهم أعلن الأنبياء فيما أعلنوا من أركان دعوتهم أنهم أنصار هؤلاء الضعفاء وحماتهم ، بل إن سيد الخلق كما تقدم فى الحديث الشريف طلب إلى الله أن يجعله مع المساكين حيا وميتا .

وهذا الخلق الشريف أعنى (الشفقة والرحمة) لاوطن له ، ولاحد ينتهى إليه ، فالواجب أن يتعدى أثره إلى كل مستضعف من الإنسان والحيوان كما علمنا صلى الله عليه وآله وسلم في قوله : « فِي كُلِّ ذِي كَبِدٍ رَطبَةٍ أَجْرٌ »: (ورطوبة الكبد) كناية عن رطوبته بدم الحياة .

وليس للإنسان الرحيم أن يفخر على الحيوان بهذا الخلق (خلق الرحمة والشفقة) ؛ فإن الحيوان أيضا يتراحم ويواسى بعضه بعضا : وقد روى أن طائفة من العلماء كانوا يُفْطِرون فى مساء رمضان ، فغشيهم هرٌّ ، فكانوا يلقون إليه من طعامهم المرة بعد المرة ، وهو فى كل مرة يغيب ثم لايلبث أن يعود ، فرابهم أمره وتبعوه ، وإذا به يلقى ما يأخذ من الطعام بين يدى سنور كبير أعمى فى خربة ، فوقف الشيوخ حيارى ، ومجدوا الله تعالى الذى رحم العالمين بإيجاد عاطفة الرحمة فى نفوسهم ، ولولاها لأصبح الكون خرابا ، ولكانت الحياة فيه عذابا .

ومظاهر الرحمة بالضعفاء تختلف باختلاف هؤلاء الضعفاء وتنوع أسباب ضعفهم وحاجتهم .

فمنهم الخدم الذين يكونون فى البيوت يخدمون الأسر لقاء أجر ، فالرحمة بهؤلاء ومعاملتهم بالحسنى من أوكد الواجبات، بل إن وجوبها مما يلتحق بوجوب رحمة أفراد الأسرة بعضهم لبعض : وقد نبه الشارع إلى هذا فقال صلى الله عليه وآله وسلم : « مَا خَفَّفْتَ عَنْ خَادِمِكَ فِي عَمَلِهِ فَهُوَ أَجْرٌ لَكَ فِي مَوَازِينِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » البخارى

ورأى صلى الله عليه وآله وسلم أبامسعود الصحابيَّ رضي الله عنه يضرب غلامًا له فقال له :

« اعْلَمْ يَاأَبَامَسْعُودٍ أَنَّ اللهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغُلَامِ » البخارى. واغتاظت عائشةُ رضى الله عنها من خادمٍ لها ثم رجعت إلى نفسها

فقالت : لله درُّ التقوى؛ ما تركتْ لذى غيظٍ شفاء: تُريد أنَّ التقوى ومخافة الله تحول بين المغتاظ وشفاء غيظه ممن غاظه .

وَوَردَ فى المأثور : من خاف الله لم يَشْفِ غيظه .

ويدخل تحت النصيحة النبوية فى حق الخدم والأجراء فى البيوت ــ النصيحةُ بحق الصناع والعملة المستأجرين لأغراض أُخر ، بل خصهم صلى الله عليه وآله وسلم فى قوله : « أَعطُوا الأجيرَ أجرَهُ قبلَ أنْ يَجِفَّ عَرَقُهُ » .

ومسألة (عمال المعامل) والمستأجرين فى البيوت التجارية الكبرى من أكبر مشاكل العمران الحديث ؛ فإن هذا العمران إن كان حظر الاسترقاق الفردى فإنه مهد الطريق أمام طائفة من أرباب رءوس الأموال يحشرون إلى معاملهم ألوفا من إخوانهم فى الإنسانية ، فينقادون إليهم صاغرين مسوقين بالحاجة والعوز ، ثم يأخذون فى استغلالهم وتسخيرهم فى خدمة منافعهم وتوفير ثروتهم لقاء أجور يومية زهيدة يمسكون بها رمقهم ، ورمق عيالهم .

فالإسلام الذى جعل الرقيق والخادم أخا أو فردا من أفراد الأسرة لا يبخل برحمته وعطفه أيضا على (عمال المعامل) ؛ فهو بالطبع يرشد إلى مواساتهم ، وعدم تحميلهم فوق طاقتهم ، وأن يكون لهم نصيب صالح من كسب أيديهم وثمرة تعبهم : ولذلك قال عليه السلام: « أعطُوهُمْ أُجُورَهمْ مِنْ دُونِ مَطْلٍ ولاَ تَسْوِيفٍ » .

ومن الضعفاء الذين حض الإسلام على معاملتهم بالحسنى الأسارى: فقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يؤتى بالأسير ، فيدفعه إلى بعض المسلمين ويقول له : « أَحْسِنْ إلَيْهِ » فيبقى عنده اليوم واليومين والثلاثة ، فيؤثره على نفسه ، وكفى بهذا منقبة للإسلام وشهادة على سمو آدابه: ومن قوله صلى الله عليه وآله وسلم فى ذلك : « اسْتَوْصُوا بِالأَسَارَى خَيْراً » البخارى

ومن الضعفاء الذين تجب على المرء الرحمة بهم (الأطفال الصغار) سواء أكانوا أطفاله أم أجانب عنه : ومن أجمل ماورد فى ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا ، وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا، وَيَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ »البخارى

أما ماورد بشأن رحمة الفقراء والمستضعفين عامة فكثير :

من ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

« لِكُلِّ شَيْءٍ مِفْتَاحٌ وَمِفْتَاحُ الْجَنَّةِ حُبُّ الْمَسَاكِينِ وَالْفُقَرَاءِ »البخارى

« السَّاعِي عَلَى الأَرْمَلَةِ وَالمِسْكِينِ كَالمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ »البخارى

« والسَّاعى عليهم » هوالذى يغدو ويروح فى قضاء حاجاتهم ، وتهيئة مايلزم لهم من مسكن وكسوة وطعام .

« لاَ تُطْعِمُوا الْمَسَاكِينَ مِمَّا لاَ تَأْكُلُونَ » البخارى:

أى لاتطعموهم مما تأنفون منه وتتقززون ، فإنكم بذلك تكونون كأنكم لم تعطوهم شيئاً .

ووصفَ القرآنُ بعض الفُجَّارِ فقال : (إِنَّهُ كَانَ لاَ يُؤْمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ) : لم يذمه على عدم إطعام المساكين ، بل على كونه لايَحُضُّ غيره من الأغنياء على إطعامهم ، ومدّ يد الإسعاف إليهم . وفى هذا النصّ دلالةٌ على أنه يجب على أبناء الوطن أن يتداعوا إلى العناية بفقرائهم ، وتدارك الأسباب التى تخفف البؤس عنهم : من مثل تأسيس ملاجئ لعجزتهم ، ومستشفيات لمرضاهم ، ومدارس لأطفالهم . وذكر الطعام لايفيد الحصر ، وإلاّ فإنّ الشرع يحضّ على إيصال الخير إليهم بمُختلف الوسائل. وإن حضّ أبناء الوطن بعضهم بعضا على ما ذكرنا من ضروب العناية بالفقراء والمساكين ــ قد يستلزم انقطاع أفرادٍ منهم لهذا العمل ، وتوافرهم عليه . ومن

هنا تنشأ (الجماعات الخيريّة) و (جماعات البرّ والإحسان) و (جماعات التعاون).ومن أكبر مايساعد على تأليف هذه الجماعات بين الأقوام المسلمين وجوب الزكاة عليهم : فإنها إذا أُخرجت كما أُنزلت كان منها رءوس أموالٍ طائلة تُدير ملاجئ ومستشفيات ومدارس ومعامل خاصةً بالفقراء وأولادهم ، وإذا أضفنا إلى أموال الزكاة أموال الأوقاف ممّا هو مُرْصدٌ لأعمال البرّ والإحسان وضروب الخير ،واستُثمِر كل ذلك على حسب أصول فنّ الاقتصاد الحديث ـ اجتمع من وراء ذلك كله بيت مالٍ طائفي لايبعدُ أن يحدث من ورائه انقلابٌ عظيم فى الطوائف الإسلامية وإصلاح كبير فى مجتمعاتهم :

ومن الأحاديث التى حضّ الشارع فيها على الرحمة حضًّا عامًّا قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

« الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ، ارْحَمُوا مَنْ فِى الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِى السَّمَاءِ »البخارى

فهذا الحديث وأمثاله يتناول الخطابُ فيه كل فردٍ من أفراد الناس إزاء كل فردٍ من أفراد الناس ، لاإزاء أبناء دينه وملّته خاصّةً . وهذا أمر معروف من دين الإسلام بالضرورة .

ويُروى أن الإمام الشعبى ألقى السلاّم يومًا على وثنىّ قائلا : « السلام عليكم ورحمة الله » فقيل له : أتدعوله بالرحمة ، والرحمة استغفار ؟ ! فأجابهم : أليس فى رحمة الله يعيش ؟ ! ظَنَّ الْقَوْمُ أن طلب المسلم الرحمة لغير أبناء دينه لايجوز لاعتبارات قامت فى نفوسهم لم يُدركها عقل الشعبي ذلك الإمام الكبير: والحقيقة أنه أدرك بعقله ورأى بعينى رأسه أن البشر كافّة مؤمنهم وجاحدهم يتقلبون فى صنوفٍ من نعم ربهم ، وضروب من رحمة خالقهم ، يسبغها عليهم

كلَّ صباح ومساء، ليحملهم بذلك على التفكر فى عظمته، ثم الرجوع إلى صحيح عبادته، أو يفعل ذلك تعالى بحكم وأسرار هو وحده سبحانه يعلمها، فما معنى غضب الشعبيّ إذاً على هذا الذمى وأمثاله ! ! بل ماعساه يكون مبلغ تأثير تركه طلب الرحمة سوى التدخل فى أسرار القدر واستبطان البُغْض لعيال الله الذين أمر بحبّهم، وإرادة الخيرلهم ؟

فالرحمة خلق المرسلين ومن نهج نهجهم من المؤمنين : قال تعالى منوها بشأن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم : (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) .

وإليك مُثلا تضرب فى الرحمة والعمل لخير الناس أجمع :

(١) تفقد سيدنا عمر رضى الله عنه ذات ليلة أحوال الرعية فرأى امرأة توقد تحت قدر وأطفالها حولها يبكون فسألها : ماسبب بكائهم ؟ قالت : الجوع . قال : ومافى القدر ؟ قالت : ماء وحصى أُشاغلهم به حتى يناموا . فرجع سيدنا عمر، وحمل على ظهره دقيقا وسمنا، وذهب إلى المرأة، فألقى فى القدر بعضا من الدقيق والسمن، وأوقد عليها، وصار ينفخ النار والدخان يتخلل لحيته حتى نضج الطعام، فأكل الأولاد وشبعوا، ثم لاعبهم حتى ضحكوا وناموا، ثم رجع إلى بيته، وعين المرأة وأولادها مايكفيهم .

(٢) أصيبت أسرة قروية باشتعال النار فى بيتها حتى سدت المسالك على أفرادها، فعجزوا عن الخروج منه، وصعدوا على سطحه، وأعول الأطفال وصاحت النساء طالبات النجدة، فشرع الناس يعالجون إطفاء النار ولا يجرؤ أحد على الدنو من البيت لإنقاذ ساكنيه، فحملت الرحمة أحد الأغنياء على التبرع بمائة دينار لمن ينقذ هذه الأسرة البائسة فأسرع إلى ذلك شجاع باسل، وخاطر بنفسه حتى أنقذ المنكوبين، فشكر له الناس حسن صنيعه، ونقده

ذلك المحسن مائة دينار ، فرفض قائلا : (كلانا فعل الواجب . أعطها هؤلاء الناس ، فتخفف آلامهم وتسهل مصابهم) .

(٣) هؤلاء مخترعو الأسلاك البرقية والقطر البرية والباخرات البحرية والطيارات الهوائية والكهرباء والمسرات والمطابع والسيارات والأدوية والمضخات الذين أفنوا حياتهم فى الدأب على العمل لمصلحة الناس أجمعين — قد خدموا الإنسانية ، ورحموها بجليل أعمالهم ، فسهلوا للناس الحياة ، وذللوا الصعب ، ورفهوا لهم سبل المعيشة ، وحالوا بينهم وبين الأمراض والأسقام .

خير العظماء الذين أنقذوا الإنسانية

محمد صلى الله عليه وسلم

لاشك أن الأنبياء والمرسلين هم قدوة البشر فى خدمة الإنسانية وإقامة الأديان ومقاومة الرذائل ونشر الفضائل وجمع القلوب ونزع الضغائن ، وعلى سنتهم جرى المصلحون فى جميع العصور ، فلم يخل العالم وقتا ما من أفراد وهبوا حياتهم فداء الإنسانية ، وبذلوا نفوسهم فى تخفيف ويلاتها ، وفى مقدمتهم الرسل عليهم السلام .

ولا يتسع المقام لتعداد جلائل أعمالهم وعظيم آثارهم ، بل حسبنا أن نكتفى بموجز من القول فى بيان أن محمدا صلى الله عليه وسلم هو أفضل من أنقذ الإنسانية ، وكان الرحمة العامة الشاملة ؛ وهاك البيان :

اضطربت الأحوال الاجتماعية والخلقية قبل البعثة فى العالم اضطرابا لم يعهد له مثيل ؛ إذ أن أهل الأديان لم يقتصروا على مجانبتهم الفضيلة ، بل انقلبت الرذيلة عندهم فضيلة أقبل عليها الناس تقربا إلى الله فى زعمهم . تنزه الله عما كانوا يفعلون .

انحطت جميع الأمم إلى مهاوى الرذيلة ، وأتى أهل الأديان فيها من أنواع المنكرات ما يندى له الجبين : حقا إن الله قد أرسل كثيرا من الرسل قبل محمد

عليه الصلاة والسلام ، وأن ظهورهم كان حاجة ماسة ، غير أن العصور التى بعثوا فيها واحدا بعد الآخر — لم تبلغ من الظلمة ما بلغه العصر الذى أرسل فيه النبى العربى ، وكلهم قد لاقى شدائد وأهوالا ، بيد أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد لقى من صنوف الإيذاء والشدائد مالم يلقه أحد من إخوانه ؛ فقد طال أمد جهاده وتنوعت ضروب إيلامه ، واضطلع بأعظم الأعباء ، واحتمل أكبر المسئوليات :

ذلك بأن موسى عليه السلام قد أرسل لتحرير بنى إسرائيل . وجلى أن المصريين فى عهده كانوا أولى ثقافة وحضارة : لهم فى العلوم والفنون قدم راسخة ، وفى الأخلاق نصيب كبير ، ومنهم طائفة تلمسوا الوقوف على أسرار الكائنات ، واشتغلوا بضروب السحر والغيبيات وبرزوا فيها .

وكذلك لما ظهر المسيح عليه السلام كانت الحضارة الرومانية بين الأمم كالحضارة الغربية الآن ، وكانوا على جانب عظيم فى صناعة الطب : نعم كان الرومان وثنيين ، وقوم عيسى موحدين ، فشا فيهم النفاق والانغماس فى الرذائل ، ووقفوا عند صور العبادات ، فكانت رسالة المسيح عليه الصلاة والسلام لإصلاح ما تأصل فى النفوس من ضروب الرذائل ، واتباع ما جاء به الرسل من قبله .

فإذا كانت هذه الاسباب اقتضت ظهور موسى وعيسى عليهما السلام فحال القرن السادس للميلاد كانت توجب ظهور كثير من الأنبياء فى الأقطار المختلفة ، أو ظهور رسول واحد يقيم دين الله فى الأرض ، ويثبت دعائمه ؛ لأن الشرائع الإلهية فى أطراف الأرض قد أغفلت ، وحدودها قد خولفت ، ووصل المستوى الخلقى للعالم فى ذلك العصر إلى حال تنذر بشر مستطير ، وكانت الحال الروحية والدينية مخبوءة فى أطمار الظلمات : فقد جاءت النصرانية ـ لهدم الوثنية ومحوها ، فما لبثت أن ذهبت فريسة لها كما قال السير وليم موير فى كتابه حياة محمد صلى

الله عليه وسلم ، فكثر فى أيامها ألوان من الآراء الفلسفية الفاسدة طمت على الكتب المنزلة فى الشرق ، ونشأ عن ذلك أن الشعوب التى كانت تقطن البقاع الوسطى والشرقية من آسيا ، والقبائل التى كانت تسكن المكشوفَ من شمالى أوروبة ـ قد تمسكت بأهداب ضروب من الوثنية المرذولة ، وكذلك (كما دل الكشف الجغرافى فيما بعد) البلاد التى لم تكن معروفة وقتئذ . هذا إلى أن كثيرا من القبائل اليهودية لم تنجُ من عدوى الوثنية .

أما وقد أصاب الكتب السماوية ما أصابها من التحريف والتبديل ، وحجبت كلمات الله عن العقول البشرية ـ فمن رحمة الله بعباده ألا يدعهم يتخبطون فى ديجور الضلالة ، ويتيهون فى بيداء الرذيلة ، وأن يجدد لهم وحيه ، ويعيدَ لكلماته صفاءها وجمالها : وإلى ذلك يشير القرآن الكريم بقوله تعالى : (نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ) : المنطق السليم ظاهر فى هذه الآية ؛ لأنها تقص علينا أن السنة الإلهية العادلة قضت بأن الله يوالى على خلقه زمنا بعد آخر نورَه وهدايتَه : (لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ) ولذلك أنزل كتبه على أمم مختلفة ، فاتبعوا الهداية زمناً ثم فسقوا عنها ، فدبَّ بينهم دبيب الخلاف فى العقائد والأحكام وصور العبادات ، فكان لا بد أن يرسل إلى كل أمة رسولا ليفصل فيما بينها من الخلاف ، أو يرسل رسولا واحدا لجميع الأمم يتولى الفصل بينهم ؛ لأنهم ضلوا عن الحق ، وحادوا عن الصراط السوى .

وجاء فى القرآن الكريم أيضا : (تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ):

الآية ناطقة بأمرين : الأول أن الشيطان زين لهم أعمالهم ، والآخر أن ماجاء

به الرسل السابقون قد تفرق واختلف إلى حد عظيم ؛ ولا أدل على أن الشيطان هو الذى زين لهم أعمالهم ما كان مستفيضا عندهم من قولهم : « جدير بنا أن نفعل الشر لنصل إلى الخير »

دل تاريخ الأديان على أن الله بعث فى كل زمن رسولا ، حتى إذا عبثت يد الانسان بما جاء به قفّى عليه برسول آخر ؛ لأن الدين الذى دخل فيه التحريف بالزيادة أو النقص غير صالح لسد حاجات بنى البشر على اختلاف الأزمان ، بل الذى يصلح لهم ـ وإن توالت الأجيال ـ هو الدين السماوى المحض : ذلك بأن الدين من صنع الله ، وكل شىء من صنع الله فى هذا الكون ـ على تقادم عهده ـ صالح متجدد الأثر : فهذه البحار ، وهذه الشمس ، وهذا القمر ، وهذه النجوم ، والرياح ـ كل أولئك قد تقادم عهدها ، ولا تزال وافية بحاجات الانسان والحيوان والنبات . وعلى هذا القياس الدين : فإنه لما كان من عند الله كان شاملا لما يحتاج إليه الخلق على اختلاف الدهور والأحقاب ، ولا يقبل تبديلا ولا تنقيحا ، ولا يستطيع بشر غير مؤيد بالوحى أن يعيده سيرته الأولى ، وإن بلغ أقصى غاية من الفكر والعلم إن مسه التحريف ؛ وإليك البرهان :

لا يستطيع البناء إنشاء منزل متين يركن إليه من أنقاض منزل متهدم ، وإن فعل فبناؤه واهٍ لا يلبث أن يتداعى . فإذا تعذر على الانسان أن يعيد بناء إنسان آخر إلى ما كان عليه من المتانة والجمال فأحر به أن يعجز عن بناء للإله قد تداعى وتهدم .

نرى الفاكهة بعد أكلها وهضمها لا يستطيع امرؤ أن يعيدها سيرتها الأولى . فإذا كان الانسان يعجز عن أن يعيد كائنا بعد تفرقه وتحوله فهو أعجز عن إعادة وحى الله إلى ما كان عليه ، إذا طرأ عليه الفساد والتغيير .

أما وقد بان أن الانسان لا يستطيع أن يعيد بناء منزل تهدم أنقاضه ، ولا يستطيع أن يعيد ثمرة من الفاكهة بعد تفرق أجزائها ـ فهو لا يستطيع أن يعيد دينا قد وهت

قواعده ، وتمزقت أوصاله ، وتفرقت كلمة أهله ، وطغى عليهم سيل الوثنية ، وانحطت درجتهم الخُلقية والعقلية ، فأقبلوا على عبادة الأحجار والأشجار ، والرياح والأنهار ، والسحاب والشمس والقمر : «لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ » . ولم يقفوا عند ذلك ، بل عبدوا شهواتهم وأهواءهم بأسماء مختلفة ، وارتكبوا فى بيوت العبادة ألوان الفحش والمنكر .

بلغ من الفساد فى القرن السادس للميلاد أن أصبح لرؤساء الدين على الناس سلطان فى عقائدهم ، وما تكنه ضمائرهم : فلو قال الرئيس الكهنوتى لشخص : إنه ليس بمسيحى ـ صار كذلك ، ولو قال له : إنه مسيحى ـ فاز بها . فلم يكن أحد حرا فى معتقده ، يتصرف فى معارفه كما يرشده العقل السليم ، بل عين قلبه مشدودة بشفتى رئيسه .

حببوا إلى الناس التجرد من الدنيا والابتعاد عن كسبها : فقد جاء فى إنجيل متى : (لا تقدرون أن تخدموا الله والمال : لذلك أقول لكم : لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون ، ولا لأجسادكم بما تلبسون . الحق أقول لكم : إنه يعسر أن يدخل غنى ملكوت السموات)

أفهموهم أن من الدين ما يجب الإيمان به ولو ناقض العقل : قال القديس أنسيلم : يجب أن تعتقد أولا ما يعرض على قلبك بدون نظر ، ثم اجتهد فى فهم ما اعتقدت .

صرفوا الناس عن الاشتغال بالشئون الكونية : فإذا نزعت العقول إلى علم شىء من العالم حال بينها رؤساء الدين خوفا من الزيغ عن الإيمان السليم فى رأيهم ؛ حتى وقر فى نفوس الناس أن السلامة فى ترك الفكر والأخذ بالتسليم ، وتقررت عندهم قاعدة :(إن الجهالة أم التقوى) .

حورب العلم : فأحرقت كتب البطالسة والمصريين بالإسكندرية على عهد قيصر ، وانتحل تيوفيل بطريرك الإسكندرية أوهى الأسباب لإحداث ثورة فى

المدينة تذرع بها إلى إتلاف ما بقى فى مكتبة البطالسة : بعضه بالإحراق، وبعضه بالتبديد .

جعل بعض رؤساء الدين فى القرن السادس لأنفسهم سلطانا إلهيا (تيوكراتيت)، وأفهموا العامة أن الواحد منهم يتلقى الشريعة عن الله ، وله حق الأثرة بالتشريع ، وله فى رقاب الناس حق الطاعة ـ لا بالبينة وما تقتضيه من العدل وحماية البيضة ـ بل بمقتضى الإيمان : فليس للمؤمن ما دام مؤمنا أن يخالفه ، وإن اعتقد أنه عدو لله ، وشهدت عيناه من أعماله مالا تنطبق على ما يعرفه من شرائع ؛ لأن عمل صاحب السلطان الدينى وقوله فى أى مظهر ظهر ـ هما دين وشرع .

مما تقدم يتبين أن حال العالم أجمع شملها الفساد:

(١) لأن الفرس والروم كانوا فى حروب مستمرة ذهبت بقوة الغالب منهما والمغلوب

(٢) والناس قد فسدت عقائدهم ، وجهلوا أمور دنياهم .

(٣) ورؤساء الأديان أطلقوا أيديهم فيها بما يوافق أهواءهم من المحو والإثبات .

(٤) والشقاق حل بين الأفراد والجماعات محل الألفة والوئام .

(٥) والعقول وقفت عن التفكير، فانصرف الناس عن النظر فيما خلق الله، والانتفاع بما بين أيديهم ؛ لأن القائمين بأمر الدين لم يُحلوا لهم ذلك .

(٦) وأصحاب الأموال من اليهود وغيرهم استعبدوا الفقراء بالربا الفاحش وبما استحلوه لأنفسهم من تطفيف الكيل والميزان ، وتلك حال :

(١) كانت تستدعى صيحة لإزعاج الغافلين ، وتنبيه الرؤساء الظالمين إلى ماهم عليه من العسف والجور : فقد ظهر أن دولة الفرس فى الشرق ، ودولة الرومان فى الغرب قبل ظهور الإسلام ـ كانتا فى تنازع وتجالد

مستمر : دماء بين العالمين مسفوكة ، وقوى منهوكة؛ وبلغ السلاطين والأمراء والقواد ورؤساء الأديان فى الترف والإسراف والإعجاب حدا لا مزيد عليه فوق ما أثقلوا به ظهور الرعية من الضرائب والإتاوات وغيرها من المطالب المتجددة ، وسلطوا بذلك الأقوياء على الضعفاء ، فاختطفوا ما فى أيديهم ، وسخروهم فى أغراضهم، فاستولت عليهم ضروب من الفقر والذل والاستكانة والخوف والاضطراب لفقد الأمن على الأرواح والأموال

(٢) من أجل ذلك كان من الرحمة أن بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم ، فأقام التوحيد فى الأرض ، وأسسه على أسس متينة : بعثه لإصلاح العقائد التى فسدت ، فبين أن المسيح روح الله وكلمته ورسوله إلى بنى إسرائيل بعث مصدقا لما بين يديه من التوارة ، وجاءهم من الدين بما فيه هدى لهم ورشاد فى شئون معاشهم ومعادهم ، ولم يطالبهم بتعطيل قوة من قواهم التى منحهم الله تعالى إياها ، بل طالبهم بشكر الله تعالى عليها ، ولا يشكر حقَّ الشكر إلا باستعمالها جميعا فيما أعدها الله له، وأن العقل من أجلّ القوى ، بل هو قوة القوى الإنسانية وعمادها ، والكون صحيفته التى ينظر فيها وكتابه الذى يتلوه ؛ وكل ما يقرأ فيه فهو هدايته إلى الله ، وسبيل الوصول إليه .

جاء محمد عليه الصلاة والسلام ليعلن أن الدين دين الله ، وهو دين واحد فى الأولين والآخرين ، لا تختلف إلا صوره ومظاهره ، وأما روحه وحقيقته مما طولب به العالَمون على ألسن الأنبياء والمرسلين فأمر لا يتغير : إيمان بالله وحده ، وإخلاص له فى العبادة ، ومعاونة الناس بعضهم بعضا فى الخير ، وكف أذاهم بعضهم عن بعض ما قدروا .

جاء ليطلق العقل البشرى من أغلاله ، فيجرى فى سبيله التى سنّها له الفطرة

بدون تمهيد : فنبهه إلى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار وما كان عليه الأمر فى أول خلق السموات والأرض : (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا) ، (أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِى مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَىْءٍ) . (وَآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا ، وأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ) ، (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وأَلْوَانِكُمْ) إلى غير ذلك من الآيات البينات .

جاء محمد صلى الله عليه وسلم بصفة بشرية ، يطالب الناس بالإيمان بالله وحده ، غيرَ معتمد فى نشر دعوته على شىء سوى الدليل العقلى ، والفكر الإنسانى : فلم يُدهش قومه بخوارق العادات، ولا غشّى أبصارهم بأطوار غير معتادة ، ولا أخرس ألسنتهم بقارعة سماوية .

حقا جاءهم بالقرآن ، وهو معجزة عظمى تدل على أن موحيه هو الله وحده، وليس من اختراع البشر ، وكان الدليل على ذلك أنه جاء على لسان أمى لم يتعلم الكتابة ، ولم يمارس العلوم ، وهو كافل بنظام عام لحياة من يهتدى به من الأمم منقذ لها من خسران كانوا فيه ، وهلاك أشرفوا عليه ، دعا الناس إلى النظر فيه بعقولهم ، وطالبهم بأن يأتوا فى نظرهم على آخر ما تنتهى إليه قوتهم : فإن وجدوا طريقا لإبطال إعجازه ، أو كونه لا يصلح دليلا على النبوة والرسالة - فعليهم الإتيان بمثله، :(وَإِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ) ، (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيراً) فهو معجزة عُرضت على العقل ، وأطلقت له حق النظر فى أحنائها ، ونشر ما انطوى فى أثنائها . وهو معجزة أعجزت كل طوق أن يأتى بمثلها ، ودعت كل قدرة أن تتناول ما تشاء منها .

جاء محمد صلى الله عليه وسلم لتوجيه الأنظار إلى العبرة بسنة الله فيمن مضى ومن حضر من البشر، وفى آثار سيرهم فيهم: (قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)، (سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً)، (فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً).

(٣) جاء محمد عليه الصلاة والسلام لهدم سلطان الرؤساء الذين خنقوا الحرية والفكر: فلم يدع لأحد بعد الله ورسوله سلطانا على عقيدة أحد ولا سيطرة على إيمانه، ولم يجعل لأحد من أهل الدين أن يحل ولا أن يربط لا فى الأرض ولا فى السماء، ورفع كل رق إلا العبودية لله وحده، ولم يجعل لمسلم على آخر وإن صغرت منزلته إلا حق النصيحة والإرشاد: (وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)، (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ).

وقرر أيضا أن ليس هناك سلطان دينى سوى سلطان الموعظة الحسنة والدعوة إلى الخير والتنفير من الشر، وهو سلطان خوله الله أدنى المسلمين، يقرع به أنف أعلاهم، كما خوله أعلاهم يتناول به أدناهم: وقرر أيضا أن الناس إنما يتفاضلون بصفاء العقل وكثرة الإصابة فى الحكم، وأن الرئيس مطاع مادام على المحجة ونهج الكتاب والسنة، والمسلمون له بالمرصاد: فإذا انحرف عن النهج أقاموه عليه، وإذا اعوج قوموه بالنصيحة والاعذار إليه؟ وأنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق، وأنه متى فارق الكتاب والسنة فى عمله وجب استبدال غيره به مالم يكن فى ذلك مفسدة تفوق المصلحة فيه.

(٤) بين محمد صلى الله عليه وسلم للأمم ما اختلفت عليه عقولهم وشهواتهم وتنازعت فيه مصالحهم ولذاتهم ، وكشف لهم سر المحبة ، واسترعى نظرهم إلى ما فيها من انتظام شمل الجماعة ، وأوضح لهم مزايا أن قويهم يعين ضعيفهم ، وغنيهم يمد فقيرهم ، وراشدهم يهدى ضالهم ، وعالمهم يعلّم جاهلهم .

اطمأنت النفوس بما جاء به ، وثلجت الصدور ، واعتصم المرزوء بالصبر انتظارا لجزيل الأجر أو إرضاء لمن بيده الأمر ، فحل بهذا أعظم مشكل فى المجتمع الإنسانى ، لايزال المفكرون يُجهدون أنفسهم فى حله إلى اليوم .

(٥) وجاء بدين أزال الحواجز التى أقامها رؤساء الأديان السابقون ، ليحولوا بين الناس وما ميزها الله به من الاستعداد للعلم بحقائق الكائنات الممكنة ، ثم حثها على طلب العرفان ، وطالبها باحترام البرهان ، وفرض عليها أن تضاعف الجهاد فى استكناه ما فى العوالم من سنن وأسرار .

(٦) وأوضح للناس سبيل المعاملة الحسنة ، وأبان لهم طرق الخير بصرف همتهم إلى العمل النافع ، وحال بينهم وبين ما كانوا يفعلون : من تطفيف الكيل والميزان ، وابتزاز الأموال بالربا الفاحش ، وبيّن لهم أمثل طرق التداين ، وحبّب إليهم البر والصدقات ، وكشف لهم عن جليل نفعها وعظيم أثرها . وحسبك ما تقدم من الآيات الكريمة فى ذلك .

لاجرم أن حضارة هذا العصر صائرة إلى ما صارت إليه الحضارات الغابرة ، وحينئذ يتلمس أهلها نورا يخرجون به من حيرتهم وظلمتهم ، فلا يجدون سوى دين محمد صلى الله عليه وسلم . ومن أجل ذلك وجب على المسلمين أن يوالوا

خدمة هذا الدين بتجريده مما دخل فيه باسم الدين وهو براء منه ، وبالعكوف على دراسة العلوم الكونيــة دراسة تعلى دين الإسلام وأهله .

مما تقدم يتبين أن محمداً عليه الصلاة والسلام هو عين الرحمة، فقد جاء بدين يأمر باتقاء كل مضر للإنسان فى دينه ودنياه ، وبالإخلاص فى العمل لله تعالى ، وبالبر والإحسان فى العمل ، والنصيحة لخلق الله تعالى ، والصبر ومقاومة الأهوال والآلام ، والرضا بما يرضى الله تعالى ، وبكظم الغيظ عند الغضب ، وترك المجازاة للمذنب مع القدرة عليها مالم تكن حدًّا من حدود الله تعالى ، وبالاغتباط بعمل الخير ، وبالسخاء والكرم والشجاعة والمحافظة على الحُرَم والدين ، وبالثبات عند المخاوف ، وبالرغبة الصادقة فى الأناة بقدر ما يمكن ، وبالتؤدة فى التوجه نحو المطالب ، وبالتأنى فى الخصومات والحروب ، وبحسن الانقياد بما يؤدى إلى الجميل ، وبمحبة ما يُكَمّل النفس ، وبالحكمة ، والشكر والخوف من الله تعالى والرجاء فيه ، وباتفاق الآراء فى المعاونة على تدبير المعاش ، وبالوفاء ، والرحمة بخلق الله تعالى ، وبالإصلاح بين عباده ، وبالأمانة وإنجاز الوعد والوفاء بالعهد والحب فى الله والبغض فى الله ، وبحسن الظن ، والمبادرة إلى عمل الخير، وبالصلابة فى أمر الدين ، وبالأنس فى الله والشوق إليه ، وبملازمة الأعمال الجميلة والحرص على ما يوجب الذكر الجميل ، وبالتحرج عن أى أذى يلحق الناس مطلقا ، وباكتساب المال من غير مهانة ولا ظلم وإنفاقه فى المصارف الحميدة وتحرير النفس من ربقة الشهوات ومحاسبتها ومعاتبتها .

جاء بدين ينهى عن الشرك بالله ، والفسق ، وعصيانه تعالى فى أوامره ونواهيه ، وعن اتباع الهوى ، والرياء ، وعن الكبر ، والحقد ، والعجب ، والحسد ، والشماتة ، والتهور ، وعن الطيرة والتشاؤم الذى لاسند له من الشرع ، وعن البخل ، والشح ، والإسراف ، وعن الكسل ، والبطالة ، والعجلة فى

الأمور ، وعن الفظاظة ، وغلظة القلب ، والوقاحة ، وقلة الحياء ، وعن الجزع وكفران النعم ، وعن السخط والغضب ، وعن الضعف فى أمور الدين ، وعن الطيش والخفة ، وعن العناد ومكابرة الحق ، وعن الشره والطمع ، وعن الحميـة لغير دين الله تعالى ، وعن القنوط من رحمة الله ، وعن محبـة الظلمة والفسقة ، وعن النميمة ، وإفشاء السر ، والسخرية ، والاستهزاء بالناس ، واستصغارهم ، وعن اللعن ، والسب ، والتنابز ، واللمز ، والتعيير ، والمراء ، وعن الخوض فى الباطل ، والشحاذة لغير مضطر ، وعن الشفاعة السيئة ، والأمر بالمنكر ، والنهى عن المعروف ، وعن البحث فى عيوب الناس والدعاء للظالم بالبقاء ، وعن كتمان الشهادة ، وشهادة الزور ، وقذف المحصنات الغافلات ، وتعمد الكذب على الله تعالى ، وعلى رسوله ، وعن المن بالصدقة ، وكفران نعمة الخلق المؤدى إلى كفران نعمة الخالق ، والاستطالة فى الأعراض ، وذكر الناس بما يكرهون فى أنفسهم أو فيمن ينتسب إليهم ، وعن نقض العهد ، وخلف الوعد ، والخيانة والمكر ، والخديعة ، والفتنة ، وعن شرب المسكرات التى تذهب بالعقل ، وعن إنفاق السلعة بالحلف الكاذب ، وبخس الكيل ، أوالوزن أو الذرع ، وعن النجش ، وإنفاق المال فى المحرمات ، وإيذاء الجار ولو كان مخالفا فى الدين ، وعن السرقة ، والغضب ، والربا ، وعن التدابر ، والتشاحن ، وعن أخذ الرشوة من محق أو مبطل ، وعن خذلان المظلوم مع القدرة على نصرته إلى غير ذلك مما يضر بالمجتمع ، أوالنفس أوالمال ، أوالعقل ، أوالشرع .

جاء بدين سن أحكام الزوجية على أكمل نظام : فبين حقوق كل من الزوجين عند الاجتماع وعند إرادة الافتراق ، وأباح لهما الافتراق لدفع ما عساه أن يحصل لواحد منهما أو لهما إن منعا منه ، وجعل سلطة الفراق بيد الرجل ؛ لأنه هو المكلف الإنفاقَ عليها ، فلا يرضى بفرقتها وضياع ما أنفقه إلا إذا اضطرً غاية الاضطرار .

وَفَرَضَ على الرجل النفقة ؛ لأنه أقدر بطبيعته على الكسب من المرأة ، وعلى احتمال المشاق وركوبِ متن الأهوال . واستحسن للمرأة القيام بمصالح البيت الداخلة وتربية الأولاد ، ولذلك أمرها بالحجاب صونا لها ومحافظة عليها : كما يُحَافَظ على الشيء النفيس الذى يضن به على الأنظار ، ومتى ألفت المرأة الحجاب وجدته محبوبا لا حبس فيه ولا تضييق ، ولا يمنعها من زيارة أرحامها ، وغشيان أماكن العلم لتتعلم ماتحتاجه من أمور دينها ودنياها .

دين جاء والرق منتشر بين الأمم ، والرقيق يعانى أنواع الظلم والقسوة ، فنهى أشد النهى عن إيذائه ، وتوعد من يؤذيه بالعقاب الأخروى ، ورغّب فى تحريره بحصول الثواب الجزيل ، وشرع وسائل كثيرة تكفل تحريره وتقصير مدة الاسترقاق ، وكفل مساواة معيشته بمعيشة سيده .

وقصارى القول : أن الباحثين وإن طال استقصاؤهم محاسن هذا الدين ، وفضلَه على بنى الإنسان فى معاشهم ـ لا يجدون إلى ذلك سبيلا ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا : (مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ) . وليس بعد ذلك من رحمة .

الوازع

معناه

الوَزَعَةُ : جمع وازِعٍ ، وهم الولاة المانعون من محارم الله تعالى ، ومنه حديث الحسن : (لاَ بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ وَزَعَةٍ) : أى أعوان يكفونهم عن التعدى والشر والفساد . وفى رواية (وازع) : أى من سلطان يكفهم ويزع بعضهم عن بعض : يعنى السلطان وأصحابه .

والوازع : من يدبر أمور الجيش ، ويرد من شذ منهم ، وهو الموكل بالصفوف ، يزع من تقدم منهم من غير أمره . ويقال : وزعت الجيش وَزْعا : إذا حبست

أولهم على آخرهم. وفى الحديث كما فى البخارى :(إنَّ إبْلِيسَ رَأى جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ يَوْمَ بَدْرٍ يَزَعُ الْمَلاَئِكَةَ) : أى يرتبهم ويسويهم ويصفهم للحرب ، فكأنه يكفهم عن التفرق والانتشار . ومنه أيضا حديث أبى بكر رضى الله عنه : (إنَّ الْمُغِيرَةَ رَجُلٌ وَازِعٌ) : يريد أنه صالح للتقدم على الجيش ، وتدبر أمر الجنود ، وترتيبهم فى قتالهم . وفى التنزيل العزيز : (فَهُمْ يُوزَعُونَ) : أى يُحْبَس أولهم على آخرهم . وقيل: يُكَفُّون

إن فكرة القانون تدعو إلى الذهن فكرة الوازع ، لأن كل قانون مجرد عن الوازع قانون عقيم لا نتيجة له . ولما كان الوازع صفة لازمة ، أوجزأ متمماً لكل قانون ـ كان لا بد لأول هذه القوانين ـ وهو القانون الخلقى ـ من وازع يكفل نفاذه ، ويدعو إلى احترامه . إن قانونا محكما كالقانون الخلقى يتطلب وجود وازع محكم متفق مع صفة العدل المطلق ، وهذا الوازع يبين السعادة التى ينالها الإنسان من عمل الفضيلة ، والشقاء الذى يصيبه من عمل الرذيلة

إن العقل الرشيد يؤيد ذلك ؛ لأن النظام ، والسلام ، والخير ، والسعادة والاضطراب ، والتألم ، والشر ، والشقاء ـ كلها شئون بينها روابط قوية لا تنفك ، ومثلها كمثل المعادلات الجبرية : ماينقص من طرف يلحق بالطرف الآخر لبقاء التوازن بين الطرفين ، إذ لا يمكن العقل أن يتصور خيرا أو شرا بلا ثواب أو عقاب متناسبين أو أنهما شيئان منفصلان بعضهما عن بعض بالذات

هذا الوازع المحقق الأثر ، التام الشرائط ـ يصيب كلاً بما جنت يداه بضروب شتى من العذاب فى هذه الحياة الدنيا ، وفى الحياة الباقية .

والوازع : إما طبعى وهو الوازع الخلقى ، أو الضمير ، وهذا خاص بالفرد
وإما اجتماعى : وهو الرأى العام ،
وإما مدنى أو قانونى : وهو خاص بالإنسان الاجتماعى ،
وإما دينى : وهو خاص بالحياة المستقبلة :

الوازع الطبيعى: كل إنسان يشعر من نفسه بارتياح إذا أتى أمرا خيرا ، وبانقباض إذا أتى شرا . وذلك فعل الضمير الخفى الذى حارت فيه العقول

نعم للفضيلة والرذيلة أثر عجيب فى النفس والجسم إلا أن ذلك الأثر يختلف باختلاف الأشخاص وتباين الأجسام :

فكم من أناس لا تؤثر فيهم أفعال الرذيلة ، ولذلك قالوا : إن هذا الوازع غير كاف فى إلزام الحدود

الوازع الاجتماعى :

ينحصر الوازع الاجتماعى وهو الرأى العام فى احترام الناس للإنسان أو احتقارهم له :

احترام الناس خير جزاء ، وهو حقيق بأن نسعى جهدنا إليه ، واحتقارهم شر جزاء يجب أن نفرمنه ، لأن ذلك يتعلق بالشرف الذى هو حسن شهادة الضمير والناس ، ويتعلق بعاطفة الشرف التى هى الاهتمام الحق النبيل لاستحقاق هذه الشهادة

نعم إن الرأى العام يحكم غالبا بالظواهر ، ويبنى حكمه لا على الضمير بل على المصادفات والأوهام والشهوات ، وضروب الميل والهوى : فكم من إناس قتلهم الرأى العام بغير حق ، وكم من إناس أحلهم المحل الأول وهم لا يستحقون شيئا ، إن هى إلا ظواهر طلاؤها الرياء والغش والخداع

الوازع المدنى :

قرر المشترعون عقوبات شتى لألوان الجرائم التى تهيأ لهم حصرها ، وقد رأوا أنها ضارة بالمجتمع الإنسانى ، وعلى هذا القدر اقتصرت القوانين الوضعية ، أما واجبات الإنسان فلم تعرفها تلك القوانين حتى تقدر لها ثوابها ترغيبا فيها ؛ والقوانين التامة يجب أن تتناول هذين النوعين من الجزاء .

الوازع الدينى :

صنوف الوازع التى مر ذكرها وإن لم تكن عقيمة فى جملتها ليست كافية ؛ لأن الوازع التام ما ألحى بالجزاء على السيئات ، وكافأ على الحسنات على قدر درجتها وأثرها فى الحياة ؛ ولذلك كان الوازع الدينى أكثرها شمولا ، وأكبرها مفعولا : قال تعالى وقوله الحق : (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خيراً يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) فما جزاء الجندى الباسل الذى يجود بحياته فداء لوطنه فى هذه الحياة ؟ وما جزاء من راح ضحية فعل من أفعال الإخلاص بأن ألقى بنفسه فى المخاطر لنجاة طفل أو ضعيف أحدق به الخطر ؟ وما جزاء الرجل الفاسق الذى يعيش ويموت ولا تتناوله يد العدل بشىء ما ؟ ذلك يوم الدين موعده .

أثر الوعظ في الرأى العام

بيان وجوبه وحاجة الناس إليه

(١) الوعظ الدينى هو الأمر بالمعروف فى الدين ، والنهى عن المنكر فيه ، وقد أجمعت عليه الشرائع واتفقت على وجوبه الأديان ، فعليه قد قامت الدعوة إليها ، ومن ينبوعه تغذت النفوس البشرية غذاءها الروحى ، ومن ضوئه اقتبست نورانيتها ، وقد قال فى وصفه الغزالى : « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو القطب الأعظم فى الدين ، وهو المهم الذى ابتعث الله له النبيين أجمعين ، ولو طُوى بساطه وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة ، واضمحلت الديانة ، وعمّت الفترة ، وفشت الضلالة ، وشاعت الجهالة ، واستشرى الفساد ، واتسع الخرق ، وخربت البلاد ، وهلك العباد ، ولم يشعروا بالهلاك إلى يوم التنادى »

والأدلة على لزوم الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر كثيرة فى الشريعة الإسلامية ؛ حتى لقد عدت بحق شريعة الأمر بالتواصى بالحق ، والتناهى عن

المنكر ؛ فقد قال تعالى :

« وَالعَصْرِ إنَّ الإنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ » وقال تعالى فى سورة آل عمران : « وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إلَى الْخَيْرِ ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » وقال تعالت كلماته : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ »

وقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « مَا أعْمَالُ الْبِرِّ عِنْدَ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ إلاَّ كَنَفْثَةٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ ، وَمَا جَمِيعُ أعْمَالِ الْبِرِّ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ عِنْدَ الأمْرِ بِالْمَعْرُوفِ ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ إلاَّ كَنَفْثَةٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ » البخارى. وقال صلى الله عليه وسلم : « أفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ ». البخارى

(٢) والأخبار متضافرة بما كان عليه سلف هذه الأمة من القيام بذلك الحق ، لا يهابون فى ذلك سلطان ذى سلطان ، ولا تأخذهم رأفة فى دين الله ، ولا هوادة فى إقامة حقه ، والأخذ بناصر دينه .

وكل شىء هين فى سبيل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؛ وكل عذاب سهل مقبول إذا كان من كلمة حق قالوها ، لا يمنعهم من أن يصدموا بها أقوى الحكام عتوًّا ، وأشدهم قسوة ، وأبعدهم فى الأذى منالا ؛ وما أخبار وعاظ التابعين مع الحجاج وأشباهه من حكام بنى أمية ببعيدة عن الأذهان : كانوا لا يتخذون فيما يفعلون تقيةً ، ولا يرضون فى دينهم بالدنية :

يروى أن الحجاج جمع بعض علماء العراق ، وفيهم الحسن البصرى والشعبى ، وأخذ يحادثهم ، فذكر على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، فنال منه ، وجاراه من

معه؛ تقربا له، وأمنًا من شره إلا الحسن البصرى؛ فصمت على مضض، وعض على إبهامه؛ إذ غلى مرجل غضبه، فالتفت إليه الحجاج: وقال: يا أباسعيد، مالى أراك ساكتا؟ قال: ماعسيت أن أقول؟ قال: أخبرنى عن رأيك فى أبى تراب. قال: سمعت الله جل ذكره يقول: «وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ، وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ، إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ» فعلىٌّ ممن هدى الله من أهل الإيمان؛ فأقول: ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم، وختنه على ابنته، وأحبُّ الناس إليه، وصاحب سوابق مباركاتٍ سبقت له من الله، لن تستطيع أنت ولا أحدٌ من الناس أن يحظرها عليه، ولا يحول بينه وبينها. وأقول: إن كانت لعلى هنات فالله حسبه؛ والله ما أجد فيه قولا أعدل من هذا.

فبسر وجه الحجاج، وتغير، وقام عن السرير مغضبا، فدخل بيتا خلفه، وخرج الجمع، فقال عامر الشعبى: أغضبت الأمير، وأوغرت صدره. فقال: إليك عنى ياعامر: يقول الناس: عامر الشعبى عالم أهل الكوفة أتى شيطانا من شياطين الإنس فكلمه بهواه، وقاربه فى رأيه. ويحك ياعامر! هلا اتقيت إن سئلت فصدقت، أو سكت فسلمت!!. قال الشعبى: ياأباسعيد، قد قُلتها، وأنا أعلم مافيها. قال الحسن: فذاك أعظم فى الحجة عليك، وأشدُّ فى التبعة.

وبعث الحجاج إلى الحسن، فلما دخل عليه قال: أنت الذى تقول: قاتلهم الله؛ قتلوا عباد الله على الدينار والدرهم! قال: نعم. قال: ماحملك على هذا؟ قال: ماأخذه الله على العلماء من المواثيق ليبيننه للناس، ولا يكتمونه. قال: ياحسن، أمسك عليك لسانك، وإياك أن يبلغنى عنك ما أكره؛ فأفرق بين رأسك وجسدك.

هكذا تكون قوة الإيمان ، وهكذا يكون الأخذ بتلك الشريعة المستقيمة ، والفريضة المحكمة : فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، تلك الفريضة التى لو أخذنا بها كما أخذ ذلك السلف الصالح لارتبط حاضر الأمة بماضيها ، ولاتصلت نفوس الحاضرين بنفوس السابقين بتلك الأمراس النورانية .

(٣) وقد ذكر الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده أن للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ثلاث مراتب:

فالمرتبة الأولى: دعوة هذه الأمة سائر الأمم إلى الخير ؛ ليشاركوهم فيما هم عليه من النور والهدى ، وقد أوجب الله ذلك على المؤمنين ، فقال تعالى فى وصفهم : « الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِى الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ ، وَآتَوُا الزَّكَاةَ ، وَأَمَرُوا بِالمَعْرُوفِ ، وَنَهَوْا عَنِ المُنْكَرِ » .

والمرتبة الثانية: دعوة المسلمين بعضهم بعضا إلى الخير ، وتآمرهم فيما بينهم بالمعروف ، وتناهيهم عن المنكر ببيان طرق الخير ، وتطبيق ذلك على أحوال الأمم ، وضرب الأمثال . ويقوم بهذه وسابقتها العارفون بأسرار الشريعة ، وهم الذين قال الله تعالى فيهم : « فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِى الدِّينِ ، وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ ، وَلَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ »

والمرتبة الثالثة: تكون بين آحاد الأمة علماء وجهلاء بالتواصى على الحق والتناهى عن المنكر ، كل بما يعرفه ، فإذا رأى أحد المسلمين مسلما يتردى فى موبقة هو يعلمها ، ولو لم يكن من الخاصة — تصدى لنصحه وإرشاده ، وبيان ما يأمره به الدين ، وما ينهاه عنه فى هذا المقام . اه كلام الإمام .

(٤) وقبل أن نترك هذا نشير إلى أمر جدير بالنظر ؛ فقد اعترض

بعض الذين ضعفت عزائمهم ، وأرادوا أن يسكنوا ويطمئنوا ، فلا يقوموا بذلك التكليف العظيم — بقوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ »

ولا نجيب هؤلاء بغير المأثور عن صاحب السنة الشريفة الذى بين للناس ما نزل إليهم: فقد روى أن أبا ثعلبة الخشنى سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : عن معنى قوله تعالى: « لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ » فقال : « يَا أَبَا ثَعْلَبَةَ ، مُرْ بِالمَعْرُوفِ ، وَانْهَ عَنِ المُنْكَرِ فَإِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا ، وَهَوًى مُتَّبَعًا ، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً ، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِنَفْسِكَ ، وَدَعْ عَنْكَ العَوَامَّ ، إِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ المُظْلِمِ ، لِلْمُتَمَسِّكِ فِيهَا بِمِثْلِ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ. قِيلَ : بَلْ مِنْهُمْ يَا رَسُولَ اللهِ . قَالَ : لَا ؛ بَلْ مِنْكُمْ ؛ لِأَنَّكُمْ تَجِدُونَ عَلَى الْخَيْرِ أَعْوَانًا ، وَلَا يَجِدُونَ عَلَيْهِ أَعْوَانًا »

من هذه الكلمات الموجزة علمت مقدار عناية الدين الإسلامى بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؛ ولا غرابة فى أن يعنى به ذلك الدين السمح ؛ فإنه بناء الأمم ، وحفاظ الجماعات ، يمنعها من التردى فى مهاوى الضلال والفساد وما الرأى العام الذى تعترف له الأمم بالسلطان وتجعله مقياس الرقى فيها ودليل التقدم أو علامة التأخر — إلا وليد الإرشادات ، وثمرة التواصى بالخير ، والتناهى عن الشر. وإن شعور كل امرئ بأن عليه من الجماعة من له كالرقيب العتيد ، يحصى عليه سيئاته ويعد له حسناته — ليدفعه إلى الكمال ، ويسير به فى طريق الرقى .

وإذا كان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر له هذه القوة ، ومعتمده العقل وما يراه الناس حسنا — فكيف يكون الشأن لو كان ذلك تحت سلطان الدين

وإجابة لندائه ، ودعوة إليه ؟

(٦) إن الجماعات لا تصلح إلا بالدين ، ولا يقوم لها شأن بغير هدايته ، ولا تستقر إلا بقوته ؛ لأن الأديان تهذب العالم والجاهل ، وذا العقل القوى ، وصاحب العقل الضعيف ،فهدايتها عامة شاملة لا تخص فريقا دون فريق ، بل إن الجماعات مهما تكن ثقافتها ومعارفها تخضع للدين ، وتستولى على مشاعرها آياته : قال العلامة جوستاف لوبون فى كتابه الآراء والمعتقدات :

« وإذا نظرنا إلى المنطق الدينى من خلال جميع عناصر الحياة الاجتماعية وجدناه ذا تأثير فى الفنون والآداب والسياسة ولا تزال البقاع التى ارتادها العلم محدودة . . . . ولا شك فى أن سيطرة التفكير الدينى على البشر ستمتد زمنا طويلا » اهـ

نعم ستمتد سيطرة الدين إلى يوم الدين ، لأنه سلوان الجماعات وعزاء البائسين ، وعزة المغلوبين .

إن الدين هو الذى يربى الوجدان الفاضل ، ويهذب الضمير ، ويوقظ شعور الإنسان بالفضيلة ؛ فإرشاده يمس مواطن الإحساس فى النفوس ، ويؤثر فيها أبلغ تأثير ، ويصل إلى الأعماق فى الهداية والصلاح .

(٧) والدين الإسلامى فى عمومه فى الأحكام يشبه قانون الأخلاق من حيث أنه يحكم على كل أفعال الإنسان الإرادية بالخير أو الشر ، فكذلك يحكم الإسلام على كل الأفعال بالقبول عند الله أو عدم القبول. وكما أن الأخلاق تنوط الأحكام بالأغراض والمقاصد كذلك الدين ينوطها بالنيات: ففى الحديث الصحيح : « إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ » وفى الأثر : « البر ماحاك فى النفس ، فاستفت قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك »

ولما كان للإسلام هذا العموم فى الأحكام كان صالحا لإرشاد الناس فى كل أمورهم ، وكان للواعظ الإسلامى من النفع بمقدار ما يستطيع أن يقدمه

من إصلاح فى بناء الحياة الاجتماعية عند المسلمين ، ولقد لاحظت الحكومة ذلك ، فطلبت إلى الوعاظ فى المساجد أن يخطبوا فى بعض أمور اقتصادية أو زراعية أوصحية :

ومن أمثلة ذلك أن وزارة الأوقاف أمرت خطباء المساجد أن يخطبوا فى الوقاية من السل ، وأرسلت إليهم نص الخطبة ، ومما جاء فيها :

« عباد الله ! كم لله علينا من نعمة ، وكم فيما شرعه من حكمة ، فعلينا أن نشكر لله نعمته ، ونعمل ما نرجو به رحمته ، لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابى لشديد . خلق الله الداء ، وخلق معه الدواء ، وقدّر به الشفاء ، فمن يرجو من الله شفاء علته فليتبع ما أرشد إليه فى كتابه ، وليعمل بنصائح أهل الذكر؛ فقد قال تعالى فى كتابه المكنون : « فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ » . وإن من أشد الأمراض فتكا بالإنسان مرض السل القتال ؛ وقانا الله شره ، وخفّف عن المصابين ضره . وإن على المصاب واجبين : واجبا لنفسه ، وواجبا لغيره : فإذا قام بواجبه لنفسه ، وواجبه لأبناء جنسه — فرج الله كربته ، وأذهب علته : يجب على المريض بهذا الداء أن يمتنع عن بلع بلغمه ؛ فإن فى ذلك إضرارا بباطنه ، وخطرا على باقى أعضاء جسمه . ويجب عليه ألا يشرب لبنا قبل إغلائه ؛ فربما كان فيه من جراثيم المرض ما يزيد علته ويضعف علاجه . ويجب عليه أن يتخذ لنومه غرفة خاصة به ؛ فإن هذا أرجى لشفائه ، وأبعد عن أذى غيره . ويجب أن تكون الغرفة الخاصة به تتخللها الشمس والهواء ؛ فإن فى حرارة الشمس وتجدد الهواء عونا على قتل جراثيم المرض ، وتطهير الغرفة من آفاته . ويجب أن تتعهد الغرفة بالتنظيف والتطهير ؛ فإن فيهما وقاية من المضاعفات ، وتخفيفا لويلات الآلام .

هذه واجبات المريض لنفسه ، فعليه أن يقوم بها ، ولا يهمل واحدة منها ؛ فإن الله سبحانه وتعالى نهانا أن نلقى بأيدينا إلى التهلكة ، وأمرنا أن نقى أنفسنا

من الأمراض ، وندفع شرورها ونتلافى أضرارها ، فمن أهمل فى واجبه فإنما إثمه على نفسه .

وأما واجب المريض نحو الناس فألا يعرضهم لأذاه ، وألا يكون سببا فى إصابتهم بمثل ما أصيب به ؛ فإن المسلم من سلم الناس من لسانه ويده ..... فالله الله فى صحتكم فلا تهملوها ، وفى صحة الناس فاحفظوها ، وفى نصائح الأطباء الصادقين فنفذوها ، وفى كل حسنة فافعلوها ، وفى كل سيئة فاتركوها ....

روى مسلم فى صحيحه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لِكُلِّ داءٍ دَوَاءٌ فإِذَا أُصِيبَ دَوَاءُ الدَّاءِ بَرَأَ بِإِذْنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ » .

وفى مسند أحمد عن أسامة بن شريك قال : « كُنْتُ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَجَاءَتِ الأَعْرَابُ فَقَالُوا : أَنَتَدَاوَى فَقَالَ : نَعَمْ: يَاعِبَادَ اللهِ ، تَدَاوَوْا فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلاَّ وَضَعَ لَهُ شِفَاءً غَيْرَ دَاءٍ وَاحِدٍ ، فَقَالُوا : مَا هُوَ ؟ قَالَ : الْهَرَمُ » :

ألا ترى أن واضع هذه الخطبة بين أن التداوى والوقاية من السل قائمان على خبرين مقبولين مطلوبين فى الشرع الإسلامى ، وبنى على ذلك حث السامعين على العناية بهذين الأمرين ، وبين بعض طرق الوقاية وضرورة الأخذ بأهل الخبرة من الأطباء الثقات .

وإذا كان الإسلام له ذلك الشأن فى الإصلاح فالوعظ الدينى الذى يدعو إلى الفلاح تحت ظلاله ينال الفوز والسبق ، والجماعة التى تأخذ بهديه تنال السعادة والسلام .

ولقد سبقتنا أمة قامت على أساس هديه ، ومدنية شمخت على دعائم وعظه ؛ فقد كان السلف الصالح رضوان الله تعالى عليه يتخذون من القرآن والسنة

ومايدعوان إليه وسائل إلى الإصلاح ؛ فكونوا دولة أخذت ملك كسرى وهزت عرش قيصر .

المسئولية

الوجهة النفسية

يقول العلامة العلامة النمساوى فريد : إن الأعمال الإنسانية متأثرة بالرغبات المحجوبة فى النفس الناشئة فى غالب الأحايين عن سوء التربية ، وإن هذه الرغبات المحجوبة تخنس فى العقل الباطن ثم تظهر عند المقتضى فى سلوك المرء وتصرفاته .

لذلك يرى هذا العالم ومن تبعه أن المجرم مريض فينبغى قبل أن يقدم للقضاء أن يعرض على خبير بأحوال النفس ليتعرف إلى أى مدى كانت الجريمة ناشئة من تلك الرغبات المحبوسة ؛ فإذا وضح له أن الجريمة ناشئة من هذه الرغبات وجب أن يقدر العقوبة تقديرا يجعلها إلى الطب النفسى أقرب منها إلى عقوبة السجن .

وقد أخذت بهذا الرأى الدول الراقية ، ولعل أسبقهم إليه الولايات المتحدة بأمريكا ؛ فقد أنشأت نظاما لبعض سجونها يسمى نظام الثقة بالشرف : وهو يأذن للمسجون بمبارحة السجن متى وعد بشرفه أنه لن يهرب وأنه سيرجع إليه فى زمن معين . وقد أفلح هذا النظام فى ولايات أوريكون ،وأهيو ، وجاكسن ، ومتشكان ، وأول جماعة جرب معهم هذا النظام فى « أهيو » كانوا ثمانين وثلثمائة سجين لم يخلف وعده منهم إلا ثمانية عشرة ، ومع ذلك فقد عاد من هؤلاء تسعة .

ولم تقف هذه التجربة عند سجن الرجال ، فقد أنشى أخيرا فى ضاحية من ضواحى نيويورك سجن للنساء هو دار فسيحة فيها حديقة غناء وملاعب منوعة

ومكتبة وافية ، وتنام السجينات فى غرف صحية ، وتشرف على الإدارة طائفة من النساء ذوات الخبرة والدراية ، ومنهن الطبيبات والممرضات .

ولتأييد هذه النظرية المقدمة قد جاء فى قرارات المؤتمر الدولى للسجون الذى عقد فى لندن سنة ١٩٢٥ ما يلى:

يجب على القضاة تعرف أخلاق المجرمين وسوابقهم ، وينبغى أن يكون لهم الاختيار فى توقيع العقوبات التى يرونها كفيلة بالزجر وإقرار الامن .

وجاء فى هذه القرارات أيضا : إنه مما لا بد منه لمن يعدون أنفسهم لمهنة القضاء أن يدرسوا قسطا كافيا من علمى النفس والاجتماع ، وأن يدرسوا أحوال السجون دراسة وافية .

ولم يقصد صاحب الرأى السابق ومن تبعه فيه إلغاء العقوبة مطلقا ، بل يرون أن السجن فى ذاته تقييد للحرية ، وأن العقوبة يجب أن تقدر فى ضوء علم النفس والطب .

وقد رد بعض علماء الأخلاق المجرمين إلى أربع فئات :

ا — فئة لا شك فى جنونها ، ومجرم هذه الفئة ينبغى أن يحجز ويعالج بأحدث ما وصل إليه علم الطب .

ب — وفئة تصاب بنوبات واضطراب عصبي ، ومجرم هذه الفئة ينبغى أن يفحصه بصير بعلم النفس التحليلى .

ج — وفئة تسير على مبادئ خاطئة ولكنها تعتقد صوابها ، وهؤلاء ينبغى أن يحجزوا ويقنعوا بضلال رأيهم

د — وفئة مستهترة لا تبالى المسئولية الخلقية ، وهؤلاء هم أحق الفئات بالعقاب الذى يختلف باختلاف جرائمهم وملابساتها : فمنهم من يكتفى معه بعقوبة تصلحه ، ومنهم من لا بد من إعدامه قصاصا وعدلا .

الوجهة الخلقية :

ا — يرى علماء الأخلاق أن من الحكمة العمل بوجهة علماء النفس جهد

المستطاع ولذلك قرروا عند الكلام على العقوبة أنه يجب التثبت من مبلغ مسئولية الشخص الذى يراد عقابه ، ولذلك قرروا أن النية والقصد شرط فى الجريمة ، وأن التكاليف مقيد بالعقل ؛ فليس للمجنون قصد ، وليست له جريمة ، وإذا لاعقوبة عليه .

بيد أن طائفة من الفلاسفة غلوا فى هذا فذهبوا إلى القول بأن كل جريمة دليل على ضرب من الجنون ، وبنوا على هذا قولهم بوجوب إنشاء مستشفيات عقلية وإصلاحيات لمعالجة المجرمين بدلا من السجون .

وجلى أن أشياع هذا الرأى أقرب إلى الجبرية الذين يقولون : إن سلوك المرء صدى لما يحيط به من المقتضيات والأحوال ، لا صدى لما يجول فى نفسه من الميول والآمال .

وهناك طائفة ذهبت إلى النقيض قائلة : إن المرء لا يقهر فى جميع أحواله . ويترجم عن رأيهم العالم سنت هايلز إذ يقول : إن إرادة الإنسان لا تقهر ، وليس فى العالم شىء يستطيع أن يغلبها على أمرها على الرغم منها .

ويرى أهل التحقيق من علماء الأخلاق مخالفة الطائفتين المتقدمتين محتجين بأن المرء مختار فى أفعاله وأنه لذلك يجب أن يلقى جزاء اختياره . ويقولون : إن المجانين ومن فى حكمهم قد حيل بينهم وبين اختيارهم لأن عقولهم سترت ، لذلك فلا يلزمون نتائج أعمالهم إن صحت تسميتها بالأعمال .

ويرى أهل التحقيق أيضا أن المسئوليـة مختلفة الدرجات : فهناك من الأمور ما يسلب الإنسان إرادته مؤقتا كالغضب والذود عن العرض والنفس والنسيان والإكراه ، وفى ذلك يقول إرسطو : الأعمال غير الإرادية لا تستوجب الملامة ، بل هى خليقة بالصفح والرحمة أحيانا .

وحجته فى ذلك أن الإنسان فى هذه الأحوال شبيه بمن عصفت به ريح لا قبل

له بمقاومتها، أو تحكم فى إرادته قوم لا مناص له من الخضوع لهم.

وميزان كون الأفعال إرادية عند إرسطو الندم والألم الذى يتبع العمل: فإذا شعر المرء بندم وألم على أثر فعل من الأفعال التى لا يتبين الاختيارى فيها من القهرى ـ كان ذلك الفعل غير إرادى، وإلا كان إراديا.

وقد جاء الإسلام صريحا فى عدم المؤاخذة على الأعمال غير الإرادية: انظر قوله تعالى: « فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ »وقوله عليه الصلاة والسلام: « رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأُ وَالنِّسْيَانُ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ »

وقد تكفل الفقهاء بوضع قيود وشروط للخطأ والنسيان والاضطرار مبسوطة فى أمهات كتب الفقه

ومن شاء الاستزادة من بحث المسئولية قانونا فليرجع إلى كتب القانون، وقد كتب منها باللغة العربية عدد ليس بالقليل.

ب ـ علاقة السريرة بالمسئولية: من مدركات السريرة التى تدركها مباشرة بغير وساطة معنى المسؤلية، فنحن نحكم على أنفسنا بمسئو ليتنا عن أفعالنا: أعنى أننا نشعر بقيمة كل فعل يصدر منا، ونشعر بأننا محاسبون عنه أمام سلطان باطني هو السريرة وكون الإنسان مسئولا عن أفعاله يقتضى أن يكون الفعل صادرا عنه ومنبعثا عن إرادته.

ج ـ المسئولية الأدبية والمسئولية الاجتماعية:

إنا نعيش فى الجماعة أى فى اتصال دائم بأمثالنا، ولهذه الجماعة قوانين لضبط العلاقات الضرورية لصيانة المجتمع ومنع كل اعتداء على النظام العام، وهذه القوانين معلومة للجميع أو مفروض العلم بها من الجميع، وكل من خالفها فللجماعة محاسبته ومحاكمته لتوقيع الجزاء المناسب لفعله. هذه هى المسئولية

الاجتماعية .

ليست المسئولية الاجتماعية والمسئولية الأدبية واحدة ، بل المسئوليتان منفصلتان بعضهما عن بعض ؛ لأن المسئولية الاجتماعية مردها القوانين المشار إليها قبل ، أما المسئولية الأدبية فمردها القانون الأدبى ، وهو مجموع القواعد التى تجب مراعاتها على كل فرد من الناس ليكونوا فى نظام آمنين .

والقانون الأدبي عهد مسئول ومعنى من معانى الحكمة والإرادة الإلهية فهو فيض النور الإلهى فينا ، وأثر الحكمة الأزلية فى هذا المخلوق ذى الفهم والإدراك .

وللقانون الأدبى صفات :

فهو عام لا يتقيد بزمان ولا مكان ولا أشخاص ، وثابت لا يتغير وإن تفاوتت الضمائر البشرية فى فهم معناه ، وهو فى ذاته لا يلحقه تغيير ولا تبديل ؛ لأنه كما قلنا معنى من معانى الحكمة والإرادة الإلهية

وهو مطلق أى لا يتعلق وجوده على شرط ، ولا يسقط بتغيير الأزمنة ، وليس لأحد منه من مفر . وبدهي أن العقل البشرى يدرك بالفطرة المبادئ الأدبية التى نعيش بها سعداء ، كما يدرك المبادئ للحياة العقلية التى تعلمنا صحة التفكير .

وهو إلزامى : أى واجب يلتزمه الإنسان على نفسه دون إجبار عليه .

وهو محترم يجب أن يكون كل شىء تابعا له ، فكل قانون وضعى خالفه أو نحا غير نحوه سقط حتما من نفسه . من اتبعه كان موفور الحرمة بعيدا من الخطأ والزلل .

أما غيره من القوانين الوضعية فيتغير بتغير الزمان واختلاف البلدان ، وتغلب الملابسات والحوادث ، وكل منها يستمد سلطانه من القانون الأدبى الذى يأمرنا بالطاعة لأولى الأمر ، وعنه نأخذ موادها التى يجب أن تكون مطابقة لروحه ، موافقة لأصول الخير العام ، مقررة لها .

د — أساس القانون الأدبى : مهما تكن سيادة القانون الأدبى ، ومهما يكن سلطانه الأعلى على النفوس — فلا إكراه فيه ، ومهما يكن قاسيا جبارا كما يظهر لنا فإنه لايمس حريتنا ، ولا ينقص منها شيئا : نعم إنه يكلفنا الطاعة له ، ولكنه لايضطرنا إلى إنفاذ أمره .

ولنا أن ننصرف عنه معرضين بدليل مايقع منا كل يوم وكل وقت من الخلاف له والانحراف عنه ، وكذلك يجب أن يكون ؛ لأن جمال العمل فى حريته ، أى بالاختيار فى عمله ، والفضيلة فيه الائتمار بالقانون مع استطاعة المخالفة والإنكار .

أما لو قلنا بأن للواجب علينا قوة قاهرة لا مفرّ منها فلا يكون لأى عمل من أعمالنا قيمة أدبية ، بل يكون مثلنا مثل حجر قذف به فى الهواء فلابد من سقوطه على الأرض لأنه ليس فى طبيعته غير ذلك .

كذلك ليس من الصواب القول إلى حد ما بأننا ملزمون أو مأمورون ؛ لأن الحقيقة أننا نلزم أنفسنا ، ونضع فى أعناقنا عهدا للإنسانية ، ولكن بيد الإرادة الباطنة ، لا بيد أجنبية خارجة .

وقد أجاد (كنت) فى بيان هذا المعنى فقال : إن القانون الذى تخضع له الإرادة لم يكن ضرورة قاهرة أجنبية عنها ، بل هو عمل الإرادة نفسها ، فإذا خضعت له لا تمس بأذى فى استقلالها ، بل فى ذلك تقديس لحريتها ، وإظهار لخصائصها .

هنا سر عجيب لاشك فيه ، وهو معنوية هذا القانون : فبه تظهر المنزلة البشرية بأجلى مظاهرها ، وأجل صورها

ومما يجدر ذكره فى باب المسئولية ما جاء عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كُلُّكُمْ رَاعٍ ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ،

والرَّجُلُ رَاعٍ فِى أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِى بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا ، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِى مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ . قَالَ : وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ : وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِى مَالِ أَبِيهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ » (رواه البخارى ومسلم والترمذى) :

ومعنى الراعى : الحافظ المؤتمن ، وبعبارة أخرى من إليه تدبير الشىء وسياسته وحفظه ورعايته مأخوذ من الرعى وهو الحفظ ، والرعية كل مايشمله حفظ الراعى ونظره ،

والحديث يشير إلى أنه ما من إنسان إلا قد وكل إليه أمر يدبره ويرعاه ؛ فكلنا راع وكلنا مطالب بالإحسان فيما استرعيه ومسئول عنه أمام من لاتخفى عليه خافية: فإن قام بالواجب عليه لمن تحت يده كان أثر ذلك فى الأمة عظيما ، وحسابه عند الله يسيرا ، وإن قصر فى الرعاية وخان الأمانة أضر بالأمة، وعسر على نفسه الحساب ، وأوجب لها المقت والعذاب ،

فكل من يتولى حكم الناس راع كفيل ، وحافظ أمين ، مسئول ، فعليه إقامة العدالة فى المحكومين ، واستشارتهم فى الأمور ، والاستماع لنصائحهم والذود عن كرامتهم ، والحرص على مصالحهم ، وفتح الأبواب لمعايشهم ، وتذليل السبل لتنمية ثروتهم ، والضرب على أيدى المفسدين إلى غير ذلك مما ترقى به الأمة .

كذلك الزوج أورب الأسرة راع فى أسرته ، ومؤتمن على من تحت ولايته فعليه التعليم لهم والتثقيف ، والتربية والتهذيب بنفسه أو بوساطة ماله ، حتى يكونوا كملة فى الأخلاق ، أئمة فى الآداب ، سواء فى ذلك بنوه وبناته ، وإخوته وأخواته .

وكذلك المرأة فى بيت زوجها راعية ، ومؤتمنة موكلة ، وربة مملكة : رعيتها البنات والبنون ، والزوج ، والبيت وما وعى ، والمال والخدم : فلتكن

للأولاد خير مربية ، ولزوجها خادما طائعة، وفى بيتها حكيمة مدبرة ، وعلى المال قائمة راعيـة حافظـة له منمية ، ولخدمها قدوة صالحة ، ترشـدهم إلى الواجب ، وتهديهم إلى الصالح، تهذب من أخلاقهم ، وتقوم بواجبهم ، وبعبارة أخرى :
نريد من المرأة بيتا نظيفا منظما، وولدا صحيحا مؤدبا، ومالا مرعيا، وطعاما شهيا، وثمرا جنيا ،وطاعـة لزوج فى معروف ، وأدبا فى منطق ، وكمالا فى نفس ، ونظافة فى بدن وزى وفى ولد وخدم ؛ فإن فعلت ذلك فنعمت الراعية .

كذلك الخادم راع فى مال سـيده ، وحافظ مؤتمن ، فليرعه كما يرعى ماله : ينميه بمـا استطاع ، ويحفظه من الضياع ، يرحم حيوانه ويرأف به ، ويتفقد صالحه وخيره ؛ أليس منه يتخـذ الأجر ؟ فلم لا يكـون فيه أمينـا ، وعلى تثميره حريصا ؟

وكذلك الولد راع فى مال أبيه ، يثمره وينميه ، ويحفظه ويرعاه ، فلا يبذره تبذيرا ، ولا يخونه فيه بالسرقة أو الاغتصاب أو الكذب عليه فى الحساب ، وهل مال أبيه إلا ماله ؟ فإن رعاه فإنمـا يرعى لنفسه ، ويدبر لمستقبله .

وكلنا راع ، وكلنا مسئول عن رعيته : فالعـمدة راع فى بلده ومسئول عن رعيته ، والمأمور راع فى مركزه ومسئول عن رعيته ، والنائب أو الشيخ راع فى دائرته ومسئول عن رعيته ، ورئيس النواب أو الشيوخ راع فى مجلسه ومسئول عن رعيته ، وكل رئيس راع فى مصلحته ومسئول عن رعيتـه ، والصانع راع فى صنعته ومسئول عن رعيته ، والتاجر راع فى تجارته ومسئول عن رعيته ، والزارع راع فى مزرعته ومسئول عن رعيته .

فالحديث دعامة كبيرة فى القيام بالواجبات والحقوق ، والإحسان فى الأعمال والرعاية لما تحت اليد ، وإنه ليقرر مسئولية كل فرد فيما وكل إليـه من نفوس وأموال ومصالح وأعمال .

ومما يتصل بالمسئولية ما حكى أنه لما رجع عمر بن عبد العزيز من جنازة سليمان

قال له مولاه : مالى أراك مغتما؟ قال : لمثل ما أنا فيه فليغتم ؛ ليس أحد من الأمة إلا وأنا أريد أن أوصل إليه حقه غير كاتب إلىّ فيه ولا طالبه منى .

العقوبة

للزيغ عن جادة الصواب آثار وبيلة لا يستطيع الزائغ ردها عن نفسه : فالجريمة يتبع صاحبها أذى إن عاجلا وإن آجلا ، وكذلك عمل الخير ؛ فلابد أن يرتد إلى عامله خيرا كما صدر منه . ومن ذلك يتبين أن كلا من عملى الخير والشر يعود على صاحبه بروحه وجوهره ، فينقلب الشر عقوبة ، وينقلب الخير مثوبة .

ولامشاحة أن الفرد عضو فى جسم المجتمع الانسانى ، وهذا المجتمع يجب له أن يعمل كل فرد على توفير أسباب هناءته ، وتيسير وسائل رقيه ؛ حتى يصل إلى الأوج الذى يحلم به الفلاسفه فى المدينة الفاضلة . ولن تتحقق للمجتمع هذه الرغبة التى لاخلاف عليها إلا بالخير المتتابع ، والأعمال الصالحة المتصلة على الأيام .

فمن كان من الناس مؤثرا جانب الخير مخضعا نفسه له مغلّبا إياه على شهواته وأهوائه فهو عضو حى فى جسم المجتمع ، يؤدى وظيفته صحيحا معافى على أحسن وجه وأهدى سبيل .

أما من لعبت برأسه النزوات ، وضرب فيه عرق الشر — فما هو إلا عدو للمجتمع يكيد له ، ويعمل جهد استطاعته على وقف رقيه ؛ ومتى كثر فى المجتمع أمثاله ، وتغشاهم حب الأذى — فهناك الطامة ؛ إذ أن مصيبة المجتمع بهم على قدر ما يجترحون من آثام : فإن قليلة فالمصيبة على قدر ذلك من القلة ، وإن كثيرة فالمصائب أعم وأنكى .

ومن أكبر عقوبة الشر شعور فاعله بأنه يهدم نفسه والمجتمع الانسانى الذى يعد وطنه الأعلى وأسرته العليا معا . وأى عقوبة أبلغ أثرا فى النفس من أن يشعر

المرء بأنه حين يقارف الشر إنما يعق نفسه فيوردها موارد التهلكة ، ويعق وطنه وأسرته فيعيث فيهما فسادا ؟ أما مثوبة الخير فأكبرها الشعور ببر النفس والوطن والأسرة جميعا : أليس يسير فى جيش المجتمع الإنسانى جنديا مدججا يشق الطريق ويمهد الأكناف ؟ أليس يكتب لنفسه ما يكتب الجندى المخلص من شرف الجهاد ؟ ما أجدر ذلك الشعور أن يكون مثوبة أحسن مثوبة للخير يتسابق الناس إليه من أجلها ، ويتنافسون فى الحصول عليها . هذا .

وللشر عقوبات أخرى لها أثر فعال فى استئصال جذوره فى نفوس من يجنحون إليه ؛ رحمة بالمجتمع الإنسانى ، وتوصلا إلى المحافظة عليه من عوامل التردى والفناء : من ذلك : العقوبة الدينية ، والعقوبة الخلقية ، والعقوبة القانونية .

ا ـ العقوبة الدينية

بعث الله محمدا رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بالشريعة الغراء هدى للناس ورحمة ، إذ سمت الحقوق ، وفصلت الحدود ، وتضمنت من الأوامر والنواهى ما يكفل إسعاد البشر ، وإحياءهم حياة طيبة .

وقد رغبت الشريعة فيما أمرت به ، ورهبت مما نهت عنه ، فوعدت من يدخل الإيمان قلبه وتشتمل على الطاعة نفسه جنة عرضها السموات والأرض ، فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، وأعدت لمن تنزو نوازى العصيان برأسه فيخالف إلى ما نهى عنه ـــ أنكالا وجحيما ، وطعاما ذا غصة وعذابا أليما .

أجل : لقد أبانت الشريعة أن الحياة الدنيا لهو ساعة ومر طيف ، وأن الآخرة هى دار الخلود ، فهى حرية أن تكون للعاقل غاية ، والعاقل حرى أن يرغب فيما يضمن له فيها النعيم ، وأن يفر مما يكتبه فيها من الأشقياء .

ولكن الناس طبعوا على ضرائب سوء ، وفى نفوسهم نزوع إلى الشر ، وعدم مبالاة بالعواقب ، وفرط غرور بالحياة الدنيا ، فلم تكتف الشريعة بتلك العقوبة

الأخروية على جلالة خطرها ، بل سنت العقوبات الدنيوية التى ترد الجامح ، وتذلل الشامس ؛ وبهذين السبيلين يمتنع العيث فى الأرض ، وتنتفى المظالم ، ويتم الأمن بين الناس :

فأما العقوبة الدنيوية فتردع من ضل ، وأما العقوبة الأخروية فيخشاها من اهتدى .

لم يترك الإسلام سببا من الأسباب ولا شأنا مما يدور بين الناس إلا جعل له ضوابط ، وفرض له حدودا ؛ وغرضه الأسمى هو تمكين العدل ، وإماتة الظلم ، وإعطاء كل ذى حق حقه ؛ حتى يعيش الناس إخوة متحابين ، لا يتعدى بعض على بعض ، ولا يظلم بعض بعضا .

ولسنا الآن بسبيل الإبانة عن تلك الضوابط والحدود على وجه الاستقصاء ، فذلك موضوع كتب الفقه الإسلامى ، بيد أننا ذاكرون مثلا منها ملمعين إلى بعض أسرارها :

وضع الإسلام حد الزنى ، وهو التزاحم على المرأة بغير عقد يُحِلُّها له ، أما حكمة التشريع فيه فجلية واضحة ؛ فإن ذلك يحفظ الأنساب من الاختلاط ، ويحصل به التعارف ، وتتألف الأسرة ، فيكون بينها من التناصر والمعاضدة ما يمكن لها فى الأرض ؛ ولو أُبيح الزنى لكانت الأمم أفراداً شتى ، لا تعارف بينهم ولا تآلف ، وفى ذلك فساد الكون ، وامتناع العمران .

ومن حكمة التشريع فيه أيضا الإكثار من النسل الذى خلق الله من أجله الزوجين الذكر والأنثى ، وأودع كلا منهما داعية التقارب بينهما ؛ ولو أُبيح الزنى لقل النسل شيئا فشيئا ؛ فالزانية تأبى الولد ، وتسعى جهدها إلى ما يمنعها من الحمل ، وبذلك يئول الجنس الإنسانى إلى الفناء .

وكذلك من حكمة التشريع فيه الوقاية من الأمراض الفتاكة ؛ فالزانية عرضة لكل طارق لا تدرى حاله ، وقد يكون مصابا بمرض وبيل ، فلا يكاد

يصيبها به حتى تشيعه فى كل من يقاربها ، فتتفشى الأمراض سواد الناس ، وتذهب بهم العلل كل مذهب .

وقد عنى الإسلام بأحكام الزنى أكبر العناية ، واستقصى أحكامه كل الاستقصاء ؛ إذ نهى عنه ، وتوعد عليه ، وفرض له العقوبة الدنيوية ، وخصه بترك الرأفة فيه ، وأن تكون العقوبة على ملأ من الناس لبث العظة .

ومن الحدود فى الإسلام حد السرقة ، وهى أخذ المال خفية بغير وجه حق ، وقد حرمت السرقة محافظة على أموال الناس ؛ فلو لم تحرم السرقة ويعاقب فاعلها بما يزجره ويكف يده عن هذا الأمر الشائن لسعى كل ذى طمع إلى انتهاب الأموال ، ولو أبيحت السرقة لتزعزع الأمن ، وتعرضت الأرواح للضياع ؛ فالمرء ضنين بماله ، شديد الرعاية له ، والذب عنه ، فإذا أرادها مريد بسوء تجرد للدفاع ، فأدى التنازع والتغالب إلى إزهاق الأرواح وإراقة الدماء .

ومن حكمة التشريع فى تحريم السرقة الحث على الكسب والإلجاء إلى العمل والسعى فى مناكب الأرض ؛ فإنه إذا ترك أولو البطالة يعيثون فسادا فى أموال ذوى الجد والعمل تعطلت مصالح الناس ، وكثر الكسالى ، وفسدت الأحوال .

ولقطع الطريق حد فى الإسلام ينفر منه : فهو التجرد لقتل أو أخذ مال أو تهديد وما إلى ذلك من أنواع الأذى ، وهو أشنع وأكبر خطرا من السرقة ؛ لأن السرقة فى كثير من أحوالها مبنية على الحقيقة ، فليس فيها سفك دم ولا إزهاق روح ، أما قطع الطريق فأساسه مفاجأة الآمن بما يخيفه ، وقسره على الطاعة لما يراد به ، فإن خالف عرض نفسه للقتل وما يؤدى إليه ، وفى ذلك من الإخلال بالأمن وإفساد المدنية ما فيه . وقد حد الإسلام لقطع الطريق حدودا صارمة تتفق هى وتلك الجريمة الشنعاء التى يتهدم بها الأمن والسلام .

أما الخمر فقد حد لها الإسلام الحدود إكبارا للعقل وإعزازا لمكانته ؛

فإن من شربها سترت عقله ، وكشفت عن بهيميته . وحسبك سوءا أن يعود شاربها خارجا مما فضل به على سائر المخلوقات ، وهو العقل .

ومن أسرار تحريمها أنها شعلة توقد العداوات وتخلق الخصومات ؛ فالشارب الثمل لا يملك أن يتورع عن الخوض فى أعراض الناس وشئونهم ؛ فيجلب له ذلك من الخصومة ما يملأ عليه صحوه وسكره معا ! والخمر كذلك صارفة للنفس عن اللذة الروحية التى تنبعث من التفكير السليم والقريحة الصافية ؛ إذ أنها تعمل فى الفكر كما يعمل المبرد فى الحديد ، والسكير يفقد تفكيره شيئا فشيئا ؛ فلا يبقى له إلا التفكير فى الكأس يلهو بها بعدما أصابه منها قبل !

وتجنى الخمر أيضا على المال ؛ فإن من شربها طال نزاعه إليها حتى تصبح عادة لا يملك الفكاك منها ؛ فينفق فى سبيلها ما جمع من صامت وناطق غير مبق على شىء ولا مبال شيئا . وقد فرغ الأطباء اليوم من تبيان أثر الخمر على صحة الإنسان فآمنوا بالحكمة السماوية فى تحريم الإسلام إياها .

تلكم لمة من الحدود الإسلامية ، وثمة أحكام الجنايات ، سواء أكانت جناية على النفس ، أم كانت جناية على مادون النفس : من إبطال منفعة ، أو إبانة ، أو جرح . وقد فرض الإسلام للجنايات حدودها مفصلة بضوابطها . وهى مستفيضة فى كتب الأحكام ، وفيها من العقوبة المشروعة ما يكفل رد الأذى ومنع العبث .

وبالجملة فالعقوبة الدينية — سواء أكانت أخروية بالترغيب فى النعيم والترهيب من الجحيم ، أم كانت دنيوية بالحدود المفصلة — خير ضمان لإسعاد البشر ، ونشر العدل بين الناس .

ب ـ العقوبة الخلقية

انتهى علماء الأخلاق إلى ماعنيت به الشرائع فى مسألة الخير والشر وجزاء من يحيد إلى هذا ومن يهتدى إلى ذلك ، وأخذوا يعددون مساوى الشر وآثاره

الوبيلة فى حياة المجتمع الانسانى ، ثم راحوا يبثون ذلك فى نفوس الناس ويملئون بهأفكارهم حتى ثبت واستقر ، وعادالرأى المزكى الذى لا يختلف فيه اثنان . وبذلك صار الحائد إلى الشر مخالفا للنظام الخلقى المقرر خارجا على المجتمع الانسانى فى صورته المثلى ؛ فتحق عليه العقوبة الخلقية .

ولا شك أن الأخلاق الفاضلة لها السيادة فى المجتمع الإنسانى ؛ فإن لم يكن لها السيادة على أعمال الأفراد فإن لها من السيادة على الأفكار أوفى نصيب . ولم يختلف الناس حتى الآن فى اعتبار هذه الأخلاق والايمان بها ، وإن اختلفوا فى الطاعة لها ، والعمل بأوامرها ونواهيها :

فكل من يجاوز الأخلاق الفاضلة يعتقد أنه خارج على النظام المقرر للمجتمع الانسانى ، فهو يستر هذه المجاوزة جهد إمكانه ، ثم هو يبالغ فى نفيها عن نفسه إذا رمى بها .

وعلى الرغم من أن كثيرا من الناس يجاوزون جادة الأخلاق الفاضلة ، فإنهم جميعا ناقمون على من يجاوزها باذلون إجلالهم لمن يستمسك بعراها : وذلك لأنها هى الفكرة المسيطرة على الأفكار ، والعقيدة المتمكنة فى النفوس .

أجل ؛ فإن الاستقامة والتخلق بالخلق الحسن هو مفخرة كل فرد سواء أكان حقيقة أم ادعاء ، وهو الوسيلة الناجحة التى يتوسل بها المرء إلى رضا الناس عنه ، وتعلقهم به ، وإجلالهم له .

ومن ثم نجد أن أشنع ما يُزَنُّ به الرجل هو أن تسند إليه خصلة غير شريفة أو يرمى بخلة لا ترضى عنها جمهرة الأخلاق الفاضلة ؛ فإن الناس لا يلبثون أن يتناقلوا ذلك عنه فى ازدراء ويفرغوا عليه ذَنُوبا من السخط والاحتقار .

وكان رأينا الخصوم فى السياسة أو غيرها من أسباب الحياة وأحوالها يعمدون إلى السلاح الماضى ليتطاعنوا به ، وذلك السلاح هو الخلق ؛ فمتى عمد إليه خصم فاعتمد به خصمه فقد أصاب منه مقتلا ، وهيأ لنفسه سبيل الفوز المحقق .

فالعقوبة الخلقية لمن يقارف الشر خارجا بذلك على الأخلاق الفاضلة التى زكاها أولو الرأى ، وقرت فى نفوس الناس - هى حكم عليه لا يقبل النقض بالموت الأدبى ؛ إذ هو يعيش هدفا للمقت والازدراء . وهيهات هيهات أن يستريح للعيش ممقوت معَادى .

والحق أن العقوبة الخلقية أفعل العقوبات أثرا فى قتل الشر فى نفس من يهم به ؛ إذ أن الإنسان مدنى بالطبع كما هو مقرر ، ولا يسعه أن يعيش وحده ، بل لا بد له أن يشارك الناس وأن يشاركوه فى أسباب العيش وتكاليف الحياة ، وهذه المشاركة تتطلب منه أن يكون من الخلق على حال ترضى بها نفوسهم ، وتوافق ما استقر فى أفكارهم . فالعقوبة الخلقية لمن يخالف تلك الحال جانحا إلى الشر هى نفى المجتمع الإنسانى ، وسلخه من طبعه المدنى .

جـ - العقوبة القانونية

رأى القانون أن بعض الناس يصلون من فساد النفوس بالمكان الذى يستوجب سن العقوبات إذهم يصغون إلى نوازع السوء ، فيقارفون الجرائم ، ويجترحون الآثام ؛ غير ملقين بالا إلى أوامر الدين ونواهيه ولا إلى النظام الاجتماعى الذى فرغ من تقريره الخلقيون : فلهؤلاء - وما أكثرهم - سُنّت العقوبة القانونية ردعا لهم وقطعا لدابر إفسادهم ، وآخر الدواء الكى .

إن الشر يقع حينا على صاحب الشر نفسه ، ويقع أكثر ما يقع على المجتمع الإنسانى ممثلا فى فرد من أفراده ، أو مصلحة من مصالحه من غير ما ذنب سابق أو جريرة .

ولذلك رأت الحكومات فى مختلف الأمم أن تفرض العقوبات على كل من يحاول إيقاع الشر إقرارا للأمن وإقامة للحقوق وردا للاعتداء ، وتلك هى نشأة قوانين العقوبات .

وتعليل هذه القوانين بما يلى :

أولا : العبرة :

فإن العقوبة إذا وقعت على مرتكب الشر عادت عبرة فى نفس غيره، فحجزته عن أن يهم بما هم به المعاقب خشية العقوبة ، بل إنها عبرة للمعاقب نفسه ، فما يعود غالبا إلى ارتكاب الشر مرة أخرى ؛ إذ قد عرف جزاء ذلك بما لقيه من جزاء فعلته الأولى .

وللعبرة دائما أثر فعال فى النفوس ، فهى تقابل القدوة فى الأعمال الصالحة ، وكلاهما نظام نفسى كبير القيمة جليل الخطر .

ثانيا : القصاص :

وذلك أن ينال المعتدى قسطا من العقوبة يماثل ما أناله غيره من الاعتداء ؛ حتى لا يكون الأمر فوضى ، ويمحى أثر السلطان ، فيقدم كل من تحدثه نفسه الشريرة بالأذى بجأش رابط غير مرتقب جزاء ولا قصاصا .

ولقد وضحت هذه الفكرة بقول الله عزوجل : « وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ » :

فالقصاص هو إظهار لسلطان النظام الاجتماعى الذى يحفظ حقوق الأفراد ، ويرد عنها الاعتداء ، متى ظل القصاص قائما فقد اطمأنت نفوس البرآء ، وأظلهم الأمن ، وهو أيضا يميت كثيرا من نوازع الشر فى مهودها قبل أن تفرخ وتعشش فى نفوس المعتدين . وبذلك يتحقق السلام الممكن بين الأفرادو الجماعات. وتقل الجرائم بينهم بقدر المستطاع .

وقد استقرت كلمة الحكومات على أن تتولى هى بنفسها معاقبة من يرتكب الجرائم ، سواء منها ما يقع على الأفراد ، وما يقع على المصالح العامة غير تاركة للأفراد أنفسهم حق الدفاع عن أنفسهم كما فى الأمم التى لم تضرب بعرق فى نسب الحضارة :

وذلك لأن الفرد المعتدى عليه ليست فيه قوة التحكيم والعدالة إن كان قويا،

أما إن كان ضعيفا فسيظل الاعتداء عليه مطلولا لا يملك له قصاصا : ففي الحالة الأولى يتحقق الظلم بالغلو في رد الاعتداء ، وفي الحالة الأخرى يتحقق الظلم أيضا على المعتدى عليه لعجزه عن رد الاعتداء بمثله .

ومن ثم رفعت الحكومة عن الأفراد هذا المهم ، وتولته بنفسها ممثلة في قوانين مقننة ، وقضاة عدول ، ونظم تكفل للأفراد حقوقهم كاملة لا ينقص منها ولا يزاد فيها ، فعدت كل اعتداء يوجه إلى الفرد موجها إلى المجتمع نفسه يجب عليها أن ترده بالعدالة المقررة . فالذين يقارفون الشر الواقع على غيرهم هم أعداء الحكومة تجازيهم وتقتص منهم وتأخذ على عاتقها إرضاء من وقع الاعتداء عليهم برده عنهم .

على أن الحكومات تتولى قصاص مقارفة الشر بما تملك من حكمة وما تؤتى من خبرة ، وتتذرع لذلك بالرأي والبصيرة ، فتسن العقوبة وتبين أحوال التخفيف والتشديد في إيقاعها تبعا لحالة الشعب ومكانه من فهم الجرائم والتأثر بالانتقام ؛ فمتى ارتقت نفسية الشعب الأبية فقد يجدي التسمح مالا يجدي التشدد ، وقد يعمل التأديب الهين مالا يعمل التعذيب الأليم في قتل جراثيم الشر وبث روح العدالة في نفوس الأفراد .

فالعقوبة القانونية تختلف باختلاف طبائع الأمم وعاداتها وأحوالها ، وليست هي ضربة لازب لا تقبل النقص والتغيير ، بل هي دائمة التغيير والتبديل وفقا لأحوال الأمة وما ينشأ من تغيير أخلاقها وتبدل عاداتها .

ولما كان المراد من العقوبة القانونية هو إقرار العدل والنصفة ومنع الأذى لا شهوة الانتقام لمجرد الانتقام ، وكانت الجرائم التي تنتجها روح الشر صادرة عن طباع مريضة أو عادات ذميمة — استعانت الحكومات في العقوبة القانونية بالطب النفسي ، وعولت على درس الغرائز والطباع ؛ توصلا إلى مداواتها بما تشفى به من روح الشر ؛ حتى تصبح العقوبة القانونية دواء من مرض الإجرام ، لا قصاصا مجردا قوامه رد الاعتداء بمثله ولا إيقاعا للعقوبة دون نظر أو تدبير ،

الندم والتوبة

إذا ارتكب المرء جرما ثم فكر فيه بعد أن عمله ، فشعر بألم نفسى لذلك الجرم ـ كان هذا الألم النفسى هو الندم أو تأنيب الضمير .

فإن انتقل المرء خطوة بعد هذه بأن حمله التأنيب على إصلاح نفسه وتحاشى ذلك العمل وما شابهه فى المستقبل فقد أخذت التوبة تدب فى نفسه . ومن ذلك يتبين أن الندم ينشأ من شعور المرء بأن فعله يناقض مبدأه الخلقى الذى ارتضاه لنفسه ، أو عالم النفس الذى اعتاد أن يعيش فيه ؛ فعين الندم ترنو بحسرة إلى ذلك العمل الماضى الذى ليس فى قدرة البشر رفعه، وعين التوبة تتطلع إلى المستقبل، يدفعها الأسف على ما مضى ، ويجذبها الأمل فى إصلاح ما بقى . لهذا كان المخطئ، وهو فى حالة ندم فقط — فى حالة موت نفسى حتى إذا تاب توبة حقيقية انتقل إلى حالة حياة نفسية عظمى ، غير أن ضمائر الناس تختلف حساسيتها ؛ فليس ذلك السراج المضىء الذى يضىء للناس سبيل الحياة سواء فى جميع الناس؛ أما السراج فمع كل إنسان ، وأما نوره فيختلف باختلاف الناس : فمنهم من سراجه وهاج ، ومنهم من سراجه مضىء ، ومنهم من سراجه مومض ، ومنهم من سراجه مظلم لا نور فيه .

والتأنيب إذا كان بالغا تجاوز الألم إلى حزن عظيم على ما يجده المرء من أنه قد تدهور بسبب جرمه تدهورا عاما من المستوى الأدبى الذى كان يسير عليه ، وأن ذلك الجرم دليل الانحطاط العام فى أخلاقه ، وأنه لم يرتكب عملا جزئيا ، ولكنه خرج على القانون الأسمى للأخلاق، وأنه لذلك يحتاج إلى استئناف حياة جديدة طاهرة ؛ ولا شك فى أن هذا الشعور هو الذى يقود صاحبه إلى الإصلاح .

فالتأنيب أو وخز الضمير ، أو توبيخ الضمير — هو الألم المعنوى الذى يعقب كل فعل سيئ وهو اضطراب يقع فى نفس المسىء ، فيشعر باختلال فى حركة

النفس المطمئنة ، بل هو ألم قهرى شديد يصحبه أسف وندم على فعل الشر . وقد لا يكون الأسف عاطفة خلقية ، فقد يأسف الإنسان على فوات مصلحة له ، أو ضياع فائدة كان يصبو إليها . وأسباب الندم ووخز الضمير ترجع إلى سوء الفعل وإلى الخطايا والجرائم ، وكلها توجب المسئولية . والوخز عقاب واقع ، وقد يؤدى إلى الندم ، وقد يذهب الندم بوخز الضمير : قال بوسويه : إن أول درجات الغفران عند الله هو وخز الضمير .

والندم ألم يصيب النفس عند ارتكاب الخطايا والآثام ، فيندم صاحبه على ما فعل وينوى التوبة والإنابة ، ولا غرو فالضمير هو المرجع الذى ترد إليه الأمور والقاضى الذى يفصل فى جميع الشئون فيظهر بشره للخير ، ويعبس للشر: إن جاء العمل حسنا نظر إلى النفس نظرة سرور واغتباط ، وإن جاء قبيحا ذميما وخيم المغبة أنبها وتابع عليها وخزاته وقوارص كلماته حتى لقد يلتهب القلب من سعير وخزه أو ينصدع الكبد من لوازع توبيخه . فإن وقف عمله عند هذه الملامة فتلك مرتبة التأنيب فحسب ، وإن تعداها إلى العزم الصادق على اجتناب أمثال ما وقع ، وتدارك مافرط من التقصير ـ فتلك التوبة .

والناس من حيث ضمائرهم أربعة أصناف :

صنف أفسدتهم الشهوات ، وانغمسوا فى الجرائم وألفوها فماتت ضمائرهم ، وأصبحوا لا يحترمون دينا ولا عرفا ولا قانونا : أولئك هم سفلة الناس وشرارهم ، ومنهم سواد المجرمين وأهل السجون .

وصنف ضعف سلطان ضميرهم عليهم فلا يعملون الواجب إلا خوفا من الناس : أولئك هم المراءون الذين يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم .

وصنف يرتاح ضميرهم إلى احترام القوانين السماوية والوضعية والعمل بها سرا وعلانية ؛ لأنهم يرونها ضرورية لنظام هذا العالم : أولئك يرعون حقوق الله

والناس في سرهم وعلنهم ، ويؤدون الأمانة ولو أمنوا العقوبة ، لا يغشون في البيع والشراء ، وإن أمنوا أعين الرقباء . وهـذا الصنف بلا شك أرقى من سابقيه .

وصنف قوى ضميرهم وسما شعورهم ، وأُلهموا الصواب في أعمالهم ، وهم يعرفون الحق ويهيمون به ، ويعملونه لذاته ، تهون عليهم أفئدتهم وأموالهم في سبيل نصرة الحق : أولئك هم أفاضل الناس وخيارهم ، وهم المثل الـكامل لأصحاب الضمائر الحية والنفوس الأبية ؛ شأنهـم الإصلاح واحترام الحقوق والواجبات ، ودأبهم عمل الخير ونصرة الحق ، لا يخشون فيه لومة لائم ولا يصدهم عنه وعد ولا وعيد ، وفي مقدمتهم النبيون والصديقون والمصلحون : تأمل قول على كرم الله وجهه :

هيهات أن يغلبني هواى ، ويقودني جشعي إلى تخير الأطعمة ؛ ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص ، ولا عهد له بالشبع ، أو أبيت مبطانا وحولي بطون غرثى وأكباد حرى؟ أو أكون كما قال القائل ؟ :

وحسبك داء أن تبيت ببطنة وحولك أكباد تحن إلى القد

أأقنع من نفسي بأن يقال : أمير المؤمنين ـ ولا أُشاركهم في مكاره الدهر وأكون أُسوتهم في جشوبة العيش ؟ فما خلقت ليشغلني أكل الطيبات كالبهيمة المربوطة همها علفها ، أو المرسلة شغلها تقممها : تـكترش من أعلافها وتلهو عما يراد بها ! أو أُترك سدى ، وأهمل عابثا ، أو أجر حبل الضلالة أو أعتسف طريق المتاهـة ؟.

وقال تولستوى : تبا لنا ، نسرف في المـأكل والمشرب والملبس ، ونتقلب في فرش النعيم ، وإخواننا يتضورون جوعا ، يفترشون الغبراء ويلتحفون بالزرقاء !

الضمير هو الذي يسوق ساسة الشعوب وزعماء الأمم ، فيأمرهم أن يفتدوا بحياتهم دينهم ووطنهم ، ويصدهم عن إضاعتهما في سبيل نيـل شهوة كاذبة ، أو نضار يقدم إليهم ، وكم من سياسي تبدو على وجهه سمات البشر والارتياح ونفسه مقسمة بين قوتين متجالدتين : إحداهما تدفعه إلى ركوب متن الأهوال والمخاطر ،

وتحذره متابعة الرغبات ، وأخراهما تسول له اجتناب النصب والركون إلى الترف والدعة ؛ فتتغلب الأولى على الأخرى بالمصابرة والمثابرة ، وينال تجد الدنيا ونعيم الآخرة ، وأما إذا تغلبت الثانية على الأولى فهناك الخزى فى الدنيا ، والعذاب المقيم فى الآخرة .

التوبة : إن التوبة فى لسان العرب الرجوع : وهى رجوع عما كان مذموما فى الشرع إلى ماهو محمود فيه : قال الأستاذ أبو على الدقاق رضى الله عنه : التوبة على ثلاثة أقسام : أولها التوبة ، وأوسطها الإنابة ، وآخرها الأوبة : قال أبو القاسم القشيرى رحمه الله : فكل من تاب لخوف العقوبة صاحب توبة ، ومن تاب طمعا فى الثواب فهو صاحب إنابة ، ومن تاب مراعاة للأمر لا لرغبة ولا لرهبة فهو صاحب أوبة . ويقال أيضا :

التوبة صفة المؤمنين قال الله تعالى : « وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »

والإنابة صفة الأولياء والمقربين : قال الله تعالى : « وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ »

والأوبة صفة الأنبياء والمرسلين : قال الله عز وجل : « نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ » وقال ذو النون رحمه الله : توبة العوام من الذنوب ، وتوبة الخواص من الغفلة .

وأما مقدماتها فانتباه القلب من رقدة الغفلة ورؤية العبد ماهو عليه من سوء الحال والتعرض لسخط الله تعالى وأليم عقابه وذكره ضعف صبره عن احتمال شديد عذابه ، فيحمله ذلك على التوبة .

وأما علاماتها فهجران قرناء السوء والتوحش عنهم وحب العزلة وقلة الكلام ومجانبة الفضول وسكون الجوارح عن الحركات المذمومات وملازمة الذكر والاستكثار من العبادة وحزن القلب وكثرة الأسف على ما أساء وفرط وتخلف

وضيع من جواهر عمره النفيسة فى المخالفات والشهوات الخسيسة وإدامة الجأر فى طلب الإقالة .

وأما ثمراتها فمنها رجوعه حبيبا للرحمن بعد أن كان حبيبا للشيطان ، وطهارته من السيئات التى كان يستحق بها العذاب الأليم ، وربحه الحسنات التى ينال بها النعيم المقيم ، ومسارعته إلى الأعمال النافعة بانبعاث جوارحه فى العمل بعدأن كان منصرفا عنها .

وماورد فى الحديث من أن الندم توبة فمحمول عند بعض العلماء على أنه معظم التوبة كما قال صلى الله عليه وآله وسلم : « الْحَجُّ عَرَفَةُ » : أى معظم الحج. وما ورد فى شأن التوبة: قال الله تعالى : « وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » وقال : « اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ » وقال تعالى : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً » ـ اختلفوا فى معناه : قال عمر وأبى ومعاذ رضى الله عنهم : هى أن تتوب ثم لا تعود إلى الذنب كما لا يعود اللبن فى الضرع . وقال محمد بن كعب القرظى رحمه الله : يجمعها أربعة أشياء : الاستغفار باللسان ، والإقلاع بالأبدان ، وإضمار ترك العود بالجنان، ومهاجرة سيئ الإخوان . وعن أبى هريرة رضى الله عنه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «وَاللهِ إِنِّى لأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِى الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً » رواه البخارى. وقال صلى الله عليه وسلم : « يَأَيهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللهِ فَإِنِّى أَتُوبُ فِى الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ » رواه مسلم . وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « مَنْ لَزِمَ الاسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللهُ لَهُ مِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجاً وَمِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجاً وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ » رواه أبو داود . وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « يكثر أن يقول قبل موته : سبحان

الله وبحمده أستغفره وأتوب إليه » وقال الفضيل : استغفار بلا إقلاع توبة الكذابين . وقال بعض الحكماء : من قدم الاستغفار على الندم كان مستهزئا ولا يعلم . وسمع أعرابى وهو متعلق بأستار الكعبة يقول : اللهم إن استغفارى مع إصرارى للؤم ، وإن تركى استغفارك مع علمى بسعة عفوك لعجز ؛ فكم تتحبب إلى بالنعم مع غناك عنى ، وأتبغض إليك بالمعاصى مع فقرى إليك!! يامن إذا وعد وفى وإذا توعد عفا أدخل عظيم جرمى فى عظيم عفوك يا أرحم الراحمين .

وقال أبوالفرج بن الجوزى رحمه الله فى روضة المشتاق إلى الملك الخلاق : خرج ثلاثة نفر يستسقون فقال أحدهم : اللهم إنك أمرتنا بعتق عبيدنا إذا شابوا فى خدمتنا وقد شبنا فى خدمتك فتفضل علينا بعتقنا . وقال الثانى : اللهم إنك أمرتنا أن نعفو عمن ظلمنا وقد ظلمنا أنفسنا فاغفر لنا . وقال الثالث : اللهم إنك أمرتنا أن لا نرد المساكين إذا وقفوا بأبوابنا ونحن مساكينك وقد وقفنا ببابك فجد علينا بفضلك وإحسانك .

وقال الله تعالى :« إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً . وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً » :

قوله تعالى إنما التوبة على الله ـ أى قبولها على الله بإيجابه على نفسه تفضلا ، «للذين يعملون السوء بجهالة » : قال قتادة : أجمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن كل ما عصى به الله فهو جهالة عمدا كان أو لم يكن ، وكل من عصى الله فهو جاهل ، وفسرت الجهالة باختيارهم اللذة الفانية على اللذة الباقية : « ثم يتوبون من قريب » : قبل معاينة ملك الموت . قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم : « إِنَّ اللهَ تَعالَى يَقْبَلُ تَوْبَةَ العَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ » : كما تقدم. ومعنى قوله تعالى : « وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن » ـ أن التوبة لا تقبل ممن وقع فى النزع وهو فى حالة السوق حين تساق روحه فلا يقبل من كافر إيمان ولا من عاص توبة، ويؤيد ذلك قوله تعالى : « فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا » : ولذلك لم ينفع إيمان فرعون حين أدركه الغرق.

وقال لقمان لابنه: يابنى لا تؤخر التوبة ، فإن الموت يأتى بغتة . وقال الغزالى رحمه الله : من ترك المبادرة إلى التوبة بالتسويف كان بين خطرين عظيمين :

أحدهما أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصى حتى تصير رينا وطبعا فلا تقبل المحو .

والآخر أن يعاجله المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو ، فيأتى الله بقلب غير سليم ، ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم . وقال أبو الفرج بن الجوزى رحمه الله: ورد فى الخبر أن بعض الأنبياء قال لملك الموت عليه السلام: أمالك رسول تقدمه بين يديك ليكون الناس على حذر منك ؟ قال : نعم والله لى رسل كثيرة : من الأمراض والعلل والشيب والهرم ، وتغير السمع والبصر . فإذا لم يتذكر من نزل به ذلك ولم يتب فإذا قبضته ناديته : ألم أقدم إليك رسولا بعد رسول ونذيرا بعد نذير ؟ فأنا الرسول الذى ليس بعدى رسول ، وأنا النذير الذى ليس بعدى نذير. فما من يوم تطلع فيه شمسه إلا وملك الموت ينادى : أبناء الأربعين ؟ هذا وقت أخذ الزاد ، أذهانكم حاضرة وأعضاؤكم قوية شداد . يا أبناء الخمسين ، قد دنا الأخذ والحصاد . يا أبناء الستين، أنسيتم العقاب ، وغفلتم عن رد الجواب، فما لكم من نصير. من أجل ذلك كان لا بد من التحلل من المظالم فى الدنيا

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلِمَةٌ لِأَخِيهِ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهَا ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ ثَمَّ دِينَارٌ وَلَا

دِرْهَمٌ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُؤْخَذَ لِأَخِيهِ مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ أَخِيهِ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ » رواه البخارى :

اللغة : ـ مظلمة بكسر اللام مصدر ظلم كضرب ، وهو الجور والإيذاء .
يتحلله منها : يستبرئه منها بإيفائه إياها أو إبرائه

معنى الحديث : ـ ما أجمل العدل وإيتاء كل ذى حق حقه ، وما أحسن الوئام يجمع شمل المسلمين ، ويقوى رابطتهم وتشد أواصر وحدتهم ،وماأجدرهم أن يصدروا فى أعمالهم عن حب يتبادلونه وإخلاص يفيض عليهم هناءة وسعادة، وما أشقاهم إذا لبسوا ثياب النمور واحتقبوا الإحن والبغضاء ، واستشعروا الغل والضغن ، كل يبغى الشر لأخيه ويود لو التهم مافى يده وأودى بطارفه وتالده واستأثر دون الآخر بالخير ومرافق الحياة!!

ماذا يرجو الظالم من ظلمه ؟ وماذا يرتجى لعاقبته ؟ وما الذى أعده يوم يقتص منه ويؤخذ للمظلوم بحقه ؟ لئن غره إقبال الأيام وابتسام الدهر له فليحذر تقلباته فإنها شديدة قاسية ، ولئن اعتز بقوة جسمه ، وامتداد سلطانه فسيذوق لطغيانه وتجبره مرارة الصاب والعلقم يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ، يوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ، هنالك تنجاب عن العيون الغشاوة ويتفرق عن العاصى الاصحاب والأنصار ، ولا يبقى إلا ما أسلف من خير أو شر ، ويؤخذ بيد العاصى فينصب على رءوس الناس، وينادى مناد : هذا فلان بن فلان ، فمن كان له حق فليأت ، فيأتون ، فيقول الرب : آت هؤلاء حقوقهم . فيقول : يارب فنيت الدنيا فمن أين أعطيهم . فيقول للملائكة: خذوا من أعماله الصالحة فأعطوا كل إنسان بقدر طلبته ، وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أَتَدْرُونَ مَنِ الْمُفْلِسُ ؟» قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع . فقال : « إِنَّ الْمُفْلِسَ مَنْ يَأْتِى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ

وَصِيامٍ وَزَكَاةٍ وَقَدْ شَتَمَ هَذَا ، وَقَذَفَ هَذَا وأكَلَ مَالَ هَذَا ، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا ، وَضَرَبَ هَذَا ، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يَقْضِيَ مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ » رواه الإمام مسلم.

وصفوة القول أن حد التوبة فى الشرع : ترك المعاصى فى الحال ، والعزم على تركها فى الاستقبال ، وتدارك ماسبق من التقصير فى سابق الأحوال ، وهى واجبة عن كل ذنب :

فإن كان الذنب بين العبد وربه لا يتعلق بحق آدمى فلها ثلاثة شروط :

أحدها أن يقلع عن المعصية ، والثانى أن يندم على فعلها ، والثالث أن يعزم على عدم العودة إليها أبدا فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته

وإن كانت المعصية تتعلق بآدمى فشروطها أربعة : هذه الثلاثة ، وأن يبرأ من حق صاحبها : فإن كان مالا أو نحوه رد إليه ، وإن كانت غيبة استحله منها .

وقد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة والإجماع على وجوب التوبة : قال الله تعالى : « وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) وقال تعالى : « اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« يَاأَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ؛ فَإِنِّى أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ »

ولما سئل سيدنا على كرم الله وجهه عن الاستغفار قال : هو درجة العليين ، وهو اسم واقع على ستة معان :

أولها الندم على مامضى ، والثانى العزم على ترك العودة إليه أبدا ، والثالث أن تؤدى إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة ، والرابع

أن تعمد إلى كل فريضة عليك ضيعتها فتؤدى حقها ، الخامس أن تعمد إلى اللحم الذى نبت على السحت فتذيبه بالأحزان حتى تلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد ، والسادس أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية، فعند ذلك تقول: أستغفر الله .

الحرب والسلم

نظر الإسلام إليهما

آراء الباحثين

إذا كان حب الوطن والتباهى به من أسمى الفضائل وأكبر الواجبات فلا يتصور أن يترك الوطن وشأنه ، وتهمل أسباب وقايته والدفاع عنه ؟ حتى لا تتخطفه الأعداء من كل مكان ، فيزول اسمه ورسمه من مصور البلدان .

لا جرم أن هذا الواجب المدنى ـ وهو الحرب والدفاع ـ أتت به كل الشرائع وخضعت لسنته جميع شعوب الأرض منذ وجدت الخليقة إلى اليوم وإلى ما شاء الله .

يقول بعض الخلقيين : إن الحرب آفة الإنسانية وإنها أثر من آثار انحطاط البشر فى الأخلاق ، وإنهم سوف يرتقون ويصلون إلى دور من عمرانهم يستغنون فيه عن الحرب والدفاع كما يستغنون عن الحكومة ، ولكن متى يصلون إلى هذا الدور ومعظم ساسة اليوم يرون وجوب العمل بما قاله السلطان سليم : إذا أردت الصلح والصلاح فكن مستعدا على الدوام للكفاح ؟ !

وقال بول دومر الفرنسى : إذا سلمنا بأن الحرب ضربة هائلة البشرية على وجب أن نسلم أيضا بأن هناك ضربات أشد هولا منها ؛ لأنه ليس هناك من ينكر أن الحرب أفضل بكثير من خسران الاستقلال وفقدان الشرف الوطنى.

والإسلام يقول بوجوب الحرب والدفاع ، ويعده من أسمى الفضائل كما

عدته سائر الأمم المتمدينة ، وقد حض على الاستعداد للحرب والصبر على بلواها ، وهو مع هذا يرشد إلى التروى ، كما يصرح بأن الحرب عمل فظيع لا يصار إليه إلا عند الضرورة القصوى : قال صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : « لاَ تَتَمَنَّوْا لِقاءَ العَدُوّ ، وَإذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا » :

وجلى أن الحديث يشعر بأن الحرب وإن كانت فضيلة ليست مما يتمنى ، بل مما يُجتنب ما أمكن الاجتناب ، حتى إذا اضطرت الأمة إليها تذرعت بفضيلة الصبر عليها كالعملية الجراحية فى الجسد : تصبح واجبا صحيا إذا اقتضتها سلامة الإنسان وكان الصبر عليها فضيلة إنسانية بلا خلاف .

وقد جاء الإسلام وأوضح أن الحرب ضرورة ، ومن قواعده أن الضرورة تُقَدَّرُ بقدرها ، وقد طبق هذه القاعدة على الحرب نفسها فنهى عن تمنيها كما سبق ، ثم حصرها فى دائرة ضيقة من الشرائط والقيود :

فهو لا يأذن أن تقع فيها خيانة ولا غدر ولا أن تقتل امرأة ولا طفل ولا هرم ولا عاجز ولا من كان معتزلا للحرب كالنساك والعباد والرهبان ، ولا أن يُقتل أسير ، ولا يُجهز على جريح ، ولا تقطع أشجار ، ولا تفسد زروع ، ولا تخرب دور ، ولا تسمم مياه ، إلى غير ذلك من الآداب المعروفة فى كتب السنة .

وقد أقر المصنفون من كُتَّاب أوربا بأن الإسلام حض على هذه الآداب: فقال الأستاذ (ريفيه) فى بعض تآليفه : إن الإسبانيين أخذوا عن العرب مدنية الحرب ، وتعلموا منهم الرفق فى القتال وقت أن كانت قوانين العرب فى الحروب أكثر مدنية من قوانين الأوربيين .

ومما ينبغى التنبيه إليه أن الإسلام فى كثير من نصوصه التى يحض فيها على الحرب يسميها باسم الجهاد . والجهاد والمجاهدة والاجتهاد كلها مشتقة من الجهد الذى معناه بذل الوسع فى ممارسة أى شىء كان ، غير أن كلمة الجهاد غلبت فى لسان الشرع على بذل الوسع فى ممارسة الحرب والصبر على أهوالها ، وكان

الغرض من إيثار الشرع لكلمة الجهاد هو تجنب اسم (الحرب) الصريح الكريه والعدول عنه إلى ما هو أخف وقعا منه وهو كلمة (الجهاد) ، ولكن انقلب الوضع اليوم ، وصرنا نسمع الأوربيين يتشاءمون جد التشاؤم من هذه الكلمة؛ وكأنهم فهموا منها أن المسلمين يقتلون كل من خالفهم فى الدين دون قيد ولا شرط ، وهذا خطأ ؛ لأن الجهاد الذى تأمر به الشريعة ليس سوى حرب مدنية محضة لا يتجاوز فيها قدر الضرورة وحدود العدل، وكل ماورد فى هذه الكلمة من النصوص الدينية لم يخرج عما تسير عليه الأمم المتمدينة فى قوانينها وبلاغاتها من وجوب الثبات فى الحرب والدفاع عن الوطن بكل مافى النفس من حمية وحماس ضمن الدائرة التى رسمها علم حقوق الدول والتى رسمتها الشريعة الغراء من قبل : اقرأ قوله تعالى :

« إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ » وقوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »

وتأمل قوله عليه الصلاة والسلام : « الْجَنَّةُ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ »وقوله : « أَقْرَبُ الْعَمَلِ إِلَى اللهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ » وقوله : « رِبَاطُ شَهْرٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ دَهْرٍ » وقوله : « عَيْنَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ أَبَداً : عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللهِ » وقوله : « كُلُّ مَيْتٍ يُخْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ إِلَّا إِذَا مَاتَ مُرَابِطًا فِي سَبِيلِ اللهِ ؛ فَإِنَّهُ يَنْمُو لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ »

إذا تأملت ماتقدم من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية استبانت لك مكانة الحرب فى الإسلام ، وتجلى لك نظامها .

ويمكن تلخيص وجهة الإسلام فيما يلى :

أولا : إن الأمر ورد في الكتاب بقتال المعتدين لكف عدوانهم ولدرء المفاسد وتوطيد المصالح مقترنا بالنهى عن قتال الاعتداء والبغى والظلم : ودليل ذلك قوله تعالى : « وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ » وتعليل النهى عن قتال الاعتداء بأن الله تعالى لا يحب المعتدين مطلقا ـ دليل على أن هذا النهى محكم غير قابل للنسخ

ثانيا : الغاية الإيجابية من القتال ـ بعد دفع الاعتداء والظلم ، واستتباب الأمن ـ حمايةُ الأديان كلها ، وعبادةُ المسلمين لله وحده ، وإعلاؤهم كلمته ، وتأمين دعوته ، وتنفيذُ شريعته وهى فى مصلحة البشر كلهم ، وإسداء الخير إليهم ، لا الاستعلاء عليهم ، والظلمُ لهم .

وشاهد ذلك قوله تعالى بعد الإذن بالقتال : « وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ »

ومن هاتين الآيتين وما سبقهما من آية الإذن بالقتال نستنبط ثلاثة أمور فى تعليل الإذن بالقتال :

(ا) ـ كونهم مظلومين معتدى عليهم فى أنفسهم ومخرجين نفيا من أوطانهم وأموالهم لأجل دينهم وإيمانهم ، وهذا سبب خاص بهم بقسميه الدينى والدنيوى .

(ب) ـ أنه لولا أذن الله للناس بمثل هذا الدفاع لهدمت جميع المعابد التى يذكر فيها اسم الله تعالى أتباع الأنبياء كصوامع العباد وبيع النصارى وصلوات

اليهود (كنائسهم) ومساجد المسلمين بظلم عُبّاد الأصنام ومنكرى البعث والجزاء ، وهذا سبب دينى عام صريح فى حرية الأديان فى الإسلام وحماية المسلمين لها ولمعابد أهلها .

(ج) ـ أن يكون غرضهم من التمكن فى الأرض والحكم فيها إقامة الصلاة لتطهير الأنفس وإيتاء الزكاة لإصلاح الأمور الاقتصادية والامر بالمعروف الشامل لكل خير ونفع والنهى عن المنكر لدفع كل شر وضر .

ثالثا : إيثار السلم على الحرب : ومعنى هذا أن السلم هى الأصل التى يجب أن يكون عليها الناس ، ولهذا أمرنا الله تعالى بإيثارها على الحرب إذا جنح العدو لها : قال تعالى : « وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ »

رابعا : الاستعداد التام للحرب لأجل الإرهاب المانع منها : ومعنى هذا أن الإسلام يوجب على الدولة قبل الحرب أن تعد كل ماتستطيع من أنواع القوة الحربية على أن يكون القصد الأول من ذلك إرهابَ الأعداء وإخافتهم من عاقبة التعدى على بلادها أو مصالحها أو أفرادها ؛ لتكون آمنة فى عقر دارها مطمئنة فى حريتها . وهذا مايسمى بالسلم المسلحة ، فالإسلام قد سبق إليها ، وامتاز على غيره بأن جعل التسليم السلمى دينا مفروضا ، فقيد به الأمر بإعداد القوى والمرابطة للقتال : قال تعالى : « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ »

خامسا : استعمال الرحمة فى الحرب : يأمر الإسلام أهله بأنهم متى غلبوا عدوهم وأمنوا على أنفسهم ظهورَه عليهم ـ أن يكفوا عن القتل ، ويكتفوا بالأسر ، وعلهم أن يخيروا فى الأسارى : إما بالمن عليهم بإطلاقهم بغير مقابل وإما بأخذ الفداء عنهم : يتجلى ذلك فى قوله تعالى : « فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ

كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ شَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ »

سادسا : الوفاء بالمعاهدات وتحريم الخيانة فيهما : من أحكام الإسلام القطعية التى وردت فيها آيات متعددة محكمة وجوب الوفاء بالعهود فى الحرب والسلم وتحريم الخيانة فيهما : وشاهد ذلك قوله تعالى :

« وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا » فقد اشتملت الآية على الأمر بالإيفاء بالعهود والنهى عن نقضها .

وقوله تعالى لما أمر بنبذ عهود المشركين الذين نقضوا عهد النبي والمؤمنين ، واستثنى منهم مع كونهم أهل دار واحدة : « إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ »

وقد بلغ من تأكيد الوفاء بالعهود أن الله تعالى لم يبح لنا أن ننصر إخواننا المسلمين غير الخاضعين لحكمنا على المعاهدين لنا من الكفار ، كما قال فى غير المهاجرين منهم : « وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ » وهذا منتهى الوفاء بالعهود .

الخلق القويم

تمهيد

إذا كان الغرض من الحياة التمتع بطيباتها وملذاتها الجسمية كان الإنسان فيها كمن يعيش ليأكل ، وانغمس فى حمأة اللذات التى كثيرا منها ما يهدم الحياة ، وحينئذ فلابد من التروى الذى يختار فى جوه أفضل اللذات وخير السبل للوصول إليها ؛ لتتم الحياة الخلقية . ولقد يرى المتروى أن هذه الحياة تتضمن أمورا غرزية : أهمها الحرص على بقاء الفرد والنسل وإدراك الذاتية والطموح إلى العلا .

فبقاء الفرد أهم ماترمى إليه الحياة الخلقية ، ولو اقتصر الإنسان فى طلب البقاء على الغريزة لضاعت تلك الحياة الخلقية ؛ فعقليته خضدت شوكة تلك الغريزة الحيوانية ، وهى التى تعين الأعمال الخلقية بخلاف الحيوان الأعجم الذى يعتمد فى حفظ حياته على الغريزة من أول عهده بالحياة .

أما الحرص على بقاء النسل فليس بأقل شأنا فى الحياة الخلقية من الحرص على بقاء النفس ، وقد يبغيه الإنسان بوسائل السرور كمن يتزوج ليسر نفسه بالزواج ، فيتبع مسرته المحافظة على نسله . وإذا كانت الطبيعة قد أوجدت هذه المسرة وسيلة فوجودها كافٍ لأن يكون غاية خلقية .

ومعنى إدراك الذاتية — أن الإنسان يشعر بوجوده ومركزه فى الحياة ، ويجرد من نفسه شخصا يؤنبه إذا أخطأ ، ويمدحه إذا أصاب ، وهذه الذاتية هى التى تصدر منها أفعاله ، وترجع إليها نتائجها سارة أم مؤلمة . وفى هذه الذاتية تتجمع جذور الغرائز والأخلاق تحت سيطرة العقل ، وتطور الطفل فى أثناء نموه اتجاه نحو هذه الذاتية ؛ فأول مايبتدئ أن يفهم يحس أنه شىء آخر مستقل عما يحيط به منفصل عن الذاتيات الأخرى ، وأنه أعلى شأنا وأنبل خلقا وأعظم قوة من كل المخلوقات ، وهنا يبتدئ فى الطموح إلى العلا ؛ فالعناية الإلهية خلقت

معه هذه الذاتية الملوءة بالزهو والإعجاب ، وخلقت له قوة يستطيع بها أن يسيطر على ماحوله ، وأن يسخر كل شىء فى سبيل رفعته وعظمته ، فيكيف ملابساته ويحسّن أحواله الداخلية والخارجيـة ، ويتحرى أحسن الوسائل التى تبلغه كل مايتمنى ، وتقرّبه من المثل الكامل ، وترسمُ له طريق الوصول إلى الحياة الإنسانية العليا .

التعقل الخلقى

يرتكز التعقل الخلقى على قوة الاستدلال ، ويقوم بالمقايسة المنطقية ، ويستمد مقدماته من الحقائق الخلقية ، لكن يتعذر عليه أن يستقصى كل الأفعال البشرية ليمحصها ويحكم بخطئها أوصوابها لكثرتها وتباين أغراضها وتنوع ملابساتها .

لذلك كان لابد من مبادئ خلقية عامة يسير عليها الأفراد كافة ، فتضمن لهم النجاح فى العمل والمساواة والتكافل : كقول الرسول الأمين عليه الصلاة والسلام : (لاَيُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ)

ونقيض هـذا المبدأ لا يصلح أن يكون قاعدة خلقية عامة ؛ لأنه إذا لم يراع كل فرد مصالح غيره ضاعت عليه مصالحه ، وكانت كل المصالح فى خطر ، وعاش الناس أفرادا شتى القلوب ، وهـذا نظام فاسد ؛ فصلاحية الفعل تتجلى فى موافقته للشخصية الاجتماعية ، وعدم إضراره بغير الفرد .

وإن ابتـداء الضمير عامة فى الأفراد والأمم يختلف باختلاف الأشخاص والأزمان والملابسات ؛ فما هو حق عندنا قدلايراه غيرنا حقا ؛ لهذا كان لابد لصحة حكمه أن يشترك العقل معه .

وقد يتصادم والتعقل : كأن يمنع الرجل ابنه عن شىء سار له شفقة عليه من ضرر قد يلحقه ؛ فهو يتألم لهـذا المنع ، وهو مقتنع أنه أسلم له ، وكما يرد الإنسان السائل خائبا حتى لا يتعود الشحاذة ، ثم يتألم لهذا الرد مع اعتقاده أنه فى مصلحة السائل والأمة .

التروى الخلقى

يتميز الإنسان عن غيره بأن حركاته داخلة ، وأن جهوده كلها لغرض بقائه صادرة عن مركز أعلى يحسه ويسيطر على إرادته بخلاف الحيوان ؛ فهو فى عمله خاضع لغريزة تسوقه إليه بغير سلطان آخر .

والتروى عند الإنسان أن يوفق بين الواسطة والغاية وأن يفكر فى العواقب : أى أنه يدبر سلوكه ويهيئه ويوجهه إلى السبيل المؤدى للغرض بما أوتى من تفكير وحيلة ؛ فهو يعيش فى الماء بغواصة وليس مائيا ، وفى الهواء بطيارة وليس طائرا ، فبالتروى يبتدع الوسائل لسعادته ، ويكبح جماح الغرائز والشهوات .

وقد تكون أغراضه السامية مناقضة لسنة البقاء الذى يرجوه كل حى : كالتضحية فى سبيل رقى الأمة ، وكالمروءة المتهورة التى تدعوه إلى خوض لجة الماء أولهب النار لإسعاد المجتمع الذى يتقاسم الأفراد خيره وشره ، والمضحى حقه منه فضلا عن ابتهاجه بالثناء ، وسروره بتلبية داعى الرحمة والشفقة .

وهذه الأغراض السامية هى بيئة المثل الكامل ، وهى التى تنظم الحياة الإنسانية على قواعد روحية لا جسدية ، وهى التى تقضى على الشهوات والأهواء التى تجعل الإنسان حيوانا .

وإذا أن للإنسان قوة الاختيار والتدبر وجب أن يكون أسمى غرضا ، وأن يختار لنفسه المثل الكاملة والسجايا الحسنة التى تكبح جماح شهواته وغرائزه ؛ لتتأصل فيه عناصر التدبر السامية بالمرانة والاختبار والقدوة واستحسان الرأى العام ؛ لينشأ على الفضيلة ويتميز عن الحيوان .

أسس الحياة الخلقية

لا يحيا الإنسان حياة خلقية إلا إذا تمت له الأمور الآتية :

الأول : نفس منقادة إلى رشدها منتهية عن غيها ، وذلك لأن نفس المرء إذا أطاعته ملكها ، وإذا عصته ملكته ، ومن عصته نفسه ولم يملكها كان بمعصية غيرها له أولى وبأن لا يطاع أحرى : قال بعض الحكماء : قمين بالعاقل ألا يطلب طاعة غيره ونفسه ممتنعة عليه . وقال الشاعر :

أتطمع أن يطيعك قلب سُعدى   وتزعم أن قلبك قد عصا كا

وطاعة النفس تكون من وجهين : أحدهما نصح ، والآخر انقياد :

فأما النصح فهو أن ينظر إلى الأمور بحقائقها ، فيرى الرشد رشدا ويستحسنه ، ويرى الغي غيا ويستقبحه ، وهذا يكون من صدق النفس إذا سلمت من دواعي الهوى ، ولذلك قيل : من تفكر أبصر .

وأما الانقياد فهو أن تسرع إلى الرشد إذا أمرها ، وتنتهي عن الغي إذا زجرها ، ويكون هذا إذا كُفيت منازعة الشهوات .

آيات النفس المطيعة

آية النفس المطيعة الإيمان الخالص وهو نوعان : ظاهر وباطن : فالظاهر النطق باللسان ، والباطن الاعتقاد بالقلب . والمؤمنون متباينون في منازل القرب متفاضلون في درجات الطاعة ، والإيمان جامع لهم بقدر حظ كل واحد منهم من الموهبة ، وتمكنه من علو المرتبة في الإخلاص ، والتوكل على الله ، والرضا بحكم الله .

والإخلاص الكامل ألا يطلب العبد بما يعمل من العمل المفروض والمسنون جزاء من الخالق القادر ؛ فإن كانت أعماله رجاء للمثوبة أو خوفا من العقوبة فهو ناقص الإخلاص : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لاَ يَكُونُ أَحَدُكُمْ

كَالعَبْدِ السَّوْءِ إِنْ خَافَ عَمِلَ، وَلاَ كَالأَجِيرِ السَّوْءِ إِنْ لَمْ يُعْطَ أَجْراً لَمْ يَعْمَلْ » وكذلك من عبد الله عز وجل طمعا فى الجنة أوخوفا من النار فليس بكامل الإخلاص؛ لأنه لنفسه سعى؛ وإنما تعينت علينا عبادته ووجبت فينا طاعته بما سبق له من الفضل علينا وتقدّم له من الإحسان إلينا؛ فإنه سبحانه خلقنا ببديع قدرته، ثم صورنا بحكمته، ونفخ فينا من روحه، ثم أخرجنا من ظلمات الأحشاء إلى مباشرة الأنوار والضياء واستنشاق أرواح الهواء، وجعل لنا السمع والأفئدة، وألهمنا إلى مصالحنا قبل تركيب العقل فينا من الرّضاع، وقبول الغذاء، والشره إلى المنافع، والكراهية للمضار؛ ثم بصرنا عند تركيب العقل فينا باستجلاب المصالح، واجتناب القبائح بعد أن مهد لنا الأرض، وفتق الأنهار، وأنبت الأشجار والثمار، وبسط أنواع الأرزاق، وبعث أسباب الانتفاع والاتفاق، وسخر لنا ماسخر من الحيوان تتميما لمواهب الإحسان، وجعل الليل والنهار، وزين السماء بكواكب الأنوار؛ لنهتدى بها فى ظلمات البر والبحار. وبعث لنا الأنبياء مبشرين بثوابه، ومنذرين بعقابه، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما؛ فأنّى لنا بالقيام بشكر هذه النعم وتأدية حقوق هذه المنن: « وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ».

والتوكل على الله مع الرضا بحكمه الاعتماد عليه سبحانه وتعالى عند الحاجة والاستنادُ إليه مع الضرورة والثقةُ به عند النازلة، وإذا كان المعول عليه ثقةً كانت نفوس من يعوّلون عليه ساكنة وقلوبهم مطمئنة وجوارحهم آمنةً؛ ولذلك ترى من اعتمدوا على الله راضية نفوسهم بما يجرى به القدر منشرحةً صدورهم لما تأتى به الغير؛ وذلك أفضل ما يصعد إلى السماء من صالح الأعمال، ويتقرب به العبد إلى الكبير المتعال: وفى هذا يقول بعض العلماء: أقرب الناس إلى الله أرضاهم بما قسم الله؛ لأن الراضى لا يتمنى فوق منزلته، فلا يزال أبدا طيبَ النفس

حسن الظن قرير العين هنيء العيش؛ إذ لا يرى جميع ما يطرأ عليه من المصالح والمساءة وما ينشأ لديه من المكاره والمضار إلا نعمة كاملة ومنة طائلة : فإن كانت مسرة تضاعف عليها حمده وشكره وزاد من أجلها عمله وبره ، وإن كانت مساءة نظر إلى ماأعدالله تعالى للصابرين فى البأساء والضراء من عظيم الأجر وماوعدهم عليه من جزيل الثواب والبر ، فأعدها أجل ذخيرة اقتناها وأطيب ثمرة يَعِدُ نفسه بجناها: قال بعض الحكماء : لا يستكمل المرء إيمانه حتى يرى البلاء رحمة والفقر نعمة .

وقالوا : رب مسرة هى الداء ومرض هو الشفاء .

أولو النفوس الراضية هم الذين لا يرون شيئاً دقّ أم جل كثر أم قل إلا من عند الله ، ولا يرون لأنفسهم نفوذا فى ورد ولا صدر إلا بإذن الله ، ولا نعمةً فى حال من الأحوال إلا من الله ، ولا ضراء إلا بقدر الله ،

وحكى أن جعفر بن سليمان رأى أعرابيا فى إبل قدملأت الوادى فعجب من كثرتها فقال له : لمن هذه الإبل ؟ فقال: هى لله فى يدى ! . وقال بعض العلماء : الزمان واعظ لمن بقى بمن مضى ، وفى تصرفه هلاك قوم ، وصلاح آخرين .

فالسكون إلى الزمان بعد العلم به نهايةُ العجز ، والثقة به غايةُ الجهل ، وسوء الظن به نفس الحزمُ ، والسبب الذى أدرك به العاجزُ حاجتَه هو الذى أقعد الحازمَ عن دركْ بغيته ، والأمر الذى يحول بين العاقل وسَعة الرزق هو الذى يوصل الجاهل إلى نيله ؛ وفى كل شيء حيلة إلا فى القضاء : وُجد فى بعض كتب الفرس : ثلاثٌ لا ترد ولا تَنْتقِل : القضاء والأجل والرزق .

ومن أشد ما أغرق أهل المعاصى فى لجج الآثام وضروب المظالم ، وعَدل بهم عن جادة الطريق المحبوب ، وحَمَلهم على الغفلة عن مراقبة علام الغيوب ـ ماتمسكوا به وركنوا إليه ولزموه وأكبوا عليه عند إقبالهم على ركوب الشهوات واتباعهم لمقارفة اللذات وانتهاك الحرمات : من إنهم إذا زجرهم زاجر أوذكرهم

بموعظة ذاكر وحصرتهم الحجة وقام عليهم البرهان ـ قالوا: إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم ورحمة الله وسعت كل شيء : «وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ» «مَنْ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُوراً رَحِيماً»

أولئك ينتظرون الرحمة بالإصرار ، ويلتمسون المغفرة بالعصيان ، ويرجون الإحسان مع الإساءة ، وكفى بذلك خطةَ خسفٍ وموافقةَ سُخف وخديعةَ نفسٍ وذريعة لبسٍ قد غرسها الشيطان فى قلوبهم ، فسوّل لهم عصيانَ ربهم ، ووعده غفران مظالمهم ، فجعلوا الظن عُدَّةً والرجاء إنجازا .

ومن آيات النفس المطيعة قوة إرادة صاحبها ، فإذا ضعفت الإرادة قويت الشهوة ؛ وتحركت الجوارح ، فاحتاج صاحبها إلى المكابدة ، ولجأ إلى المجاهدة إذا كان ناظرا فى العواقب جانحا إلى علو المراتب ، وإلا أرسلها عند ذلك على شهواتها، ومكّنها حينئذ من لذاتها ، فكلما مكنها من شهوة تاقت إلى غيرها ، وكلما نالت شهوة لذة شرهت إلى سواها ، فكان كما قال الشاعر :

إذا المرء أعطى نفسه كل شهوة ولم ينهها تاقت إلى كل باطل
وساقت إليه الإثم والعار للذى دعته إليه من حلاوة عاجل

وعلى الإنسان حينئذ ألا يجسر على نفسه بالعنف عليها ولا يضادّها بالقهر لها وأن يأخذها أولا بالمنع عن يسير الشهوة والكف عن قليل الهوى مما لا ترى النفس فى تركه كبير صعوبة، ولا تنالُ بالامتناع منه شديد مشقة ، ثم لا يزال ينقلها من حال إلى حال أقوى منها، ويرفعها من درجة إلى أعلاها كما يفعل الطبيب الماهر فى تدريج العليل بتلطيف المعاناة وبحسن المداواة حتى يزيل العرَض المحدثَ للعلة وهو الخضوع للهوى ؛ فإذا أزاله قوِى بعد ذلك على استئصال العلة، ووجدها متأتيةَ الزوال بزوال الدواعى المولدة لها الباعثةِ عليها فبطل الغى ، ونجح السعى .

الثاني : ألفة جامعة تنعطف القلوب عليها ، ويندفع المكروه بها : وذلك لأن الإنسان مقصود بالأذية محسود بالنعمة ، فإذا لم يكن آلفا مألوفا تخطفته أيدى حاسديه ، وتحكمت فيه أهواء أعاديه ، فلم تسلم له نعمة ، ولم تصف له مدة ، فإذا كان آلفا مألوفا انتصر بالألفة على أعاديه ، وامتنع من حاسديه ، فسلمت نعمته منهم ، وأصبح آمنا من شرهم ، وإن كان صفو الزمان عسرًا وسلمه خطرًا : قال النبي صلى الله عليه وسلم : (الْمُؤْمِنُ آلِفٌ مَأْلُوفٌ وَلاَ خَيْرَ فِيمَنْ لاَ يَأْلَفُ وَلاَ يُؤْلَفُ وَخَيْرُ النَّاسِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ) وقال: (إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَرْضَى لَكُمْ ثَلاَثًا وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلاَثًا : يَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا وَأَنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وَلاَّهُ اللهُ أَمْرَكُمْ. وَيَكْرَهُ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ وَإِضَاعَةَ الْمَالِ) ونقل عن العرب : من قل ذل .

وهذه الألفة التى تجمع الشمل وتمنع الذل لها عناصر خمسة : الدين والنسب والمصاهرة والمودة والبر :

فأما الدين فأقوى باعث على التناصر وأكبر مانع من التقاطع والتدابر ، وبهذا أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه كما روى سفيان بن عيينة عن الزهرى عن أنس رضى الله عنه — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لاَ تَقَاطَعُوا وَلاَ تَدَابَرُوا وَلاَ تَحَاسَدُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا لاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثٍ)

وعلى حسب التألف على الدين تكون العداوة فيه إذا اختلف أهله ؛ فإن الإنسان قد يقطع فى الدين من كان به بارا وعليه مشفقا :

ألم تر أن أباعبيدة بنَ الجراح وقد كان بارا بأبيه — قتله يوم بدر وأتى برأسه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤثرا طاعة الله عزوجل وإعلاء كلمة الحق

وتغليبا للدين على النسب؛ لأنه بقي على ضلاله وانهمك في طغيانه، فلم تعطفه عليه رحمة ولا كفه عنه شفقة وفيه أنزل الله تعالى: (لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ)

وقد يختلف أهل الدين على مذاهب شتى وآراء مختلفة فيحدث بين المختلفين فيه من العداوة والتباين مثلُ ما يحدث بين المختلفين في الأديان: وعلة ذلك أن الدين والاجتماع عليه من أقوى أسباب الألفة، فكان الاختلاف فيه بالضرورة من أقوى أسباب الفرقة. وإذا تكافأ أهل الأديان المختلفة والمذاهب المتباينة ولم يكن أحد الفريقين أعلى يدا وأكثر عددا — كانت العداوة بينهم أقوى، والإحنُ فيهم أعظم؛ لأنه ينضم إلى عداوة الاختلاف تحاسدُ الأكفاء وتنافس النظراء.

وأما النسب وهو الثاني من أسباب الألفة — فلأن تعاطف الأرحام وحمية القرابة يبعثان على التناصر والألفة، ويمنعان من التخاذل والفرقة أنفةً من استعلاء الأباعد على الأقارب وتوقِّيا من تسلط الغرباء الأجانب: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ الرَّحِمَ إِذَا تَمَاسَّتْ تَعَاطَفَتْ) ولذلك حفظت العرب أنسابها لمَّا امتنعت عن سلطان يقهرها، ويكف الأذى عنها؛ لتكون به متظافرة على من ناوأها متناصرة على من شاقها وعاداها حتى بلغت ألفة الأنساب وتناصرها عز القوى الأيدّ، وتحكمت فيه تحكم المتسلط المتشطط. وقد أعذر نبيُّ الله لوطٌ عليه السلام نفسَه حين عدم عشيرة تنصره فقال لمن بعث إليه: (لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ): يريد عشيرة مانعة

ضروب النسب

ضروب الأنساب ثلاثة : والدون ومولودون ومناسبون . ولكل منهم منزلة من البر والصلة وعارض يطرأ ، فيبعث على العقوق والقطيعة :

فأما الوالدون فهم الآباء والأمهات والأجداد والجدات ، وهم موسومون مع سلامة أحوالهم بخلقين :

أحدهما الحذر والإشفاق : قال النبي صلى الله عليه وسلم : (لِكُلِّ شَيْءٍ ثَمَرَةٌ وَثَمَرَةُ الْقَلْبِ الْوَلَدُ) وقيل لبعض الفلاسفة : مابالك تكره الولد ؟ قال : مالى وللولد : إن عاش كدنى ، وإن مات هدنى !

والآخر : المحبة التي تزيد وتنقص تبعا لتغير الحالات : قال النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو أعرف الخلق بطبائع النفوس : « الْوَلَدُ أَنْوَطُ » : يعنى أن حبه ملصق بنياط القلب : فإن انصرف الوالد وقتاما عن حب الولد فليس ذلك لبغض منه ولكن لسلوة حدثت من عقوق أو تقصير مع بقاء الحب والإشفاق الذى لايزول عنه ولا ينتقل منه ، وإلى هذا يشير محمد بن على رضى الله عنه إذ يقول: إن الله تعالى رضى الآباء للأبناء فحذرهم فتنتهم ولم يوصهم بهم، ولم يرض الأبناء للآباء فأوصاهم بهم ، وإن شر الأبناء من دعاه التقصير إلى العقوق وشرّ الآباء من دعاه البر إلى الإفراط. والأمهات أكثر إشفاقا وأوفر حبا وأرق قلوبا وألين نفوسا ، ولذلك كان التعطف عليهن أوفر جزاء لفعلهن وكفاء لحقهن ، وإن كان الله تعالى قد أشرك بينهما فى البر وجمع بينهما فى الوصية ، فقال تعالى : (وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا) : يؤيد ذلك ما روى من أن رجلا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن لى أما أنا مطيتها أقعدها على ظهرى ، ولا أصرف عنها وجهى ، وأرد إليها كسبي : فهل جزيتها ؟ قال : لا ، ولا بزفرة واحدة . قال : ولِمَ ؟ قال : لأنها كانت تخدمك وهي تحب حياتك ، وأنت

تخدمها وتحب موتها .

وقال الحسن البصرى : حق الوالد أعظم وبر الوالدة ألزم . وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : (أنهاكُمْ عَنْ عُقُوقِ الأُمَّهَاتِ وَوَأْدِ الْبَنَاتِ وَمَنَعَ وَهَاتِ) وأنه قال: (إِنَّ اللهَ يُوصِيكُمْ بِأُمَّهَاتِكُمْ ثُمَّ يُوصِيكُمْ بِأُمَّهَاتِكُمْ ثُمَّ يُوصِيكُمْ بِآبَائِكُمْ ثُمَّ يُوصِيكُمْ بِالأَقْرَبِ فَالأَقْرَبِ)

وأما المولودون فهم الأولاد وأولاد الأولاد وهم مختصون مع سلامة أحوالهم بخلقين :

أحدهما الأنفة للآباء من تهضم أو خمول ، والأنفة فى الأبناء فى مقابلة الاشفاق فى الآباء : وقد لحظ أبو تمام الطائى هذا المعنى ، فقال :

فأصبحت يلقانى الزمان لأجله بإعظام مولود وإشفاق والد

والآخر : الادلال وهو أول حال الولد ، والادلال فى الأبناء فى مقابلة المحبة فى الآباء :

روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال : قلت يارسول الله : مابالنا نرق على أولادنا ولايرقون علينا ؟ قال : لأنا ولدناهم ولم يلدونا .

ثم الادلال فى الأبناء قد ينتقل مع الكبر إلى أحد أمرين : إما إلى البر والاعظام ، وإما إلى الجفاء والعقوق : فإن كان الولد رشيدا أو كان الأب برا عطوفا صار الادلال برا وإعظاما .

وإلى حق الوالد على الولد يشير النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله لجرير ابن عبد الله: « إِنَّ حَقَّ الْوَالِدِ عَلَى الْوَلَدِ أَنْ يَخْشَعَ لَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ ، وَيُؤْثِرَهُ عَلَى نَفْسِهِ عِنْدَ النَّصَبِ وَالسَّغَبِ ؛ فَإِنَّ الْمُكَافِئَ لَيْسَ بِالْوَاصِلِ ، وَلَكِنَّ الْوَاصِلَ مَنْ إِذَا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا »

وإن كان الولد عارما أو كان الوالد جافيا ــ صار الادلال قطيعة وعقوقا :

ولذا قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « رَحِمَ اللهُ امْرَأً أَعَانَ وَلَدَهُ عَلَى بِرِّهِ » وبُشِّر عمر بن الخطاب رضى الله عنه بمولود فقال : ريحانة أشمها ثم هو عن قريب ولد بار أو عدو ضار . وقد قيل فى منثور الحكم : العقوق مُثْكِل من لم يُثْكَلْ . وقال بعض الحكماء : ابنك ريحانك سبعا ، وخادمك سبعا ووزيرك سبعا ، ثم هو صديق أو عدو .

وأما المناسبون فهم عدا الآباء والأبناء ممن يرجع بتعصيب أو رحم، والذى يختصون به الحمية الباعثة على النصرة ، وهى أدنى رتبة الأنفة ، لأن الأنفة تمنع من التهضم والخمول معا، والحمية تمنع من التهضم، وليس لها فى كراهة الخمول نصيب إلا أن يقترن بها ما يبعث على الأنفة. وحمية المناسبين إنما تدعو إلى النصرة على البعداء والأجانب ، وهى معرضة لحسد الأدانى والأقارب موكولة إلى منافسة الصاحب بالصاحب. فإن حُرِست بالتواصل والتلاطف تأكدت أسبابها واقترن بحمية النسب مصافاة المودة وذلك أوكد أسباب الألفة : وقد قيل لبعض قريش :« أيما أحب إليك : أخوك أو صديقك ؟ » قال : « أخى إذا كان صديقا » وقال مسلمة بن عبدالملك :العيش فى ثلاث: سعة المنزل ، وكثرة الخدم ، وموافقة الأهل . وقال بعض الحكماء : البعيد قريب بمودته ، والقريب بعيد بعداوته .

والصلة بين المتناسبين إذا لم تراع ثقةً بلحمة النسب واعتمادا على حمية القرابة غلب عليها مقت الحسد أو منازعة التنافس ، فصارت المناسبة عداوة ، والقرابة بعدا : قال عبدالله بن المعتز :

لحومهم لحمى وهم يأكلونه   وما داهيات المرء إلا أقاربه

ومن أجل ذلك أمر الله تعالى بصلة الأرحام ، وأثنى على واصلها ، فقال تعالى : « وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ » : قال المفسرون : هى الرحم التى أمر الله بوصلها ، ويخشون

ربهم في قطعها ، ويخافون سوء الحساب في المعاقبة عليها، وحث النبي صلى الله عليه وآله وسلم عليها إذ يقول : « صِلَةُ الرَّحِمِ مَنْمَاةٌ لِلعَدَدِ مَثْرَاةٌ لِلْمَالِ مَحَبَّةٌ فِي الأَهْلِ مَنْسَأَةٌ فِي الأَجَلِ » وفي ذلك يقول بعض الحكماء : « بلوا أرحامكم بالحقوق ولا تجفوها بالعقوق » ، « صلوا أرحامكم فإنها لا تَبلى عليها أُصولكم ولا تُهضم عليها فروعكم » ، « من لم يصلح لأهله لم يصلح لك ومن لم يذب عنهم لم يذب عنك »

الثالث : مادة كافية تسكن نفس الإنسان إليها ، ويستقيم أوده بها؛ وذلك لأن حاجة الإنسان لازمة لا يعرى منها بشر .

فإذا عدم الإنسان المادة التي هي قوام نفسه لم تدم له حياة ، ولم يستقم له دين ، وإذا تعذر شيء منها عليه لحقه من الوهن في نفسه والاختلال في دنياه بقدر ما تعذر من المادة عليه ؛ لأن الشيء القائم بغيره يكمل بكماله ويختل باختلاله . ولما كانت المواد مطلوبة لحاجة الناس كافة إليها أعوزت بغير طلب وعدمت لغير سبب .

وأسباب المواد مختلفة وجهات المكاسب متشعبة ؛ ليكون اختلافُ أسبابها علةَ الائتلاف بها، وتشعبُ جهاتها توسعةً لطلابها كي لا يجتمعوا على سبب واحد ، فلا يلتئمون، أو يشتركوا في جهة واحدة فلا يكتفون ؛ ثم هداهم الله جل شأنه إليها بعقولهم وأرشدهم إليها بطباعهم ؛ حتى لا يتكلفوا ائتلافهم في المعايش المختلفة فيعجزوا ولا يعانوا بتقدير موادهم بالمكاسب المتشعبة فيختلوا حكمة منه سبحانه وتعالى اطلع بها على عواقب الأمور . وقد أنبأ الله تعالى في كتابه العزيز إخبارا وإذكارا فقال سبحانه وتعالى : « قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى » : قال مجاهد في تفسير ذلك : أعطى كل شيء صورته ثم هداه لمعيشته . وقال تعالى : « وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ

سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ » : قال عكرمة : قدر فى كل بلدة منها ما لم يجعله فى الأخرى ؛ ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة من بلد إلى بلد ؛ ثم إن الله تعالى جعل لهم مع ماهداهم إليه من مكاسبهم ، وأرشدهم إليه من معايشهم دينا يكون عليهم حكما، وشرعا يكون لهم قيّما ؛ ليصلوا إلى موادهم بتقديره ، ويطلبوا أسباب مكاسبهم بتدبيره ؛ حتى لا ينفردوا بإرادتهم ، فيتغالبوا وتستولى عليهم أهواؤهم فيتقاطعوا : وإلى ذلك يشير الله تعالى إذ يقول : « وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ » : قال المفسرون فى هذا الموضع : « هو الله جل جلاله » ؛ فلأجل ذلك لم يجعل المواد مطلوبة بالإلهام حتى جعل العقل هاديا إليها والدين حاكما عليها ؛ لتتم السعادة وتعمّ المصلحة . ثم إنه جلت قدرته جعل سد حاجتهم وتوصلهم إلى منافعهم من وجهين : بمادة وكسب :

فأما المادة فهى حادثة عن اقتناء أصول نامية بذراتها ، وهى شيئان : نبت تام وحيوان متناسل : قال الله تعالى : « وأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى » فقد أغنى خلقه بالمال ، وجعل لهم قنية هى أصول الأموال .

وأما الكسب فيكون بالأفعال الموصلة إلى المادة والتصرف المؤدى إلى الحاجة : وذلك من وجهين : أحدهما: تقلبٌ فى تجارة ، والآخر تصرفٌ فى صناعة .

فصارت أسباب المواد المألوفة وجهاتُ المكاسب المعروفة من أربعة أوجه : نماء زراعة ، ونتاج حيوان ، وربح تجارة ، وكسب صناعة .

وفى هذا يقول المأمون: معايش الناس على أربعة أقسام : زراعة ، وصناعة ، وتجارة ، وإمارة . فمن خرج عنها كان كلا عليها .

العمل للدنيا والآخرة

كان صلى الله عليه وآله وسلم نفسه يراوح بين أعمال الدنيا والآخرة ، فلا تراه مقبلا على عمل من أعمال آخرته كصيام وقيام حتى تراه قد انصرف عنه إلى عمل آخر : كمدافعة الخصوم وإعداد القوت والنظر فى مصالح المسلمين العامة والعناية بأهل بيته وزوجاته الطاهرات وإغاثة الفقراء وذوى الحاجات وعيادة المرضى وتفقد الأصدقاء إلى غير ذلك ؛ فهو صلى الله عليه وسلم أُسوة حسنة للناس فى استخدام جسومهم وعقولهم حتى يبلغوا السعادتين : سعادة الدنيا وسعادة الآخرة . ولهذا انفرد الإسلام بأنه لم يجعل للجسد سلطة على الروح حتى تفنى فيه ويصبح الإنسان ماديا محضا ، ولا للروح سلطة على الجسد بحيث يفنى فيها ويصبح مخلوقا غريبا عن هذا العالم .

وإذا تصفحنا التاريخ وتأملنا فى أسباب سقوط الأمم واعتلائها وجدنا أن سقوطها لم يكن إلا أثرا من آثار اقتصارها على العمل لأمر دنياها وحده أوأمر آخرتها وحده ، وأن اعتلاءها ناشئ عن اعتدال الأمرين وتوازن الكفتين والتمتع بالحسنيين . والشواهد على وجوب هذا الاعتدال والتوازن من نصوص الشريعة كثيرة وافرة العدد : قال تعالى : « وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا » « رَبَّنَا آتِنَا فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الآخِرَةِ حَسَنَةً » وقال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ أَهْلَ الْمَعْرُوفِ فِى الدُّنْيَا هُمْ أَهْلُ الْمَعْرُوفِ فِى الآخِرَةِ وَإِنَّ أَوَّلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولاً الْجَنَّةَ أَهْلُ الْمَعْرُوفِ » ، « اعْمَلْ عَمَلَ امْرِئٍ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَمُوتَ أَبَداً ، وَاحْذَرْ حَذَرَ امْرِئٍ يَخْشَى أَنْ يَمُوتَ غَداً » .

العمل بمكارم الشريعة

ذلك بأن مكارم الشريعة هى طهارة النفس بالتعلم ، واستعمال العفة والصبر والعدالة ، ونهايتها التخصص بالحكمة والجود والحلم والاحسان : فبالتعلم يتوصل إلى الحكمة ، وباستعمال العفة يتوصل إلى الجود ، وباستعمال الصبر يدرك الشجاعة والحلم ، وباستعمال العدالة يصحح الأفعال ويحسنها . ولا يستكمل الانسان مكارم الشريعة مالم يقم بوظائف العبادات ، ومن حصل له ذلك فقد تدرع بالمكرمة المعنية بقوله تعالى : (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) وصلح لخلافة الله تعالى عزوجل وصارمن الربانيين والشهداء والصديقين .

اصلاح شئون الخلق

ذلك لأن العمل على إنهاض بنى الانسان وإصلاح معاشهم قسطاس الأخلاق ؛ فالانسان الواحد لا يستقل بأمر معاشه من مأكله وملبسه ومسكنه ، وليس له سبيل إلى ثباته فى الدنيا إلا بما يسد جوعته ، ويستر عورته ، ويقيه الحر والبرد ولم يكن له بد من تحصيل ذلك من الوجه المباح له ، ولذلك قال الله تعالى : « إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى » ومتى كان سعى العبد فى ذلك على الوجه الذى يجب وكما يجب يكون سعيه عبادة وجهادا فى سبيل الله تعالى كما قال عليه الصلاة والسلام : « مَنْ طَلَبَ الرِّزْقَ فَهُوَ فِى جِهَادٍ وَمَنْ لَمْ يَكُنْ عَلَى ذَلِكَ فَسَعْيُهُ يَكُونُ هَبَاءً مَنْثُورًا وَكَانَ فِيمَا يَتَوَلاَّهُ خَادِمًا لِلنَّاسِ مُسَخَّرًا بِلاَ إِرَادَةٍ مِنْهُ لِخِدْمَتِهِمْ حَتَّى كَأَنَّهُ مِنْ جُمْلَةِ الْبَهَائِمِ الَّتِى سَخَّرَهَا اللهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ فَامْتَنَّ عَلَيْهِمْ بِهَا فِى قَوْلِهِ :(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً) .

تطهير النفس من أرجاسها

ذلك لأن الإنسان خليفة الله فى خلقه ولا يصلح لخلافته ولا يكمل لعبادته وعمارة أرضه إلا من كان طاهر النفس قد أزيل رجسها ونجسها ؛ فللنفس نجاسة كما أن للبدن نجاسة ، ولكن نجاسة البدن قد تدرك بالبصر ، ونجاسة النفس لا تدرك إلا بالبصيرة ، وإياها قصد تعالى بقوله جل شأنه : (إنّما الْمُشْرِكُون نَجَسٌ) (وَالرُّجْزَ فاهْجُرْ)،(وَيَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِين لاَ يَعْقِلُون) وإنما لم يصلح لخلافة الله إلا من كان طاهر النفس لأن الخلافة هى الاقتداء به تعالى على الطاقة البشرية فى تحرى الأفعال الإلهية ، ومن لم يكن طاهر النفس لم يكن طاهر القول والفعل ؛ فكل إناء بالذى فيه يرشح . ولهذا قيل : من طابت نفسه طاب عمله ، ومن خبثت نفسه خبث عمله : وقد أشار الله تعالى إلى ذلك بقوله : (وَالبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَباتُهُ بِإذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِى خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إلاَّ نَكِدًا »

ارتباط الهناءة بالخلق

لما كانت الحياة أساس الوجود ، ومنشأ الفكر والقوة — وجب أن تكون هى الغاية الأولى التى يعنى بها علم الأخلاق .

لقد اختلفت الآراء حينا من الدهر فى تعيين حال الأرض وتقرير أنها متحركة أو ثابتة كرية أو منبسطة ، ولكن هذا الاختلاف لم يمنع الارض من حركتها ، ولم يغير منها شيئا ، وكذلك الحال فى الحياة : فقد اختلف الناس فى تعيين سببها، ولم يمنع هذا حلولها فى ذات الإنسان ، ولا شغفه بها أو انتفاعه منها .

وعلم الأخلاق مشتق من رغبة الإنسان فى الحياة ومن تعلقه بها طيبة سعيدة ،

وغايته تمهيد الطريق المؤدى إلى تحقيق تلك السعادة .

وتاريخ الإنسانية ليس إلا مجموع نتائج أعمال الحياة أو نتائج أعمال النوع الإنسانى ، وهذه الأعمال هى مقياس سعادة الإنسان وشقائه فى كل عصر . وليس إنكار الذات هو الذى خلق المدنية ، وإنما هى الرغبة فى السعادة حدت إلى خلق الأسباب وتمهيد الطريق إليها .

كيف يعيش الإنسان ؟ وما المنهاج الذى ينهجه ليسعد ؟ هذا ما فكر فيه علماء الأخلاق ، ووضعوا له الأجوبة المتباينة ، فكانت صورة السعادة تسمو تارة إلى حد اتصالها بالخيال والوهم ، وتسفل أخرى إلى حد الدناءة ، والحال أن السعادة غير هذه وتلك ، وهى فى متناول الجميع .

لقد أغفل الباحثون أن النفوس تكون من معادن غير متماثلة فى الجوهر والخواص : فمنها الخبيثة ، ومنها الطيبة ؛ وما تتطلبه الأولى من نوع السعادة ، لا يتفق أبدا وما تتطلبه الثانية : كما أغفلوا أن السعادة تتبع مبادئ النفس ، كما يتبع الظل صاحبه ، ويكون على مثاله وصورته .

وليست للسعادة على هذا صورة مخصوصة ، بل تظهر فى كثير من الأشكال تبعا للنفوس : كما يظهر السائل بلون وعائه الذى يحويه . ومن هنا يكون كل ما فى العالم من مظاهر الحياة والأعمال يرمى إلى غاية واحدة هى السعادة ، وعلى قدر قوة الأمل فى نيلها تكون قوة العمل للوصول إليها ، ويكون حظ العامل منها .

إن قيمة الحجر الكريم ليست فى ذاته ، لأنه لا قيمة له إذا لم يرغب الناس فيه ، والأمر كذلك فى تلك السعادة : قيمتها ليست فى ذاتها ، وإنما فى تقديرهم إياها ، والرغبة فيها تكون على قدر هذه القيمة .

والإنسان يخفى فكرته الحقيقية وراء مظاهر كثيرة تحجب حقيقتها حتى عن نفسه ، ويلبس رغبته أزياء متنوعة تحول بين الظاهر وحقيقة ما تنزع إليه رغبته ،

وعلى هذا النحو من السياسة والخداع بنيت دعائم الأخلاق ومبادئ الحياة فى شكل الواجب والعدل والحب وخوف الله ، ولو تجردت كل هذه الأمور من أزيائها الظاهرة لظهرت الغاية الحقة ، وهى طلب السعادة .

غاية العلم الوقوف على الحقائق ، وعلم الأخلاق يرمى خاصة إلى معرفة حقائق النفس واستخدامها لنفعها . والفضل فيما وصل إليه الإنسان من العلم والمتعة راجع إلى من سبقه ؛ فهو مدين يتحتم عليه أداء الدين ، لا إلى السلف وإنما إلى الخلف .

وقد أثبتت التجارب أن هناءة الإنسان مرتبطة بهناءة المجتمع ؛ فإن شقى المجتمع بوباء أو نوع من الفوضى أو ثورة أو ظلم كان حظ الفرد مثل حظ الجماعة من التعرض للخطر ، وهكذا الحال فى السعادة .

ولما كان الإنسان يتمتع بكثير من المنافع التى لم يكن ليحصل عليها بدون الجماعة كان من الواجب عليه أن يعوضها من هذه المنافع — منافع أخرى فى متناول يده تساعد على تحقيق سعادة المجتمع .

وهذا هو السر فى فرض الواجبات الكثيرة على الإنسان للأسرة والجماعة والوطن والإنسانية عامة .

إذا وضعت درة غالية فوق جبل أو فى حفرة مملوءة بالأقذار ، واشتهاها الإنسان — فإنه سيرتقى إليها فى الحالة الأولى ما فى ذلك شك ، وهو أيضا لن يتعفف عن النزول إلى حيث تكون كى ينالها .

وهكذا الحال فى السعادة : يرتقى الطامع فيها إلى أسمى مراتب العلياء إذا كانت فى ذلك المكان العالى ، وينزل إلى حضيض الخبث والدناءة إذا كانت فى الحفرة القذرة ؛ فما ضر علماء الأخلاق إذا هم ركزوا السعادة فى مكان من الرفعة والسمو يحدو الناس إلى التسامى بباعث الرغبة فى نيل السعادة ؟

رأوا الشر فاشيا ، فقالوا : إن الإنسان خبيث النفس . وشاهدوه يعتدى

ويخون ويكذب ، فقرروا أنه خلق ظالما محتالا كذوبا . وليس من ينكر وجود هذه العيوب ، ولكن المنكر كونها غرزية لاحادثة ؛ فالواقع أنها نشأت عن أسباب خاصة تزول نتائجها بزوال هذه الأسباب ، وليس هذا شأن الغريزة .

من المقرر أن الإنسان يحب السعادة ويبحث عنها ، فلو أمكن إصلاح ميول النفس بحيث لا تبحث عن السعادة إلا من طريق الخير امتنع الإنسان عن الأذى وعن الشر .

يقولون : إن إبدال ما تعودته النفس محال ؛ ولكن كثيرا من الشواهد يناقض ذلك : قد يعتدى القوى على الضعيف ، ويجنح إلى الشر ، ويأثم ما استطاع إلى الإثم سبيلا إرضاء لشهوته : فهل هذا من يظنونه لا يعدل عن الشر ؟ : إنه ليرى إنسانة ضعيفة تعجبه ، ثم يحبها حبا قويا مستبدا ، فتخضع قوته لضعفها ، فيتقرب منها بما يرضيها ، وينقلب إنسانا آخر ليست له صورة الوحش الأول .

ويعيبون على الإنسان إفناءه الأنواع الأخرى لمنفعته الخاصة ناسين أن طلب تضحية الإنسان بذاته متعذر محال ، وإذن فلابد أن تكون أحكام الدين والأخلاق متفقة مع روح الحياة ومقتضياتها ، وكل دين لا يساير روح الحياة لا يصح أن ينسب إلى الحكمة الإلهية ، وإنما يكون دينا موضوعا يثبت نقصه بتعذر اتباع الإنسان أحكامه ، فعدم اعتداء الإنسان على الحيوان والنبات لا يتفق أبدا وحاجته إلى الغذاء ، ولما كان التخلي عن التغذية محالا كان عدم الاعتداء محالا أيضا .

لقد خلق الله الإنسان محتاجا إلى الغذاء من الحيوان والنبات ، وأحل لهما أحله منه : فهل يكون أولئك النفر من الناس أكثر شفقة على هذه الأنواع من الخالق الرحيم ؟

يقال : إن السعادة إذا لم تكن إلا بالنفع الذاتي سببت التعس ؛ لأن ميول الإنسان لا تتفق دائما وروح العدل والحق ؛ ولكن العدل الحق ليس موجودا

والكمال المطلق غير متيسر ؛ فالعبرة بمنع الأذى وتلطيف الشر على قدر ما يستطيع الإنسان .

انظر إلى ربان السفينة إذا أشرفت على الغرق ولم يجد وسيلة للنجاة إلا إلقاء حملها . . . : أفتراه يتردد أن يلقيه فى اليم ؟ إن حملها يقدر بمال كثير وإلقاءه فى اليم يسبب خسارة أصحابها ، ولكن نجاة النفوس والسفينة أولى من إبقاء البضائع ، ومن إغراق السفينة بها وبالناس ، فدفع الشر بآخر أهون منه أدنى إلى العقل والعدل من عدمه اجتنابا لما يلام عليه .

الأخلاق الفاضلة تتفق دائما والمبادئ التى تحقق السعادة ، والسعادة التى من نوع راق لا بد من سمو مبادئها .

إن للمؤثرات الخارجة تأثيرا حقيقيا فى الإنسان قد يبلغ حد الموت ، ولكنها لا تستطيع أن تنيله السعادة إذا لم تساعدها مبادئه ؛ فالمبادئ وحدها هى القوة التى تجعل للحياة قدرا وقيمة ، وتدنى من السعادة .

إن للسعادة وجودا حقيقيا ، وإن خفيت معالمها عن الإنسان ؛ لأنه لم يفطن إليها ، وإن غابت معرفتها عن النفس بسبب ضعف المبادئ أو عدمها . ويتحقق وجود السعادة عند توافر كل أسباب وجودها وظهورها ، ويحرم الإنسان إياها إذا لم تكمل هذه الأسباب . والمبادئ السامية من دعائم السعادة وأسبابها الرئيسة ، وليس من ينكر ما يعتور الأخلاق ومبادئها من الضعف والنقص ؛ فلو عنى الإنسان بتعهد مبادئه وأخلاقه بالإصلاح والتكمل ما شكا التعس .

وإذا كانت أسباب السعادة من خواص الروح ثبت لها البقاء ما بقيت الروح : كما تبقى للزهرة العطرة رائحتها الذكية ما بقيت الزهرة .

أما إذا كانت السعادة حادثة تحقق زوالها عند زوال العارض المحدث: كمن يشرب كأسا من الشراب اللذيذ يهنأ به لحظة من الوقت ، ولكن الهناءة لا تدوم .

إن درك الشيء يسبقه معرفة مكانه وأسباب الوصول عليه ، ويتضمن الرغبة فيه والعمل لتحقيق هذه الرغبة ، وهكذا الحال فى السعادة : إذا تلمسها الإنسان فانكشف له أن مقرها النفس ، وأن أسبابها المبادئ والأخلاق ، وأنها لا تنال إلا بالرغبة والعمل — إذا تم له ذلك كله نال السعادة حتما .

وقد يظن الإنسان أن ما يقوم فى وجهه من الطوارئ الحادثة يحول دون تحقيقها والحال أن ما يحدث من الحوائل يكون منشؤه من الإنسان ذاته ، ومن عدم إدراكه الحياة .

إن السعيد من لا يكون تعسا ، وليس التعس كل من حاطه الشقاء بأسبابه ، وإنما هو من لا يعرف كيف يكون سعيدا .

وصفوة القول أن لكل إنسان حقوقا وعليه واجبات ، وقد اهتم الناس بتذكير المرء بواجباته ، وأغفلوا حقوقه ناسين أن الجمع بين متاعب الحياة ومسراتها يهون احتمال الأولى ، ويشعر بالاغتباط بالثانية ، وما السعادة إلا ثمرة هذا الجمع . . . ؛ لأن الأشياء إنما تتميز بأضدادها .

إن عيش الغنى يتنغص على الرغم منه إذا كان بين قوم يموتون جوعا ويَحِنُّون إلى اللقمة العفنة ، وهكذا الإنسان لا يتأتى له أن يكون سعيدا بمفرده وسط مجموع غلب عليه الشقاء .

ولما كانت النفس مصدر سعادة الإنسان وشقائه كان حظ الناس من السعادة والشقاء راجعا إليهم وناشئا منهم . إن السعادة لا تتحقق إلا بالرغبة فيها والقصد إليها ، وهذا المعنى يجعل الإرادة كنزا يقود إلى السعادة ويحققها .

وكل من يدرك معنى هذه القوة يسير مع أُصول الأخلاق ، وهكذا ينتهى بنا البحث إلى أن السعادة ثمرة الأخلاق الفاضلة .

إن المطر والجو يساعدان بداهة على إنبات النبات ونموه ، ولكن ما فائدتهما إذا لم توجد الأرض ؟ وعلى هذه الصورة تساعد الماديات على توافر السعادة

والبلوغ إليها ، ولكنها لا تفيد شيئا بدون الأخلاق الفاضلة .

لقد ثبت أن هناءة الفرد لا تنافى هناءة الجماعة مادامت تتفق ومعنى الحياة وأصول الأخلاق ، وعلى هذا يكون ما اندس فى الأفكار مخالفا لهذه الحقيقة — إنما جاء من انطلاق الأثرة وراء المال والشهوات وحب السلطة ؛ واستمرار بقاء العقل تحت هذا التأثير الحادث جعله يتوهم أن الواقع هو الحقيقة ، ولو عرف الإنسان معنى الهناءة ، وبقيت له الرغبة القوية فيها — لكان من الهين عليه نيلها ، ولتمتع الناس جميعا بالسلام والسعادة .

ويجب أن نذكر دائما أن ما يحدث فى العالم من أسباب الشقاء ليس من تصادم المنافع ، وإنما هو من جهل الناس حقيقة منافعهم الخاصة .

لقد استطاع علماء النبات أخيرا بعد التجارب وطول البحث أن يوجدوا نوعا من شجيرات الورد بدون ما عهد لها من شوك ونوعا من البرقوق بلا نوى ، واستطاعوا أن يطعموا الأشجار بغيرها فى سبيل التكاثر والتحسين : فهل يصعب على الإنسان إذا هو عنى بنوعه البشرى أن يصل إلى تهذيب أخلاقه ؟ وأن يبلغ به حدا ساميا من الإنسانية والهناءة ؟

أما والحال تبشر بهذا الانقلاب ، والعالم يتمشى فى تؤدة إلى هذه الغاية — فلا محل لليأس ؛ وإن ما نراه من تذليل الإنسان ما استعصى عليه زمنا من قوى الطبيعة ، ومن تقزز النفوس من الخداع والغش بعد تفشيهما ، ومن الثورة على الظلم ، والدعوة إلى إقرار مبدأ المساواة — ليبشر بقرب صلاح الحال ، ووصول الإنسانية إلى السعادة وهى غاية الحياة .

علاقة الخلق بالطعام في رأى ابن الجوزى

قال فى كتابه صيد الخاطر :

ليعلم أن فى المأكولات إفساد العقل وفيها ما يزيد فى السوداء ، فترى صاحبها يحب الخلوة ، ويهرب من الناس ، ويقلل الطعام ، فيقوى مرضه ، وتتراءى له خيالات يظنها حقا : فمنهم من يقول : إنى رأيت الملائكة ، وفيهم من يخرجه الأمر إلى دعوى محبة الحق والوله فيه ، ولا يكون ذلك عن أصل معتمد عليه ؛ وإنما العاقل العالم يسير فى الطريق بين الرفيقين العلم والعقل ، فإن تقلل من الطعام فبعقل . وحد التقلل ترك فضول المطعم وما يُخاف شرّه من شبهة أو شهوة يُحذَر تعودها ؛ وأما زيادة التقلل مع القدرة فليس لعقل ولا شرع .

ومن تأمل حال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وجدهم يأخذون بمقدار ، ولا يتركون حظوظ النفس التى تصلحها . وأحسنُ الأمر وأعدله قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثُلُثٌ طعامٌ ، وثُلُثٌ شرابٌ ، وثُلُثٌ نَفَسٌ » وقد قال لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه وهو مريض : أصب من هذا الطعام فهو أوفق لك من هذا .

وكان صلى الله عليه وسلم يشاور الأطباء ويحتجم ويحث على التداوى ، فجاء أقوام جهلوا العلم والحكمة فى بنيان الأبدان : فمنهم من أقام فى الجبال يأكل البلوط ، ومنهم من قَلل المطعم إلى أن ضعفت قواهم ، ومنهم من اقتصر على نبات الصحراء ، ومنهم من كان لا يقتات إلا بالباقلاء والشعير ، فأوجبت هذه الأفعال أمراضا فى البدن ، وترقّت إلى إفساد العقل ، واتفق لهم قلة العلم ؛ إذ لو علموا لفهموا أن الحكمة تنهى عن مثل هذا ؛ فإن البدن مبنى على أخلاط إذا اعتدلت وقعت السلامة ، وإذا زاد بعضها وقع المرض .

فأما أهل العلم والعقل فهربهم من الخلق لخوف المعاصى ورؤية المنكر .

وفيهم من قويت معرفته فشغلته معرفة الحق ومحبته عن ملاقاة الخلق . فهذه هى الخلوات الصافيــة ، لأنها تصــدر عن علم وعقل فتحفظ البدن ؛ لأنه مطيــة الوصول .

ولا ينبغى التهاون بالمأكولات خصوصا ممن لم يعتــده ، ولا يلبس الصوف على البدن من لم يعتد ، ولينظر فى طريق رسو الله صلى الله عليه وسـلم وصحابته فإنهم القدوة ، ولا يلتفت إلى ما يقال: إن فلانا الزاهد قد أكل الطين ، وفلانا كان يمشى حافيا ، وفلانا بقى شهرا ما أكل ؛ فإن بعض هؤلاء كان على غـير الجادة ؛ لأن الجادة اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وما كانوا يفعلون. هذا ولعمرى أنه قد كان فيهم من يقنع بالمَذْقَةِ من اللبن ، ويصبر الأيام عن الطعام ، ولـكن إما لضرورة ، وإما لأنه معتاد ذلك : كما يعتاد البـدوى شرب اللبن وحده ولا يؤذيه ذلك : وفى الحديث : « عَوِّدُوا كُلَّ بَدَنٍ مَا اعْتَادَ » وفى المتزهدين من أخرج ماله كله عن يده زهدا ، ومعلوم أن الحاجات لا تنقضى ، فلما احتاج تعرض للطلب ، وافتقر إلى أخذ مال من يد من يعلم أنه ظالم، وبذل وجهه.

وقد كانت الصحابة تتجر وتحفظ المـال ، وجهال المتزهدين يرون جمع المال ينافى الزهد.

وصفوة القول أنه ينبغى لمن رزق فهما أن يسعى فى صلاح بدنه ، ولا يحمل عليه ما يؤذيه ، ولا يناوله من القوت مالا يوافقه ، ولا يضيع ماله ، وليجتهـد فى تثميره لئلا يحتاج ؛ فإنه ما نافق متزهد إلا لأهل الدنيا ؛ ولينظر فى سير الكاملين من السـلف ، وليتشاغل بالعلم فإنه الدليـل ؛ فحينئذ يحمله الأمر على الخلوة بربه والاشتغال بحبه ، فيكون ما ظهر منـه ثمرة نضجـة لا فجة . والله الموفق : انتهى بتصرف

الأمراض الخلقية

وجهة علماء الأخلاق المتقدمين

ا - رأى ابن مسكويه بتصرف

إن حذاق الأطباء لا يقدمون على علاج مرض جسمانى إلا بعد أن يعرفوه ويعرفوا السبب والعلة فيه ، ثم يرومون مقابلته بأضداده من العلاجات ، ويبتدئون من الحمية والأدوية اللطيفة إلى أن ينتهوا إلى استعمال الأغذية الكريهة والأدوية البشعة ، وفى بعضها إلى القطع بالحديد والكى بالنار .

ولما كانت النفس قوة إلهية غير جسمانية وكانت مع ذلك مرتبطة بالجسم ارتباطا إلهيا لا ينفصم إلا بمشيئة الخالق عز وجل وجب أن نعلم أن أحدهما متعلق بصاحبه ، متغير بتغيره ، فيصح بصحته ، ويمرض بمرضه .

ونحن نرى ذلك مشاهدة وعيانا بما يظهر لنا من أفعال النفس : وذلك أننا نشاهد بعض المرضى بجسومهم يتغير عقلهم حتى ينكروا ذهنهم وفكرهم وتخيلهم وسائر قوى نفسهم ، ويحسون من نفسهم بذلك : كما نرى مريض النفس إما بالغضب وإما بالحزن وإما بالعشق تتغير صورة بدنه حتى يضطرب ويرتعد ويهزل أو يسمن ويلحقه ضروب التغير المشاهدة بالحس ، فيجب لذلك أن نتحرى مبدأ الأمراض إذا كان من نفوسنا :

فإن كان مبدؤها من ذاتها كالفكر فى الأشياء الرديئة وإجالة الرأى فيها ، وكاستشعار الخوف ، وهو من الأمور العارضة والمتوقعة — قصدنا علاجها بما يخصها .

وإن كان مبدؤها من المزاج ومن الحواس كالخور الذى مبدؤه ضعف

حرارة القلب مع الكسل والرفاهية وكالعشق الذى مبدؤه النظر مع الفراغ والبطالة — قصدنا أيضا علاجه بما يخفى هذه

وكذلك لما كان طب الابدان ينقسم قسمين : أحدهما حفظ صحتها إذا كانت حاضرة والآخر ردها إليها إذا كانت غائبة — وجب أن تقسم طب النفوس هذه القسمة بعينها ، فنردها إذا كانت غائبة ، ونعمل على حفظها إذا كانت حاضرة فنقول :

إذا كانت خيرة فاضلة تحب نيل الفضائل وتحرص على إصابتها وتشتاق إلى العلوم الحقيقية والمعارف الصحيحة وجب على صاحبها أن يعاشر من يجانسه ، ويطلب من يشاكله ، ولا يأنس بغيرهم ، ولا يجالس سواهم ، ويحذر كل الحذر من معاشرة أهل الشر والمجون والمجاهرين بإصابة اللذات القبيحة وركوب الفواحش المفتخرين بها المنهمكين فيها ، ولا يصغى إلى أخبارهم مستطيبا ، ولا يروى أشعارهم مستحسنا ، ولا يحضر مجالسهم مبتهجا : وذلك أن حضور مجلس واحد من مجالسهم وسماع خبر واحد من أخبارهم يعلق من وضره ووسخه بالنفس مالا يغسل عنها إلا بالزمان الطويل والعلاج الصعب ، وربما كان سببا لفساد الفاضل المحنك ، وغواية العالم المستبصر ؛ حتى يصير فتنة لهما . وأولى بذلك الحدثُ الناشىء المسترشد : والعلة فى ذلك أن محبة اللذات البدنية والراحات الجسمية طبيعة للإنسان لأجل النقائص التى فيه ؛ فنحن بالجبلة الأولى والفطرة السابقة إلينا نميل إليها ، ونحرص عليها ، وإنما نزم أنفسنا عنها بزمام العقل حتى نقف عند ما يرسم لنا ، ونقتصر على المقدار الضرورى منها .

ومما يجب على من يبغى صحة نفسه أن يعرف قدرا من الجزء النظرى والعمل لحفظ الصحة ؛ لتستكمل النفس ما يكفل لها صحة البدن . وأطباء النفوس أشد حرصا على ذلك ؛ لأن النفس متى تعطلت من النظر وعدمت الفكر والغوص على المعانى تبلدت وتبلهت وانقطت عنها مادة كل خير ، وإذا ألفت الكسل

وتبرمت بالروية واختارت العطلة قرب هلا كها ؛ لأن عطلتها هـذه انسلاخ من صورتها الخاصة بها ورجوع منها إلى رتبة البهائم ، وهذا هو الانتكاس فى الخلق نعوذ بالله منه ، وإذا تعود الحدث الناشيء من مبدأ تكوينه الارتياض بالأمور الفكرية ولازم التعاليم الأدبية ألف الصدق واحتمل ثقل الروية والنظر، وأنس بالحق ، ونبا طبعه عن الباطل وسمعه عن الكذب ، فإذا بلغ أشده وانتقل إلى مطالعة الحكمة استمر طبعه منها وتشرب ما يستودع منها، ولا يرد عليه أمر غريب ولا يحتاج إلى كثير تعب فى فهم غوامضها واستخراج دفائنها ، فيصل إلى سعادتها .

وإن كان حافظ هذه الصحة قد توحد فى العلم وبرع فلا يحملنه العجب بما عنده على ترك الازدياد؛ فإن العلم لا نهاية له ، وفوق كل ذى علم عليم . ولا يتكاسلن عن معاودة ما علمه والدرس له ؛ فإن النسيان آفة العلم . وليتذكر قول الحسن البصرى رحمة الله عليه : (اقذعوا هذه النفوس فإنها طلعة وحادثوها فإنها سريعة الدثور)

وليعلم أيضا حافظ هذه الصحة على نفسه أنه إنما يحفظ عليها نعما شريفة جليلة موهوبة لها وكنوزا عظيمة مدخرة فيها وملابس فاخرة مفرغة عليها ، وأن من أعطيها فأصبح لا يحتاج إلى تطلبها من خارج ولا إلى بذل الأموال فيها لغيره ، ولا يكلف العناء والمؤن الثقال فى تحصيلها ، ثم أعرض عنها وأهمل أمرها حتى انسلخ عنها وعرى منها — ملوم فى فعله مغبون فى رأيه غير رشيد ولا موفق . دع عنك أنه يرى طالبى النعم الخارجة كيف يتجشمون الأسفار البعيدة الخطرة ويقطعون السبل المخوفة الوعرة ويتعرضون لضروب المكاره وشتى أنواع التلف براً وبحراً وهواء ، وهم يخيبون فى أكثر الأحوال مع مقاساة هذه الأهوال ، وربما عرضت لهم الندامات المفرطة والحسرات المعطبة التى تقطع أنفاسهم ، وتفصل أعضاءهم ؛ فإن ظفروا بشىء من مطالبهم كان لا محالة

زائلا عن قرب أو معرضا للزوال غير مطموع فى بقائه ؛ لأنه من خارج وما كان خارجا عنها فهو فيه ممتنع عما يطرقه من الحوادث التى لا تحصى كثرة، وصاحبه مع هذه الحال شديد الوجل دائم الإشفاق متعب الجسم والنفس ، يحفظ مالا يجد إلى حفظه سبيلا ، ويحذر فيما لا يغنى فيه الحذر فتيلا .

وإن كان طالب هذه الأشياء الخارجة عنا سلطانا أو صاحب سلطان تضاعفت عليه هذه المكاره أضعافا كثيرة بقدر ما يلابسه وبحسب ما يقاسيه من الأضداد والحساد على البعد ومن القرب وبكثرة ما يحتاج إليه من المؤن فى استصلاح من يليه ومداراة من يواليه ويعاديه ، وهو فى كل ذلك ملوم مستبطأ معتب مستقصر يستزيده جميع أهله والمتصلين به ، ولا سبيل له إلى إرضاء واحد منهم، بله جميعهم، ولا يزال يبلغه عن أخص الناس به من أولاده وحرمه ومن يجرى مجراهم من حاشيته وخوله ما يملؤه غيظا وحنقا ، وهو غير آمن على نفسه منهم مع التحاسد الذى يدنيهم من مكاتبة الأعداء إياهم ومواطأة الحسادلهم، وكلما ازداد من الأعوان والأعضاء والأنصار زادوه فى شغل القلب وجلبوا إليه من المكاره مالم يكن عنده ، فهو غنى عند الناس وهو أشدهم فقرا ، ومحسود وهو أكثرهم حسدا ، وكيف لا يكون فقيرا وحد الفقر هو كثرة الحاجة ؟ فأكثر الناس حاجة أشدهم فقرا : كما أن أغنى الناس أقلهم حاجة ؛ ولذلك حكمنا حكما صادقا بأن الله تعالى أغنى الأغنياء ؛ لأنه لا حاجة له إلى شىء من الأشياء

ب ـ رأى محيى الدين بن عربى بتصرف

الأمراض الخلقية : فى الناس نقائص ومعايب منها :

(١) الفجور : وهو الانهماك فى الشهوات والاستكثار منها والتوافر على اللذات والإدمان عليها وارتكاب الفواحش والمجاهرة بها ، وبالجملة السرف فى جميع الشهوات . وهذا الخلق أبدا يهدم الحياء ، ويذهب

ماء الوجه ، ويخرق حجاب الحشمة .

(٢) ومنها الشره : وهو الحرص على اكتساب الأموال وجمعها وطلبها من كل وجه مع قبح التعسف فى اكتسابها والمكالبة عليها والاستكثار من القنية وادخار الأعراض . وهذا الخلق مكروه فى جميع الناس إلا من الدول ؛ فإن كثرة الأموال والذخائر التى تجمع من الطرق المشروعة تعين على الملك ، وتزيد الحكومة والحكام هيبة فى نفوس رعيتهم وأعوانهم وأعاديهم وأضدادهم .

(٣) ومنها التبذل : وهو الحشمة وترك التحفظ عن مخالطة السفهاء وحضور مجالس السخف والهزل والفواحش والتفوه بالخنا وذكر الأعراض والمزح والتواضع للسفلة. وهذا الخلق قبيح فى جميع الناس ولاسيما أصحاب الرياسات

(٤) ومنها السفه : وهو ضد الحلم وهو سرعة الغضب من يسير الأمور والمبادرة إلى البطش والإيقاع بالمؤذى والسرف فى العقوبة وإظهار الجزع من أدنى ضرر . وهذا الخلق مستقبح من كل أحد إلا أنه من الحكام والرؤساء أقبح .

(٥) ومنها الخرق : ومظاهره كثرة الكلام والتحرك من غير حاجة وشدة الضحك والمبادرة إلى الأمور من غير توقف وسرعة الجواب . وهذا الخلق مستقبح من كل أحد ، وهو بأهل العلم وذوى النباهة أقبح .

(٦) ومنها القساوة : وهى خلق مركب من البغض والشجاعة ، ومظهرها التهاون بما يلحق غيرك من الألم والأذى ، وهذا الخلق مكروه من كل أحد إلا من أهل الحروب وأصحاب السلاح ؛ فإن ذلك غير مكروه منهم إذا كان فى موضعه .

(٧) ومنها الغدر : وهو العدول عما يبذله الإنسان من نفسه ، ويضمن الوفاء به . وهذا الخلق مستقبح وإن كان لصاحبه فيه مصلحة ومنفعة ، وهو

بالحكام والرؤساء أقبح وبهم أضر ؛ فإن عرف الحاكم بالغدر لم يسكن إليه أحد ولم يثق به، فيفسد نظام حكمه

(٨) ومنها الخيانة : وهى الاستبداد بما يؤتمن الإنسان عليه من الأموال والأعراض والحرم وتملك مايستودع . ومن الخيانة أيضا طىّ الأخبار إذا بدت مصلحة لتأديتها ، وتحريفُ الرسائل إذا تحملها وصرفها عن وجهها . وهذا الخلق أعنى الخيانة مكروه من جميع الناس ؛ يثلم الجاه ويقطع وجوه المعاش .

(٩) ومنها إفشاء السر وهو مركب من الخرق والخيانة ؛ فإنه ليس بوقور من لم يضبط لسانه ولم يتسع صدره لحفظ مايستسر به ، والسر أحد الودائع وإفشاؤُه نقيصة فى صاحبه ؛ فالمفشى للسر خائن . وهذا الخلق قبيح جدا وبخاصة ممن يصحب الحكام ويداخلهم . ومن قبيل إفشاء السر النميمة : وهى نقل الكلام بين الناس على وجه الفساد . وهذا الخلق قبيح جدا ، وإن لم يُسْتَسَرّ أيضا بما يسمعه أو يبلغه فنقله إلى من يكرهه قبيح ؛ لأن فى ذاك إيقاع وحشة بين المبلغ إليه والمبلغ عنه ، وذلك غاية التشرر .

(١٠) ومنها الكبر : وهو استعظام الإنسان بنفسه واستحسان مافيه من الخلال والاستهانة بالناس واستصغارهم والترفع على من يجب التواضع له . وهذا الخلق مكروه ضار بصاحبه ؛ لأن من أعجبته نفسه لم يستزد من اكتساب الأدب ، ومن لم يستزد بقى عليه نقصه ؛ فإن الإنسان ليس يخلو من النقص ، وقلما ينتهى إلى غاية الكمال ، وأيضا فإن هذا الفعل يبُغضه إلى الناس ، ومن أبغضه الناس ساءت حاله

(١١) ومنها الخبث : وهو إضمار الشر لغيرك وإظهار الخير له واستعمال الحيلة والمكر والخديعة فى المعاملات . وهذا الخلق مكروه من جميع

الناس إلا من الدول ، فإنها قد لا تجد مناصا من اللجوء إليه عند المقتضى مع أعدائها ، فأما مع أوليائها وحلفائها فإنه مستقبح مذموم .

ومن قبيل الخبث الحقد : وهو إضمار الشر للجاني إذا لم يتمكن من الانتقام منه فأخفى تلك الأحقاد إلى وقت إمكان الفرصة . وهذا الخلق من أخلاق الأشرار وهو مذموم جدا .

(١٢) ومنها البخل : وهو منع المسترفد مع القدرة على رفده . وهذا الخلق مكروه من جميع الناس إلا أنه من النساء فى حق أموال أزواجهن كمال ، وأما سائر الناس فإن البخل يشينهم وخاصة الحكام والعظماء؛ فإن البخل يغض منهم أكثر مما يغض من الرعية والعوام ، ويقدح فى ملكهم ؛ لأنه يقطع الأطماع منهم ، ويبغضهم إلى رعيتهم.

(١٣) ومنها الجبن : وهو الجزع عند المخاوف والإحجام عما تحذر عاقبته ولا تؤمن مغبته . وهذا الخلق مكروه من جميع الناس إلا أنه بالجند وأصحاب الحروب أضر .

(١٤) ومنها الحسد وهو التألم بما يراه الإنسان عند غيره من الخير وما يجده فيه من الفضائل والاجتهاد فى إزالة نعم غيره . وهذا الخلق مكروه وقبيح بكل أحد .

(١٥) ومنها الجزع عند الشدة : وهذا الخلق مركب من الخرق والجبن ، وهو يستقبح إذا لم يكن مجديا ولا مفيدا ، فأما إظهار الجزع لتصنع حيلة بذلك عند الوقوع فى الشدة واستغاثة مغيث أو اجتلاب معين فيما تغنى فيه المعاونة — فغير مكروه ، ولا يعد نقيصة .

(١٦) ومنها صغر الهمة : وهو ضعف النفس عند طلب المراتب العالية ، وقصور الأمل عن بلوغ الغايات الشريفة ، واستكثار اليسير من الفضائل ، واستعظام القليل من العطايا ، والاعتداد به ، والرضا بأصاغر الأمور

وهذا الخلق قبيح بكل أحد ، وهو بالملوك أقبح ، بل ليس بمستحق الملك من صغرت همته .

(١٧) ومنها الجور : وهو الخروج عن الاعتدال في جميع الأمور ، والسرفُ والتقصيرُ وأخذ الأموال من غير وجهها ، والمطالبة بما لا يجب من الحقوق ، وفعل الأشياء في غير مواضعها ولا أوقاتها ، ولا على القدر الذي يجب ، وعلى الوجه الذي يجب .

وجهة المتأخرين من علماء الغرب

تنشأ الآثام والجرائم في كثير من الأحيان عن ضيق المحيط الذي يعيش فيه الإنسان ؛ فإن من ضاق محيطه حتى لا يرى إلا شخصه وأقرب الناس إليه كان عرضة لارتكاب الجريمة عند ما تسول له نفسه أن له نفعا في ارتكابها : فكثير ممن يسرقون يضيق نظرهم ، فيخيل إليهم أن السرقة تزيد في خيرهم وخير أُسرتهم ويعزب عنهم ما يحيط بالمسروق منه وأُسرته وأمته من الضرر ، وقد يرتكب الجريمة ؛ لأنه وقت ارتكابها كان على بصره غشاوة ، فإذا زالت ندم وتجلى له ضلاله وعماه .

إن ضعيف التمييز يرى أن مصلحته ومصلحة أُمته تتناقض ، فيفضل مصلحته على مصلحتها ، ولكن من كان يرجع إلى عقل أصيل ورأي حصيف يرى أن مصلحته في مصلحة أمته ، وفي ضدها ضرره .

وعلاج هذا أن يعمل على رفع الغشاوة عن نظره ليكون مداه بعيدا . وقد تقع بعض الشرور من المصلحين وذوي الأخلاق القوية ؛ لأنهم في كثير من الأحيان يحصرون همهم في جهة واحدة من جهات الإصلاح ، فيغفلون عن النظر إلى جهات أخرى : كالذي حكي عن سقراط : فقد كان اهتمامه بإصلاح الناس مفضيا إلى إهماله إصلاح بيته .

وخليق بنا عند النظر فى أخطاء عظماء الرجال ألا نقصر نظرنا على أخطائهم ، بل ننظر إلى نواحى نقصهم وجهات كمالهم معا ، وكذلك يجب ألا نغفل عن اعتبار الباعث ؛ فقد يصدر عملان متشابهان من شخصين ، ويكون الباعثان مختلفين : أحدهما طيب والآخر سيئ ؛ فلا نحكم على الشخصين حكما واحدا . وقد عنى الخلقيون بتعرف نية الإنسان المكنونة وغرضه ، كما عنوا بالعمل الخارجى ، وفى كلا الأمرين يبحث الخلق ؛ فهو يبحث فى الصفات النفسية والنيات ، ولو لم يترتب عليها عمل خارجى ؛ ويبحث فى الأعمال الخارجة أيضا .

والعمل إذا استقبحته الأخلاق فهو إثم سواء أكان عملا خارجا أم نفسيا ، ولكن لا يسمى جريمة إلا إذا كان عملا خارجا نهت عنه قوانين البلاد وعاقبت من ارتكبه، فالآثام أعم من الجرائم ، ولم توضع كل الآثام فى قوانين البلاد لأسباب عدة أهمها :

(١) أن كثيرا من الآثام لا يصح وضعها فى قانون : كجحود الجميل وعدم الرحمة والشفقة ؛ إذ لو وضعت لها عقوبة لقللت من قيمة الفضائل المقابلة لها : أعنى أنه يقلل من قيمة الشكر على المعروف ، والرحمة والشفقة ؛ لأن قيمتها فى أنها منبعثة عن القلب ، فإذا عرف أنها عملت خوفا من عقوبة القانون ضاعت قيمتها .

(٢) إن كثيرا من الآثام لا يمكن تحديده حتى يوضع فى القانون وتحدد العقوبة له : فعدم الإحسان إثم ، ولكن مقدار ما يجب يختلف باختلاف الأشخاص فى الغنى ، وبمقدار ما يطلب منهم من النفقات ونحو ذلك .

(٣) عندما تكون نتيجة الآثام عائدة على الشخص نفسه مباشرة وعلى المجتمع تبعا لا يصح تدخل القانون : كمن يعمل عملا يتلف صحته ؛ إذ لو تدخل القانون فى هذا لسلب الناس حريتهم وما استطاع أن يستقصى ذلك .

علاج الأخلاق : للأخلاق علاجان :

الأول الإصلاحات الاجتماعية : كإنشاء الإصلاحيات للأحداث ، ونشر

التعليم العام ، ومقاومة السكر والبغاء ، ومنع التشرد واستئصال مايحرض الشبان على الفجور ، وغير ذلك .

والآخر العقوبة : للشر الذى يرتكب ضرران :

(١) ضرر يصيب فاعل الشر : وذلك هو انحطاط نفسه ، ونزولها عن شرفها وتوبيخ الضمير ، والندمُ على ماحصل ؛ فإن من أتى بالشر يتسع محيطه بعد صدور الشر عنه ، فيتجلى له سوء عمله ، فيألم ألما يختلف شدة وضعفا باختلاف وجدان الناس ومثلهم الأعلى : فكلما كان الوجدان حساسا وكان العمل لا يتفق ومثل الإنسان الأعلى كان الندم أشد ، وقد يصل بالإنسان إلى حد أن يرتبك حاله ، وتضطرب أعصابه ، وينقبض صدره ، فلا يرى ملطفا لهذا الألم إلا أن يتوب : أعنى أنه يسترد إرادته ، ويسترجع نفسه إلى موقفها ، ويعزم على أن يحافظ عليها من أن تسقط سقطتها الأولى ، أما من مات وجدانه وانحط مثله الأعلى فلا يندم كثيرا ، بل قد لا يندم أبدا كمعتادى الإجرام .

(٢) وضرر يصيب المجنى عليه والمجتمع معا : وقد كان الناس فيما مضى يرون أن المجرم جنى على المجنى عليه فحسب ، فلما رقت الأفكار تبين أنه قد جنى على المجتمع كله أيضا ؛ لأن السارق مثلا إذا سرق أزعج الناس ، وهدد كل مالك ، وجعله يشعر بأنه عرضة لأن يسرق منه كما سرق من غيره . أضف إلى ذلك ما تكابده الأمة للاحتياط من السارقين والنفقات التى تنفق فى سبيل ذلك ، ومن أجل هذا قالوا : إن صالح المجتمع يجب أن يقدم على صالح الأفراد ؛ وأصبحت العقوبة من حق المجتمع الذى تمثله الحكومة ، وصارت الجرائم تقاس بالضرر الذى ينشأ عنها للمجتمع . وقد كان الغرض أولا من عقوبة المجرم الانتقام منه ، فلما ارتقى الناس رأوا أن الغرض ينبغى أن يكون :

(١) منع الناس من ارتكاب الجرائم ؛ فإنهم إذا رأوا أن المجرم يعاقب على

إجرامه صدهم ذلك عن ارتكابها .

(٢) إيقاع ألم بالمجرم يتناسب مع لذته من إجرامه ؛ لأنه بإجرامه قد آلم المجتمع ، فمن العدل أن تؤلمه كما فعل ؛ فقد تلذذ هو بإجرامه لذة باطلة فيجب أن تسترد منه لذته بإيلامه إيلاما مناسبا للذته .

(٣) إصلاح المجرم : وهذه النظرية أكثر مراعاة فى أيامنا هذه ، وعنها نشأ كثير من النظم مثل إصلاح السجون : وذلك بتقسيم المجرمين أقساما على حسب قوة الإجرام عندهم ، وفصل كل قسم عن الآخر حتى لا يعدى معتاد الإجرام مبتدئه ، وتعليم المجرمين صنائع يتكسبون منها ، فإذا خرجوا من السجن لا يلجئهم فقرهم وتشردهم إلى السرقة ، بل يتكسبون من الحرفة التى تعلموها ، وإيجاد دروس وعظ وإرشاد دينى فى السجون ، وإنشاء إصلاحيات للأحداث تهذب من نفوسهم ، وتعدل بهم عن الإجرام ، وهكذا .

وقد تجرم المجتمعات كما تجرم الأفراد ، والمجتمع الذى يضع لنفسه من النظم ما ينشأ عنه وجود طائفة كبيرة تعيش على حساب غيرها لا تعمل أى عمل وتتمتع تمتعا كبيرا ـ مجتمع مجرم : ذلك بأن الإنسان إنما خلق ليعمل ، فمن لم يعمل لم يؤد ما خلق له ، وكان كلا على من يعملون ، وكان كالنبات الطفيلى يمتص ما أعد لغيره من غذاء ، فالكسالى والأغنياء الذين يتمتعون فحسب ، ولا يعملون أى عمل ، والمجرمون الذين يعيشون من السرقات ونحوها والمتسولون — كل أولئك قوة مستهلكة جزءا كبيرا مما يحصله العاملون ، ويسببون التعس والشقاء للعاملين ، والمجتمع إذا لم يتخذ الوسائل للاحتياط من هذا المرض كان مقصرا فى واجبه ، فلامناص من إصلاحه .

ب - رأي ابن حزم بتصرف

من امتحن بالعجب فليفكر فى عيوبه ؛ فإن أعجب بفضائله فليفتش مافيه من الأخلاق الدنيئة ، فإن خفيت عليه عيوبه جملة حتى يظن أنه لاعيب فيه فليعلم أن مصيبته إلى الأبد وأنه أتم الناس نقصا وأعظمهم عيوبا وأضعفهم تمييزا :

وأول ذلك أنه ضعيف العقل جاهل ولاعيب أشد من هذين ؛ لأن العاقل هو من يميز عيوب نفسه فغالبها وسعى فى قمعها ، والأحمق هو الذى يجهل عيوب نفسه : إما لقلة علمه وتمييزه وضعف فكرته ، وإما لأنه يقدر أن عيوبه خصال مستحسنة وهذا أشد عيوب الأرض ، وفى الناس كثير يفخر بالسرقة والظلم فيعجب بتأتى هذه النحوس له وبقوته على هذه المخازى .

(واعلم) يقينا أنه لايسلم إنسى من نقص حاشا الأنبياء صلوات الله عليهم ، فمن خفيت عليه عيوب نفسه فقد سقط وصار من السخف والضعف والرذالة والخسة وضعف التمييز والعقل وقلة الفهم بحيث لا يتخلف عنه متخلف من الأرذال ، وبحيث لاتكون تحته منزلة من الدناءة ، فليتدارك نفسه بالبحث عن عيوبه والاشتغال بذلك عن الإعجاب بها وعن عيوب غيره التى لا تضره لافى الدنيا ولافى الآخرة .

(وأما) النطق بعيوب الناس فعيب كبير لايسوغ أصلا والواجب اجتنابه إلاعلى سبيل تبكيت المعجب فى وجهه لاخلف ظهره ثم يقول للمعجب : ارجع إلى نفسك فإذا ميزت عيوبها فقد داويت عجبك ولا تمثل بين نفسك وبين من هو أكثر عيوبا منها ، فتستسهل الرذائل وتكون مقلدا لأهل الشر ، وتقليدهم شر أنواع التقليد ، لكن مثل بين نفسك وبين من هو أفضل منك فحينئذ يتوارى عجبك وتشفى من هذا الداء القبيح الذى يولد عليك الاستخفاف بالناس وفيهم بلاشك من هو خير منك ؛ فإذا استخففت بهم بغير حق استخفوا بك بحق لأن الله تعالى

يقول : (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا) فتولد على نفسك الاستخفاف بك ، بل على الحقيقة مع مقت الله عز وجل وطمس ما فيك من فضيلة .

فإن أعجبت بعقلك ففكر فى اطراح فكرة سوء تحل بخاطرك وفى أضاليل الأمانى الطائفة بك فإنك تعلم : لِمَ نقص عقلك حينئذ ؟

وإن أعجبت بآرائك ففكر فى سقطاتك واحفظها ولا تنسها ، وفى كل رأى قدرته صوابا فخرج بخلاف تقديرك وأصاب غيرُك وأخطأت أنت فيه ؛ فإنك إن فعلت ذلك فأقل أحوالك أن يوازن سقُوط رأيك صوابَه فتخرجَ لا لك ولا عليك ، والأغلب أن خطأك أكثر من صوابك وهكذا كل أحد من الناس بعد النبيين صلوات الله عليهم .

وإن أعجبت بخيرك ففكر فى معاصيك وفى تقصيرك وفى معايبك ووجوهها ؛ فوالله لتجدن من ذلك ما يغلب على خيرك ، ويُعَفِّى على حسناتك ، فليطل همك حينئذ .

وإن أعجبت بعلمك فاعلم أن الفضل فيه لله وأنه موهبة من الله مجردة وهبها لك ربك تعالى فلا تقابلها بما يسخطه فلعله ينسيك ذلك بعلة يمتحنك بها تولد عليك نسيان ما علمت وحفظت :

فلقد روى عن عبد الملك بن طريف وهو من أهل العلم والذكاء واعتدال الأحوال وصحة البحث أنه قال : كنت ذا حظ من الحفظ عظيم لا يكاد يمر على سمعى شىء أحتاج إلى استعادته ، وإنى ركبت البحر فمر بى فيه هول شديد أنسانى أكثر ما كنت أحفظه وأخل بقوة حفظى إخلالا شديدا ، فلم يعاودنى ذلك الذكاء بعد .

واعلم أن كثيرا من أهل الحرص على العلم يجدون فى القراءة والإكباب على الدرس والطلب ثم لا يرزقون منه حظا ، فليعلم ذو العلم أنه لو كان بالإكباب وحده لكان غيره فوقه ، فصح أنه موهبة من الله تعالى : فأى مكان للعجب هنا ؟ ماهذا

إلا موضع تواضع وشكر لله تعالى واستزادة من نعمه واستعاذة من سلبها .

ثم فكر أيضا فى أن ماخفى عليك وجهلته من أنواع العلم ، ثم من أصناف علمك الذى تختص به والذى أعجبت بنفاذك فيه ـ أكثر مما تعلم ، فاجعل مكان العجب الميل إلى تكميل نفسك فذلك أولى . . .

وفكر فيمن كان أعلم منك تجدهم كثيرا فاتَّهم نفسك عندك حينئذ ، وفكر فى إخلالك بعلمك وأنك لا تعمل بما علمت منه ؛ فعلمك عليك حجة حينئذ ، ولقد كان أسلمَ لك لو لم تكن عالما .

واعلم أن الجاهل حينئذ أعقل منك وأحسن حالا وأعذر فليسقط عُجبك بالكلية ، ثم لعلّ علمك الذى تُعْجَب بنفاذك فيه من العلوم المتأخرة التى لا كبير فضل فيها . وانظر حينئذ إلى من علمه أجل من علمك فى مراتب الدنيا والآخرة ؛ فتهونَ نفسك عليك .

وإن أعجبت بشجاعتك ففكر فيمن هو أشجعُ منك ، ثم انظر فى تلك النجدة التى منحك الله تعالى فيم صرفتها : فإن كنت صرفتها فى معصية فأنت أحمق لأنك بذلت نفسك فيما ليس ثمنا لها ، وإن كنت صرفتها فى طاعة فقد أفسدتها بعجبك . ثم فكر فى زوالها عنك بالشيخوخة وأنك إن عشت فستصير من عدد العيال وكالصبى ضعفا . على أنى ما رأيت العجب فى طائفة أقل منه فى أهل الشجاعة ، واستدللت بذلك على نزاهة أنفسهم ورفعتها وعلوها .

وإن أعجبت بجاهك فى دنياك ففكر فى مخالفيك وأندادك ونظرائك ولعلهم أخساء ضعفاء سقاط فاعلم أنهم أمثالك فيما أنت فيه ، ولعلهم ممن لا يليق التشبه بهم لفرط رذالتهم وخساستهم فى أنفسهم وأخلاقهم ومنابتهم ؛ فاستهن بكل منزلة شاركك فيها من ذكر .

وإن كنت مالك الأرض كلها ولا خليفة عليك وهذا بعيد جدا فى الإمكان فما نعلم أحدا ملك معمور الأرض كله على قلته وضيق ساحته بالإضافة إلى غامرها

فكيف إذا أضيف إلى الفلك المحيط — ففكر فيما قال ابن السماك للرشيد وقد دعا بحضرته بقدح فيه ماء ليشربه فقال له : ياأمير المؤمنين ، فلو منعت هذه الشربة بكم كنت ترضى أن تبتاعها ؟ فقال له الرشيد : بملكى كله · قال : ياأمير المؤمنين فلو منعت خروجها منك بكم كنت ترضى أن تفتدى من ذلك ؟ قال : بملكى كله . قال : ياأمير المؤمنين ، أتغتبط بملك لا يساوى شربة ماء ؟

واعلم أن عجبك بأموالك حمق لأنها لا ينتفع بها إلا أن تخرجها عن ملكك تنفقها فى وجهها فقط ، والمال أيضا غاد ورائح ، وربما زال عنك ورأيته بعينه فى يد غيرك ، ولعل ذلك يكون عدوا ، فالعجب بمثل هذا سخف ، والثقة به غرور وضعف .

وإن أعجبت بمدح إخوانك ففكر فى ذم أعدائك إياك فحينئذ ينجلى عنك العجب ، فإن لم يكن لك عدو فلا خير فيك ، ولا منزلة أسقط من منزلة من لا عدو له فما هى إلا منزلة من ليس لله تعالى عنده نعمة يحسد عليها عافانا الله .

فإن استحقرت عيوبك ففكر فيما لو ظهرت إلى الناس وتمثل اطلاعهم عليها فحينئذ تخجل وتعرف قدر نقصك إن كانت لك مسكة من تمييز .

واعلم بأنك لو وقفت على تركيب الطبائع وتولد الأخلاق من امتزاج عناصرها المحمولة فى النفس لبان لك أن الكثير منها ممنوع لا فضل لك فيه ، وأنك لو وكلت إلى نفسك لعجزت وهلكت فاجعل بدل عجبك بها شكرا لمن وهبها لك وإشفاقا من زوالها ، فقد تتغير الأخلاق الحميدة بالمرض وبالفقر وبالخوف وبالغضب وبالهرم .

وارحم من منع ما منحت ، ولا تتعرض لزوال ما بك من النعم بالتعاصى على واهبها تعالى : بأن تجعل لنفسك فيما وهب لك فضلا أو حقا فتقدر أنك استغنيت عن عصمته فتهلك عاجلا أو آجلا .

وإن أعجبت بنسبك فهذه أسوأ من كل ما ذكرنا ؛ لأن هذا الذى أعجبت

به لا فائدة له أصلا فى دنيا ولا آخرة ، وانظر : هل يدفع عنك جوعة أو يستر لك عورة أو ينفعك فى آخرتك ؟ ثم انظر إلى من يساهمك فى نسبك وربما فيما هو أعلى منه ممن نالته ولادة الأنبياء عليهم السلام ثم ولادة الفضلاء من الصحابة والعلماء ثم ولادة ملوك العجم من الأكاسرة والقياصرة ثم ولادة التبابعة وسائر ملوك الإسلام ، فتأمل من بقى من ذريتهم تجد أنهم قد نزلوا إلى مراتب لا يغبطون عليها .

ثم لعل الآباء الذين تفخر بهم كانوا فساقا أطلقت الأيام أيديهم بالظلم والجور فأنتجوا ظلما وآثارا قبيحة تبقى الأيام عارهم بذلك ويعظم إثمهم والندم عليها يوم الحساب . فإن كان كذلك فاعلم أن الذى أعجبت به من ذلك داخل فى العيب والخزى والعار والشنار لا فى الإعجاب .

على أنك وأنت تعجب بولادة الفضلاء إياك ما أخلى يدك من فضلهم إن لم تكن أنت فاضلا ! وما أقل غناهم فى الدنيا والآخرة إن لم تكن أنت محسنا ! والناس كلهم أولاد آدم الذى خلقه الله وأسكنه جنته وأسجد له ملائكته ، ولكن ما أقل نفعه لهم وفيهم المعيب والفاسق والكافر !! وإذا فكر العاقل فى أن فضل آبائه لا يقربه من ربه تعالى ولا يكسبه وجاهة فأى معنى للإعجاب بما لا منفعة فيه ؟ وهل المعجب بذلك إلا كالمعجب بمال جاره وبجاه غيره ؟ فإن تعدى بك العجب إلى الامتداح فقد تضاعف سقوطك ؛ لأنه قد عجز عقلك عن مقاومة ما فيك من العجب . هذا إن امتدحت بحق فكيف إن امتدحت بالكذب ؟ وقد كان ابن نوح وأبو إبراهيم وأبو لهب عم النبي صلى الله عليه وسلم أقرب الناس إلى أفضل خلق الله تعالى ومن الشرف كله فى اتباعهم ، فما انتفعوا بذلك . وقد كان فيمن ولد لغير رشدة من كان الغاية فى رياسة الدنيا كزياد ابن أبيه !!

(واعلم) أن من قدّر فى نفسه عجبا أوظن لها على سائر الناس فضلا فلينظر

إلى صبره عند ما يدهمه من هم أو نكبة أو وجع أو دمل أو مصيبة : فإن رأى نفسه قليلة الصبر فليعلم أن جميع أهل البلاء من المجذومين وغيرهم والصابرين أفضل منه على تأخير طبقتهم فى التمييز ، وإن رأى نفسه صابرة فليعلم أنه لم يأت بشىء يسبق فيه على من ذكرنا ، بل هو إما متأخر عنهم فى ذلك ، أو مساو لهم ولا مزيد . ثم لينظر إلى سيرته وعدله أو جوره فيما حوله من نعمة أو مال أو خول أو أتباع أو صحة أو جاه : فإن وجد نفسه مقصرة فيما يلزمه من الشكر لواهبه تعالى ووجدها حائفة فى العدل فليعلم أن أهل العدل والشكر والسيرة الحسنة أفضل منه ، فإن رأى نفسه ملتزمة للعدل فالعادل بعيد عن العجب البتة لعلمه بموازين الأشياء ومقادير الأخلاق والتزامه التوسط الذى هو الاعتدال بين الطرفين المذمومين .

فإن أعجب كان غير عادل بل قد مال إلى جانب الإفراط المذموم .

واعلم أن التعسف وسوء الملكة لمن خولك الله أمره من رقيق أو رعية يدلان على خساسة النفس ودناءة الهمة وضعف العقل ؛ لأن العاقل الرفيع النفس العالى الهمة إنما يغلب أكفاءه فى القوة ونظراءه فى المنعة .

وأما الاستطالة على من لا يمكنه المعارضة فسقوط فى الطبع ورذالة فى النفس والخلق وعجز ومهانة ، ومن فعل ذلك فهو بمنزلة من يتبجح بقتل جُرَز ، وحسبك بهذا ضعة وخساسة .

واعلم أن رياضة الأنفس أصعب من رياضة الأسود لأن الأسود إذا سجنت فى البيوت التى تتخذ لها أمن شرها ، والنفس وإن سجنت لم يؤمن شرها .

العجب أصل يتفرع عنه التيه والزهو والكبر والتعالى وهذه أسماء واقعة على معان متقاربة ، ولذلك صعب الفرق بينها على أكثر الناس ، فقد يكون العجب لفضيلة ظاهرة فى المعجب بنفسه : فمن معجب بعلمه فيكفهر ويتعاظم على الناس ، ومن معجب بعمله فيترفع ويتعالى ، ومن معجب برأيه فيزهو على غيره ، ومن معجب بنفسه فيتيه ، ومن معجب بجاهه وعلو حاله فيتكبر وينتحى .

ج - رأى الغزالى بتصرف

لا جرم أن الاعتدال فى مزاج البدن آية صحته : كما أن الميل عن الاعتدال أمارة علته ؛ فلنتخذ البدن مثالا يقاس عليه علاج مداواة النفوس فنقول :

مثال النفس فى علاجها بمحو الرذائل عنها وجلب الفضائل إليها — مثال البدن فى علاجه بمحو العلل عنه وكسب الصحة له ، وكما أن الغالب على أصل المزاج الاعتدال ؛ وإنما تحصل الأمراض بعوارض الأغذية والأهوية والأحوال: فكذلك فى الغالب كل مولود يولد معتدلا صحيح الفطرة وهو إلى الخير أقرب منه إلى الشر ، فبالاعتياد والتعليم السيئ تكتسب الرذائل

وكما أن البدن فى الابتداء لا يخلق كاملا ، بل يكمل ويقوى بالنشوء والتربية بالغذاء : فكذلك النفس : تخلق ناقصة تحتاج إلى التربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم .

وكما أن البدن إن كان صحيحا فشأن الطبيب تمهيد القانون الحافظ للصحة، وإن كان مريضا فشأنه جلب الصحة إليه : فكذلك النفس إن كانت مهذبة فالواجب العمل على حفظها وجلب مزيد قوة إليها ، وإن كانت عديمة الكمال فالواجب السعى لجلب ذلك إليها ،

وكما أن العلة الموجبة للمرض لا تعالج إلا بضدها : فكذلك الرذيلة التى هى مرض النفس علاجها بضدها : فالجهل بالتعلم ، والبخل بالتسخى ، والكبر بالتواضع .

وكما أنه لابد من احتمال مرارة الدواء وشدة الصبر عن المشتهيات لعلاج الابدان المريضة : فكذلك لابد من احتمال مرارة المجاهدة والصبر لمداواة مرض النفس ، بل هذه أولى ؛ لأن مرض البدن يتخلص منه بالموت ، ومرض

النفس يدوم بعد الموت أبد الآبدين .

وكما أن كل علة لها دواء يناسبها كما وكيفا : فكذلك علاج الأخلاق لا بد له من دواء هو معيارها

وكما أن معيار الدواء مأخوذ من معيار العلة : فالطبيب مثلا لا يعالج مالم يعرف منشأ العلة ومقدارها : أضعيفة هي أم قوية ؟ فإذا عرف ذلك التفت إلى أحوال البدن وأحوال الزمان وصناعة المريض وسنه وسائر أحواله ثم يعالج بحسبها :فكذلك مداوى النفس وهو يعالج قلوب المسترشدين : ينبغى ألا يهجم عليهم بالرياضة والتكاليف فى فن مخصوص وفى طريق مخصوص مالم يعرف أخلاقهم وأمراضهم .

وكما أن الطبيب لوعالج المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم : فكذلك مداوى النفوس : ينبغى له أن ينظر فى مرض كل واحد وسنه ومزاجه وماتحتمله نفسه من الرياضة ، ثم يصف له الرياضة المناسبة :

فإن كان المعالج مبتدئا جاهلا بحدود الشرع فليعلمه أولا الطهارة والصلاة وظواهر العبادات ،

وإن كان مشغولا بمال حرام ومقارفا لمعصية فليأمره أولا أن يترك ذلك ، وكذلك شره الطعام يعالج بالصوم والتقليل منه ، والجبن يعالج بركوب الجبان البحر فى الشتاء مثلا ،

وليس غرضنا ذكر دواء كل مرض وإنما الغرض التنبيه على أن الطريق الكلى فيه سلوك مسلك المضادة لكل مايشير به هوى النفس

وقد جمع الله عز وجل ذلك كله فى كتابه العزيز فقال : « وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى »

والأصل المهم فى المجاهدة الوفاء بالعزم ، فإذا عزم على ترك شهوة فالواجب أن يصبر ويستمر ؛ لأنه إن عود نفسه ترك العزم وعدم الوفاء ألفت نفسه ذلك

فتفسد .

وإذا اتفق منه مصادفة نقض العزم فالواجب أن يأخذ نفسه بعقوبة على هذا النقض حتى لا يتكرر منه ، وبذلك ينجع العلاج .

علامات أمراض النفوس وعلامات عودها الى الصحة

كل عضو فى البدن خلق لفعل خاص فمرضه أن يتعذر عليه تأدية فعله المخلوق له حتى لا يصدر منه أصلا أو يصدر منه مع نوع من الاضطراب

وكما أن مرض العين أن يتعذر عليها الإبصار ، ومرض اليد أن يتعذر عليها العمل : فكذلك مرض النفس أن يتعذر عليها العلم والحكمة والمعرفة وحبُّ الله تعالى وعبادتهُ والتلذذُ بذكره وإيثار ذلك على كل شيء سواه : قال تعالى : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ »

والإنسان لم يتميز على البهائم بالقدرة على الأكل والإبصار مثلا ؛ بل بإدراك الأشياء على ماهى عليه .

وأصل الأشياء وموجدها هو الله تعالى ، فلو عرف كل شيء ولم يعرف الله عزوجل — فكأنه لم يعرف شيئا . وعلامة المعرفة المحبة ، وعلامة المحبة ألا يؤثر عليه الدنيا ولا غيرها من المحبوبات : كما قال الله تعالى : (قُلْ إنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ ... إلى قوله : أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ) فمن عنده شيء أحب إليه من الله فقلبه مريض ، وكما أن من الأمراض مالا يعرفها صاحبها كذلك مرض النفس مما لا يعرفه صاحبه ، فلذلك يغفل عنه ، وإن عرفه صعب عليه الصبر على مرارة دوائه ؛ إذ دواؤه مخالف الشهوات ،

وذلك عسير إلا على من وفق .

على أنه لو وجد من نفسه قوة الصبر لم يجد طبيبا حاذقا يعالجه ، فإن أطباء النفوس هم العلماء .

فلهذا صار الداء عضالا والمرض مزمنا ، واندرس هذا العلم ، وأنكر بالكلية طب النفوس ، وأنكر مرضها ، وأقبل الخلق على حب الدنيا وعلى أعمال ظاهرها عبادات وباطنها عادات ومراءاة ، فهذه علامات أصول أمراض النفس .

وأما علامات عودها إلى الصحة بعد المعالجة فهو أن ينظر فى العلة التى يعالجها : فإن كان البخل فعلاجه بذل المال وإنفاقه إلى الحد المناسب حتى لا يكون تبذيرا إذ المطلوب الاعتدال بين التبذير والتقتير ؛ حتى يكون بين بين وفى غاية البعد عن الطرفين .

غير أنه لما كان الوسط الحقيقى فى غاية الغموض فلا جرم أن من استوى على هذا الصراط المستقيم فى الدنيا جاز على مثل هذا الصراط فى الآخرة ، وقلما ينفك العبد عن ميل عن الصراط المستقيم : أعنى الوسط ؛ حتى لا يميل إلى أحد الجانبين ، فيكون قلبه معلقا بالجانب الذى مال إليه ،

فالاستقامة على سواء السبيل وهو الوسط فى غاية الغموض ، ولكن ينبغى أن يجتهد الإنسان فى القرب من الاستقامة إن لم يقدر على حقيقتها ،

فكل من أراد النجاة فالعمل الصالح طريقه ، ولا تصدر الأعمال الصالحة إلا عن الأخلاق الحسنة .

فليتفقد كل امرئ صفاته وأخلاقه ، وليشتغل بعلاجها حتى يهدى سواء السبيل .

بيان الطريق الذي يعرف الإنسان به عيوب نفسه

إن الله عز وجل إذا أراد بعبده خيرا بصره بعيوب نفسه حتى يمكنه علاجها، ولكن أكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم ، يرى أحدهم القذى في عين أخيه ولا يرى الجذع في عينه . ولمعرفة الإنسان عيوبه أربع طرق :

(١) أن يتصل الإنسان برب بصير بعيوب النفس مطلع على خفايا الآفات، ويتبع إشارته ، وهذا شأن التلميذ مع أستاذه ، وقد عز في هذا الزمان وجوده .

(٢) أن يطلب صديقا صدوقا بصيرا متدينا فيجعله رقيبا على نفسه ، فما كره من أخلاقه وأفعاله وعيوبه الباطنة والظاهرة نبهه عليه كما كان يفعل الأكياس والأكابر من أئمة الدين :

كان عمر رضي الله عنه يقول : رحم الله امرأ أهدى إلي عيوبي . وكان يسأل سلمان الفارسي عن عيوبه : قال له : ما الذي بلغك عني مما تكرهه ؟ فاستعفى . فألح عليه ، فقال : بلغني أنك جمعت بين إدامين على مائدة ، وأن لك حلتين : حلة بالنهار ، وحلة بالليل . قال : وهل بلغك غير هذا ؟ قال . لا . فقال : أما هذان فقد كفيتهما .

وكان يسأل حذيفة ، ويقول له: أنت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنافقين : فهل ترى علي شيئا من آثار النفاق ؟

فعمر على جلالة قدره وعلو منصبه كانت تهمته لنفسه على ما ترى . رضي الله عنه .

فكل من كان أوفر عقلا كان أقل إعجابا وأعظم اتهاما لنفسه ، غير

أن هذا قد عز فى الأصدقاء ؛ فقل من يترك المداهنة أو الحسد منهم ، ولهذا كان داود الطائى قد اعتزل الناس فقيل له : لم لا تخالط الناس ؟ فقال : وماذا أصنع بأقوام يخفون عنى عيوبى ؟

بل لقد آل الأمر إلى أن من يرشدنا إلى عيوبنا يصبح أبغض الناس إلينا ، ويكاد يكون هذا الأمر مفصحا عن ضعف الإيمان .

(٣) استفادة الإنسان عيوبه من ألسنة أعدائه ؛ فإن عين السخط تبدى المساوى ، ومع أن الطبع مجبول على تكذيب العدو وحمل كلامه على الحسد فالبصير يمكنه الانتفاع من ألسنة أعدائه بتمييز صحيح الأقوال من باطلها

(٤) مخالطة الإنسان الناس : فكل ما رآه مذموما بين الناس فليتفقد نفسه ويطهرها منه ، وناهيك بهذا تأديبا ، فلو ترك الناس كلهم ما يكرهونه من غيرهم لاستغنوا عن المؤدب : قيل لعيسى عليه السلام : من أدبك ؟ قال: ما أدبنى أحد: رأيت جهل الجاهل شينا فاجتنبته .

نهج الخلق القويم

إذا عرف المرء حقائق الأمور الآتية ووقف على كنهها تبين له نهج الخلق القويم ، واستطاع بإرادته الحازمة وعزيمته الوثابة أن يسلكه ، ويصل إلى غايته :

(١) إذا نظر الإنسان إلى الدنيا نظر تبصر وإمعان استبان له أنها ليست دار خديعة وغرور إلا عند ذوى العقول الناقصة والجاهلين بحقائق الأشياء ؛ ولو كانت دار خديعة لكان الإنسان مدة مقامه فيها لا يناله منها إلا نعيم وسرور ، ثم تفجؤه بالمساءة فتزيله عن ذلك النعيم ، وليس الأمر فيها كذلك ؛ فإنا نرى الإنسان ينشأ فى هذه الدنيا على أحوال مختلفة لا نظام لها : تراه يوما محزونا ،

ويوما مسرورا ، ويومامبتهجاويوما متوجعـا متألمـا ؛ والشيء إذا أظهر لك جميع مافى طبعه فقد أنصفك ونصح لك .

ولم ينل أحد من هذه الدنيا فرصة إلا أعقبتها غصـة ، فليست المخادعة إذن من قبل الدنيا ، ولـكنها من قبل الإنسان لنفسه؛فإن الدنيا أظهرت له جميع مافى طبعها من نعيم وبؤس ، فاغتبط الإنسان الضعيف العقل بنعيمها، واعتقـده دائما ، ونسى بؤسها وأهمله ، فـكان لذلك المخادع نفسه والمهلك لها لا الدنيا .

(٢) ينبغى للمرء ألا تستخفه الغبطة ولا يبخعه الأسى ، وأن يتلقى الحوادث بالرضا والاتزان ، فلا تـكون أخلاقه كأخلاق الصبى الذى لاعقل له : إن أطعم ورفق به ضحك ورضى ، وإن شـدد عليه بكى وغضب ، فهو مايـكون ضاحكا حتى يـكون باكيا ، وما يـكون راضيا حتى يـكون غاضبا .

(٣) لقدفطرت الدنيا على طباع مختلفة : هى خير وشر ونعيم وبؤس وشدة ورخاء تنبيها للمرء وإيقاظا له ، فيـكتسب بذلك العقل المضىء والمعرفة بحقائق الأشياء ، فالدنيا دار علم وبحث واختبار للمتأملين ، وقد وردها المرء ليعلم ويخبر، ومن ورد محلا من المحال ليعلمه ويخـبر كنهه ثم ترك العلم والبحث والاختبار وتشاغل بالنعيم والتلذذ — فقد ضيع مطلبه ونسى أربه الذى قصد له . فالعاقل من لم تشغله لذة عن الجرى وراء الحقيقة واستبطان الأمور ، ولم يـكن من الذامين للدنيا عند سخطهم عليها والمـادحين لها عند رضاهم عنها ، وليسوا هم فى الحقيقة ذامين ولامادحين ، بل هم تائهون ضالون : قد أضاعوا مطلبهم ، ونسوا أربهم ، وذهبت أعمالهم باطلا غير متحققين علما ولا مكتسبين قنية .

(٤) إن مهلـكات النفوس ثلاثة أجناس : الشرك والظلم والتلذذ . وأصل هـذه الأجناس حب الدنيا فليتحرز المرء منهـا ، ولينظـر إليهـا بعين الخائف الوجل منها : كالطائر الذى عرف الفخ المنصوب ، وفطن له ، فانحرف عنـه وحذره ؛ وليعلم أن تحرزه من الشرك يذهب به إلى رتبة التوحيد ، وأن تحرزه

من التلذذ يذهب به إلى الراحة من مقاساة الخوف والحزن .

(٥) وينبغي للمرء أن يتأمل حكمة مبدع الأشياء ويعتبر بها ويعلم أن الإنسان لم يخلق إلا للعلم والعمل به كالثمرة الطيبة لم تخلق إلا للأكل : وكما أن عنقود العنب يبدو وهو لا يصلح لشيء مما يراد به ، ثم ترده المادة السائرة به إلى حد الحموضة العادية ، فيكون حينئذ صالحا لبعض ما يراد به لا لكله ، ثم ترده المادة السائرة به إلى حد الكمال فيكمل حينئذ : كذلك الإنسان يبدو إلى عالمه وهو لا يصلح لمعنى من المعاني التي تراد منه ، ثم ترده المادة السائرة به إلى حيث يصلح أن يكون متعلما لا عالما . فإذا ارتاض على هذه الرتبة وردته المادة الكبرى الكاملة المكملة فإنه يصبح حينئذ عالما عاملا ، فيكمل حينئذ ،

(٦) ليس كل المستمعين لخطيب بحال واحدة في فهم ما يقول : فمنهم من يحتاج إلى ترجمان يؤدي إليه ، ووسيط يتوسط بين الناطق والسامع : وذلك لضعف السامع عن فهم القول ، ومن هو كذلك فهو أعجمي لا يفهم حاجته إلا بترجمان يفسر له حقيقة القول ، فالعاقل من عمل على إخراج نفسه من رتبة العجمة إلى رتبة الفصاحة حتى لا يحتاج إلى ترجمان ربما خان في تأدية ما سمع وغير القول وحرفه .

(٧) كثيرا ما يخاف المرء على ما وصلت إليه يده من أنواع المقتنيات ما دامت معه : فإذا فارقته زال الخوف عنه ، وأعقبه ذلك أحزانا وغموما ، فلينزع عن نفسه هذا الشيء الذي يدفعه إلى الخوف ، ويصيبه بأمراض الهموم وآلامها ، فلا يحزن على فائت كما لا يسر لآت ، ولا يكره دوام الغنى والأمن والسرور ؛ فإنه من آثر الفقر على الغنى والخوف على الأمن والذل على العز كان جاهلا ، ومن جهل فقد ضل ، ومن ضل فقد هلك .

(٨) هذا عالم الطبيعة وهو محل الفقر والخوف والذل والحزن ، وهذا عالم العقل وهو محل الغنى والأمن والعز والسرور ، وقد شاهدهما المرء جميعا

وساكنهما ، فليتخير على علم وخبرة ، وليعلم أنه لابث فى أيهما شاء غير مدفوع ولا ممنوع ، وأنه من الممتنع أن يكون الإنسان فقيرا غنيا ، خائفا آمنا ، عزيزا ذليلا ، مسرورا حزينا . وإذا كان الأمر كذلك فلا يمكن أن يجمع الإنسان حب الدنيا وحب الآخرة : قال على كرم الله وجهه : مثل الدنيا والآخرة كمثل المشرقين : كلما بعدت من أحدهما قربت من الآخر .

(٩) إن من نزع سلاحه وكتف نفسه واستسلم لعدوه أُسر وهان ، ومن قاتل بسلاحه وحمى نفسه ، ولم يستسلم لعدوه ـــ سادوعز ، ولومات دون كفاحه وجهاده . وأى نفس وردت الدنيا فلابد لها أن تسلك إحدى هاتين الحالين : إما الأسر وإما الكفاح : فمن اختار الأسر اختار طول العذاب وذل العبودية ، ومن اختار الكفاح ومات فى سبيله فقد مات عزيزا ، وكان موته حياة له ، واستراح من الأسر وهوانه وطول ذله .

(١٠) متى نوى المرء ترك الأفعال الخسيسة فليقصد نبعها وأصلها ، وليجتنبه وهو حب الدنيا ، ومتى نوى الأفعال الشريفة أيضا فليقصد أصلها وهو الزهد فى الدنيا ، وليبرأ مع هذا من النفاق والتمويه والإفراط والتفريط .

(١١) هذه رتب ثلاث فكن أيها المرء على أشرفها وأجلها :

فأدناها رتبة رجل عالم غير عامل : وهو كرجل ذى سلاح لا شجاعة له ، وماعسى أن يصنع الجبان بالسلاح ؟

والرتبة الثانية رجل عامل غير عالم : وهو كرجل شجاع لاسلاح له ، غير أن الشجاع بلاسلاح أقدر من الجبان ذى السلاح ، ولذلك كان العامل الذى لاعلم عنده خيرا من العالم الذى لاعمل له .

والرتبة الثالثة رتبة رجل عالم عامل : وهو كرجل ذى شجاعة وسلاح ، وهذه من غير شك أشرفها وأسماها .

(١٢) إن القمر ينير ما وردته الشمس ، فإذا عرض له أن يحول بينهما جسم الأرض انخسف وأظلم ، وكذلك النفس نيرة مضيئة مادام يردها نور العقل ، فإذا توسطت أسباب الفساد بينهما عدمت النفس نورها وأظلمت ؛ وكما أنه مادامت الأرض فى وسط العالم لن يعدم القمر الخسوف : كذلك النفس مادامت ملازمة للطبيعة لن تعدم الظلمة والأذى ؛ فراحتها فى مفارقتها عالم الطبيعة والتحول عن حب الدنيا عاجلا ، فإن التلذذ والتنعم بالدنيا هو الموت الدائم .

(١٣) من تأمل اللذات كلها لم يجد ألذ من ثلاثة أشياء : العلم والغنى والأمن . ولكل واحد من هذه الأشياء أصل وينبوع يحركه .

فمن طلب العلم فليعتصم بالتوحيد ؛ فإنه بالتوحيد تكون المعرفة والعلم والتحقيق ، وبالشرك يكون الكفر والجهل والشك .

ومن طلب الغنى فليقنع ؛ فإنه حيث لا قنوع لا غنى .

ومن طلب الأمن فليعد نفسه للموت وليشعرها الاطمئنان إلى مزايلة الدنيا .

(١٤) أيها الإنسان ، حتى متى وإلى متى أنت فى عالم السكون تطوف ورادا وصادرا وذاهبا وراجعا تتخذ القرناء والخلان ؟ فخليلا تترك وخليلا تتخذ وتصحب ، وليس من خليل تصحبه فيلين لك منه جانب إلا قد تلون لك منه جانب ممكنا لك الغدر والخذلان ، وأنت ممكن له الوفاء والمساعدة : يغشك فتنصحه ، ويعتل فتصححه ، ويدنسك فتطهره ، فهو دائما يقابلك بما فى جوهره وطبعه ، وأنت دائما تقابله بما فى جوهرك وطبعك ، ثم يعقبك بعد هذا كله بالقطيعة التامة والفراق القاطع على غير جرم أجرمته ولا ذنب جنيته ؛ فأنت فى كل حين متجرع من الفراق غصصا وفاقد إلفا وخليلا على غدرهم بك ووفائك لهم ، وظلمهم إياك ، وإنصافك إياهم ، لا عن الآخر بالأول تنزح ، ولا بطول تجربتك واختبارك

لهم تتعظ وتعتبر ، فحتى متى وإلى متى تصاحب الأشرار الظالمين والخونة الغادرين ؟ إنه لوشرب شارب من الماء شربة واحدة فإن تلك الشربة تقرر فى نفسه المعرفة بطبيعة الماء كله ؛ إذا اختبار الجزء من الشيء الواحد ينبئ عن سائر أجزائه ، وإن الناظر إلى كف من التراب قد رأى التراب كله ، وإن اختلفت ألوان التراب فليس جوهره مختلفا ، وإن مصاحب القرناء والخلان الذين كلهم من طبيعة واحدة وجوهر واحد لعارف بأن واحدهم ينبئ عن جميعهم ، وقليلهم ينبئ عن كثيرهم .

(٥) إن كل شيء يحن إلى مشاكله، فجدير بك أن تعرف هذا وتعمل به : فأنت صاف فلا تصحب كدرا ، وأنت نير فلا تصحب مظلما ، وأنت حى ناطق فلا تصحب ميتا أبكم ، وأنت عاقل وعادل فلا تصحب جاهلا معتسفا ، وأنت طاهر نقى فلا تصحب نجسا دنسا ، وأنت متصرف بالتمييز والإرادة العقلية فلا تصحب المتحرك حركة الهيام والالتباس والاضطراب ؛ فالروح فى جوهرها نيرة طاهرة ، والجسم فى أصله مظلم كدر

(١٦) ما أشغل الغريق فى الماء عن صيد السمك ! وكذلك ساكن الدنيا: ما أشغله عن مقتنياتها ولذاتها بخلاص نفسه إن فطن لسوء وقوعه فيها. يكفيك وأنت فى عالم الحس ماتقاسيه من آلامك وأوساخها ، فلا تضف إلى آلامك شيئا آخر ، فتكون كالغريق المرتهن فى البحر قد حمل على عاتقه حجرا ، وما أرى أن غريقا ينجو من البحر مجردا بنفسه ، وإن نجا فبصعوبة ؛ فكيف به إذا حمل على عاتقه شيئا آخر ؟

من فاتته فرصة العمل بالنصيحة فى أوان العمل فاتته حلاوة التثمير والثواب على صالح الأعمال ؛ فإنه من لم يغرس الشجرة فى أوان غرسها لم يلتذ بالثمرة عند أوان إدراك الثمر ، فتيقن هذا القول وافهمه إن كنت حيا عاقلا ، وإن كنت ميتا جاهلا فما أبعد تيقنك إياه وفطنتك له !!

(١٧) إن من كان له حبيب وفقده ، ثم وجد بعد فقده إياه عوضا منه وبديلا — يوشك أن يسلاه وينساه ، ولا سيما إذا كان الآتى أوفق وأحمد من الماضى

ومن فقد حبيبا ثم لم يجد منه عوضا يوشك أن يطول حزنه وتعظم حسرته ، ومن السياسة إن كان لك خليل أنت متحقق لفقده وفراقه أن ترتاد منه بديلا وعوضا ، وتلتمس لك غيره صاحبا ،

وخليق أن يكون المستأنف أوفق وأحمد من الماضى ؛ فإنه من فقد شيئا ثم وجد ماهو خير منه تحولت مصيبته إلى نعمة وحسرته إلى فرح وسرور ، فجدير بالنفس ألا تذهب فريسة الشهوات الجسمية الفانية ، وأن تنحاز إلى العقل وتلزم نهجه وسبيله

(١٨) احذر الخطأ فى السياسة ؛ فإن ثمرة الخطأ العذاب بعينه ؛ لأن الخطأ والزلل لا يعقبان إلا خطأ وزللا وسوء عاقبة ، وإن ثمرة الإصابة وحسن التهدى هى النعيم بعينه ؛ لأنهما لا يستخرج منهما إلا صواب وهدى وحسن عاقبة.

ومن غرس النخل وأجاد خدمته أكل الرطب والتمر وحمد عاقبته ، ومن غرس الصفصاف والعليق عدم الثمر وذهبت خدمته وتعبه باطلا ، فتهد فى جميع أحوالك إلى أخذ ماهو نافع لك ، وترك ما هو ضار ؛ لتكون من الموفقين المقترنين بالسعادة الأبدية الدائمة .

(١٩) ومن أصعب الأشياء وأشدها امتناعا أن تعالج صنعة الصياغة بأداة الفلاحة أو صنعة النجارة بأداة الخياطة ؛ فلكل صناعة أداة لن يستوى عملها إلا بها ، وإذا كان الإنسان عارفا لكل الصناعات أيضا مستعملا كل أدواتها وجب عليه إذا أراد أن يعالج الخياطة — أن يرمى من يده أداة الفلاحة ، ويأخذ للخياطة أداتها التى تصلح لها ، وإذا أراد أن يعالج الفلاحة ينبغى أن يرمى من يده أداة الخياطة ؛ ليأخذ للفلاحة أداتها التى تصلحها .

وكذلك ينبغى لمن أراد أن يدرك العلم وعمل الخير أن يرمى من يده أداة

الجهل والشر ويأخذ للعلم والخير أداتهما التى تصلح لهما :

وأداة العلم والخير بغض الدنيا والزهد فيها ، وأداة الجهل والشر حب الدنيا والرغبة فيها ، فمتى هممت بطلب العلم والخير فدع من يدك أداة الشر : كما قد تقرر فى علمك أن الصنعة لا تعمل إلا بأداتها ؛ وخذ للعلم والخير أداتهما ؛ فإنه متى عملتهما بأداتهما عملا بغير تعب ولا نصب .

ومتى كان بيدك أداة الشر وأردت أن تعمل بها الخير امتنع ذلك عليك وصعب كما امتنع على من كان بيده أداة الفلاحة فأراد أن يعمل بها الصياغة ، فطال تعبه ونصبه ولم يتم له عمله فتيقن هذا المعنى ، واعلم أن حب الدنيا والخير لا يجتمعان فى قلب أبدا : كما أن بغض الدنيا والشر لا يجتمعان فى قلب أبدا ، فتصور حقيقة هذا ، وأدركه بعقلك وبصيرتك .

(٢٠) إن التجار لا يظهرون بضائعهم ويزينونها لتراها العميان ، بل ليراها ذوو الأبصار الصحيحة ، وكذلك القصاص والمتكلمون إنما يتكلمون فى المحافل لا ليسمعهم الصم ، وإنما ليسمعهم ذوو الآذان السامعة الصحيحة ، وكذلك الحكماء لا ينطقون بالحكمة ويشيرون إلى المعانى السامية للنفوس السالكة فى رتبة الموت ، وإنما يؤمون بالحكمة النفوس السالكة فى رتبة الحياة وهى نفوس راغبة فى المعانى واردة إياها ، لكن تلك النفوس السالكة فى رتبة الموت هى نفوس غير راغبة فى المعالى صادرة عنها زاهدة فيها!! فتأمل هذا المعنى. واعلم أنه شتان بين الوارد والصادر وبين الراغب والزاهد .

(٢١) إن كرهت العقاب فاتق الزلل واحذره ، وتجنب الخطأ واطرحه ، وإن آثرت الثواب فتهد إلى الصواب ، واعلم أن مقاصد النفس لا تعدو حالين هما الخطأ والإصابة ، وأنه لن يخلو الخطأ من عاقبة العقاب والخسران ، ولن تخلو الإصابة من ثمر الثواب والربح ؛ فإن لم يكن ذلك كذلك يكن الخطأ ثمره الثواب ، والإصابة ثمرها العقاب ، وهذا ما لا يسوغ فى العقل ، ولا يوجد فى

مشاهدة الحس ؛ فقد وجب ضرورة أن يكون الخطأ عاقبة العقاب بالحقيقة ، وأن تكون الإصابة ثمرها الثواب .

ونفس المرء بانضيافها إلى العقل يقوى ضوءها فتدرك الإصابة ببصرها ، وبانحرافها عن العقل وانضيافها إلى الحس تعدم النور العقلى فتظلم وتضعف وتعثر بالخطأ بعماها وظلمتها ؛ فالطبيب يأمر العليل ألا يأكل مايضره ، فإن أطاعه أصاب ، وأنتجت له الإصابة البرء والصحة ، وإن عصاه أخطأ وأنتج له الخطأ السقم والألم .

(٢٢) تيقن أولا أن الموت الطبعى ليس شيئا غير غيبة النفس عن الجسد ، فإذا تقرر هذا فى علمك فتأمل أن الرجل الحكيم العالم العاقل هو حكيم عالم عند حضوره ، وهو حكيم عالم عند مغيبه ، معه تنتقل حكمته وعلمه أينما توجه وأينما سلك ، فتنبه لهذا المعنى وتيقن أيضا أن غارس شجرة الخير وغارس شجرة الشر بينهما بون عظيم واختلاف كبير فى نتيجتهما ؛ لأن شجرة الخير ليس ثمرها إلا خيرا وشجرة الشر ليس ثمرها إلا شرا .

فإن لم تكن هذا وكان ثمر الشجرة غير مافى طبعها ينبغ لغارس شجرة الكرم أن يأخذ منها الحنظل ، ولغارس شجرة الحنظل أن يأخذ منها العنب ، ولسنا نرى شجرة ثمرها غير مافى طبعها ، وغير ماهى معروفة به منذ بدء العالم ؛ لأن شجرة الكرم ليس ثمرها إلا عنبا ، وشجرة الحنظل ليس ثمرها إلا حنظلا ، فكيف يكون غارس شجرة الخير يعطى غير الخير ؟ وغارس شجرة الشر يعطى غير الشر ؟ فقد اتضح ضرورة وتبين حسا وعقلا أن الشىء لا يلد إلا من نوعه وشكله ، ولا يلد إلا مثله ؛ وإلا فمتى رأيت كلبا أنتج سبعا ، أو ناقة نتجت فكان نتاجها كلبا ؟

فإن كان قد اتضحت لك هذه المعانى فاطلب العلم بحقائق الأشياء ، وافعل الخير واغرس شجرته لينجلى بصرك ، فتنال من علمك علما ، ومن فعلك

الخير خيرا ، ومن استبصارك بصيرة ونورا وهداية،فتسكن بذلك المحل الأفضل ، وتستكمل السعادة الدائمة والأفراح الأبدية .

(٢٣) إن الأعمى إذا مشى ووقع في جب كان معذورا عند نفسه وعند غيره ، فأما البصير إذا أتى جبًّا وهو يبصره فألقى نفسه فيه بهواه وشهوته فأى عذر له عند نفسه وعند غيره ؟ فما أعظم حسرة الواقع فى المكروه بِعلمٍ وبصيرة وما أشد عذابه !

(٢٤) إن من عف عن شهوات الدنيا عفت مصائب الدنيا عنه ، وخرج من الدنيا سالما رابحا وربحه قربه من الله ؛ ومن أسرع إلى شهوات الدنيا أسرعت مصائب الدنيا إليه ، وخرج من الدنيا سقيما خاسرا ، وخسرانه بعده من الله .

(٢٥) ينبغى للمرء أن يعلم ويتيقن أن حد اللذة بالحقيقة هو مالا يحل ، ومتى طلبت نفسه فى الدنيا لذة فقد سمت إلى غير موجود ، وطلبت مالا يمكن :

والدليل البين على هذا أن جميع ما تباشره النفس فى هذه الدنيا مملول ، والمملول لا ينبغى أن يسمى لذة ، إذ كان حد اللذة مالا يحل: أو ما تنظر إلى أكثر أهل الدنيا كيف يبحثون فى طلب اللذات ويتوهمون أنها موجودة فى الدنيا وليست هى بموجودة ؟ فتيقن أن الناس يطلبون فى الدنيا ما ليس فيها .

(٢٦) إن غرض الحق ومقتضى العقل أن تكون الأشياء على ترتيبها الطبعى ثابتة ؛ فإذا كانت كذلك فما أحسنها وأجملها وأعدلها ! ! وذلك كالصانع الذى ينبغى له أن يكون هو الذى يستعمل الأداة لا الأداة مستعملة له وكالفارس الذى ينبغى له أن يدبر الفرس ويجربه ويروضه ، لا أن يكون ، الفرس يدبر الفارس ، فإذا جرت هذه الأشياء على كيانها الطبعى ظهر الحق والعدل الجميلان ، وإذا انعكست بالضد والخلاف ظهر الشر والجور القبيحان الرديئان .

(٢٧) تأمل أيها المرء هذا المثل فإما أن تضحك منه تعجبا أو تعتبر ،

وتوجس منه مخافة :

وهو أن طائرين من نوع واحد ربطا معا فى رباط واحد وتركا فيه فعظم عذابهما جميعا وبعدت الراحة عنهما ، فكان فرح كل واحد منهما وراحته انفصاله عن الآخر .

فإذا كان طائران هما من نوع واحد وشكل واحد ربطا جميعا فأعقبهما الربط شدة وأذاقهما أنواع العذاب — فكيف إذا ربطت أشياء مختلفة فى الشكل والمعنى : كحمل ربط بذئب ، أو ثور ربط بسبع ، أو حى ربط بميت ؟ أيكون أشق من عالم ربط بجاهل ؟ إن كانت راحة الحمل أن يحل من ربطه بالذئب وراحة الثور أن ينحل من ربطه بالسبع — فإن راحة الحى أن ينحل من ربطه بالميت وراحة العالم أن ينحل من ربطه بالجاهل .

فإن كنت تقر بحقيقة هذه المعانى فقد انجلت الغشاوة عن بصرك ، وإن كنت منكرا لذلك فاستعمل الأدوية المزيلة العمى عن الأبصار والأخلاق المخرجة القلوب من الظلمات إلى النور .

(٢٨) خليق بالمرء أن يحرص على تقوى الله ولزوم أمره ، ويعمر قلبه بذكره ، ويعتصم بحبله ، وأى سبب أوفق من سبب بينه وبين الله إن هو أخذ به ؟

وأن يحيى قلبه بالموعظة ويقويه باليقين وينوره بالحكمة ويبصره بأحداث الدنيا ، ويحذره صولة الدهر وسوء تقلب الليالى والأيام ويعرض عليه أخبار الماضين ، ويذكره بما أصاب من كان قبله من الأولين ، وأن يسير فى ديارهم وآثارهم لينظر فيما فعلوا وعما انتقلوا وأين حلوا ونزلوا ، فإنه واجدهم قد انتقلوا من الأحياء وحلوا ديار الغربة ، وكأنه عن قليل قد صار كأحدهم .

(٢٩) وعليه أن يصلح مثواه ، ولا يبيع آخرته بدنياه ، ويترك القول فيما لا يعرف والخطاب فيما لم يكلف ، ويمسك عن طريق إذا خاف ضلالته ، فإن الكف

عند حيرة الضلال خير من ركوب الأهوال ، وأن يأمر بالمعروف ويكون من أهله ، وينكر المنكر ويباين مَن فَعله بجهده ، ويجاهد فى الله حق جهاده ، ولا تأخذه فى الله لومة لائم ، بل عليه أن يخوض الغمرات للحق حيث كان ، ويعود نفسه التبصر على المكروه ، ويلجئ نفسه فى الأمور كلها إلى الإله القدير ؛ فإنه تعالى كهف حريز

(٣٠) وأن يعلم أن أحدا لم ينبئ عن الله كما أنبأ عنه الرسول صلى الله عليه وسلم ، فليرض به رائدا ، وإلى النجاة قائدا ؛ وأنه لو كان لربه شريك لأتته رسله ، ولرأى آثار ملكه وسلطانه ، ولعرف أفعاله وصفاته ، ولكنه إله واحد كما وصف نفسه لا يضاده فى ملكه أحد ، ولا يزول أبدا ، ولم يزل أولا قبل الأشياء بلا أولية وآخرا بعد الأشياء بلا نهاية . عظم عن أن تثبت ربوبيته بإحاطة قلب أو بصر . فإذا عرف ذلك فليفعل كما ينبغى لمثله أن يفعله فى صغر خطره وقلة مقدرته وكثرة عجزه وعظيم حاجته إلى ربه فى طلب طاعته والخشية من عقوبته والشفقة من سخطه ؛ فإنه لم يأمره إلا بحسن ، ولم ينهه إلا عن قبيح

وأن يعتبر بما أتاه به النبى الكريم صلى الله عليه وسلم من أنباء الدنيا والآخرة ؛ ليرى أن مثل من خبر الدنيا كمثل قوم سفر نبا بهم منزل جديب ، فأموا منزلا خصيبا وجنابا مَريعا ، فاحتملوا وَعْثاء الطريق ، وفراق الصديق وخشونة السفر وجشوبة المطعم ؛ ليأتوا سعة دارهم ومنزل قرارهم ، فليس يجدون لشىء من ذلك ألما ، ولا يرون نفقة مغرما ، ولا شىء أحب إليهم مما قربهم من منزلهم وأدناهم من محلهم ؛ وأن مثل من اغتر بها كمثل قوم كانوا بمنزل خصيب فنبا بهم إلى منزل جديب ، فليس شىء أكره إليهم ولا أفظع عندهم من مفارقة ما كانوا فيه إلى ما يهجمون عليه ، ويصيرون إليه

(٣١) وليعلم أن حفظ ما فى يديه أحب إلى المروءة من طلب ما فى يد غيره ، ومرارة اليأس خير من الطلب إلى الناس ، والحرفة مع العفة خير من الغنى مع

الفجور ، والمرء أحفظ لسره ، ورب ساع فيما يضره ، وأن من أكثر أهجَرَ ؛ ومن تفكر أبصر ، ومن قارن أهل الخير كان منهم ، ومن باين أهل الشر بان عنهم ، وبئس الطعام الحرام ، وظلم الضعيف أفحش الظلم .

وليبتعد عن الاتكال على المنى فإنها بضائع الموتى ، وأن ينتفع بما وقع له فالعقل حفظ التجارب ، وخير ما جربت ما وعظك .

وعليه أن يبادر الفرصة قبل أن تكون غصة ؛ فليس كل طالب يُصيبُ ولا كل غائب يثوب . ومن الفساد إضاعة الزاد ومفسدة المعاد . ولكل أمر عاقبة ورب يسير أنمى من كثير ، وألا يخاطر بشىء رجاء أكثر منه .

وأن يأخذ نفسه بنصيب حسن من التربية وهى العلم الصحيح والعلم الكامل والأخلاق المهذبة وحسن الأسوة فى الأهل والأقران وإحكام المراقبة التى يكون بها اجتناب كل ما يخل بالأدب والكمال مع تعهد يستمر فى تقويم الطباع المتأصلة والعقائد الموروثة إلى الصحيح السالم منها .

وبدهى أن التربية بهذا المعنى تشمل الوقوف عند حدود الأوامر والنواهى الشرعية بعد معرفة الحلال والحرام ، ومقاومة الشهوات النفسية ، وصرف قواها إلى صالح الأعمال الكافلة لسعادة الإنسان فى معاشه ومعاده

ولهذا ترى الأمم العاملة على إعلاء مجدها تصرف عنايتها فى نشر العلوم النافعة وبث أفكارها فى عقول بنيها على يد أساتذة كرام من صفوتها أدبا ودينا وعلما وأخلاقا ؛ ليكونوا أمناء على المتعلمين :

قال بعض الحكماء لولده : يا بنى ، اعلم أن العز فى طاعة الله والذل فى معصية الله ، والناس يتفاضلون بالعقل ، ويتميزون بالعلم ويتفاوتون بالعمل ، ويسودون بالحلم ، فعليك فى دينك بالازدياد وفى دنياك بالاقتصاد .

وقال الحكيم المستعصى : يجب على المعتنى بإصلاح أخلاقه مراعاة هذه الأمور :

(١) أن يغتنم الحياة التى فارق بها الأموات والجماد ، فيصرف زمانه فى المهم

دون غيره ؛ فقد قيل : إن امرأ أذهبت من عمره ساعة لحرى أن تطول حسرته عليها .

(٢) وأن يكون متفقدا لجميع أخلاقه متيقظا لسائر أحواله منتقصا لمذموم عاداته

(٣) وأن يكون أبدا معتنيا بتهذيب نفسه عاشقا لصورة الكمال مستلذا محاسن الأخلاق ومحمودها غير مستكثر ما يقتنيه من الفضائل والعلوم النافعة .

(٤) أن يطلب من التربية العليا غايتها جاعلا غرضه الكمال منها .

(٥) وأن لا يقف عند غاية من العلم إلا ويومئ بطرفه إلى ما فوقها ليزداد بصيرة .

(٦) وأن يأخذ نفسه بأوامر الله ورسوله وأولى الأمر من بعده يؤدبها بآدابهم .

(٧) وأن يسدد طرفا من علم اللسان ويعتنى بالبلاغة والفصاحة والكتابة والدرس .

(٨) وأن يقصد فى شهواته المباحة ويقف بها عند حد الاعتدال .

(٩) وأن يقمع أبدا سورة القوتين الغضبية والشهوانية ، ويستعمل قوة العقل عليهما .

(١٠) وأن يكون سهل اللقاء والبشر والتسليم سابقا بذلك غيره .

(١١) وأن يستعمل القصد فى كل أموره .

وأوصى بعض الحكماء بنيه فقال : الأدب أكرم الجواهر طبيعة وأنفسها قيمة ، يرفع الاحساب الوضيعة ، ويفيد الرغائب الجليلة ، ويعز بلا عشيرة ، ويكثر الأنصار لغير ذرية ؛ فالبسوه حلة ، وتزينوه حلية — يؤنسكم فى الوحشة ، ويجمع لكم القلوب المختلفة .

وأوصى آخر ابنه فقال : يابنى ، الأدب دعامة أيد الله بها الألباب وحلية زين بها عواطل الأحساب .

وقال ابن المقفع : ما نحن إلى ما نتقوى به حواسنا من المطعم والمشرب بأحوج منا إلى الأدب الذى هو لقاح عقولنا ؛ فإن الحبة المدفونة فى الثرى لا تقدر أن تطلع زهرتها ونضرتها إلا بالماء الذى يعود عليها من مستودعه .

وقال آخر : الشرف كل الشرف والفضل كل الفضل أن تفخر بعملك الطيب ؛ فهو الذى يجعلك غرة فى جبين أُسرتك ودرة فى جيد بيئتك ، ويصيرك نادرة زمانك وجوهرة أيامك .

(٣٢) قمين بالمرء أن يعامل الناس بما يجب أن يعاملوه به ، فلا يستخف بفاضل شريف ، ولا يميل إلى سخيف ، ولا يقول هجرا ، ولا يفعل نكرا ، ويجتنب فضول الكلام ؛ فإنه يظهر من عيوبه ما بطن ، ويحرك من عدوه ما سكن ، وكلام الإنسان مقياس فضله وترجمان عقله ، فليقصره على الجميل ويقتصر منه على القليل ، ويهجر اللجاج ؛ فإنه يوغر القلوب ، ويفسد الملكات ؛ وحرى به ألا يقول إلا ما يثبت به حجته ، ويبلغه حاجته ؛ فخير مظاهر رزانة الرجل قلة نطقه ومقاله ، وفضلُ علم احتماله وإكرام إخوانه : إذا عاتب استبقى ، وإذا صنع معروفا ستر ، وإذا أُسدى إليه جميلٌ نشر ، وإذا أذنب اعتذر ، وإذا أُذنب إليه اغتفر فالمعذرة بيان العقل ، والمغفرة بيان الفضل . لا يزهد فى رجل عرف فضله ، وجرّب عقله ، ولا يُعين قويا على ضعيف ، ولا يؤثر دنيّا على شريف ، ولا يُشير بما يعقب الوزر والإثم ، ولا يفعل ما يقبح الذكر والاسم .

يحفظ لسانه من المزاح والسخرية والاستهزاء بالناس ؛ فإن ذلك يريق ماء الوجه ، ويسقط المهابة ، ويجر الوحشة ، ويؤذى القلوب ، وهو مبدأ اللجاج والغضب والتقاطع ، ويثير الحقد فى القلوب ، يلقى صديقه وعدوه بوجه الرضا من غير مذلة ولا هيبة ، ويوقر من غير كبر ، ويتواضع من غير مسكنة ، الحق ضالة عقله التى ينشدها ، ونجعته التى يرتادها ، يحكم به ولو على نفسه ، ليس فى الحق عنده صغير ولا كبير ، يطرح المبالاة بكلام الناس فيما يتوخاه من الحق ؛ لأن

السلامة من طعن الناس غاية لا تدرك .

(٣٣) وأن يلتزم النشاط فى العمل ، وينأى عن البطالة والكسل ، ولا يكون كلا على غيره ؛ فإن الرجل كل الرجل من يأكل من كسبه ، ويشرب من ورده ؛ وأن يقدم على جلائل الأعمال مع الصبر والثبات ، ويحمل نفسه على معالى الأمور والتشبث بأحسن الأعمال والأمور العظام وعدم التهاون لنيلها بالآلام فإن الكسل من النقائص التى توجب الخسائس والشرور ، وتدل على ضعف فى إدراك صاحبها وحطة فى نفسه ، ومن رضى بالدون التحف بالخمول ، وفاتته معالى الأمور ، وآذن بصغر نفسه ، وقصر همته ، وضعف غريزته ؛ وأن لا يرغب فى سرعة العمل ، بل يرغب فى إتقانه ، ولا يؤخر عملا عن وقته ؛ فإن الوقت الذى يؤخره له عمل ، وليس يطيق ازدحام الأعمال ؛ فإنها إذا ازدحمت دخلها الخلل .

ولتكن أوقاته عنده كلها ربيعا ؛ فالوقت أسمى مواهب الخالق التى لا يمكن استعادتها متى فاتت ، فلا يتصرف فيه بما يؤسفه على فواته .

وليعلم أن الوقت الذى يمضيه فى أداء الواجبات الاجتماعية ليس بوقت ضائع لأن حبه لغيره ومعاونته والعمل على نشر العلم وتقليل وطأة الفاقة كلها من دلائل السعادة .

وعليه أن يروض نفسه على المجهود العقلى ؛ لأن النفس متى تعطلت من النظر وعدمت الفكر والغوص فى المعانى تبلدت وتبلهت وانقطعت عنها مادة كل خير وإذا ألفت الكسل وتبرمت بالروية واختارت العطلة قرب هلاكها ؛ لأن فى عطلتها انسلاخا من صورتها الخاصة بها ورجوعا منها إلى رتبة البهائم ، وهذا هو الانتكاس فى الخلق .

وإذا تعود الحدث الناشئ من حداثته الارتياض بالأمور الفكرية واحتمل ثقل الروية والنظر وأنس بالحق ونبا طبعه عن الباطل وسمعه عن الكذب حتى إذا

بلغ أشده وانتقل إلى مطالعة الحكمة — استمر طبعه فيها ، وتشرب ما يستودع منها ، فوصل إلى سعادتها .

وليحرص على سعادة غيره ؛ فإن اجتهاده فى إسعاد غيره إسعاد لنفسه ، وقصر جهده على إسعاده لنفسه إشقاء لها ؛ وذلك لأنه إذا سعى كل فى نفع غيره تم النفع للجميع ، وإذا سعى كل لمجرد نفع نفسه أضر بغيره ، فتوافر الضرر للجميع .

وعليه أن يرتب أعماله وأوقاته ؛ فإن الترتيب فضيلة تحمل صاحبها على الاهتمام والعمل بما رتبه لنفسه ، وهى تنشط النفوس ، وتريح البال ، ويكون صاحبها مستجمعا لفكرته محافظا على وقته .

(٣٤) وعليه أن يتعرف ما يجرى فى زمانه ، فيطلع على المجلات والصحف السيارة ما تبلغه قدرته ؛ فالبصير البصير بزمانه . وأن يفحص عن كل الأمور صغيرها وكبيرها ، ويفرغ همه لجلائل الأعمال ؛ فإن النفس إذا كبرت استشعرت الخلود ، فعملت من الجميل ما يبقى على الأزمنة المتطاولة ، وإذا نقصت لم تحفل بمستقبل من الأزمنة ولا بجميل من الفعل ، فآثرت عاجل الانتفاع على آجل الذكر .

(٣٥) وقمين به أن يلقى عدوه وصديقه بوجه طلق ويعطى كل ذى منصب حقه من التعظيم ، ولا يعظم جاهلا ؛ فإن تعظيم الجاهل تقوية له على الجهل ولا يرضى خطة يبخس بها حق الكريم ويكرم اللئيم ؛ فإنه ليس شىء أضر على الدين والدنيا من ذلك .

(٣٦) وعليه أن يستمع لمن ينتقده ويهجر من يطريه بما ليس فيه ؛ فإن من أظهر عيبك أراد تهذيبك ، ومن عرّفك نقصك أرشدك للفضيلة ، وإذا يئس من التغلب على مناوئه فليسلك معه سبيل المحاسنة دفعا للشر بالمخاشنة ؛ فليس من الحزم أن تصارع القوى وأنت ضعيف ، وتكافح الكمىّ وأنت أعزل ، وتعاكس مجرى الأيام وطبيعتها ما ترى .

ومما يروى عن على رضى الله تعالى عنه : أنه قال : إياك وفعل القبيح ؛ فإنه يقبح ذكرك ، ويكثر وزرك . إياك والغضب ؛ فأوله جنون ، وآخره ندم . إياك أن ترضى عن نفسك ، فيكثر الساخط عليك . إياك ومصادقة الأحمق ؛ فإنه يريد أن ينفعك فيضرك . إياك ومصادقة البخيل ؛ فإنه يقصر بك أحوج ما تكون إليه . إياك والسفه ؛ فإنه يوحش الرفاق . إياك والعجل فإنه مقرون بالعثار . إياك والبطنة ؛ فمن لزمها كثرت أسقامه ، وفسدت أحلامه . إياك والإعجاب وحب الإطراء ؛ فإن ذلك من أوثق فرص الشيطان .

ولا يعود نفسه الغيبة فإن معتادها عظيم الجرم ، ولا يحارب من يعتصم بالدين فإن مغالب الدين محروب ، ولا يغالب من لم يستظهر بالحق فإن مغالب الحق مغلوب ، ولا يضيعن حق أخيه اعتمادا على ما بينهما فليس لك بأخ من أضعت حقه ، وأن يقبل النصيحة ممن نصحه ، ويتلقاها بالطاعة ممن حملها إليه .

وليعلم أن الله سبحانه لم يمدح من القلوب إلا أوعاها للحكمة ومن الناس إلا أسرعهم إلى الحق إجابة .

(٣٧) وليكن على بينة أن من قنع بمقسوم الرزق استغنى عن كافة الخلق ، ومن رضى بالمقدور قَنِـع بالميسور ، ومن حاسب نفسه سلم ، ومن حفظ دينه غنم ، وأن الزهد يعز الفقير ، والطمع يذل الأمير ، ومن اتقى الله وقاه ، ومن اعتصم به نجاه ، ومن أخلص التوكل كفِى التعمل ، وأن قوة اليقين من صحة الدين ، وما انقضت ساعة من دهرك إلا بحصة من عمرك ، وقليل يكفى خير من كثير يطغى ، وخير العلم ما نفع ، وخير الوعظ والفقه ما وزع ، ومن فعل الخير فنفسه بدا ، ومن فعل الشر فعليها جنى واعتدى ، وعلم لا يُصلح ضلال ، ومال لا ينفع وبال ، ومن رضى بما آتاه الله من خيره لم يغمه ما يراه لغيره ، ومن نصر الحق لا يقهر ، ومن خذله لا ينصر ، ومن أرضى سلطانا جائرا أسخط ربا قادرا ، ومن تذلل لصاحب الدنيا تعرّى من لباس التقوى ، والصبر على الأذى دليل على صحة الورع ،

ومن رفع حاجته إلى الله وفق فى أمره ، ومن رفعها إلى غيره فقد وضع من قدر نفسه .

كل عز لا يوطده علم مذلة ، وكل علم لم يؤيده عقل مضلة ، وأحسن العفو ما كان مع القدرة ، وأحسن الجود ما كان مع العسرة ، ومن تعدى على جاره أنبأ عن لؤم نِجَاره ، ومن قل تَوَقِّيه كثرت مساويه ، وما عز من ذل جيرانه ، ولا سعد من شقى إخوانه ، ومن أعز ماله أهان نفسه ، ومن ساء ظنه حرم أُنسه ، إذا أذنبت فاعتذر ، وإذا أُذنب إليك فاغتفر ؛ فالمعذرة بيان العقل والمغفرة برهان الفضل ، وأقبح العذر إذاعة السر .

(٣٨) وأربعة تولد المحبة : حسن البشر ، وبذل البر ، وقصد الوفاق ، وترك النفاق .

وأربعة من علامات الكرم : ترك البذاء ، وكف الأذى ، وتعجيل المثوبة ، وتأخير العقوبة .

وأربعة من علامات اللؤم : إفشاء السر ، وإظهار الغدر ، وغيبة الأحرار ، وإساءة الجوار .

وأربعة من علامات الإيمان : حسن العفاف ، والرضا بالكفاف ، وحفظ اللسان ، وفعل الإحسان .

وأربعة تزول بأربعة : النعمة بالكفران ، والقدرة بالعدوان ، والدولة بالإغفال ، والحظوة بالإذلال .

وأربعة لا تنتصف من أربعة : الشريف من الدنى ، والرشيد من الغوى ، والبر من الفاجر ، والمنصف من الجائر .

وأربعة تؤدى إلى أربعة : الصمت إلى السلامة ، والبر إلى الكرامة ، والجود إلى السيادة ، والشكر إلى الزيادة .

وأربعة تعرف بأربعة : الكاتب بكتابه ، والعالم بجوابه ، والحكيم بفعاله ،

والحليم باحتماله .

وأربعة تدل على الجهل : صحبة الجهول ، وكثرة الفضول ، وإذاعة السر ، واحتقار البر .

وأربعة تدل على الإدبار : سوء التدبير ، وقبح التذكير ، وقلة الاعتبار ، وكثرة الاغترار .

وأربعة تدل على العقل : حب العلم ، وحسن الحلم ، وصحة الجواب ، وكثرة الصواب .

وأربعة تدل على الدهاء : تجرّع الغصص ، وتوقع الفرص ، واستنجاد الآراء ، ومداهنة الأعداء .

وأربعة تتم بأربعة : العلم بالنهى ، والدين بالتقى ، والعمل بالنية ، والشرف بالمزية .

وأربعة لاتستغنى عن أربعة : الرعية عن السياسة ، والجيش عن القيادة ، والرأى عن الاستشارة ، والعزم عن الاستخارة .

(٣٩) من وصية فيثا غرس المعروفة بالذهبية وهى التى يقول جالينوس : إنه يقرؤها كل يوم غدوة وعشية .

قال فيثا غرس : أول ما أوصيك به بعد تقوى الله عزّ وجلّ وعبادته تبجيل أوليائه وإكرامهم بما توجبه الشريعة ، وأوصيك أيضا بتبجيل قادة الإصلاح ، فتفعل ما توجبه عليك الشريعة فى إكرامهم . وأوصيك بإكرام سلفك وأقربائك . وأوصيك أن تتخذ من بين الناس أفضلهم صديقا ليكون عونا على الفضيلة ، ولا تستفسد صديقا لهفوة تبدر منهُ ما أمكنك ، وينبغى أن تتعود ضبط نفسك على هذه الأشياء : أمر بطنك وفرجك والغضب والنوم .

واحذر أن ترتكب قبيحا فى وقتٍ من الأوقات على خلوة ولا مع غيرك .

وليكن استحياؤك من نفسك أكثر من استحيائك من غيرك .

وعليك أن تلزم نفسك الإنصاف فى كلامك وفعالك . ولا تحملن نفسك على ارتكاب أمر من الأمور بلا تمييز . واعلم أن الموت حالٌّ بجميع الناس لامحالة .

وإذا سمعت من كلام الناس جيده أو رديئه فلاتمتعض منه ، ولا تحملنك نفسك على الامتناع من استماعه ، وإن سمعت كذبا فهوِّن على نفسك الصبر عليه . ولايحملنَّك أحد بكلام ولا بفعل على أن تفعل ماليس بجميل ولا أن تتفوَّه به ، وتروَّ قبل الفعل حتى لا تُغْلب فى فعلك ، واحذر أن تقول أو تفعل مايُستجهل منك ، وينبغى أن تقتصر فيما تفعله على مالم يَعُدْ بالضرر عليك .

ولاتساعد عينك على النوم قبل أن تتصفح كل واحد من الأفعال التى فعلتها فى نهارك أجمع ، بل تفقدها : فمتى كنت قدفعلت مكروها فليذعرنك ، ومتى كنت قدأتيت رضيا فليُبْهجنَّك .

ومتى التمست فعلا من الأفعال فابدأ بالابتهال إلى ربك بالنجح فيه ؛ فإنك إذا لزمت ذلك ، ولم تخالف هذه الوصايا — وقفت على كُنه مايجرى عليه الأمر فى تدبير الله عزّ وجلّ أولياءه .

الخلق القويم فى الحاكم

لقد استوعب عناصر الخلق الكامل كتاب طاهر بن الحسين لابنه عبد الله لما ولاه المأمون الرَّقة ومصر وما بينهما ؛ عهد إليه فيه ، ووصاه بجميع مايحتاج إليه فى دولته وسلطانه من الآداب الدينية والخلقية والسياسية الشرعية والملكية ، وحثه على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم بما لايستغنى عنه ملك ولاسوقة . ونص الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعد فعليك بتقوى الله وحده لاشريك له وخشيته ومراقبته عزوجل ومزايلة سخطه ، واحفظ رعيتك فى الليل والنهار ، والزم ما ألبسك الله من العافية بالذكر لمعادك وما أنت صائر إليه وموقوف عليه ومسئول عنه والعملَ فى ذلك كله بما يعصمك الله عزوجل ، وينجيك يوم القيامة من عقابه وأليم عذابه ؛ فإن الله سبحانه قد أحسن إليك وأوجب الرأفة عليك بمن استرعاك أمرهم من عباده ، وألزمك العدل فيهم والقيامَ بحقه وحدوده عليهم ، والذبَّ عنهم والدفع عن حريمهم ومنصبهم والحقنَ لدمائهم والأمن لسربهم وإدخالَ الراحة عليهم ؛ ومؤاخذك بما فرض عليك وموقفك عليه وسائلك عنه ومثيبك عليه بما قدمت وأخرت ؛ ففرغ لذلك فهمك وعقلك وبصرك ، ولا يشغلك عنه شاغل ؛ وإنه رأس أمرك وملاك شأنك وأول مايوقفك الله عليه .

وليكن أول ما تلزم به نفسك وتنسب إليه فعلك المواظبة على مافرض الله عزوجل عليك من الصلوات الخمس والجماعة عليها بالناس قِبَلك وتوابعها على سننها من إسباغ الوضوء لها وافتتاح ذكر الله عز وجل فيها ، ورتل فى قراءتك ، وتمكن فى ركوعك وسجودك وتشهدك ، ولتصرف فيه رأيك ونيتك ، واحضض عليه جماعة ممن معك وتحت يدك ، وادأب عليها ؛ فإنها كما قال الله عزوجل : « تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ » ثم أتبع ذلك بالأخذ بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمثابرة على خلائقه واقتفاء أثر السلف الصالح من بعده .

وإذا ورد عليك أمر فاستعن عليه باستخارة الله عز وجل وتقواه وبلزوم ما أنزل الله عز وجل فى كتابه من أمره ونهيه وحلاله وحرامه وائتمام ماجاءت به الآثار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قم فيه بالحق لله عز وجل ، ولا تميلن عن العدل فيما أحببت أو كرهت لقريب من الناس أو لبعيد ، وآثر

الفقه وأهله والدين وحملته وكتاب الله عز وجل والعاملين به ؛ فإن أفضل مايتزين به المرء الفقه فى الدين والطلب له والحث عليه والمعرفة بما يتقرب به إلى الله عز وجل ؛ فإنه الدليل على الخير كله والقائد إليه والآمر به والناهى عن المعاصى والموبقات كلها ، ومع توفيق الله عز وجل يزداد المرء معرفة وإجلالا له ودركا للدرجات العلا فى المعاد مع مافى ظهوره للناس من التوقير لأمرك والهيبة لسلطانك والأنسة بك والثقة بعدلك .

وعليك بالاقتصاد فى الأمور كلها ؛ فليس شىء أبين نفعا ولا أخص أمنا ولا أجمع فضلا منه ، والقصد داعية إلى الرشد ، والرشد دليل على التوفيق ، والتوفيق قائد إلى السعادة ؛ وقوام الدين والسنن الهادية — بالاقتصاد ، وكذا فى دنياك كلها .

ولا تقصر فى طلب الآخرة والأجر والأعمال الصالحة والسنن المعروفة ومعالم الرشد والإعانة والاستكثار من البر والسعى له إذا كان يطلب به وجه الله تعالى ومرضاته ومرافقة أولياء الله فى دار كرامته :

أما تعلم أن القصد فى شأن الدنيا يورث العز ويمحص من الذنوب ، وأنك لن تحوط نفسك من قائل ولا تنصلح أمورك بأفضل منه ؟ فأته واهتد به تتم أمورك وتزيد مقدرتك ويصلح عامتك وخاصتك .

وأحسن ظنك بالله عز وجل تستقم لك رعيتك ، والتمس الوسيلة إليه فى الأمور كلها تستدم به النعمة عليك ، ولا تتهمن أحدا من الناس فيما توليه من عملك قبل أن تكشف أمره ؛ فإن إيقاع التهم بالبرءاء والظنون السيئة بهم آثم إثم ؛ فاجعل من شأنك حسن الظن بأصحابك ، واطرد عنك سوء الظن بهم ، وارفضه فيهم — يعنك ذلك على استطاعتهم ورياضتهم .

ولا تتخذن عدو الله الشيطان فى أمرك معمدا ؛ فإنه إنما يكتفى بالقليل من وهنك ويدخل عليك من الغم بسوء الظن بهم ماينقص لذاذة عيشك .

واعلم أنك تجد بحسن الظن قوة وراحة وتكتفى به ما أحببت كفايته من أمورك وتدعو به الناس إلى محبتك والاستقامة فى الأمور كلها ، ولا يمنعك حسن الظن بأصحابك والرأفة برعيتك أن تستعمل المسألة والبحث عن أمورك والمباشرة لأمور الأولياء وحياطة الرعية والنظر فى حوائجهم . وحملُ مؤوناتهم أيسرُ عندك مما سوى ذلك ؛ فإنه أقوم للدين وأحيا للسنة .

وأخلص نيتك فى جميع هذا وتفرد بتقويم نفسك تفرد من يعلم أنه مسئول عما صنع ومجزى بما أحسن ومؤاخذ بما أساء ؛ فإن الله عز وجل جعل الدنيا حرزا وعزا ، ورفع من اتبعه وعززه .

واسلك بمن تسوسه وترعاه نهج الدين وطريقه الأهدى ، وأقم حدود الله تعالى فى أصحاب الجرائم على قدر منازلهم وما استحقوه ، ولا تعطل ذلك ولا تهاون به ولا تؤخر عقوبة أهل العقوبة ؛ فإن فى تفريطك فى ذلك ما يفسد عليك حسن ظنك . واعتزم على أمرك فى ذلك بالسنن المعروفة ، وجانب البدع والشبهات يسلم لك دينك وتتم لك مروءتك .

وإذا عاهدت عهدا فأوف به ، وإذا وعدت الخير فأنجزه ، واقبل الحسنة ، وادفع بها ، وأغمض عن عيب كل ذى عيب من رعيتك ، واشدد لسانك عن قول الكذب والزور ، وأبغض أهل النميمة ؛ فإن أول فساد أمورك فى عاجلها وآجلها تقريبُ الكذوب والجراءةُ على الكذب ؛ لأن الكذب رأس المآثم ، والزور والنميمة خاتمتها ؛ لأن النميمة لا يسلم صاحبها ، وقائلها لا يسلم له صاحب ، ولا يستقيم له أمر .

وأحبب أهل الصلاح والصدق ، وأعن الأشراف بالحق ، وأعن الضعفاء ، وصل الرحم ، وابتغ بذلك وجه الله تعالى وإعزاز أمره ، والتمس فيه ثوابه والدار الآخرة ، واجتنب سوء الأهواء والجور ، واصرف عنهما رأيك ، وأظهر براءتك من ذلك لرعيتك ، وأنعم بالعدل سياستهم ، وقم بالحق فيهم وبالمعرفة التى

تنتهي بك إلى سبيل الهدى .

واملك نفسك عند الغضب ، وآثر الحلم والوقار ، وإياك والحدة والطيش والغرور فيما أنت بسبيله ، وإياك أن تقول : أنا مسلم أفعل ما أشاء ؛ فإن ذلك سريع إلى نقص الرأى وقلة اليقين لله عز وجل .

وأخلص لله وحده النية فيه واليقين ، واعلم أن الملك لله وحده سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء ، ولن تجد تغير النعمة وحلول النقمة إلى أحد أسرع منه إلى جهلة النعمة من أصحاب السلطان والمبسوط لهم فى الدولة إذا كفروا نعم الله وإحسانه ، واستطالوا بما أعطاهم الله عز وجل من فضله .

ودع عنك شره نفسك ، ولتكن ذخائرك وكنوزك التى تدخر وتكنز البرَّ والتقوى واستصلاحَ الرعية وعمارةَ بلادهم والتفقدَ لأمورهم والحفظ لدمائهم والإغاثةَ لملهوفهم .

واعلم أن الأموال إذا اكتنزت وادخرت فى الخزائن لا تنمو ، وإذا كانت فى صلاح الرعية وإعطاء حقوقهم وكف الأذية عنهم نمت وزكت وصلحت بها العامة وترتبت بها الولاية وطاب بها الزمان واعتقد فيها العز والمنفعة ، فليكن كنز خزائنك تفريق الأموال فى عمارة الإسلام وأهله ، ووفر منها على أولياء أمير المؤمنين قبلك حقوقهم ، وأوف من ذلك حصصهم ، وتعهد ما يصلح أمورهم ومعاشهم ؛ فإنك إذا فعلت قرت النعمة لك ، واستوجبت المزيد من الله تعالى ، وكنت بذلك على جباية أموال رعيتك وخراجك أقدر ، وكان الجمع لما شملهم من عدلك وإحسانك أسلس لطاعتك .

وطب نفسا بكل ما أردت ، وأجهد نفسك فيما حددت لك فى هذا الباب ، وليعظم حقك فيه ، وإنما يبقى من المال ما أنفق فى سبيل الله وفى سبيل حقه ، واعرف للشاكرين حقهم وأثبهم عليه .

وإياك أن تنسيك الدنيا وغرورها هول الآخرة ، فتتهاون بما يحق عليك ؛ فإن

التهاون يورث التفريط ، والتفريط يورث البوار . وليكن عملك لله عز وجل وفيه، وارج الثواب ؛ فإن الله سبحانه قد أسبغ عليك فضله .

واعتصم بالشكر ، وعليه فاعتمد يزدك الله خيرا وإحسانا ؛ فإن الله عز وجل يكتب بقدر شكر الشاكرين وإحسان المحسنين .

ولا تحقرن ذنبا ، ولا تمالئن حاسدا ، ولا ترحمن فاجرا ، ولا تصلن كفورا ، ولا تصدقن نماما ، ولا تأمنن عدوا ، ولا توالين فاسقا ، ولا تتبعن غاويا ، ولا تحمدن مرائيا ، ولا تحقرن إنسانا ، ولا تردن سائلا فقيرا ، ولا تحسننَّ باطلا ، ولا تلاحظن مضحكا ، ولا تخلفن وعدا ، ولا تذهبن فخرا ، ولا تظهرن غضبا ، ولا تباينن رجاء ، ولا تمشين مرحا ، ولا تزكين سفيها ، ولا تفرطن في طلب الآخرة ، ولا ترفع لنمام عينا ، ولا تغمض عن ظالم رهبة منه أو محاباة ، ولا تطلبن ثواب الآخرة في الدنيا .

وأكثر مشاورة الفقهاء ، واستعمل نفسك بالحلم وخذ عن أهل التجارب وذوى العقل والرأى والحكمة ، ولا تدخلن في مشورتك أهل الرفه والبخل ، ولا تسمعن لهم قولا ؛ فإن ضررهم أكثر من نفعهم ، وليس شيء أسرع فسادا لما استقبلت فيه أمر رعيتك من الشح .

واعلم أنك إذا كنت حريصا كنت كثير الأخذ قليل العطية ، وإذا كنت كذلك لم يستقم أمرك إلا قليلا ؛ فإن رعيتك إنما تعتقد على محبتك بالكف عن أموالهم وترك الجور عليهم.

ووال من صفالك من أوليائك بالاتصال إليهم وحسن العطية لهم ، واجتنب الشح ، وسهل طريق الجود بالحق ، واجعل للمسلمين كلهم في بيتك حظا ونصيبا ، وأيقن أن الجود أفضل أعمال العباد ، فأعدَّه لنفسك خلقا ، وارض به عملا ومذهبا .

وتفقد الجند في دواوينهم ومكانيبهم ، وأدر عليهم أرزاقهم ، ووسع عليهم في

معاشهم يذهب الله عز وجل بذلك فاقتهم ، فيقوى لك أمرهم ، وتزيد قلوبهم فى طاعتك وأمرك خلوصا وانشراحا ، وحسبُ ذى السلطان من السعادة أن يكون على جنده ورعيته رحمة فى عدله وعطيته وإنصافه وعنايته وشفقته وبره وتوسعته ،

واعلم أن القضاء من الله تعالى بالمكان الذى ليس له به شىء من الأمور ؛ لأنه ميزان الله الذى يعدل عليه أحوال الناس فى الأرض ، وبإقامة العدل فى القضاء والعمل تصلح أحوال الرعية ، وتأمن السبل ، وينتصف المظلوم ، وتأخذ الناس حقوقهم ، وتحسن المعيشة ، ويؤدى حق الطاعة ، ويرزق من الله العافية والسلامة ، ويقام الدين ، وتجرى السنن والشرائع فى مجاريها .

واشتد فى أمر الله عز وجل ، وامض لإقامة الحدود ، وأقلل العجلة ، وابعد عن الضجر والقلق ، واقنع بالقسم ، وانتفع بتجربتك ، وانتبه فى صحتك ، وسدد فى منطقك ، وأنصف الخصم .

وقف عن الشبهة ، وأبلغ فى الحجة ، ولا يأخذك فى أحد من رعيتك محاباة ولا مجاملة ولا لومة لائم ، وتثبت وتأن وراقب وانظر وتفكر وتدبر واعتبر ، وتواضع لربك وارفق بجميع الرعية ، وسلط الحق على نفسك ، ولا تسرعن إلى سفك الدماء انتها كالها بغير حقها؛ (فإن الدماء من الله عز وجل بمكان عظيم)

وانظر هذا الخراج الذى استقامت عليه الرعية ، وجعله الله للإسلام عزا ورفعة ولأهله توسعة ومنعة ولعدوه كبتا وغيظا ولأهل الكفر من معاديهم ذلا وصغارا ، فوزعه بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية والعموم ، ولا تدفعن شيئا منه عن شريف لشرفه ولا عن غنى لغناه ، ولا عن كاتب لك ، ولا لأحد من خاصتك ولا حاشيتك ، ولا تأخذن منه فوق الاحتمال له ولا تكلف أمرا فيه شطط .

واحمل الناس كلهم على مُرّ الحق فإن ذلك أجمع لألفتهم ، والزم إرضاء العامة ، واعلم أنك جعلت بولايتك خازنا وحافظا وراعيا ، وإنما سمى أهل عملك رعيتك لأنك راعيهم وقيمهم ، فخذ منهم ما أعطوك من عفوهم ، ونفذه فى قوام أمرهم وصلاحهم

وتقويم أودهم ، واستعمل عليهم أولى الرأى والتدبير والتجربة والخبرة بالعلم والعدل بالسياسة والعفاف ، ووسع عليهم فى الرزق فإن ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت ، وأسند إليك ، فلا يشغلك عنه شاغل ، ولا يصرفك عنه صارف ؛ فإنك متى آثرته وقمت فيه بالواجب استدعيت به زيادة النعمة من ربك وحسن الأحدوثة فى عملك ، واستجررت به المحبة من رعيتك ،وأعنت على الصلاح ، فدرت الخيرات ببلدك ، وفشت العمارة بناحيتك ، وظهر الخصب فى كورك ، وكثر خراجك ،وتوفرت أموالك ،وقويت بذلك على ارتباط جندك وإرضاء العامة بإفاضة العطاء فيهم من نفسك ، وكنت محمود السياسة مرضى العدل فى ذلك عند عدوك ، وكنت فى أمورك كلها ذا عدل وقوة وعدة ، فتنافس فيها،ولا تقدم عليها شيئاً ـ تحمد عاقبة أمرك إن شاء الله تعالى .

واجعل فى كل كورة من عملك أمينا يخبرك خبر عمالك ، و يكتب إليك بسيرهم وأعمالهم حتى كأنك مع كل عامل فى عمله معاينا لأموره كلها . وإذا أردت أن تأمرهم بأمر فانظر فى عواقب ماأردت من ذلك : فإن رأيت السلامة فيه والعافية ورجوت فيه حسن الدفاع والصنع فأمضه ، وإلا فتوقف عنه ، وراجع أهل الصبر والعلم به ، ثم خذ فيه عدته ؛ فإنه ربما نظر الرجل فى أمره وقد أتاه على مايهوى فأغواه ذلك وأعجبه ؛ فإن لم ينظر فى عواقبه أهلكه ونقض عليه أمره ؛ فاستعمل الحزم فى كل ما أردت ، وباشره بعد عون الله عزوجل بالقوة .

وأكثر من استخارة ربك فى جميع أمورك ، وافرغ من عمل يومك ولا تؤخره ، وأكثر مباشرته بنفسك ؛ فإن لغدٍ أمورا وحوادث تلهيك عن عمل يومك الذى أخرت ، واعلم أن اليوم إذا مضى ذهب بما فيه ، فإذا أخرت عمله اجتمع عليك عمل يومين ، فيشغلك ذلك حتى يرهقك ، وإذا أمضيت لكل يوم عمله أرحت بدنك ونفسك ، وجمعت أمر سلطانك .

وانظر أحرار الناس وذوى الفضل منهم ممن بلوت صفاء طويتهم وشهدت مودتهم لك ومظاهرتهم بالنصح والمحافظة على أمرك ، فاستخلصهم ، وأحسن إليهم ، وتعاهد أهل البيوتات ممن قد دخلت عليهم الحاجة ، واحتمل مؤنتهم، وأصلح حالهم ؛ حتى لا يجدوا لخلتهم منافرا .

وأفرد نفسك بالنظر فى أمور الفقراء والمساكين ومن لا يقدر على رفع مظلمته إليك والمحتقر الذى لا علم له بطلب حقه ، فسل عنه أحفى مسألة ، ووكل بأمثاله أهل الصلاح من رعيتك ، ومرهم برفع حوائجهم وخلالهم إليك لتنظر فيها بما يصلح الله به أمرهم ، وتعاهد ذوى البأساء ويتاماهم وأراملهم ، واجعل لهم أرزاقا من بيت المال اقتداء بأمير المؤمنين أعزه الله فى العطف عليهم والصلة لهم ؛ ليصلح الله بذلك عيشهم ، ويرزقك به بركة وزيادة .

وأجر للأمراء من بيت المال ، وقدم حملة القرآن منهم والحافظين لأكثره فى الجرائد على غيرهم .

وانصب لمرضى المسلمين دورا تؤويهم وقواما يرفقون بهم وأطباء يعالجون أسقامهم ، وأسعفهم بشهواتهم ما لم يؤد ذلك إلى سرف فى بيت المال .

واعلم أن الناس إذا أعطوا حقوقهم وفضل أمانتهم لم تبرمهم ، وربما تبرم المتصفح لأمور الناس لكثرة ما يرد عليه ، ويشغل فكره وذهنه منها ما ينال به مؤنة ومشقة ؛ وليس من يرغب فى العدل ويعرف محاسن أموره فى العاجل وفضل ثواب الآجل كالذى يستقرى ما يقربه إلى الله تعالى ويلتمس رحمته به

وأكثر الإذن للناس عليك ، وأرهم وجهك ، وسكن حراسك ، واخفض لهم جناحك ، وأظهر لهم بشرك ، ولن لهم فى المسألة والمنطق ، واعطف عليهم بجودك وفضلك ، وإذا أعطيت فأعط بسماحة وطيب نفس والتماس للصنيعة والأجر من غير تكدير ولا امتنان ؛ فإن العطية على ذلك تجارة مربحة إن شاء الله تعالى .

واعتبر بما ترى من أمور الدنيا ومن مضى من قبلك من أهل السلطان والرياسة فى القرون الخالية والأمم البائدة .

ثم اعتصم فى أحوالك كلها بالله سبحانه وتعالى والوقوف عند محبته والعمل بشريعته وسنته وإقامة دينه وكتابه ، واجتنب ما فارق ذلك وخالفه ، ودعا إلى سخط الله عزوجل

واعرف ماتجمع عمالك من الأموال وما ينفقون منها ، ولا تجمع حراما ، ولا تنفق إسرافا ، وأكثر مجالسة العلماء ومشاورتهم ومخالطتهم ، وليكن هواك اتباع السنن وإقامتها وإيثار مكارم الأمور ومقالتها ، وليكن أكرم دخلائك وخاصتك عليك من إذا رأى عيبا فيك لم تمنعه هيبتك من إنهاء ذلك إليك فى ستر وإعلامك مافيه من النقص ؛ فإن أولئك أنصح أوليائك ومظاهريك .

وانظر عمالك الذين بحضرتك وكتابك فوقت لكل رجل منهم فى كل يوم وقتا يدخل عليك فيه بكتبه ومؤامرته وما عنده من حوائج عمالك وأمور الدولة ورعيتك ، ثم فرغ لما يُورَدُ عليك من ذلك سمعك وبصرك وفهمك وعقلك ، وكرر النظر فيه والتدبير له ، فما كان موافقا للحزم والحق فأمضه واستخر الله فيه ، وما كان مخالفا لذلك فاصرفه إلى التثبت فيه والمسألة عنه .

ولا تمنن على رعيتك ولا على غيرهم بمعروف تؤتيه إليهم ، ولا تقبل من أحد إلا الوفاء والاستقامة والعون فى أمور المسلمين ، ولا تصنعن المعروف إلا على ذلك ، وتفهم كتابى إليك ، وأمعن النظر فيه والعمل به ، واستعن بالله على جميع أمورك ، واستخره ؛ فإن الله عزوجل مع الصلاح وأهله .

وليكن أعظم سيرتك وأفضل رغبتك ما كان لله عزوجل رضا ولدينه نظاما ولأهله عزا وتمكينا وللذمة والملة عدلا وصلاحا .

وأنا أسأل الله عزوجل أن يحسن عونك وتوفيقك ورشدك وكلاءتك ، وأن ينزل عليك فضله ورحمته بتمام فضله عليك وكرامته لك ، حتى

يجعلك أفضل أمثالك نصيبا وأوفرهم حظا وأسناهم ذكرا وأمرا ، وأن يهلك عدوك ومن ناوأك وبغى عليك ، ويرزقك من رعيتك العافية ، ويحجز الشيطان عنك ووساوسه ؛ حتى يستعلى أمرك بالعز والقوة والتوفيق ؛ إنه قريب مجيب والسلام .

الخلق القويم فى الحاكم العادل

فى رأى الحسن البصرى

كتب عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه لما ولىّ الخلافة إلى الحسن بن أبى الحسن البصرى أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل فكتب إليه الحسن رضى الله عنه :

اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل ، وقصد كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصَفَةَ كل مظلوم ، ومفزع كل ملهوف .

والإمام العادلُ يا أمير المؤمنين كالراعى الشفيق على إبله الرفيق الذى يرتاد لها أطيب المرعى ، ويذودها عن مراتع المَهْلَكَةِ ، ويحميها من السباع ، ويكنفها من أذى الحر والقُرّ .

والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأب الحانى على وُلده : يسعى لهم صغارا ، ويعلمهم كبارا ، يكتسب لهم فى حياته ، ويدخر لهم بعد مماته .

والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرّةِ الرفيقة بولدها حملته كرها ، ووضعته كرها ، وربته طفلا ، تسهر بسهره ، وتسكُنُ بسكونه ، ترضعه تارة ، وتَفطمُه أخرى ، وتفرح بعافيته ، وتغتم بشكايته .

والإمام العادل يا أمير المؤمنين وصىّ اليتامى ، وخازن المساكين : يربى

صغيرهم ، ويمون كبيرهم .

والإمام العادل ياأمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح : تصلح الجوانح بصلاحه ، وتفسد بفساده .

والإمام العادل ياأمير المؤمنين هو القائم بين الله وعباده : يسمع كلام الله ويُسمعهم ، وينظر إلى الله ويريهم ، وينقاد إلى الله ويقودهم .

فلا تكن ياأمير المؤمنين فيما ملكك الله كعبد ائتمنه سيده ، واستحفظه ماله وعياله ، فبدد المال ، وشرد العيال ، فأفقر أهله ، وفرق ماله

واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود يزجر بها عن الخبائث والفواحش فكيف إذا أتاها من يليها ، وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم ؟

واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده ، وقلة أشياعك عنده ، وأنصارك عليه ؛ فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر .

واعلم ياأمير المؤمنين أن لك منزلا غير منزلك الذى أنت فيه يطول فيه ثواؤك ، ويفارقك أحباؤك ، يسلمونك فى قعره فريدا وحيدا ؛ فتزود له بما يصحبك يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ، واذكر يا أمير المؤمنين إذا بعثر مافى القبور ، وحصل مافى الصدور ؛ فالأسرار ظاهرة ، والكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

فالآن ياأمير المؤمنين ، وأنت فى مهل قبل حلول الأجل ، وانقطاع الأمل — لاتحكم ياأمير المؤمنين فى عباد الله بحكم الجاهلين ، ولا تسلك سبيلهم الظالمين ، ولا تسلط المتكبرين على المستضعفين ؛ فإنهم لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة — فتبوء بأوزارك وأوزار مع أوزارك ، وتحمل أثقالك وأثقالا مع أثقالك ، ولا يغرنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك ، ويأكلون الطيبات فى دنياهم بإذهاب طيباتك فى آخرتك ، ولا تنظر إلى قدرتك اليوم ، ولكن انظر إلى قدرتك غدا ، وأنت

مأسورٌ فى حبائل الموت ، وموقوف بين يدى الله فى مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين وقد عنت الوجوه للحى القيوم .

إنى يا أمير المؤمنين وإن لم أبلغ بعظتى ما بلغه أولو النهى من قبلى فلم آلك شفقة ونصحا .

فأنزل كتابى إليك كداوى حبيبه يسقيه الأدوية الكريهة لما يرجو له فى ذلك من العافية والصحة . والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

الخلق القويم فى الوزير

فى رأى الحسن بن سهل وزير المأمون وخَتَنِه المتوفى سنة ٢٣٦ هجرية

كتب الحسن بن سهل إلى محمد بن سماعة أحد أصحاب محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة وقد توفى سنة ٢٣٣ هجرية :

أما بعد فإنى احتجت لبعض أُمورى إلى رجل جامع لخصال الخير ، ذى عفة ونزاهة طُعْمَة ، قد هذبته الآداب ، وأحكمته التجارب ، ليس بظنين فى رأيه ولا بمطعون فى حسبه ، إن اؤتمن على الأسرار قام بها ، وإن قُلِّد مُهِمًّا من الأمور أجزأ فيه ، له سنٌّ مع أدب ولسان ، تُقعده الرزانة ويُسكته الحلم ، قد فُرّ عن ذكاء وفطنة ، وعضٍّ على قارحة من الكمال ، تكفيه اللحظة وترشده السكتة ، قد أبصر خدمة الملوك وأحكمها ، وقام فى أُمورهم فحُمِد فيها ، له أناة الوزراء وصولة الأمراء ، وتواضع العلماء ، وفهم الفقهاء ، وجواب الحكماء ، لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده ، يكاد يسترق قلوب الرجال بحلاوة لسانه وحسن بيانه دلائل الفضل عليه لائحة ، وأمارات العلم له شاهدة ، مضطلعا بما استنهض ، مستقلا بما حمل .

وقد آثرتك بطلبه ، وحبوتك بارتياده ثقةً بفضل اختيارك ، ومعرفة بحسن تأتّيك .

فكتب إليه ابن سماعة :

إنى عازم أن أرغب إلى الله عز وجل حولا كاملا فى ارتياد مثل هذه الصفة وأفرق الرسل الثقات فى الآفاق لالتماسه ، وأرجو أن يمن الله بالإجابة ، فأفوز لديك بقضاء حاجتك ، والسلام .

الخلق القويم فى الجند وقواد الجيوش

الحرب رحى ثفالها الصبر ، وقطبها المكر ، ومدارها الاجتهاد ، وثفاقها الأناة ، وزمامها الحذر ، ولكل شىء من هذه ثمرة : فثمرة الصبر التأييد ، وثمرة المكر الظفر ، وثمرة الاجتهاد التوفيق ، وثمرة الأناة اليمن ، وثمرة الحذر السلامة ،

والخلق الكامل فى الجند وقواد الجيوش يكون بإحكام الخدعة ، وانتهاز الفرصة ، والتماس الغرة ، وإذكاء العيون ، وإنشاء الطلائع ، واجتناب المضايق ، والتحفظ من الدسيسات ، واستشارة الشجعان ، والتدرع بالصبر ، والتحصن باليقين ، والاعتصام بحبل الله المتين : قال تعالى : (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(الْحَرْبُ خُدْعَةٌ)

وقال المهلب لبنيه : عليكم بالمكيدة فى الحرب فإنها أبلغ من النجدة . وكان يقول : أناة فى عواقبها فوت خير من عجلة فى عواقبها درك . وفى كتاب للهند : الحازم بخير على كل حال: يحذر المواثبة إن قرب ، والغارة إن بعد ، والكمين إن انكشف ، والاستطراد إن ولى .

ا ـ وكتب الحجاج إلى المهلب يستعجله فى حرب الأزارقة ، فكتب إليه المهلب : إن من البلية أن يكون الرأى فى يد من يملكه دون من يبصره .

وكان بعض أهل التمرين يقول لأصحابه : شاوروا فى حربكم الشجعان من أولى العزم ؛ والجبناء من أولى الحزم ، ثم خلصوا من بين الرأيين نتيجة تحمل عنكم معرة الجبان وتهور الشجعان ، فتكون أنفذ من السهم الزالج والحسام الوالج

« ب » وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الجراح : إنه بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا بعث جيشا أو سرية قال: اغزوا باسم الله ، وفى سبيل الله تقاتلون من كفر بالله ، لا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا امرأة ولا وليدا . فإذا بعثت جيشا أو سرية فمرهم بذلك

« ج » وكان عمر بن الخطاب يقول عند عقد الألوية : باسم الله وبالله وعلى عون الله امضوا بتأييد الله ، وما النصر إلا من عند الله ، ولزوم الحق والصبر ، فقاتلوا فى سبيل الله من كفر بالله ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ، ولا تجبنوا عند اللقاء ، ولا تمثلوا عند القدرة ، ولا تسرفوا عند الظهور ، ولا تقتلوا هرما ولا امرأة ولا وليدا ، وتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان وعند شن الغارات

« د » لما وجه أبو بكر رضى الله عنه يزيد بن أبى سفيان إلى الشام شيعه راجلا فقال له يزيد : إما أن تركب وإما أن أنزل . فقال : ما أنت بنازل ، وما أنا براكب ، إنى أحتسب خطاى هذه فى سبيل الله ، ثم قال : إنك ستجد قوما حبسوا (١) أنفسهم لله فذرهم وما حبسوا أنفسهم له ، وستجد قوما فحصوا عن أوساط رءوسهم فاضرب ما فحصوا عنه بالسيف . ثم قال له : إنى موصيك بعشر: لا تغدر ، ولا تمثل ، ولا تقتل هرما ، ولا امرأة ، ولا وليدا ، ولا تعقرن شاة ولا بعيرا إلا ما أكلتم ، ولا تحرقن نخلا ، ولا تخربن عامرا ، ولا تغل ، ولا تجبن .

(١) يريد الرهبان

وقال أبو بكر لخالد بن الوليد : سر على بركة الله ، فإذا دخلت أرض العدو فكن بعيدا من الحملة فإنى لا آمن عليك الجولة ، واستظهر بالزاد ، وسر بالأدلاء ، ولا تقاتل بمجروح فإن بعضه ليس منه ، واحترس من البيات فإن فى العرب غرة ، وأقلل من الكلام فإنما لك ما وعى عنك ، واقبل من الناس علانياتهم ، وكلهم إلى الله فى سريرتهم ، وأستودعك الله الذى لا تضيع ودائعه .

« ه » وكتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبى وقاص رضى الله عنهما ومن معه من الأجناد :

أما بعد فإنى آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو ، وأقوى المكيدة فى الحرب . وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسا من المعاصى منكم من عدوكم ، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ؛ لأن عددنا ليس كعددهم ، ولا عدتنا كعدتهم ؟ فإن استوينا فى المعصية كان لهم الفضل علينا فى القوة ، وإلا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا ، فاعلموا أن عليكم فى سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون ، فاستحيوا منهم ولا تعملوا بمعاصى الله وأنتم فى سبيل الله ، ولا تقولوا إن عدونا شر منا فلن يسلط علينا ؟ فرب قوم سلط عليهم شر منهم كما سلط على بنى إسرائيل لما عملوا بمساخط الله كفار المجوس ، فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا ، واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم . أسأل الله ذلك لنا ولكم . وترفق بالمسلمين فى مسيرهم ، ولا تجشمهم سيرا يتعبهم ، ولا تقصر

بهم عند منزل يرفق بهم حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم؛ فإنهم سائرون إلى عدو مقيم حامى الأنفس والكُراع . وأقم بمن معك فى كل جمعة يوما وليلة حتى تكون لهم راحة يحيون فيها أنفسهم، ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم، ونح منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة ، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه ، ولا يرزأ أحدا من أهلها شيئا ؛ فإن لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها ، فما صبروا لكم فتولوهم خيرا ، ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح . وإذا وطئت أرض العدو فأذك العيون بينك وبينهم ، ولا يخف عليك أمرهم ، وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه ؛ فإن الكذوب لا ينفعك خبره وإن صدقك فى بعضه ، والغاش عين عليك، وليس عينا لك ، وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع ، وتبث السرايا بينك وبينهم ، فتقطع السرايا أمدادهم ومرافقهم ، وتتبع الطلائع عوراتهم، وانتق للطلائع أهل الرأى والبأس من أصحابك وتخير لهم سوابق الخيل ؛ فإن لقوا عدوا كان أول ما تلقاهم القوة من رأيك ، واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد والصبر على الجلاد ، ولا تخص بها أحدا بهوى ، فتضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حابيت به أهل خاصتك ، ولا تبعثن طليعة ولا سرية فى وجه تتخوف فيه غلبة أو ضيعة ونكاية ، فإذا عاينت العدو فاضمم إليك أقاصيك وطلائعك وسراياك ، واجمع إليك مكيدتك وقوتك، ثم لا تعاجلهم المناجزة ما لم يستكرهك قتال؛ حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله ، وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها ، فتصنع بعدوك كصنعه بك. ثم أذك على عسكرك ، وتيقظ من البيات جهدك ، ولا تؤتى بأسير له عقد إلا ضربت عنقه لترهب به عدو الله وعدوك . والله ولى أمرك ومن معك وولى النصر لكم على عدوكم والله المستعان .

«و» استعمل معاوية على الصائفة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد فلما كتب

له عهده قال :

ما أنت صانع بعهدى ؟ قال : أتخذه إماما لا أعصيه . قال : اردد إلى عهدى ؛ ثم بعث إلى سفيان بن عوف العامرى فكتب له عهده ثم قال له ؟ ما أنت صانع بعهدى ؟ قال : أتخذه إماما أمام الحزم ؛ فإن خالفه خالفته . فقال معاوية : هذا الذى لا يكفكف من عجلة ، ولا يدفع فى ظهره من خور ، ولا يضرب على الأمور ضرب الجمل الثفال

الخلق القويم فى أهل القلم

رسالة عبد الحميد إلى الكتاب

« أما بعد » حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة ، وحاطكم ووفقكم وأرشدكم — فإن الله عزوجل جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ومن بعد الملائكة المكرمين أصنافا ، وإن كانوا فى الحقيقة سواء ، وصرفهم فى صنوف الصناعات وضروب المحاولات إلى أسباب معاشهم وأبواب أرزاقهم ، فجعلكم معشر الكتاب فى أشرف الجهات أهل الأدب والمروءات والعلم والرزانة ، بكم تنتظم للخلافة محاسنها ، وتستقيم أمورها ، وبنصائحكم يصلح الله للخلق سلطانهم ويعمر بلدانهم ، لا يستغنى الملك عنكم ، ولا يوجد كاف إلا منكم ، موقعكم من الملوك موقع أسماعهم التى بها يسمعون وأبصارهم التى بها يبصرون وألسنتهم التى بها ينطقون وأيديهم التى بها يبطشون ، فأمتعكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم ، ولا نزع عنكم ما أضفاه من النعمة عليكم ، وليس أحد من أهل الصناعات كلها أحوج إلى اجتماع خلال الخير المحمودة وخصال الفضل المعدودة منكم .

أيها الكتاب ، إذا كنتم على ما يأتى هذا الكتاب من صفتكم فإن الكاتب يحتاج من نفسه ويحتاج منه صاحبه الذى يثق به فى مهمات أموره أن يكون حليما

فى موضع الحلم، فهما فى موضع الحكم ، مقداما فى موضع الإقدام، محجامافى موضع الإحجام ، مؤثرا للعفاف والعدل والإنصاف ، كتوما للأسرار ، وفيا عند الشدائد ، عالما بما يأتى من النوازل ، يضع الأمور مواضعها والطوارق فى أماكنها ، قد نظر فى كل فن من فنون العلم فأحكمه ، وإن لم يحكمه أخذ منه بمقدار من الحسن واحتال على صرفه عما يهواه من القبح بألف حيلة وأجمل وسيلة ، وقد علمتم أن سائس البهيمة إذا كان بصيرا بسياستها التمس معرفة أخلاقها : فإن كانت جموحا لم يهجها إذا ركبها،وإن كانت شبوبا اتقاها من بين أيديها ، وإن خاف منها شرورا توقاها من ناحية رأسها ، وإن كانت حرونا قمع هواها فى طرقها ، فإن استمرت عطفها يسيرا،فيسلس له قيادها .

وفى هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعاملهم وجربهم وداخلهم،والكاتب بفضل أدبه وشريف صنعته ولطيف حيلته ومعاملته لمن يحاوره من الناس ويناظره ويفهم عنه أو يخاف سطوته أولى بالرفق لصاحبه ومداراته وتقويم أوده من سائس البهيمة التي لا تحير جوابا ، ولا تعرف صوابا ، ولا تفهم خطابا إلا بقدر ما يصيرها إليه صاحبها الراكب عليها .

ألا فارفقوا رحمكم الله فى النظر ، واعملوا فيه ما أمكنكم من الروية والفكر، تأمنوا بإذن الله ممن صحبتموه النبوة والاستثقال والجفوة ، ويصير منكم إلى الموافقة ، وتصيرون منه إلى المؤاخاة والشفقة إن شاء الله تعالى .

ولا يجاوزن الرجل منكم فى هيئة مجلسه وملبسه ومركبه ومطعمه ومشربه وبنائه وخدمه وغير ذلك من فنون أمره قدر حقه ، فإنكم مع ما فضلكم الله به من شرف صنعتكم خدمة لا تحملون فى خدمتكم على التقصير وحفظة لا تحتمل منكم أفعال التضييع والتبذير . واستعينوا على عفافكم بالقصد فى كل ما ذكرته لكم وقصصته عليكم ، واحذروا متالف السرف وسوء عاقبة الترف ، فإنهما

يعقبان الفقر ويذلان الرقاب، ويفضحان أهلهما ، ولاسيما الكتاب وأرباب الآداب.
وللأمور أشباه وبعضها دليل على بعض ، فاستدلوا على مؤتنف أعمالكم بما سبقت إليه تجربتكم ، ثم اسلكوا من مسالك التدبير أوضحها محجة وأصدقها حجة وأحمدها عاقبة ، واعلموا أن للتدبير آفة متلفة وهو الوصف الشاغل لصاحبه عن إنفاذ علمه ورويته ، فليقصد الرجل منكم فى مجلسه قصد الكافى من منطقه ، وليوجز فى ابتدائه وجوابه ، وليأخذ بمجامع حججه فإن ذلك مصلحة لفعله ومدفعة للشاغل عن إكثاره ، وليضرع إلى الله فى صلة توفيقه وإمداده بتسديده مخافة وقوعه فى الغلط المضر ببدنه وعقله وأدبه؛ فإنه إن ظن منكم ظان أو قال قائل إن الذى برز من جميل صنعته وقوة حركته إنما هو بفضل حيلته وحسن تدبيره فقد تعرض بظنه أو مقالته إلى أن يكله الله عز وجل إلى نفسه ، فيصير منها إلى غير كاف ، وذلك على من تأمله غير خاف . ولا يقول أحد منكم إنه أبصر بالأمور وأحمل لعبء ما يكتنى به ، يعرف بغريزة عقله وحسن أدبه وفضل تجربته مايرد عليه قبل وروده ، وعاقبة مايصدر عنه قبل صدوره ، فيعد لكل أمر عدته وعتاده ، ويهيئ لكل وجه هيئته وعادته ، فتنافسوا يامعشر الكتاب فى صنوف الآداب وتفقهوا فى الدين ، وابدءوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض ثم العربية فإنها ثقاف ألسنتكم ، ثم أجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم ، وارووا الأشعار ، واعرفوا غريبها ومعانيها وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها ؛ فإن ذلك معين لكم على ماتسمو إليه هممكم ، ولاتضيعوا النظر فى الحساب فإنه قوام كتاب الخراج ، وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيها ودنيها وسفساف الأمور [و]محاقرها فإنها مذلة للرقاب مفسدة للكتاب ، ونزهوا صناعتكم عن الدناءة،واربئوا بأنفسكم عن السعاية والنميمة ومافيه أصل الجهالات ، وإياكم والكبر والسخف والعظمة فإنها عداوة مجتلبة من غير إحنة ، وتحابوا فى الله عز وجل فى صناعتكم ، وتواصوا عليها بالذى هو أليق لأهل الفضل والعدل

والنبل من سلفكم ، وإن نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه ، وواسوه حتى يرجع إليه حاله ويثوب إليه أمره ، وإن أقعد أحدا منكم الكبر عن مكسبه ولقاء إخوانه فزوروه وعظموه وشاوروه واستظهروا بفضل تجربته وقديم معرفته ، وليكن الرجل منكم على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته إليه أحوط منه على ولده وأخيه ، فإن عرضت فى الشغل محمدة فلا يصرفها إلا إلى صاحبه وإن عرضت مذمة فليحملها هو من دونه ، وليحذر السقطة والزلة والملل عند تغير الحال ، فإن العيب إليكم معشر الكتاب أسرع منه إلى القراء ، وهو لكم أفسد منه لها ؛ فقد علمتم أن الرجل منكم إذا صحبه من يبذل له من نفسه ما يجب له عليه من حقه فواجب عليه أن يعتقد له من وفائه وشكره واحتماله وخيره ونصيحته وكتمان سره وتدبير أمره ماهو جزاء لحقه ، ويصدق ذلك تبعا له عند الحاجة إليه والاضطرار إلى مالديه .

فاستشعروا ذلك وفقكم الله من أنفسكم فى حالة الرخاء والشدة والحرمان والمؤاساة والإحسان والسراء والضراء ، فنعمت التسمية هذه لمن وسم بها من أهل هذه الصناعة الشريفة .

وإذا ولى الرجل منكم أوصير إليه من أمر خلق الله وعياله أمر فليراقب الله عزوجل ، وليؤثر طاعته ، وليكن على الضعيف رفيقا وللمظلوم منصفا ؛ فإن الخلق عيال الله ، وأحبهم إليه أرفقهم بعياله .

ثم ليكن بالعدل حاكما وللأشراف مكرما وللفىء موفرا وللبلاد عامرا وللرعية متألفا وعن أذاهم متخلفا ، وليكن فى مجلسه متواضعا حليما ، وفى سجلات خراجه واستقصاء حقوقه رفيقا ، وإذا صحب أحدكم رجلا فليختبر خلائقه ، فإذا عرف حسنها وقبيحها أعانه على مايوافقه التدبير من مرافقه فى صناعته ومصاحبه فى خدمته ؛ فإن أعقل الرجلين عند ذوى الألباب من رمى بالعجب وراء ظهره ، ورأى أن صاحبه أعقل منه وأجمل فى طريقته . وعلى كل واحد من

الفريقين أن يعرف فضل نعم الله جل ثناؤه من غير اغترار برأيه ولا تزكية لنفسه ولا تكاثر على أخيه أو نظيره وصاحبه وعشيره .

وحمد الله واجب على الجميع : وذلك بالتواضع لعظمته ، والتذلل لعزته ، والتحدث بنعمته . وأنا أقول فى كتابى هذا ماسبق به المثل : من تلزمه النصيحة يلزمه العمل . وهو جوهر هذا الكتاب وغرة كلامه بعد الذى فيه من ذكر الله عز وجل ، فلذلك جعلته آخره ، وتممته به .

تولانا الله وإياكم معشر الطلبة والكتبة بما يتولى به من سبق علمه بإسعاده وإرشاده ؛ فإن ذلك إليه وبيده . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الخلق القويم فى المحترفين والصناع

إن الصفات الواجب توافرها فى المحترفين والصناع ـ ليكونوا مثلا كاملا ، وقدوة حسنة لغيرهم ، وعنوانًا جميلا ، ومظهراً صالحًا لأمتهم ـ نوعان :

صفات عامة فيهم وفى غيرهم إلا أنها بهم ألصق ، ولهم ألزم .

وصفات خاصة بأصحاب كل حرفة ، تشتهر بينهم ويتسمون بها ، وسنذكر هذه الصفات موضحيها بما يقتضيه المقام :

الصفات العامة

(١) العلم : بالعلم تزكو نفس الصانع ، وتتسع مداركه ، ويستنير عقله ، فتنقشع عنه سحائب الترهات ، وغياهب الخرافات والخزعبلات ، وتتجلى له فى عمله الحقائق ، وتنكشف له فى صنعته الدقائق وخير الطرائق ، فيسير فيها بوثوق العلم واطمئنانه ، يستضىء بنبراسه ، ويقيس بمقياسه ، ويزن بميزانه :

والعلم ميزان الحياة فإن هوى هوت الحياة لأسفل الأدراك

ولسنا الآن بصدد الموازنة بين صانع متعلم ، وآخر جاهل ، ولا بين حال الأول من كونه فى رقى مطرد ، وعيش رغد ، وكون أمته به ذات ثروة وقوة ومنعة ،

وبين حال الآخر من جهل وانحطاط ، وجمود وخمود ، وشظف عيش ، وكون أمته به مدقعة ، وعلى جانب كبير من الضعف والضعة . حقاً لسنا بصدد هـذه الموازنة ؛ فإنها من البداهة بحيث لاتحتاج إلى براهة ، ويكفى أن نقول : « إن الحضارة الراهنة قائمة على الصناعة المبنية على العلم الصحيح ، وإن أكبر حظ من هذه الحضارة للأمم التى للصناع فيها أكبر حظ من التعليم »

(٢) الاعتماد على النفس : باعتماد الصانع على نفسه ينجز أعماله فى وقتها ، ويأتى بها على خير حالاتها ؛ إذ الاعتماد على النفس يستدعى أموراً هامة :

منها الجد مظهر أصحاب النفوس الكبيرة ، والهمم العالية ، وميدان العصاميين الذين بلغوا به إلى ذروة المجد والشرف ولسان حال كل منهم يقول :

مابقومى شرفت بل شرفوا بى وبجـدى سعدت لا بجدودى

ومنها : قوة العزيمة ، والثقة بالنفس ، واحترامها وصونها من التبذل وعـدم التواكل . وثمرة الاعتماد على النفس الاتقان ، والاقتصاد ، والاستقلال ، والسرور. ولو أخذنا نضرب على ذلك الأمثال لطال بنا المقال ، ولكنا نكتفى بالإشارة إلى أقصوصة صغيرة ذات مغزى كبير :

مر فلاح وابنـه على حقل له قد استحصد ، فقال له : « ادع قريبنا فلانا لحصد هـذا الحقل غدا » وكان يقطن هـذا الحقل قبرة وصغارها ، فسمع الصغار مادار من الحديث بين الفلاح وابنه ، فجللهن الحزن ، وعمهن الكدر لقرب زوال مأواهن ، وأخبرن أمهن بذلك ، فسرت عنهن ماحل بهن من الجزع قائلة لهن : « سوف لايحصد غدا » وكان ماقالت ، ومضت مدة ، ومر الفلاح وابنه بالحقل ثانيـة ، ودار بينهما من الحديث مثل مادار فى المرة الأولى ، ويسمع صغار القبرة ويكون بينهن وبين أمهن مثل ما كان فى المرة الأولى . ولما مر الرجل وابنـه بالحقل ثالثة قال له : « يجب أن نأتى غـدا لنحصد قمحنا » فأخبر الصغار أمهن بذلك ، فقالت : « الآن وجب الرحيل ؛ لأن من اعتمد على نفسه جدير أن يبلغ

ما يريد » .

(٣) قوة العزيمة : متى اعتمد الصانع على نفسه ، وباشر عمله ، واعتاد ذلك ـ قويت عزيمته ، وعلت همته ، فـاظهرت لهمزيته ، واتجهت إليـه نيته ـ يمضى فى تنفيذه تواً كالسيف القاطع والبرق اللامع ، لايتردد ولا يتوانى ، ولا يلوى على شيء آخر ، يقلب الأمر على وجوهه ، فإذا تحقق صلاحه عمد إلى إنفاذه ، غيرهياب ولا وجل ؛ فإن الهيبة قرنت بها الخيبة ، والوجل يجر إلى الفشل ، وفساد الأمر فى التردد ، والرأى السديد يحتاج إنفاذه إلى عزيمة من حديد :

إذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة فإن فساد الرأى أن يترددا

حقًا إن الوجود بما قام فيه من شركات كبيرة ، ومشروعات وفيرة ، ومبتكرات خطيرة لمدين لأصحاب العزائم القوية ، والهمم العلية .

(٤) الثقة بالنفس : وإذا قويت عزيمة الصانع ، ولم تنثن عن إتمام ماشرع فيه وسار فى عمله مقتحما العقبات ، متغلبا على العوائق ـ عظمت نفسه فى عينه ، ووثق بها فى عمله ، فيشرع ينقب عن وجوه تحسين صنعته ، ويبحث عن وسائل ترقيتها ، فيحدوه بحثه وتنقيبه إلى الاءتقان ، ثم إلى الافتنان ، ثم الابتكار ، فعمله متجدد ورقيه مطرد .

(٥) تدبير الوقت وتنظيم العمل وترتيب المعمل : الوقت عنصر قوى فى نجاح الصانع وفلاحه إذا أحسن استعماله ، والأمر بالعكس إذا أساء استخدامه أو أهمل الانتفاع به ؛ فإن الوقت سلاح ذو حدين : إذا أحسن استخدامه عظمت فائدته ، وإذا أُسيء استعماله طمت غائلته ، فمن الضرر الخطير أن يترك بلاتدبير، فالصانع الحازم يقسم أوقاته تقسيما كاملا ، ويوزعها على عمله وراحته وأكله ونومه توزيعًا عادلا ، فلا يوالى العمل حتى يضنى جسمه أو يلحقه الكلل ؛ فإن الاستمرار على هذه الحال ضرب من المحال ، كذلك لايملأ وقته باللهو واللعب فإن الراحة لاتعرف حقيقتها ، ولاتدرك لذتها إلا بعد تعب العمل : كما لا يعرف العمل

من لا يعرف الراحة .

فالصانع الذى يدبر وقتـه بحكم عمله يبلغ منه أمله ، وبضدها تتميز الأشياء . وتنظيم العمل توزيعه على أجزاء وقته ؛ فلـكل وقت عمل يلائمه ويختص به لا يقدم عليه ، ولا يؤخر عنه ؛ لأن التقديم يدعو إلى الخلط الذميم ، والتأخير له من اسمه حظ وفير :

ولا أؤخر شغل اليوم عن كسل ... إلى غـد إن يوم العاجزين غد

حقاً يجب ألا يؤخر عمل اليوم إلى الغد ؛ لأن للغد عملا يختص به ، ثم هو لا يتسع لعملين ، فيجر ذلك إلى تراكم الأعمال ، واضطراب الأحوال .

ومن تنظيم العمل توزيعه على العمال بحسب استعدادهم وتعليمهم وتحديد مسئولية كل عامل بنسبة عمله ، والإشراف على ذلك كله إشرافا مباشرا مع العناية التامة بتنظيم الدخل والخرج وضبطهما ضبطا محكما .

وترتيب العمل أمر لا بد منه أيضاً للصانع الذى يبتغى النجاح فى عمله ؛ ليحفظ مصنوعاته من التلف ، ويعرف مكان كل شىء ، ويتبينه بسرعة عند الحاجة إليه ، فيسهل تناوله ، ولا يضيع الوقت فى تداوله :

إن الذى يرتب ... متاعه لا يتعب
فـكل شىء عنـده ... فى موضع أعـده
من غير بحث يجهده ... ولا زمان يفقده

(٦) المثابرة : المثابرة مداومة العمل والدأب فيه بالفعل والفـكر : فالمثابرة الفعلية هى الاستمرار فى العمل وعدم الانقطاع عنه ، والفـكرية هى دوام البحث العلمى فى كل ما يعود على الحرفة بالتقدم والرقى : كأن يـكثر الصانع التجارب فى أنحاء صنعته قصـد التحسين ، أو الوصول إلى وسـيلة توفر الوقت ، أو النفقة أو المجهود ، وكأن يدأب العامل فى قراءة المجلات الفنية الخاصة بمهنته ، ويديم الاتصال بالنهضة العالمية التى ترتبط بعمله بآصرة وثيقة ؛ ليـكون دائم الأهبـة

لكل تجديد يجد فى صنعته ، فالعالم يسير حثيثا إلى الأمام فى جميع وجوه الحياة ومرافق العيش ، فلوأغفل الصانع هذا الاتصال لانقطعت صلته وصلة عمله بالعصر الذى يعيش فيه . لهذا كانت المثابرة من أقدس واجبات الصانع ، بل أقدسها ، ومن أنفس صفات الناجح بل أنفسها : وقد قيل : « إن المثابرة تقوى الذكاء إن كان موجوداً ، وتقوم مقامه إن كان مفقوداً » ولولاها ما نبغ نابغ ولا ألف مؤلف ولا اخترع مخترع ولا استكشف مستكشف . حقاً لولا المثابرة ما رأيت مشروعا عظيما يعود على البلاد باليسر والرخاء ، ولا شاهدت قطاراً يخترق البطحاء ويجوب البيداء ، ولا أبصرت الجوارى كالأعلام تمخر عباب الماء ، أو تشق أجواز الهواء .

(٧) النصيحة (الإخلاص والصدق والأمانة) : النصيحة كلمة تدل على عبارات ، وصفة هى فى الحقيقة مجموع صفات ، وبسط القول فيها يحتاج إلى مجلدات؛ إذ تدل على الإخلاص ، ومن يبتغى النجاح ليس له عنه مناص ، وهو مع قليل من العمل أجدى من الكثير بدونه ؛ فقد قال الرسول الجليل الأكمل : « أَخْلِصْ يُجْزِكَ الْقَلِيلُ مِنَ الْعَمَلِ » وتدل على الصدق الذى هو أساس نجاح الصانع ويكفى أن نقول : إن ذوى المروءة يتخذون الصدق شعاراً لهم ومظهرا لمروءتهم ، ويترفعون عن الكذب ، ويستنكفون أن يوصموا به ، ومن لم يتركه منهم تأثما تركه تكرما .

وتشمل النصيحة أيضا الأمانة فى المشورة ، وكثيرا ما يستشار الصانع والمحترف فى مراتب مصنوعاته ، ولعدم إخلاصه فى المشورة وقع سيئ بعيد الأثر فى نفس الحريف يظهر أثره فى البحث عن صانع آخر له صفة الأمانة .

وكما تكون الأمانة فى المشورة تكون فى الأخذ والعطاء ، ولا شك فى توقف نجاح المحترف على الأمانة فى ذلك توقف الإبصار على الضياء والحياة على الهواء . وبالإجمال إن لزوم النصيحة للحقير من الناس والجليل ، بله العامل والعميل — أمر

لايحتاج إلى إقامة دليل ، فالصانع أو المحترف يحرز من الشهرة والنجاح على قدر مايحرز من هذه الصفات الجليلة ، ويفقد منهما أضعاف مايفقد منها .

(٨) الإتقان : يقول الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم : « إنَّ اللهَ يُحِبُّ إذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلاً أَنْ يُتْقِنَهُ » وقد أخبر الله تعالى فى القرآن الكريم بأنه يحب المحسنين ، ووعد بأنه لايضيع أجر من أحسن عملا ، ووعد الكريم لا يتخلف والإتقان لب العمل ، وروح مجهود العامل ، وإذا انتفى الإتقان وبقى من العمل القشور كان المجهود هباء منثوراً .

والإتقان من ثمرات الاعتماد على النفس ، ولوازم الإخلاص فى العمل ودواعى التأنى فيه ، والعلم بظواهره وخوافيه . والناس فى فحصهم الشىء لاينظرون إلى الزمن الذى استغرقه عمله ، وإنما ينظرون إلى جودة صنعه ، وإحكام وضعه ، وبذا يحكمون للصانع أوعليه ، فيخلعون عليه حلل الفخار ، أويسمونه بسمة الذل والصغار ، وسرعان مايذاع هذا الحكم ، ويتولى الجمهور تنفيذه والعمل بمقتضاه ، وقد يستغل بعض الناس هذا الحكم مستعينا بسذاجة الجمهور ، ويحيد عن الإتقان ، ويبقى الجمهور متأثرا بالحكم الأول ، ولكنه لايلبث ملياً حتى يتنبه للأحبولة ويشعر بالخديعة ، ويستكشف عن الغش ، وحينئذ يصدر الحكم النهائى القاضى على سمعة ذلك الغاش إلى الأبد .

(٩) شيوع المصنوعات فى جميع البلاد والطبقات مما يدعو إلى نجاح الصانع وذيوع شهرته : فيجب أن يكون مايعمله متداولا بين جميع الطبقات لاخاصاً بإحداها ، أويصنع لكل طبقة مايلائم هواها ، ويوافق عادتها ومستواها ، أما اختصاص عمله بإحدى الطبقات فإنه تقييد لنجاحه وتحديد لشهرته ، ويصدق ذلك على الأقطار المختلفة : فلاينبغى له أن يقصر إنتاجه على حاجة قطر دون آخر إلا إذا كان مايصنعه لايتداول إلا فى بلاد بعينها ، ومع ذلك يجب أن يكون المتداول فى البلاد الخاصة فرعاً من العمل ، لا كله ؛ لأن أقل مزاحمة تجارية

فى هذه الحالة تهدده بالكساد والإفلاس : كعمل الطرابيش مثلا : فإن فتح مصنع لها فى مصر قد هدد مصانع النمسا بأوخم العواقب ، ولذلك بذلت مجهودات كبيرة لمحاربة الفكرة التى ترمى إلى إنشاء مصانع مصرية لهذا النوع من غطاء الرأس .

(١٠) إصدار المصنوعات إلى البلاد التى تحتاج إليها : قلنا فيما سبق : إنه يتحتم على الصانع أن يقف على أخبار العالم ، ويتصل بنهضته الصناعية والتجارية للسبب المتقدم ، وليعرف البلاد الغنية عن مصنوعاته ، والتى هى فى حاجة إليها ؛ حتى يصدرها إلى السوق التى يضمن لمصنوعاته فيها رواجا ولتجارته نفاقا ، وإن لم يعن بذلك كل العناية تقهقر ووقع فى الضرر ، وكان : « كناقل التمر إلى هجر » .

(١١) إجادة وسائل الإعلان والجود عليها بالمال الكثير : إن الإعلان من أكبر الوسائل فى نجاح الصناعة والتجارة ، بل لا نكون مخطئين ولا مغالين إذا قلنا : إنه أكبر الوسائل على الإطلاق . أدرك ذلك الأوربيون والأمريكيون ، فجادوا عليه بالمال الوفير ، وألفوا له الشركات الكبيرة ، ولم يدعوا سبيلا من سبله إلا سلكوه ولا بابا من أبوابه إلا ولجوه ، وتفننوا فى ذلك تفننا يبعث الدهشة والإعجاب مما يضطر المرء إلى أن يستوعب الإعلان كل الاستيعاب ، فعاد ذلك عليهم بالمنفعة العظيمة ، والفائدة الجسيمة ، وعمت مصنوعاتهم الأقطار ، وغزت جميع الممالك والأمصار، فراجت عندهم التجارة ، وتقدمت الصناعة ، وكان لهم من ذلك ثروة أى ثروة ومناعة أى مناعة . أما من يبخل بالمال على الإعلان فجدير به أن يطرح فى زوايا النسيان .

(١٢) حسن المعاملة : من المعلوم بداهة أن حسن المعاملة يذلل النفوس الجامحة ، ويقيد العقول الشاردة ويرقق القلوب الغليظة ، ويغرس المحبة وينيل الرغبة ، فقمين بالصانع الحكيم أن يتصف بهذه الصفة السامية ، فيحسن معاملة حرفائه الأعلين الذين

يستورد منهم مواده الغفل ، يصدقهم الوعد ، ولا يماطل فى قضاء ماعليه ، بل يعجل السداد ، ويحسن معاملة حرفائه الأدنين الذين يصدر إليهم مصنوعاته : فيقابلهم بالابتسام ، ويعاملهم بالحلم والأمانة والصدق : « وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ » ويعامل عماله باللين والرفق والعطف والشفقة، والتشجيع بمكافأة المجد ونصيحة المهمل ، وبإعطائهم من الأجور ما يتناسب مع مجهودهم ، وحبذا أن يجعل لهم حظا من الربح، فإن ذلك أدعى إلى إخلاصهم ، وتفانيهم فى العمل، لأن فيه بعثاً للهمة وإحياء للأمل ، وبالإجمال يكون للجميع صديقاً حميماً ، وابناً باراً، وأباً رحيماً .

(١٣) الاجتزاء باليسير من الربح : إن أقل الناس إلماما بالحركة التجارية يدرك أن الاكتفاء بالربح القليل أجدى على التجار والصناع من الغلو فى ذلك ، وبخاصة إذا أضيف إلى الاجتزاء باليسير الإتقان فإن ذلك أدعى إلى استمرار الحركة التجارية والصناعية ، والقليل إلى القليل كثير ؛ وقليل دائم خير من كثير منقطع ، فالصانع الذكى والتاجر البعيد النظر لا يجنحان إلى المغالاة فى الأثمان؛ طلباً للربح الجزيل والثروة العاجلة؛ فإن ذلك لا يأتى إلا بعكس المطلوب .

هذه نظرية بدهية ، وفكرة أولية ، ومع ذلك نرى كثيراً من الصناع والتجار يحيدون عنها ، ويحدوهم جشعهم إلى الإفراط فى تقدير قيم سلعهم ، والغلو فى التمسك بارتفاع أثمان مصنوعاتهم، ويعميهم شرههم عن هذه النظرية ، ويحول بينهم وبين إدراك معنى المزاحمة التجارية، فيقعون فى شر أعمالهم ، ويجنون على أنفسهم بقصر نظرهم .

(١٤) التعاون : إن الباحث فى موضوعنا هذا لا يسعه أن يهمل أو يغفل ما للتعاون فيه من فوائد جلى جلية : فإنه لا يختلف اثنان فى أنه يسهل الأعمال ، ويبلغ أبعد الآمال، بل به ينال ما لا يخطر بالبال : تأمل شعاع الشمس فإن الواحدة

منه ، بل كله متفرقا ــ لا يكاد المرء يشعر به ، وإذا شعر فلا ضرر ، ولكنه إذا اجتمع في بلورة كبيرة كان قوة هائلة تحرق كل ما توجه إليه . وقد وصلت التجارب ببعض الألمان إلى أن يدير بشعاع الشمس الآلات في المصانع مستعيضاً به عن الوقود .

وانظر قطرات المطر : فإن أكبر قطرة أقل من أن تحدث أصغر أثر على وجه البسيطة ، ولكنها إذا اجتمعت كانت سيلا جارفاً أكل ما يعترض سبيله من أشجار وقصور وصخور ، وإن قطرات الماء المؤتلفة في البحار متخذة شكل الموج لتزعج الجوارى المنشآت في البحر كالأعلام ، وتوالى هجماتها على الشواطئ الصخرية ، فتحدث فيها أبلغ الأثر ، وتغير معالم السواحل تغيراً يبقى على الدهر . وهذه شعرات القطن لا تقوى على مقاومة النسيم العليل ، وإذا جمعت كانت غاية في المتانة تشد بها الرحال ، وتجر الأثقال .

كل ذلك وأمثاله لا حصر له جاء من تساند القوى وتعاونها ، فتعاون الضعفاء يحدث لهم قوة يدهش لها الأقوياء ، ويمكنهم من إنفاذ أمور يتعذر على أقوى الأفراد إنفاذها : فها هي ذى الشركات العظيمة التي تقوم بالمشروعات الجسيمة ، ولا يمكن تأليفها إلا بالتعاون ، وكذلك المصانع الضخمة لا تشيد إلا باجتماع رءوس أموال كبيرة لا طاقة لأقوى الأفراد على القيام بها وحده مهما علت قوته ، واتسعت ثروته . وفي المصانع الآلاف من العمال يقومون بأعمال متغايرة ، ولكنها متتامة ، ولا يمكن هذه الأعمال أن تتم إلا بهذا التعاون : فالإبرة مثلا لولا كثرة العمال الذين يتعاورونها ويتعاونون على إتمامها لاستنفدت مجهودا كبيراً واستغرقت وقتاً طويلا وارتفع ثمنها كثيرا عن مستوى طاقة السواد الأعظم ، ولكن بالتعاون نزل ثمنها عن مستوى قدرة أفقر مخلوق على وجه الأرض .

هذه هي الصفات العامة أو أغلب الصفات العامة التي تكون الخلق الكامل في المحترفين والصناع ، وبدهي أننا في بحثنا هذه الصفات قصرناه عليها من حيث الموضوع الذي

نبحثه، أما الكلام عليها، من حيث هي فليس هذا موضعه. (والله تعالى ولى التوفيق)

الصفات الخاصة بكل حرفة

إن عدد حرف العالم وفير جد وفير ، وحصرها مع الصفات الخاصة بكل منها ليس بالأمر اليسير ، بل هو عسير ثم عسير ، وعلى ذلك سنكتفى بإيضاح أمثلة منها تبين المراد ، والله تعالى يتولى السداد :

(ا) التعليم : المثل الكامل فى التعليم هو ذلك المعلم الذى لا يألو جهداً فى تغذية معارفه العلمية والفنية : بكثرة الاطلاع على الكتب والمجلات ، وإدامة الاتصال بأحدث النهضات ، ليجمع بين القديم والحديث ، ويميز بين الطيب والخبيث ، وينير فكره ، ويساير عصره .

ثم لا يدخر وسعا فى تهذيب أخلاق تلاميذه ، وتثقيف عقولهم ، وتوسيع مداركهم ، وتنمية معلوماتهم ، كذلك لا يترك فرصة تمر دون أن يغرس فيهم خلقا نبيلا ، أو يحبب إليهم عملا جليلا ، ويوزع عنايته عليهم توزيعا عادلا ويزين لكل منهم أن يكون لإخوانه مثلا كاملا .

ولا بد أن يكون قدوة حسنة لهم فى كل أحواله ، ومثالا طيبا يحوكون على منواله ، وأن يكون للجميع أبا رحيما ، وأخا كريما ، وصديقا حميما : فيعاملهم بالعطف والشفقة ، واللين والرقة والحرية والصراحة ، مستعملا فى كل ذلك الحزم والحكمة : فيلين فى غير ضعف ، ويشتد فى غير عنف ، ويصارح وهو عف ، كما لا يبخل عليهم بالقسوة إذا ألجأته إليها الضرورة الحافزة :

قسا ليزدجروا ومن يك حازما فليقس أحيانا على من يرحم

مع تمام علمه أن هذه القسوة كالملح فى الطعام : إن وضع المرء منه يسيرا كان بالإصلاح جديرا وإن زاد عكس المراد .

(ب) الطب : الطبيب كالمعلم فى أنه يتحتم عليه أن يمد معلوماته بالزيادة

الدائمة باستمرار اطلاعه على المجلات الطبية والكتب الفنية ، ودوام مراقبته وارتباطه بالحركة العلمية التى تتصل بفنه ؛ لينتفع بتجارب غيره ، ويقف على كل مستحدث فيه ، وليستطيع أن يؤدى واجبه فى الحياة على أفضل وجه . فإذا اتسعت حصاته ، وكملت أدواته ـ تسمع أنين المرضى كل حين ، وأجاب استغاثة الإنسانية فى كل وقت ، وضمد جراحها عند كل طلب ، غير مميز بين غنى وفقير ، ولا بين جليل وحقير ، وغير جاعل كل همه فى الثراء دون العناية بالشفاء ، فلا يضيف إلى المريض آلاما جديدة بالبدء فى المساومة فى الأجر والغلو فى تقديره غلوا كثيرا ما يحول بين المريض وبين العلاج حتى يستعصى الداء ، ولا يجدى بعد ذلك الدواء فتنتشر الأمراض وتعم الأوباء من جراء اشتطاط الأطباء . والواجب أن يكون الأجر على قدر طاقة المريض ، والفقير يعالج احتسابا ، وذو العسرة ينظر إلى الميسرة .

ولا تنس أن للأناة والروية فضلا كبيرا فى استكناه الداء ، والاهتداء إلى ناجع الدواء : كما أن لابتسامة الطبيب فى وجه المريض ، وحسن معاملته إياه ، وإدخاله عليه السرور ـ أثرا جميلا كبيرا ، ووقعا حسنا عظيما فى نفسه ، يخفف كثيرا من آلامه ، ويسرع فى برئه من أسقامه .

وقد قرأت أن أبا بكر الرازى ـ الطبيب العربى المشهور الذى مات من بضع وألف سنة ـ كان ينصح الأطباء بأن يبذلوا ما فى وسعهم لإدخال السرور على نفس المريض ، وإيهامه أن مرضه غير خطير ، وأن صحته جيدة ، وما إلى ذلك من كل ما يدخل الطمأنينة على نفسه ، وينزل السكينة على قلبه ، ولا شك فى أن الطبيب إذا نجح فى هذا الإيهام فقد استغنى عن استعمال كثير من العقاقير ؛ لأن للعقيدة تأثيرا كبيرا فى الصحة . يعرف ذلك جيدا علماء النفس والباحثون فى أمراضها من علماء الأخلاق .

(ج) الدراهة : المدره الذى يصح أن يكون مثلا حسنا هو واسع الاطلاع على القوانين السماوية والوضعية والخلقية والعادات المرعية ، والأحوال الاجتماعية والتقاليد القومية ، كما أنه فى حاجة قصوى إلى الإلمام باللغة والاطلاع على أسرارها ، ليسهل له قيادها ، وتواتيه عباراتها وألفاظها ، فيستطيع أن يجيد التعبير عما فى الضمير ، وإذا كان جهورى الصوت ، حسن الإشارة ، عذب العبارة حاضر البديهة ، سريع الخاطر ، قوى الحجة ، واضح المحجة ، جيد التمثيل — وصل إلى الحق من أقرب سبيل ، ثم هو فى أشد الحاجة إلى نقاء الضمير وطهارة النفس ، فلا يلبى إلا داعى الحق ، ولا يصغى إلا إلى نداء العدالة ، ولا يسير فى قضية إلا إذا اقتنع بما هى عليه من حق وعدل ، ثم لا يشتط بعد ذلك فى تقدير الجعل وهو أيضا شريف لا يدافع إلا عن الشرف والشرفاء ، أمين لا يتفق مع خصوم موكله عليه ، ولا يألو جهداً فى الفحص عن القضية ، والتنقيب فيها عن الأدلة القوية .

(د) الكتابة : خير مثال فى الكتابة هو ذلك الذى درس اللغة وفروعها درسا مبينا وأحاط بأسرارها ودقائقها إحاطة تامة ، فاستوفى بذلك عتادها ، واستكمل أدواتها ، ثم أشربت فى قلبه وامتزجت بلحمه ودمه وعظمه ، ونال بعد ذلك من العلوم قسطا كبيرا ، ومنح من الثقافة حظا وفيرا ، فكان واسع الاطلاع ، طويل الباع ، غزير المادة ، واضح الجادة ، أكثر الناس للغة إتقانا ، وأقومهم لسانا ، وأوضحهم بيانا ، وأكثرهم تصرفا وافتنانا ، وأقواهم فيها برهانا ، سريع البديهة ، بعيد الأناة ، عف اللسان ، ثابت الجنان ، هو معلم لأمته يهذب أخلاقها ، ويرقى عقولها ، ويرشدها إلى الفضيلة ، ويرغبها فى الأعمال الجليلة ، وينير لها السبيل ، ويدلها على الإصلاح بأجلى دليل ، ويدعوها إلى ما يعلى شأنها ، ويعز مكانها . وهو طبيب لأمته أيضا يدلها على الوقاية من الأمراض النفسية والاجتماعية ، ويزهدها فى الأعمال الردية ، ويبين لها مواطن الضعف ، ومواضع

الداء واصفا لها أنجع الدواء ، وكيف تقوى على ماينخر عظامها ، ويهدد بين الأمم مقامها ، وهو فى ذلك خير قدوة وأحسن مثل ، ثم هو مع ذلك مدره بارع لأمته : يدفع عن حوزتها ، ويذب عن بيضتها ، يحمى حماه ، ويجالد عداه ، غير غافل عن إظهار الدسائس السياسية ، ولا متوان عن تفنيد الآراء الرجعية ، يناصر المظلوم ، ويقوى المهضوم ، ويدافع عن الحق ، ولا يخشى لومة لائم ، ويأخذ بيد العدل غير مبال عذل عاذل، (وإذا أتيح له أن يصاحب السلطان يكون ذلك لأمته نعمة لا نقمة ، ورحمة لا عذابا وناصرا للحق لا خاذلا ، ومنشطا للعاملين لا مثبطا)، ثم ينشر على أمته الفينة بعد الفينة من القطع الأدبية الخالدة ما يربى ذوقها ويرقق شعورها ويحيي ضميرها أو يحرك هممها ، ويستثير عواطفها ويستميل قلوبها إلى مواساة بائس أو مساعدة منكوب ، أو يتحفها بما يصور فكرة سامية ، أو عاطفة نبيلة ، أو أثرا خالدا ، أو حادثة مؤثرة ، أو حالة من أحوال الشعب فى عمله وراحته ، وفرحه وترحه ، وجده وهزله أو ما إلى ذلك .

والشاعر فى ذلك كله هو والناثر سيان ، بل كثيرا ما يكون الشاعر أكثر تحريكا للعواطف ، وبعثا للهمم ، وشحذا للأذهان ، واستثارة للأحزان .

وفى رسالة عبد الحميد إلى الكتاب ما يغنى فى هذا الموضوع عن الإطناب ، ويلاحظ هنا أن الصفات الخاصة بكل حرفة ما هى إلا فروع من الصفات العامة ، أو بعبارة أخرى ما هى إلا صور أخرى لها اصطبغت بصبغة خاصة تلائم لون الحرفة التى تضاف إليها. هذا.

ولعل ما ذكرناه من الصفات العامة فى كل الحرف ، والصفات الخاصة ببعض الحرف كاف لإعطاء القارئ فكرة عن «الخلق الكامل فى المحترفين والصناع» وما ينبغى أن يكونوا عليه ؛ حتى يتم لهم النجاح والإقبال ، ويكونوا أسوة لغيرهم ، ومظهرا صالحا لأمتهم ، والله تعالى أعلم .

الخلق القويم فى التاجر

لا يتم للتاجر الخلق القويم إلا إذا اجتمعت فيه الخلال الآتية :

الأولى : ألا يكون محتكرا . والمحتكر من يدخر البضائع ينتظر بها غلاء الأسعار ، وهو ظلم عام وصاحبه مذموم فى الشرع :

روى ابن عمر عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : (مَنِ احْتَكَرَ الطَّعَامَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا فَقَدْ بَرِئَ مِنَ اللهِ وَبَرِئَ اللهُ مِنْهُ . وَقِيلَ فَكَأَنَّما قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا)

وقال صلى الله عليه وسلم مرغبا فى ترك الاحتكار : (مَنْ جَلَبَ طَعَامًا فَبَاعَهُ بِسِعْرِ يَوْمِهِ فَكَأَنَّما تَصَدَّقَ بِهِ) وعن بعض السلف أنه كان بواسط ، فجهز سفينة حنطة إلى البصرة ، وكتب إلى وكيله : بع هذا الطعام يوم يدخل البصرة ، ولا تؤخره إلى غد . فوافق سعة فى السعر ، فقال له التجار : لو أخرته جمعة ربحت فيه أضعافه . فأخره جمعة فربح فيه أمثاله ، وكتب إلى صاحبه بذلك ، فكتب إليه صاحب الطعام : ياهذا إنا كنا قنعنا بربح يسير مع سلامة ديننا ، وإنك قد خالفت ، وما نحب أن نربح أضعافه ، فبذهاب شيء من الدين جنيت علينا جناية ، فإذا أتاك كتابى هذا فخذ المال كله فتصدق به على فقراء البصرة ، وليتنى أنجو من إثم الاحتكار كفافا لا على ولا لى .

الثانية : ألا يروج الزيف من الدراهم فى أثناء النقد لأنه ظلم : قال صلى الله عليه وسلم : (إِنْفَاقُ دِرْهَمٍ زَيْفٍ أَشَدُّ مِنْ سَرِقَةِ مِائَةِ دِرْهَمٍ) لأن السرقة معصية واحدة قد تمت وانقطعت ، وإنفاق الزيف بدعة أظهرها فى الدين وسنة سيئة يعمل بها من بعده فيكون عليه وزرها بعد موته .

وطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه ، والويل لمن يموت وتبقى ذنوبه ، يعذب

بها فى قبره ويسأل عنها: قال تعالى : (وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ) : أى نكتب أيضا ما أخروه من آثار أعمالهم ، كما نكتب ما قدموه . وفى مثله قوله تعالى : (يُنَبَّأُ الإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ) : وإن ما أخر آثار أعماله من سنة سيئة عمل بها غيره

الثالثة : أنه يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، فكل مالو عومل به شق عليه وثقل على قلبه ينبغى ألا يعامل غيره به، بل ينبغى أنه يستوى عنده درهمه ودرهم غيره: قال بعضهم: من باع أخاه شيئا بدرهم وليس يصلح له لو اشتراه لنفسه إلا بخمسة دوانق فإنه قد ترك النصح المأمور به فى المعاملة ، ولم يحب لأخيه ما يحب لنفسه .

الرابعة : ترك الثناء على السلعة بما ليس فيها ؛ فإن وصفه لها بغير مافيها كذب، فإن قبل المشترى ذلك فهو تلبيس وظلم مع كونه كذبا ، وإن لم يقبل فهو كذب وإسقاط مروءة ؛ إذ الكذب الذى يروج قد لا يقدح فى ظاهر المروءة إلا أن يثنى على السلعة بما فيها مما لا يعرفه المشترى من غير مبالغة وإطناب .

ولا ينبغى أن يحلف البتة؛ فإنه إن كان كاذبا جاء باليمين الغموس وهى من الكبائر التى تذر الديار بلاقع ، وإن كان صادقا فقد جعل الله تعالى عرضة لأيمانه وقد أساء فيه ؛ إذ الدنيا أخس من أن يقصد ترويجها بذكر اسم الله من غير ضرورة :

وفى الخبر : ويل للتاجر من والله ، ولا والله ، ويل للصانع من غد ، وبعد غد .

وفى الخبر : اليمين الكاذبة منفقة للسلعة ممحقة للبركة

وروى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : (ثَلاَثَةٌ لاَ يَنْظُرُ اللهُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ : عتلٌّ مُسْتَكْبِرٌ ، وَمَنَّانٌ بِعَطِيَّتِهِ ، وَمُنْفِقٌ سِلْعَتَهُ بِيَمِينِهِ) وقد روى عن يونس بن عبيد وكان خزازا أنه طلب منه خز للشراء، فأخرج غلامه سفط الخز ، ونشره ونظر إليه ، وقال : اللهم ارزقنا

الجنة . فقال لغلامه : رده إلى موضعه. ولم يبعه ، وخاف أن يكون ذلك تعريضا بالثناء على السلعة ، فمثل هؤلاء هم الذين اتجروا فى الدنيا ، ولم يضيعوا دينهم فى تجاراتهم ، بل علموا أن ربح الآخرة أولى بالطلب من ربح الدنيا .

الخامسة : أن يظهر جميع عيوب المبيع خفيها وجليها ولا يكتم منها شيئا ، فذلك واجب ، فإن أخفاه كان ظالما غاشا والغش حرام ، وكان تاركا للنصح فى المعاملة والنصح واجب ، ومتى أظهر أحسن وجهى السلعة وأخفى الثانى كان غاشا ، وكذلك إذا عرض السلعة فى المواضع المظلمة .

وروى فى تحريم الغش : (أَنَّهُ مَرَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِرَجُلٍ يَبِيعُ طَعَامًا فَأَعْجَبَهُ فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهِ فَرَأَى بَلَلاً فَقَالَ مَا هذَا ؟ قَالَ أَصابته السَّماء . فَقَالَ فَهَلاَّ جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ حَتَّى يَرَاهُ النَّاسُ ؟ مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا) .

ويدل على وجوب النصح بإظهار العيوب ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بايع جريرا على الإسلام ذهب لينصرف ، فجذب ثوبه ، واشترط عليه النصح لكل مسلم ، فكان جرير إذا قام إلى السلعة يبيعها بصر عيوبها ، ثم خيره ، وقال : إن شئت فخذ ، وإن شئت فاترك . فقيل له : إنك إذا فعلت مثل هذا لم ينفذ لك بيع. فقال : إنا بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على النصح لكل مسلم .

وكان واثلة بن الأسقع واقفا ، فباع رجل ناقة له بثلثمائة درهم ، وذهب المشترى بالناقة فسعى واثلة وراءه ، وجعل يصيح به : ياهذا ، اشتريتها للحم ، أو للظهر ؟ فقال : بل للظهر . فقال : إن بخفها ثقبا قد رأيته ، وإنها تتابع السير .. فعاد فردها ، فنقصها البائع مائة درهم ، وقال ، لواثلة : رحمك الله أفسدت على بيعى . فقال : إنا بايعنا رسول الله على النصح لكل مسلم .

وقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (لاَ يَحِلُّ لأَحَدٍ يَبِيعُ بَيْعًا

إلاَّ أنْ يُبَيِّنَ آفَتَهُ وَلاَ يَحِلُّ لِمَنْ يَعْلَمُ ذَلِكَ إلاَّ تَبْيِينُهُ)
فقد فهموا من النصح أنه لا يرضى لأخيه إلا ما يرضاه لنفسه ، ولم يعتقدوا أن ذلك من الفضائل وزيادة المقامات ، بل اعتقدوه أنه من شروط الإسلام الداخلة تحت بيعهم . وهذا أمر يشق على أكثر الخلق . فلذلك يختارون العبادة والاعتزال عن الناس لأن القيام بحقوق الله مع المخالطة والمعاملة مجاهدة لا يقوم بها إلا الصديقون ، ولن يتيسر ذلك على العبد إلا بأن يعتقد أمرين : أحدهما : أن تلبيسه العيوب وترويجه السلع لا يزيد فى رزقه ، بل يمحقه ويذهب ببركته وما يجمعه من مفرقات التلبيسات يهلكه الله دفعة واحدة :

فقد حكى أن واحداً كان له بقرة ، يحلبها ويخلط بلبنها الماء ويبيعه ، فجاء سيل ، فأغرق البقرة ، فقال بعض أولاده : إن تلك المياه المتفرقة التى صببناها فى اللبن اجتمعت دفعة واحدة وأخذت البقرة ! !

كيف وقد قال صلى الله عليه وسلم: (البَيِّعَانِ إذَا صَدَقَا وَنَصَحَا بُورِكَ لَهُمَا فِى بَيْعِهِما ، وَإذَا كَتَمَا وَكَذَبَا نُزِعَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا).
وفى الحديث : (يَدُ اللهِ عَلَى الشَّرِيكَيْنِ مَا لَمْ يَتَخَاوَنَا ، فَإذا تَخَاوَنَا رَفَعَ يَدَهُ عَنْهُمَا) فإذاً لا يزيد مال من خيانة كما لا ينقص من صدقة ، ومن لا يعرف الزيادة والنقصان إلا بالميزان لم يصدق بهذا الحديث ، ومن عرف أن القرش الواحد قد يبارك فيه حتى يكون سببا لسعادة الإنسان فى الدنيا وفى الدين ، وأن عشرات المئات قد ينزع الله البركة منها حتى تكون سببا لهلاك مالكها بحيث يتمنى الإفلاس منها ، ويراه أصلح له فى بعض أحواله — عرف معنى قولنا : إن الخيانة لا تزيد فى المال ، والصدقة لا تنقص فيه .

والمعنى الثانى الذى لا بد من اعتقاده ليتم له النصح ، ويتيسر عليه : أن يعلم أن ربح الآخرة وغناها خير من ربح الدنيا ، وأن فوائد أموال الدنيا تنقضى بانقضاء العمر ، وتبقى مظالمها وأوزارها فكيف يستخير العاقل أن يستبدل الذى هو

أدنى بالذى هو خير والخير كله فى سلامة الدين ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(لاَ تَزَالُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ تَدْفَعُ عَنِ الْخَلْقِ سُخْطَ اللهِ مَالَمْ يُؤْثِرُوا مَنْفَعَةَ دُنْيَاهُمْ عَلَى آخِرَتِهِمْ) وفى لفظ آخر : (مَا لَمْ يُبَالُوا مَا نَقص مِنْ دِينِهِمْ بِسَلاَمَةِ دُنْيَاهُمْ ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ وَقَالُوا لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ قَالَ اللهُ تَعَالَى كَذَبْتُمْ لَسْتُمْ بِهَا صَادِقِينَ »

وفى حديث آخر : (مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ مُخْلِصاً دَخَلَ الْجَنَّةَ قِيلَ وَمَا إِخْلاَصُهُ قَالَ أَنْ يَحْجِزَهُ عَمَّا حَرَّمَ اللهُ) وقال أيضا : (مَا آمَنَ بِالْقُرْآنِ مَنِ اسْتَحَلَّ مَحَارِمَهُ) ومن علم أن هذه الأمور قادحة فى إيمانه وأن إيمانه رأس ماله فى تجارته فى الآخرة لم يضيع رأس ماله المعد لعمر لا آخر له بسبب ربح ينتفع به أياما معدودة .

وعن بعض التابعين أنه قال : لو دخلت الجامع وهو غاص بأهله وقيل لى : من خير هؤلاء ـ لقلت ـ من أنصحهم لهم . فإذا قالوا : هذا ـ قلت : هو خيرهم. ولو قيل لى : من شرهم ؟ قلت : من أغشهم لهم فإذا قيل : هذا — قلت : هو شرهم .

والغش حرام فى البيوع والصنائع جميعا ، ولا ينبغى أن يتهاون الصانع بعمله على وجه لو عامل به غيره ما ارتضاه لنفسه، بل ينبغى أن يحسن الصنعة ويحكمها ثم يبين عيبها إن كان فيها عيب ؛ فبذلك يتخلص .

السادسة : ألا يطغى فى الكيل والميزان : قال الله تعالى : (وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ) : وذلك بأن يرجح إذا أعطى ، وينقص إذا أخذ ؛ إذ العدل الحقيقى قلما يتصور ، فليستظهر ظهور الزيادة والنقصان ، فإن من استقصى حقه بكماله يوشك أن يتعداه . وكان بعضهم يقول: لا أشترى الويل من الله بحبة فكان إذا

أخذ نقص نصف حبة وإذا أعطى زاد حبة . وكان يقول : ويل لمن باع بحبة جنةً عرضها السموات والأرض! وماأخسر من باع طوبى بويل ! وإنما بالغوا في الاحتراز من هذا وشبهه لأنها مظالم يتعذر التوبة منها ؛ إذ لا يعرف أصحاب الحبات حتى يجمعوا وتؤدى حقوقهم

وجملة القول أن كل من ينتصف لنفسه من غيره ولو في كلة ولا ينصفُ بمثل ما ينتصف فهو داخل تحت قوله تعالى: (وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ) الآيات ؛ فإن تحريم ذلك في الكيل ليس لكونه مكيلا ، بل لكونه أمرا مقصودا ترك العدل والنصفة فيه فهو جار في جميع الأعمال: فصاحب الميزان في خطر الويل ، وكل مكلف فهو صاحب موازين في أفعاله وأقواله وخطراته ، فالويل له إن عدل عن العدل ، ومال عن الاستقامة .

السابعة : أن يصدق في سعر الوقت ولا يخفى منه شيئا ؛ فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النجش وهو أن يقدم البائع بين يدي الراغب المشتري ويطلب السلعة بزيادة وهو لا يريدها ، وإنما يريد تحريك رغبة المشتري فيها مواطأة ؛ فهذا من الغش الحرام المضاد للنصح الواجب :

فقد حكى عن رجل من التابعين أنه كان بالبصرة وله غلام بالسوس يجهز إليه السكر ؛ فكتب إليه غلامه : إن قصب السكر قد أصابته آفة في هذه السنة فاشتر السكر . قال : فاشترى سكرا كثيرا ، ولما جاء وقته ربح فيه ثلاثين ألفا ، فانصرف إلى منزله ، وفكر ليلته ، فقال: ربحت ثلاثين ألفا وخسرت نصح رجل من المسلمين . فلما أصبح غدا إلى بائع السكر ، ودفع إليه ثلاثين ألفا ، وقال: بارك الله لك فيها. فقال : ومن أين صارت لي ؟ فقال : إني كتمتك حقيقة الحال، وكان السكر قد غلا في ذلك الوقت . فقال : رحمك الله ، فقد أعلمتني الآن، وقد طيبتها لك . قال : فرجع بها إلى منزله ، وتفكر وبات ساهرا ، وقال : ما نصحت ، فلعله استحيا مني ، فتركها لي ، فبكر من الغد ، وقال : عافاك الله

خذ مالك إليك فهو أطيب لقلبى . فأخذ ثلاثين ألفا .

فهذه الأخبار فى المتاجرة والحكايات تدل على أنه ليس للتاجر أن ينتهز غفلة الجمهور ؛ فإن فعل ذلك كان ظالما تاركا للعدل والنصح لعباد الله .

الثامنة : الإحسان فى المعاملة :

لا ينبغى للمتدين أن يقتصر ها على العدل واجتناب الظلم ويدع أبواب الإحسان وقد قال الله : (وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ) وقال عز وجل : (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ) وقال سبحانه : (إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ): ونعنى بالإحسان فعل ما ينتفع به العامل وهو غير واجب عليه ، ولكنه تفضل منه ؛ فإن الواجب يدخل فى باب العدل وترك الظلم ؟ وقد ذكرناه .

وتنال رتبة الإحسان بواحد من ستة أمور :

١ — فى المغابنة : فينبغى أن لا يغبن صاحبه بما لا يتغابن به فى العادة ؛ فأما أصل المغابنة فمأذون فيه لأن البيع للربح ، ولا يمكن ذلك إلا بغبن ، ولكن يراعى فيه التقريب ؛ فإن بذل المشترى زيادة على الربح المعتاد لشدة رغبته أو لشدة حاجته وجب أن يمتنع من قبولها ، وذلك هو الإحسان ، ومتى لم يكن تلبيس لم يكن أخذ الزيادة ظلما :

يروى أنه كان عند يونس بن عبيد حلل مختلفة الأثمان جعل منها قيمة كل حلة أربعمائة ، وجعل منها قيمة كل حلة مائتين ، فذهب إلى الصلاة وخلف ابن أخيه فى (الدكان) ، فجاء أعرابى ، وطلب حلة بأربعمائة ، فعرض عليه من حلل المائتين ، فاستحسنها ، ورضيها ، فاشتراها ، فمشى بها وهى على يديه ، فاستقبله يونس ، فعرف حلته ، فقال للأعرابى : بكم اشتريت ؟ فقال : بأربعمائة . فقال : لا تساوى أكثر من مائتين . فارجع حتى تردها . فقال : هذه تساوى فى بلدنا خمسمائة ، وأنا أرتضيها . فقال له يونس : انصرف فإن النصح فى الدين خير من الدنيا بما فيها . ثم رده إلى

(الدكان) ، ورد عليه مائتى درهم ، وخاصم ابن أخيه فى ذلك وقاتله ، وقال له : أما استحييت ؟ أما اتقيت الله ؟ تربح مثل الثمن وتترك النصح للمسلمين !! فقال: والله ما أخذها إلا وهو راض بها . قال : أفلا رضيت له بما ترضاه لنفسك ؟ أما وإن كان فى هذا إخفاء سعر وتلبيس فهو من باب الظلم : ففى الحديث : (غَبْنُ الْمُسْتَرْسِلِ حَرَامٌ) وكان الزبير بن على يقول : أدركت ثمانية عشر من الصحابة ما منهم أحد يحسن أن يشترى لحما بدرهم ، فَغَبْنُ مثلِ هؤلاء المسترسلين ظلم وإن كان من غير تلبيس فهو من ترك الإحسان ، وقلما يتم هذا إلا بنوع تلبيس ، وإنما الإحسان المحض ما نقل عن السرى السقطى أنه اشترى كُرَّ لَوْزٍ بستين ديناراً وكتب فى ثلاثة دنانير ربحه ، وكأنه رأى أن يربح على العشرة نصف دينار ، ثم صار اللوز بتسعين ، فأتاه الدلال ، وطلب اللوز ، فقال : خذه . قال : بكم ؟ فقال بثلاثة وستين . فقال الدلال وكان من الصالحين : قد صار اللوز بتسعين . فقال السرى: قد عقدت عقدا لا أحله ، لست أبيعه إلا بثلاثة وستين . فقال : وإذا عقدت بينى وبين الله ألا أغبن مسلما فلست آخذ منك إلا بتسعين . قال : فلا الدلال اشترى منه ولا السرى باعه فهذا محض الإحسان من الجانبين .

على أن من قنع بربح قليل كثرت معاملته ، واستفاد من تكررها ربحا كثيرا: كان على رضى الله عنه يدور فى سوق الكوفة بالدرة ، ويقول: معاشر التجار، خذوا الحق وأعطوا الحق تسلموا. لا تردوا قليل الربح فتحرموا كثيره . قيل لعبد الرحمن ابن عوف رضى الله عنه : ما سبب يسارك ؟ قال : ثلاث : ما رددت ربحا قط ، ولا طلب منى حيوان وأخرت بيعه ، ولا بعت بنسيئة .

٢ ــــ احتمال الغبن : والمشترى إن اشترى طعاما من ضعيف أو شيئا من فقير فلا بأس أن يحتمل الغبن ويتساهل ويكون به محسنا وداخلا فى قوله عليه السلام : (رَحِمَ اللهُ امْرَأً سَهْلَ الْبَيْعِ سَهْلَ الشِّرَاءِ) فأما إذا اشترى من غنى يطلب الربح زيادة على حاجته فاحتمال الغبن فيه ليس محمودا ، بل هو تضييع مال من غير

أجر ولاحمد : فقدورد فى حديث من طريق أهل البيت : (الْمَغْبُونُ فِي الشِّرَاءِ لاَ مَحْمُودٌ وَلاَ مَأْجُورٌ) .

وكان إلياس بن معاوية بن قرة قاضى البصرة ، وكان من عقلاء التابعين ــ يقول: لست بخب والخب لا يخدعنى . ووصف بعضهم عمر رضى الله عنه فقال : كان أكرم من أن يَخدع وأعقل من أن يُخدع . وكان الحسن والحسين وغيرهما من خيار السلف يستقصون فى الشراء ثم يهبون مع ذلك الجزيل من المال فقيل لبعضهم: تستقصى فى شرائك على اليسير ثم تهب الكثير ولا تبالى! فقال: إن الواهب يعطى فضله ، وإن المغبون يغبن عقله .

٣ ــ استيفاء الثمن وسائر الديون والإحسان فيه : مرة بالمسامحة وحط البعض ومرة بالإمهال والتأخير ، ومرة بالمساهلة فى طلب جودة النقد . وكل ذلك مندوب إليه ومحثوث عليه: قال النبى صلى الله عليه وسلم: (رَحِمَ اللهُ امْرَأً سَهْلَ الْبَيْعِ سَهْلَ الشِّرَاءِ سَهْلَ الْقَضَاءِ، سَهْلَ الاقْتِضَاءِ) فليغتنم دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم .

ونظر النبى صلى الله عليه وسلم إلى رجل يلازم رجلا، فأومأ إلى صاحب الدين بيده أن ضع الشطط ففعل فقال للمدين: قم فأعطه . وكل من باع شيئا وترك ثمنه فى الحال ولم يرهق إلى طلبه فهو فى معنى المقرض : روى أن الحسن البصرى باع بغلة له بأربعمائة درهم فلما استوجب المال قال له المشترى : اسمح يا أبا سعيد . قال : قد أسقطت عنك مائة . قال له : فأحسن يا أبا سعيد . فقال : فقال قد وهبت لك مائة أخرى . فقبض من حقه مائتى درهم ، فقيل له : يا أباسعيد هذا نصف الثمن . فقال : هكذا يكون الإحسان وإلا فلا . وفى الخبر : خذ حقك فى كفاف وعفاف ، وافيا أو غير واف ــ يحاسبك الله حسابا يسيرا .

٤ ــ توفية الدين ، ومن الإحسان فيه حسن القضاء : وذلك بأن يمشى إلى صاحب الحق ، ولا يكلفه أن يمشى إليه يتقاضاه : فقد قال صلى الله عليه وسلم : (خَيْرُكُمْ أَحْسَنُكُمْ قَضَاءً) ومهما قدر على قضاء الدين فليبادر إليه، ولو قبل

وفته ، وليسلم أجود مماشرط عليه وأحسن ، وإن عجز فلينو قضاءه متى قدر : قال صلى الله عليه وآله وسلم : (مَنِ ادَّانَ دَيْناً وَهُوَ يَنْوِي قَضَاءَهُ وَكَّلَ اللهُ بِهِ مَلَائِكَةً يَحْفَظُونَهُ وَيَدْعُونَ لَهُ حَتَّى يَقْضِيَ) ومهما كلمه صاحب الحق بكلام خشن فليتحمله وليقابله باللطف اقتداء برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ جاءه صاحب الدين عند حلول الأجل ولم يكن قد اتفق قضاؤه ، فجعل الرجل يشدد الكلام على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فهم به أصحابه ، فقال : دعوه ؛ فإن لصاحب الحق مقالا . ومهما دار الكلام بين المستقرض والمقرض فالإحسان أن يكون الميل الأكثر للمتوسطين إلى من عليه الدين ؛ فإن المقرض يقرض عن غني ، والمستقرض يستقرض عن حاجة .

(٥) أن يقيل من يستقيله: فإنه لا يستقيل إلا متندم مستضر بالبيع ، ولا ينبغى أن يرضى لنفسه أن يكون سبب استضرار أخيه : قال صلى الله عليه وسلم : (مَنْ أَقَالَ نَادِماً أَقَالَ اللهُ عَثْرَتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(٦) أن يقتصد فى معاملته جماعة من الفقراء بالنسيئة وهو عازم على ألا يطالبهم إن لم تظهر لهم ميسرة ، وبالجملة التجارة محك الرجال وبها يمتحن دين الرجل وورعه ولذلك قيل : إذا أثنى على الرجل جيرانه فى الحضر ، وأصحابه فى السفر ، ومعاملوه فى الأسواق ـ فلا تشكوا فى صلاحه .

وشهد عند عمر رضى الله عنه شاهد فقال : ائتنى بمن يعرفك . فأتاه برجل ، فأثنى عليه خيرا ، فقال له عمر : أنت جاره الأدنى الذى يعرف مدخله ومخرجه . قال : لا . فقال : كنت رفيقه فى السفر الذى يستدل به على مكارم الأخلاق . فقال : لا . قال : فعاملته بالدينار والدرهم الذى يستبين به ورع الرجل . قال : لا . قال : أظنك رأيته قائما فى المسجد يهمهم بالقرآن يخفض رأسه طورا ويرفعه

أخرى قال : نعم : فقال : اذهب ؛ فلست تعرفه ، وقال للرجل : اذهب فأتنى بمن يعرفك .

ولا ينبغى للتاجر أن يشغله معاشه عن معاده ، فيكون عمره ضائعا ، وصفقته خاسرة ، وما يفوته من الربح فى الآخرة لا يفى به ماينال فى الدنيا ، فيكون ممن اشترى الحياة الدنيا بالآخرة ، بل العاقل ينبغى أن يشفق على نفسه ، وشفقته على نفسه بحفظ رأس ماله ، ورأس ماله دينه وتجارته فيه : قال بعض السلف : أولى الأشياء بالعاقل أحوجه إليه فى العاجل ، وأحوج شىء إليه فى العاجل أحمده عاقبة فى الآجل .

وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه فى وصيته : إنه لا بد لك من نصيبك فى الدنيا ، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوج ، فابدأ بنصيبك من الآخرة فخذه : قال الله تعالى : (وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا) : أى لا تنس فى الدنيا نصيبك منها للآخرة ؛ فإنها مزرعة الآخرة ، وفيها تكتسب الحسنات ، وإنما تتم شفقة التاجر على دينه بمراعاة خمسة أمور :

الأول : حسن النية والعقيدة فى ابتداء التجارة ، فلينو بها الاستعفاف عن السؤال وكف الطمع عن الناس استغناء بالحلال عنهم واستعانة بما يكسبه على الدين وقياما بكفاية العيال ؛ ليكون من جملة المجاهدين به . ولينو النصح للمسلمين وأن يحب لسائر الخلق مايحب لنفسه ، ولينو اتباع طريق العدل والإحسان فى معاملته ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر فى كل ما يراه فى السوق فإذا أضمر هذه العقائد والنيات كان عاملا فى طريق الآخرة ، فإن استفاد مالا فهو مزيد ، وإن خسر فى الدنيا ربح الآخرة .

الثانى : أن يقصد القيام فى صنعته أو تجارته بفرض من فروض الكفايات ؛ فإن الصناعات والتجارات لو تركت بطلت المعايش وهلك أكثر الخلق . ولو

أقبل كلهم على صنعة واحدة لتعطلت البواقى وهلكوا ، وعلى هذا جهل بعض الناس قوله صلى الله عليه وسلم : (اخْتِلَافُ أُمَّتِى رَحْمَةٌ) : أى اختلاف هممهم فى الصناعات والحرف .

ومن الصناعات ماهى مهمة ، ومنها ما يستغنى عنها لرجوعها إلى طلب التنعم والتزين فى الدنيا ، فليشتغل فى صناعة مهمة ليكون فى قيامه بها كافيا عن المسلمين مهمافى الدين ، فأماعمل الملاهى والآلات التى يحرم استعمالها فاجتناب ذلك من قبيل ترك الظلم : ومن جملة ذلك خياطة الخياط القباء من الإبريسم للرجال ، وصياغة الصائغ مراكب الذهب أوخواتيم الذهب للرجال ؛ فكل ذلك من المعاصى والأجرة المأخوذة عليه حرام ، وبيع الأكفان مكروه لأنه يوجب انتظار موت الناس وحاجتهم بغلاء السعر ، ويكره الصرف لان الاحتراز فيه عن دقائق الربا عسير ؛ فقلما يسلم الصيرفى وإن احتاط ، ويكره للصيرفى وغيره كسر الصحيح والدنانير إلا عند الشك فى جودته أوعند ضرورة .

واستحبوا تجارة البر : قال سعيد بن مسيب : مامن تجارة أحب إلىّ من البر مالم يكن فيها أيمان .

وقد كان غالب أعمال الأخيار من السلف عشر صنائع : الخرز ، والتجارة ، والحمل ، والخياطة ، والحذو ، والقصارة ، وعمل الخفاف ، والحديد ، وعمل المغازل ، ومعالجة صيد البر والبحر ، والوراقة :

قال عبدالوهاب الوراق : قال لى أحمد بن حنبل : ماصنعتك ؟ قلت : الوراقة . قال : كسب طيب ، ولو كنت صانعا بيدى لصنعت صنعتك ، ثم قال لى : لاتكتب إلا مواسطة ، واستبق الحواشى وظهور الأجزاء .

وكره السلف أخذ الأجرة على كل ما هو من قبيل العبادات ، وفروض الكفايات : كغسل الموتى ودفنهم ، وكذا الأذان ، وصلاة التراويح ، وإن حكم بصحة الاستئجار عليه ، وكذا تعليم القرآن ، وتعليم علم الشرع ؛ فإن هذه

أعمال حقها أن يتجر فيها للآخرة ، وأخذ الأجرة عليها استبدال بالدنيا عن الآخرة ، ولا يستحب ذلك .

الثالث : ألا يمنعه سوق الدنيا عن سوق الآخرة ، وأسواق الآخرة المساجد : قال الله تعالى : « رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ » وقال الله تعالى : « فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ »

وكان عمر رضى الله عنه يقول للتجار : اجعلوا أول نهاركم لآخرتكم ، ومابعده لدنياكم ، وكان صالحو السلف يجعلون أول النهار وآخره للآخرة والوسط للتجارة .

وفى الخبر : تلتقى ملائكة الليل والنهار عند طلوع الفجر وعند صلاة العصر ، فيقول الله تعالى ، وهو أعلم بهم : كيف تركتم عبادى؟فيقولون : تركناهم وهم يصلون ، وجئناهم وهم يصلون . فيقول الله سبحانه وتعالى : أشهدكم أنى قد غفرت لهم .

والأولى لمن سمع الأذان فى وسط النهار ألا يعرج على شغل ، وينزعج عن مكانه ، ويدع كل ما كان فيه ؛ فما يفوته من فضيلة التكبيرة الأولى مع الإمام فى أول الوقت لاتوازيها الدنيا بما فيها ، وقد كان السلف يبتدرون عند الأذان ويخلون الأسواق للصبيان وأهل الذمة ، وكانوا يستأجرون بالقراريط لحفظ الحوانيت فى أوقات الصلوات ، وكان ذلك معيشة لهم : وقد جاء فى تفسير قوله تعالى: (لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ) ـ أنهم كانوا حدادين وخرازين ، فكان أحدهم إذا رفع المطرقة ، أوخرز الأشفى ، فسمع الأذان لم يخرج الأشفى فى المغرز ، ولم يوقع المطرقة ورمى بها ، وقام إلى الصلاة .

الرابع : ألا يقتصر على هذا ، بل يلازم ذكر الله سبحانه وتعالى فى السوق ويشتغل بالتهليل والتسبيح ؛ فذكر الله فى السوق بين الغافلين أفضل .

وكان ابن عمر وسالم بن عبدالله ومحمد بن واسع وغيرهم يدخلون السوق قاصدين لنيل فضيلة هذا الذكر .

وقال الحسن : ذاكر الله فى السوق يجىء يوم القيامة له ضوء كضوء القمر ، وبرهان كبرهان الشمس ، ومن استغفر الله فى السوق غفر الله له بعدد أهلها .

وكان عمر رضى الله عنه إذا دخل السوق قال : اللهم إنى أعوذ بك من الكفر والفسوق ومن شر ما أحاطت به السوق ، اللهم إنى أعوذ بك من يمين فاجرة ، وصفقة خاسرة .

وقال أبو جعفر الفرغانى : كنا يوما عند الجنيد فجرى ذكر ناس يجلسون فى المساجد ، ويتشبهون بالصوفية ، ويقصرون عما يجب عليهم من حق الجلوس ، ويعيبون من يدخل السوق ، فقال الجنيد : كم ممن هو فى السوق حكمه أن يدخل المسجد ويأخذ بأذن بعض من فيه فيخرجه ويجلس مكانه .

الخامس : ألا يقتصر على اجتناب الحرام ، بل يتقى مواقع الشبهات ، ومظان الريب ولا ينظر إلى الفتاوى ، بل يستفتى قلبه ، فإذا وجد فيه حزازة اجتنبه ، وإذا حمل إليه سلعة رابه أمرها سأل عنها ، حتى يعرف وإلا أكل الشبهة .

وقد حمل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لبن ، فقال : من أين لكم هذا ؟ فقالوا : من الشاة . فقال : ومن أين لكم هذه الشاة ؟ فقيل : من موضع كذا . فشرب منه ، ثم قال : إنا معاشر الأنبياء أُمرنا ألا نأكل إلا طيبا ، ولا نعمل إلا صالحا .

وقال : إن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) . وقد سأل النبى صلى الله عليه وآله وسلم عن أصل الشىء وأصل أصله ولم يزد ، لأن ماوراء ذلك يتضرر

منه ، وسنبيّن فى كتاب الحلال والحرام موضع وجوب هذا السؤال ؛ فإنه كان عليه السلام لا يسأل عن كل ما يحمل إليه .

وإنما الواجب أن ينظر التاجر إلى من يعامله فكل منسوب إلى ظلم أو خيانة أو ربا أو سرقة فلا يعامله ، وكذا الأجناد والظلمة لا يعاملهم البتة ، ولا يعامل أصحابهم ؛ لأنه معين بذلك على الظلم

أهل الخلق القويم كما وصفهم الامام على كرم الله وجهه

روى أن صاحبا لأمير المؤمنين على رضي الله عنه يقال له همام — كان عابدا ، فقال له : ياأمير المؤمنين ، صف لى المتقين حتى كأنى أنظر إليهم. فتثاقل على كرم الله وجهه من جوابه ثم قال : ياهمام ، اتق الله وأحسن فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . فلم يقنع همام بهذا القول حتى عزم عليه ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

أما بعد فإن الله سبحانه خلق الخلق حين خلقهم غنيا عن طاعتهم آمنا من معصيتهم ؛ لأنه لا تضره معصية من عصاه ، ولا تنفعه طاعة من أطاعه . فقسم بينهم معيشتهم ، ووضعهم من الدنيا مواضعهم ، فالمتقون فيها هم أهل الفضائل ، منطقهم الصواب ، وملبسهم (١) الاقتصاد ، ومشيهم التواضع ، غضوا أبصارهم عما حرم الله عليهم ، ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم ، نزلت أنفسهم منهم

---

(١) ملبسهم الخ : أى أنهم لا يأتون من شهواتهم إلا بقدر حاجتهم فى تقويم حياتهم فكان الانفاق كثوب لهم على قدر أبدانهم ، لكنهم يتوسعون فى الخيرات .

فى البلاء كالذى نزلت فى الرخاء (١) ولولا الأجل الذى كتب عليهم لم تستقر أرواحهم فى أجسادهم طرفة عين شوقا إلى الثواب وخوفا من العقاب .

عظم الخالق فى أنفسهم فصغر مادونه فى أعينهم ، فهم والجنة كمن قد رآها (٢) فهم فيها منعمون ، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذبون ، قلوبهم محزونة ، وشرورهم مأمونة ، وأجسادهم نحيفة (٣) ، وحاجاتهم خفيفة ، وأنفسهم عفيفة صبروا أياما قصيرة أعقبتهم راحةً طويلة ، تجارة مربحة (٤) يسرها لهم ربهم ، أرادتهم الدنيا فلم يريدوها ، وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها ،

أما الليل فصافون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن يرتلون ترتيلا :

يحزنون أنفسهم ، ويستثيرون دواء دائهم (٥) ، فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعا ، وتطلعت نفوسهم إليها شوقا ، وظنوا أنها نصب أعينهم ، وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم ، وظنوا أن زفير جهنم وشهيقها فى أصول آذانهم (٦) ، فهم حانون على أوساطهم ، مفترشون لجباههم

---

(١) نزلت الخ : أى أنهم إذا كانوا فى بلاء كانوا بالأمل فى الله كأنهم كانوا فى رخاء لا يجزعون ولا يهنون ، وإذا كانوا فى رخاء كانوا من خوف الله وحذر النقمة كأنهم فى بلاء لا يبطرون ولا يتجبرون . (٢) أى هم على يقين من الجنة والنار كيقين من رآهما فكأنهم فى نعيم الأولى وعذاب الثانية رجاء وخوفا . (٣) نحافة أجسادهم من الفكر فى صلاح دينهم والقيام بما يجب عليهم له . (٤) يقال : أربحت التجارة إذا أفادت ربحا . (٥) استثار الساكن هيجه ، وقارئ القرآن يستثير به الفكر الماحى للجهل فهو دواؤه . (٦) زفير النار : صوت توقدها وشهيقها الشديد من زفيرها كأنه تردد البكاء أو نهيق الحمار : أى أنهم من كمال يقينهم بالنار يتخيلون صوتها تحت جدران آذانهم فهم من شدة الخوف قد حنوا ظهورهم وسلطوا الانحناء على أوساطهم ،

وأكفهم وركبهم وأطراف أقدامهم ، يطلبون إلى الله تعالى فى فكاك رقابهم

وأما النهار فحلماء علماء أبرار أتقياء ، قد براهم الخوف برى القداح (١) ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى وما بالقوم من مرض ويقول : قد خولطوا (٢).ولقد خالطهم أمر عظيم ، لا يرضون من أعمالهم القليل ، ولا يستكثرون الكثير ، فهم لأنفسهم متهمون ، ومن أعمالهم مشفقون (٣) إذا زُكّى(٤) أحدهم خاف مما يقال له ، فيقول : أنا أعلم بنفسى من غيرى ، وربى أعلم بى من نفسى ، اللهم لاتؤاخذنى بما يقولون ، واجعلنى أفضل مما يظنون ، واغفرلى مالا يعلمون :

فمن علامة أحدهم أنك ترى له قوة فى دين ، وحزما فى لين ، وإيمانا فى يقين وحرصا فى علم ، وعلما فى حلم ، وقصدا (٥) فى غنى ، وخشوعا فى عبادة ، وتجملا فى فاقة ، وصبرا فى شدة ، وطلبا فى حلال ، ونشاطا فى هدى، وتحرجا عن طمع (٦) ، يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل ، يمسى وهمه الشكر ، ويصبح وهمه الذكر ، يبيت حذرا ، ويصبح فرحا : حذرا لما حذر من الغفلة ، وفرحا بما أصاب من الفضل والرحمة .

إن استصعبت عليه نفسه فيما تكره (٧) لم يعطها سؤالها فيما تحب ، قرة عينه

وفكاك الرقاب خلاصها . (١) القداح جمع قدح وهو السهم قبل أن يراش، وبراه : نحته : أى رقق الخوف أجسامهم كما ترقق السهام بالنحت (٢) خولط فى عقله : أى مازجه خلل فيه ، والأمر العظيم الذى خالط عقولهم هو الخوف الشديد من الله. (٣) مشفقون : خائفون من التقصير فيها(٤) زُكى : مدحه أحد . (٥) قصدا : أى اقتصادا ، والتجمل التظاهر باليسر عند الفاقة (٦) التحرج عن الشيء حرجا أى إثما : أى تباعدا عن طمع . (٧) إن استصعبت : أى إذا لم تطاوعه نفسه فيما يشق عليها من الطاعة عاقبها بعدم إعطائها ماترغبه من الشهوة .

فيما لا يزول (١) ، وزهادته فيما لا يبقى .

يمزج الحلم بالعلم والقول بالعمل ، تراه قريبا أمله ، قليلا زلله ، خاشعا قلبه ، قانعة نفسه ، منزورا (٢) أكله ، سهلا أمره ، حريزا (٣) دينه ، ميتة شهوته ، مكظوما غيظه ، الخير منه مأمول ، والشر منه مأمون ، إن كان فى الغافلين كتب فى الذاكرين (٤) وإن كان فى الذاكرين لم يكتب من الغافلين ، يعفو عمن ظلمه ويعطى من حرمه ، ويصل من قطعه ، بعيدا فحشه (٥) ، لينا قوله ، غائبا منكره ، حاضرا معروفه ، مقبلا خيره ، مدبرا شره .

فى الزلازل وقور (٦) ، وفى المكاره صبور ، وفى الرخاء شكور ، لا يحيف على من يبغض ، ولا يأثم (٧) فيمن يحب ، يعترف بالحق قبل أن يشهد عليه ، لا يضيع ما استحفظ ، ولا ينسى ما ذكر ، ولا ينابز بالألقاب (٨) ، ولا يضار بالجار ، ولا يشمت بالمصائب ، ولا يدخل فى الباطل ، ولا يخرج من الحق .

إن صمت لم يغمه صمته ، وإن ضحك لم يعل صوته ، وإن بغي عليه صبر حتى يكون الله هو الذى ينتقم له .

نفسه منه فى عناء ، والناس منه فى راحة ، أتعب نفسه لآخرته ، وأراح الناس من نفسه ، بعده عمن تباعد عنه زهد ونزاهة ، ودنوه ممن دنا منه لين ورحمة ، ليس تباعده بكبر وعظمة ، ولا دنوه بمكر وخديعة .

---

(١) ما لا يزول هو الآخرة ، وما لا يبقى هو الدنيا ، (٢) منزورا : قليلا . (٣) حريزا : حصينا . (٤) أى إن كان بين الساكتين عن ذكر الله فهو ذاكره بقلبه ، وإن كان بين الذاكرين بلسانهم لم يكن مقتصرا على تحريك اللسان مع غفلة القلب . (٥) الفحش : القبيح من القول . (٦) الزلازل : الشدائد المرعدة والوقور : الذى لا يضطرب (٧) لا يأثم : لا تحمله المحبة على أن يرتكب إثما لإرضاء حبيبه (٨) لا يدعو غيره باللقب الذى يكرهه ويشمئز منه .

قال : فصعق (١) همام صعقة كانت نفسه فيها، فقال أمير المؤمنين رضى الله عنه : أما والله لقد كنت أخافها عليه ثم قال : أهكذا تصنع المواعظ البالغة بأهلها ؟ فقال له قائل : فما بالك يا أمير المؤمنين (٢) ؟ فقال : ويحك ؛ إن لكل أجل وقتا لا يعدوه ، وسببا لا يتجاوزه ، فمهلا لا تعد لمثلها ؛ فإنما نفث الشيطان على لسانك .

أهل الخلق القويم فى رأى بعض المتصوفين

يقول بعض المتصوفة : ليست التقوى فى الابتعاد عن الناس ، واعتزال مخالطتهم واجتناب مشاركتهم فى شئونهم وأحوالهم ، ثم الانصراف بعد ذلك كله إلى عبادة الله تعالى والتوفر على أداء الأعمال الدينية ، والإسراف فى الأخذ برسومها ومظاهرها ؛ فإن هذا النوع من التقوى ــ على ما فيه من خير قليل ــ لا تتمثل فيه قوة الإرادة ، ولا يبين المدى الصحيح لمقدار التأثر بالوازع الدينى المتغلغل فى أعماق النفس ، ولا يكشف عن حقيقة ثباتها فى رعاية هذا الوازع وتقديرها إياه عن إخلاص وعزم ، وتدين برىء من الشوائب والعلل .

وإنما التقوى الخالصة تكون فى مخالطة الناس ومعاشرتهم والنزول إلى ميادين العمل معهم ، والإقدام على تحمل المسئوليات ، ومواجهة التكاليف والمشقات والتعرض لكل ما من شأنه الإغراء والفتنة والانخداع بمتع الحياة وزخارفها ، ثم السلامة بعد ذلك كله من جميع هذه المآزق ، وضبط النفس عن الشهوات المؤذية ، والحيلولة بينها وبين ما يقارفه غيرها من النفوس الضالة المفتونة ، وحملها على الطريق السوى فى مجاهدة النزعات ومغالبة الهوى ، ومجانبة الرذائل ، ورياضتها على الاستمساك بالدين للدين ، وتقديس الفضيلة للفضيلة دون

(١) صعق : غشى عليه (٢) فما بالك : أى لا تموت مع انطواء سرك على هذه المواعظ البالغة .

أن يكون وراء ذلك غرض أوشبهة : من رغبة أو رهبة ، أو وعد أو وعيد يترقب حصوله دنيا أوعقبى .

فهذه هى التقوى الصحيحة التى تحمد لصاحبها ، والتى تكون فى الواقع مؤسسة على رسوخ اليقين ، وقوة العقيدة ، ومضاء العزم ، وشجاعة النفس ، ونفوذ الإرادة ، وشفوف البصيرة .

وإذا صدقت نظرية هؤلاء المتصوفة فى تكييف حالات التقوى وهى لاشك صادقة ـ فقد يكون أشد الأمور شبها بهذا الضرب الأخير منها الخلق الكامل ؛ فإن صاحبه ليس ذلك الذى يأتلف بك ، ويتودد إليك ، ويدنو منك أيام مايظنه صعود نجمك ، وبزوغ شمسك ، وخلوك من موجبات الهموم والأكدار ، والذى يكثر لك من خلق الفرص والمناسبات لإحكام روابط الصداقة ، وتدعيم أواصر المحبة مادام يراك فى أحوالك العادية الهادئة ؛ لأن هذا النوع من الخلق يشبه تماما ما أشرنا إليه من التقوى الناشئة عن المزلة ، وتفادى الوقوع فى المضايق والمحذورات ، وخشية الضعف أمام المفاتن والمغريات ، والتى لاتستند فى جوهرها إلى أسناد قوية من كمال النفس ، وسلامة الاستعداد ، وهو نوع لايوثق به كثيرا ، ولايرتد فى جملته إلى أصل من الأصول الخلقية التى تغذوها الفطرة ، وتعين عليها الغريزة ، وهو فوق هذا أوذاك تعوزه التجارب الكثيرة والدلائل الوفيرة على صحة الاطمئنان إليه ، والتثبت من دوام اطراده وعلى أن الحوادث الأليمة قد محصته بصدماتها العنيفة ، فخلصته من زغل النكوص وشوائب الانتكاس ، وهذا اللون من الخلق لايصلح فى نظر الشواهد الخلقية الكثيرة القائمة على التجارب والاختيار أن يكون مأمون العاقبة ، مضمون البقاء .

وإذاً فصاحب الخلق الكامل هو ذلك الذى إذا نزلت بساحتك الشدائد ثبت بجانبك ، وتحملها معك ، وصدقت لك مودته فى السر والعلن ، وحفظ لك العهد

فى الغيب والحضور ، ولزم الحال التى كانت بينكما زمان السلم والرخاء ، لا : بل هو الذى كلما زادتك الأيام عنتا وشدة ازداد هو إخلاصا لك ومودة ، ... فلايحابى أحدا بخيانة عهدك ، ولايجامل إنسانا بالغض من قدرك ، ولا يعين ظالما بالتنكر لك ، و كفران عشرتك ، ولا يلتمس رضاه بإظهار هجرانك ، وإخفاء الصلة بك ، ولا ينشد مسرته فى طريق إقرار ظلمه ، والسكوت على آثامه ، بل يسمو بعلاقته معك إلى مافوق مستوى الروابط العادية المألوفة ، ويضعها فى الذروة من المناعة والصون بحيث لايتسنى لأحد أن يفكر فى المساس بحرمتها ، أو العبث بقدسيتها .

هذا هو الخلق الكامل ... الذى يسوغ لصاحبه أن يطمع فى احترام الناس له وثقتهم به ، وتعويلهم على نبله ونزاهته فى أوقات المحن والشدائد ، وعند حلول النعم الطارئة التى يكون لها أثر كبير فى تحويل نفسيات أهل الملق والنفاق ؛ وتشجيعهم على الاستهانة بكل مايوجه إليهم من دعوة إلى تقدير معانى الكرامة والحق ، والإنسانية والفضيلة .

وإذا كان بين الناس من تأبى عليهم طباعهم عبور هذا الطريق المستقيم ، وتريدهم أطاعهم الزائلة على أن يكونوا دائما منغمسين فى حمأة الرذائل الخلقية الشنيعة فإن أقل مايوجبه علينا الوفاء للأخلاق الفضيلة هو أن يبيح لنا هؤلاء أن نعرف عنهم هذا النقص ؛ ونسجل عليهم هذا العيب ؛ ونسير فى معاملتهم على مقتضاه ، وأن يعذرونا إذا نحن أخذناهم بالقسوة على مايكسبون والتجهم لما يقترفون ، وإذا نحن لم نقم وزنا لكل مايصنعونه من أساليب الختل والرياء ونالهم مناماهم أهل له من احتقار وازدراء ، فقديما قالوا : من لم تصلحه الكرامة أصلحه الهوان ، ويصلح العفو من الكريم بقدر إفساده من اللئيم .

الشخصية

الشخصية (١) : كلمة واسعة المعنى غير محدودة الأطراف ، تتجلى فى مجموع الخصائص التى يمتاز بها الشخص من جسمية وعقلية وخلقية سواء أكانت محمودة أم مذمومة .

وهى مناط الحب والبغض اللذين يخفى علينا سببهما فى كثير من الأحيان ، فقد نجد فى أنفسنا أننا نحب فلانا أو نكرهه من غير أن نستطيع تبيان الأسباب التى جذبتنا إليه ، أو نفرتنا منه ، وإذا تأتى لنا أن نتعرف بعضها تلمسنا وجه محبتنا إياه فقلنا : إنه كريم النفس ، راجح العقل ، سامى الخلق ، لطيف النكتة ، حاضر البديهة ، خفيف الظل . وحاولنا مسوغا لكراهتنا إياه فقلنا : إنه جبان ، قاسى القلب ، ثقيل الظل ، لا يحسن أن يسكت ، كما لا يحسن أن يتكلم ، يسىء من حيث يريد الإحسان ، ويحسن من حيث يريد الإساءة .

بيد أن هذا غير ميسور فى جميع الحالات ، فقد نحب الشخص أو نكرهه لأول نظرة من غير أن نعرف شيئا عنه . ولا شك أن منشأ ذلك تجانس الشخصيات أو تنافرها وإلى ذلك يشير عليه السلام بقوله : « الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ تَشَامُّ كما يَتَشَامُّ الْخَيْلُ مَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ وَمَا تَنَاكَرَ اخْتَلَفَ)

الشخصية نوعان فطرية ومكتسبة :

تكون الشخصية فطرية فى الإنسان كما تكون مكتسبة بالتربية الصحية ، والأولى أقوى من الثانية ، ولو لم يصح اكتسابها ما كان للتربية أثر فى إنضاج العقول ، وتهذيب الأخلاق ، وتكوين العظماء من الرجال ، ولذلك عيب على

---

(١) شخص الرجل ككرم شخاصة: بدن وضخم ، والشخيص الجسيم والعظيم الشخص والسيد وذو الخلق العظيم بين الشخاصة

بعض المربين إهمالهم تربية الشخصية فى الناشئين وغلوهم فى النظام المدرسى غلوا يميت فى نفوسهم موهبة الشخصية الفطرية ، ويطمس آثارها ؛ ولذا أصبح الأطفال يحاكون غيرهم فى التفكير والقول والفعل ، وأصبحت المدارس قوالب يصب فيها الطفل صبا ، فيخرج صورة لغيره ، لا أثر للشخصية فيها .

والنظام على حسن أثره ووفرة الرغبة فيه قد ضل المربون طريقه ، وسلكوا إليه غير سبيله . وخير وسائله ما ليس فيه إضرار بمواهب الطفل العقلية ، والجسمية ، والخلقية : ذلك بأن يكون بين المعلم وتلاميذه صلة روحية منشؤها شعور التلميذ بمحبة معلمه له ، وعطفه عليه ، ورغبته فى إفادته ، وعنايته بتسهيل درسه . وغير هذا مما يقرب بينه ، وبين تلميذه .

اختلاف الشخصية:

الشخصية عامة فى سائر الطبقات ؛ فتكون فى الأغنياء والفقراء وفى الرجال والنساء وفى البدو وفى الحضر ، وتختلف فى قوتها وفى نوعها باختلاف الأشخاص، فتكون ظاهرة فى بعضهم خفية فى الآخرين ، وكما تكون فى الأفراد تكون فى الأمم ، وتختلف فيها اختلافها فى الأشخاص : فالشخصية الإنجليزية غير الشخصية الفرنسية ، وهما تباينان الشخصية الألمانية ؛ إذ الأولى تتمثل فى الثقة بالنفس ، واحترام الحرية الشخصية ، والثبات ، والصبر والعمل فى غير قول ، وفى الفرنسيين تتغلب العاطفة على التفكير ، ويشتد الميل إلى الظهور ، والأناقة، وفى الألمان يتغلب الروح العسكرى على ما عداه .

الصفات التي تكون الشخصية القوية :

يكون المرء ذا شخصية قوية إذا اجتمعت فيه صفات هى :

الجاذبية ، والذكاء، والمشاركة الوجدانية، والشجاعة ، والحكمة ، والتفاؤل، والتواضع ، وحسن الخلق ، وقوة البيان، والثقة بالنفس، واعتدال المزاج .

ولنتكلم على كل صفة من هذه الصفات بما يجلو حقيقتها :

الجاذبية :

هى أقوى العناصر المكونة للشخصية القوية ، والإنسان يستطيع أن يجتذب إليه الناس إذا رزق الأدب ، وضبط النفس ، وعذوبة المنطق ، وسرعة الخاطر ، وحضور البديهة ، وكرم اليد ، وحب الخير للناس ، وكف الأذى عنهم . وإن فى حسن المعاملة ولين الجانب ما يكفل للإنسان بلوغ الغاية فيما يريد .

الذكاء :

ومن العناصر المكونة للشخصية القوية الذكاء :

وهو توقد الذهن ، وسرعة الخاطر ، وصفاء القريحة ، ومن الناس من يكون غزير المادة ، واسع الاطلاع ، جم المعرفة ، ولكن تعوزه البديهة المواتية ، فلا يستطيع أن يحج خصمه ، ويظهر عليه ، وقد تكون المرأة قسيمة أنيقة ، ولكنها غبية ، فيذهب غباؤها بقسامتها ، وحسنها وأناقتها .

وتبدو الشخصية الذكية فى القول والعمل ، وفى المنطق القويم ، والرأى الحصيف. وكثير من الناس أدركوا بذكائهم ما عجز عنه غيرهم ممن أوتوا حظا وافرا من الثقافة والعلم : ومن هؤلاء معاوية بن أبى سفيان ، وأبو مسلم الخراسانى ، ومحمد على باشا ، وإبراهام لنكولن الذى نهض بأمريكا ، وأحلها ذروة المجد بذكائه وحذقه .

وللذكاء أثر كبير فى كمال الخلق وحسن السير ؛ فقد أثبت الإحصاء فى ثلثمائة السنة الفارطة أن أكرم حكام أوروبة خُلقا كان أكثرهم ذكاء

المشاركة الوجدانية :

ومما يكون الشخصية القوية المشاركة الوجدانية : وهى أن يشارك الإنسان الناس فى مسراتهم وأحزانهم ، ويتأثر بما يتأثرون به من خير وشر ، فيواسى فقيرهم ، ويحنو على ضعيفهم ، وإن كان أسماهم منزلة ، وأعلاهم قدرا ؛ فإنه بهذا يسترقهم ، ويمتلك قلوبهم .

والمشاركة الوجدانية تعين الرئيس على تنفيذ رغباته من غير أن يأخذ الناس

بالشدة ، ويقهرهم بسلطانه . ولا يلجأ إلى القوة من الرؤساء إلا الضعيف البغيض ، وأمثال هؤلاء تجدهم مولعين بالوقوف على عيوب الناس وإفشائها وإخفاء حسناتهم رغبة فى الإيذاء ، وحبا فى الانتقام .

ومن المشاركة الوجدانية أن يخلص المعلم لتلاميذه ، ويبذل عنايته فى إفادتهم وإصلاحهم ؛ فإنهم إذا أحسوا ذلك منه وفَوْا له ، وأحلوه سويداء قلوبهم . وهى ضرورية للقادة والزعماء ؛ ليكون قولهم مسموعا ، ورأيهم مطاعا .

الشجاعة :

ومن أهم عناصر الشخصية القوية الشجاعة : وهى صفة فى الإنسان يستطيع بها ضبط نفسه وقت الخطر الذى يتهدده ، وإن أجدر الناس بالفوز أصبرهم على الشدائد ، وأقدرهم على احتمال الآلام . وهى فضيلة فى سائر الناس ، وتتوقف على مقدار ما فيهم من القوة الجسمية والخُلقية

وقد أضعفت المدنية قوة الشجاعة فى الناس ، ولكنهم فطنوا لذلك ؛ فأخذوا يتعهدون الأطفال منذ نعومة أظفارهم بغرس الشجاعة فيهم ، وذلك بتعويدهم الصبر ، وضبط النفس ، واحتمال الآلام .

وأهم مظاهر الشجاعة ضبط النفس ، فيجب أن نكون فى حالتنا الطبيعية حين نحاضر ، وحين نناظر ، وحين نقف لإبداء رأى ، أو الدفاع عن عقيدة ؛ فإنه إذا أدرك الإنسان الخَوَرُ فى مثل هذه الحال ، وفقد الثقة بنفسه ـ فقد يُضيع على نفسه فرصة من فرص الحياة قد لا تسنح له مرة أخرى . على أن كثيرا من المخاوف التى تساورنا فى هذه المواقف لا يكون لها نصيب من الصحة .

وتكثر هذه المخاوف وتعظم لدى الشخصيات الضعيفة ، أما الشخصيات القوية فإنها تبسم للشدائد ، ولا تُلِين قناتها الخطوب .

ومن مظاهرها أيضا التغلبُ على الصّعاب التى تعترضنا فى الحياة ، والإقدام على إصلاح ما نراه من خطأ فى الآراء والمعتقدات والعادات ، وقولُ الحق وإن

نالنا من وراء ذلك شر؛ إذ فى هذا فخر لنا، وشرف، وعزة نفس. ولنضع نصب أعيننا حين نجيب عما نسأل عنه قول سيدنا عمر: لأن يضعنى الصدق وقلما يفعل — خير من أن يرفعنى الكذب، وقلما يفعل.

الحكمة:

وهى صفة أساسية فى تكوين الشخصية الفذة وينطوى تحتها الحزم:

وهى وضع الأمور فى مواضعها، وقدرها حقها، ومن الحكمة أن يكون المرء سديد الرأى، بعيد النظر، مؤثرا للحق، عادلا، بعيدا عن الهوى وميل النفس، محبا لغيره ما يحب لنفسه، يفعل ما يجب أن يفعل، ويترك ما يجب أن يترك،

ومن الحكمة أيضا بذل الجهد فى إرضاء الناس من غير أن نبتذل كرامتنا، أو ننقص من أقدارنا فى نظرهم.

ويفسد الحكمة ويشوه جمالها الفخر، والتكبر، والحقد، والغيرة، والغش؛ فإن المتصف بواحدة من هذه الصفات تنفر منه الناس، ويتفرقون عنه.

التفاؤل:

تعتبر عادة التفاؤل من مقومات الشخصية: وهو النظر إلى الأشياء فى نور الأمل، لا فى ظلام اليأس، والقنوط. وينشأ التفاؤل فى الشخص عن نشاطه وقوته العقلية والعصبية، وينشأ التشاؤم عن ضعف النشاط وضعف القوتين العقلية والعصبية.

والتفاؤل يوقظ العقل، ويدعو إلى العمل ويبعث على الإقدام. والتشاؤم منبع الخمول، وداعية الكسل، وسبب الخيبة وجالب الشقاء.

ومن عادة المتفائل أن يتجه إلى المستقبل، ولا يحفل بالماضى، وأن يعمل عمله، ويترك النتيجة تجرى بها المقادير.

التواضع :

ومن العناصر المكونة للشخصية البارزة التواضع :

وهو أن يكون لدى الشخص استعداد به يقدّر نفسه ومنزلته تقديرا صحيحا ينبئ عن معرفة وخبرة من غير أن يتظاهر بما ليس فيه . وهو صفة محمودة جذابة . والمتصف بها محبوب لأنه لم يغشّ الناس ، ولم يخدعهم بالاتصاف بما ليس من صفاته ، أما الذى يدعى ماليس له من علم أو مال أو قوة فإن شواهد الأحوال تكذبه ، وحينئذ يحتقره الناس ، وينفرون منه . وخير للإنسان ، إذا كان فيه مايدعو إلى الفخر — أن يدع ذلك للأيام ؛ فهى كفيلة بإظهار فضله ، وإذاعة محامده .

جمال الخَلْق :

لجمال الخلْق وحسن المظهر أثر كبير فى شخصية الإنسان ، فالصحيح البدن ، المعتدل القوام المشرق الطلعة — لايحتاج فى إبراز شخصيته والتأثير فى غيره إلى مثل مايحتاج إليه القمىء المشوّه الخَلْق ؛ لذا ترى ذا الجمال يسير على طبيعته فى معاملة الناس من غير أن يلتمس شيئا خارجا عن ذاته يكمل به نفسه لأنه يشعر بأنه كامل .

أما الثانى فإنه يتحسس الأشياء الخارجة عن ذاته ، ويلتمس منها مايعوض به مافاته من كمال الخلقة ، فيدعى العلم تارة ، وتارة يفخر بحسبه ونسبه ، وقد يلجأ فى ذلك إلى وسائل ممقوته ، كالملق والوشاية ، وقد يجعل همة التجمّل بالثياب ، فيتكلف لها ، وقد يتلطف فى الحديث ، ويفاكه الناس ، ويتندّر ليحوز رضاهم .

وهذه سجية الإنسان وفطرته حين يشعر بنقص خلقته ، فتراه يسعى لأن يكمل هذا النقص من الناحية الخلقية أو العقلية ، فيدرك ذلك فى الكثير الغالب متى صرف له همته : فسقراط شيخ الفلاسفة كان دميما ، والجاحظ كان قبيح

الهيئة .

قوة البيان :

إن فى قوة البيان ، وطلاقة اللسان ، وعذوبة المنطق ، والقدرة على التأثير فى السامعين — ما يكسب الإنسان شخصية ممتازة ، ويجعل له منزلة فى الناس ، وليست طلاقة اللسان فى الثرثرة ، والتماس الغريب من الألفاظ ، وفضل القول على العمل ؛ وإنما تكون بإجادة التعبير عما فى النفس من غير تهيب ، ولا وجل بحيث يكون الكلام عذبا سهلا ، لينا ، والمعنى واضحا مؤثرا فى النفس مقبولا ، ولقد أكسبت قوة البيان والبراعة فى الخطابة كثيرا من الناس شهرة ومنزلة رفيعة نذكر منهم سيدنا عليا ، وزيادا ، وسعدا ، ومحمدا عبده.

الثقة بالنفس والاعتماد عليها :

مما يقوى الشخصية فى الإنسان ثقته بنفسه واعتماده عليها فى التغلب على مصاعب الحياة واقتحام أخطارها ، ولكن يشاهد فى الناس الميل إلى التواكل ، وسببه أن غريزة الاجتماع متأصلة فيهم ؛ إذ أنهم اعتادوا منذ خلقوا أن يعيشوا جماعات ، ويفكروا جماعات ، ولكن من الواجب علينا لأطفالنا أن نعودهم الاعتماد على النفس حتى يعيشوا مستقلين .

وليس المراد من هذا حملهم على اعتزال العالم بما فيه ؛ فإن هذا يضرهم أكثر مما ينفعهم ، وإنما المراد تعويدهم الاستقلال الشخصىّ فى القيام بأعباء الحياة ، وألا يعتمدوا على غيرهم فى كل شىء . وبهذا يؤدون واجبهم لأنفسهم وللمجتمع.

والاعتماد على النفس إنما يكون بعد الثقة وإتقان العمل والتثبت منه ، فإذا عدمت الثقة بالنفس ، أو إتقان العمل ، أو التثبت منه ـ فالاعتماد على النفس حينئذ ضربٌ من العبث الذى لا يعود على صاحبه بفائدة .

ولا يتوهمن متوهم أن المستقل برأيه مخطىء دائما ؛ فهو يصيب ويخطىء كغيره ،

وقد يسبق فى آرائه وتفكيره المجتمع الذى يعيش فيه بسنوات : كما هو الشأن فى كثير من المصلحين الذين ينكر الناس عليهم آراءهم ، ولا يدركون صحتها إلا بعد موتهم .

المزاج :

من العناصر المقومة للشخصية المزاج ؛ والناس يختلفون فى أمزجتهم اختلافهم فى شخصيتهم : فهذا سريع التأثر ، وذاك بليد ، وهذا غضوب ، وذاك حليم ، وهذا من طبعه التفاؤل ، وذاك من خليقته التشاؤم .

ويضاف إلى الصفات السابقة خلال لها أثر بالغ فى تقوية الشخصية وهى ما يلى :

الصراحة :

وهى إظهار الشخص ما تنطوى عليه نفسه من غير تحريف فيه ولا مواربة فى شىء منه بحيث تكون أفكاره واضحة جلية ، وبحيث توافق أفعاله أقواله ، فإذا تكلم فعن عقيدة ، وحسن تفكير ، وتقدير للعواقب .

حمل المسئولية :

وينشأ عن الثقة بالنفس وجرأة القلب، أما الفرار من المسئولية مع القدرة على احتمالها ، والكفاية فيها ــ فهو دليل ضعف الذاتية ، وخور العزيمة .

وبمقدار ما فى المرء من ميل إلى حمل المسئولية ، والتعرض للأخطار ــ يكون حب الناس له والتفافهم حوله .

الصبر :

وهو فضيلة محمودة تمكن العقل من تأدية وظيفته فى هدوء وثبات ، وتنقذه من الاضطراب فى وقت الشدائد واقتحام الأخطار ، وتبعده عن الطيش والاندفاع وإقحام نفسه فيما لا يستطيعه من غير تفكير فى العواقب ، ولا تقدير للنتائج .

المثابرة :

وهى ضرورية لمن يريد النجاح فى عمله ، والمثابرة والإرادة القوية من أهم صفات الشخصية العظيمة .

الإخلاص :

وهو روح الشخصية ، وأهم مظاهر الصدق فى القول والعمل ، والبعد عن الرياء والنفاق ، وبه تتجلى حقيقة العقل الإنسانى سافرة ، لا يحجبها رياء ولا نفاق ، فإذا انتفى الإخلاص حاول العقل أن يستر نفسه ، فيشوه الحقائق ، أو يبدلها تبديلا ، فيجعل الحق منها باطلا ، والباطل حقا .

وإذا فقد الإنسان الإخلاص قلت ثقته بغيره ؛ لأنه يعتقد فى الناس ما يحسنه فى نفسه .

الحماسة :

وهى نوع من الشجاعة يصحبه شعور قوى بالإقدام ، وهى محمودة ما صحبها التفكير ، فإذا خلت من التفكير كانت تهورا وأداة تدمير وتخريب .

وليس يكفى لنجاح الإنسان فى الحياة ذكاؤه ومهارته وعلمه بصواب الأمر الذى يأخذ فيه ، بل لابد أن يصحب جميع ذلك الحماسة ؛ وما فائدة الأفكار الصادقة إذا لم تؤيدها الشجاعة ؟ فكثيرا ما نثق بفائدة الشىء ، ولا نجد من أنفسنا القوة الحافزة إلى الإقدام عليه .

ويمكن تعويد الأطفال الحماسة منذ طفولتهم بتعويدهم الاعتماد على النفس ، والإقدام فى حذر من غير تهيب ولا تواكل .

وليست الحماسة من لوازم الحداثة والفتوة ؛ فللشيوخ نصيب منها ، وكم شيخ فيه حماسة الشباب ، وشاب فيه ضعف الشيوخ !!

قوة الإحساس :

وبعض هذه القوة مكتسب بالوراثة ، وبعضها يصيبه الإنسان بالتربية والممارسة والتهذيب .

وإذا صدق الإحساس فى الإنسان ، وكان ذكى الفؤاد حسن التقدير للأمور ، والحكم على الأشياء ـ استطاع أن ينتهز الفرصة عند سنوحها ، وينتفع بها ؛ فالفرص تمر بنا كثيرا ولا نحسها لضعف هذه الصفة فينا ، وإذا أحسسناها فقد ندعها تفلت ، ثم نندم على فواتها حيث لا ينفع الندم .

وإذا مدحنا فى الإنسان قوة إحساسه فإننا لا نمدح فيه شدة إحساسه بحيث يتأثر لأتفه الأسباب ، ويهتاج لأحقر الأمور ، بل يجب أن يكون الإحساس محدودا ؛ حتى يتمكن من ضبط نفسه ، وكتمان شعوره .

ومما يقوى الإحساس فى الإنسان يقظةُ عقله وقوة دينه وخلقه ، واتصالهُ بالمجتمع الذى يحيط به اتصالا وثيقا ، وحسن ذوقه ، وتقديره لجمال الأشياء .

وجها الشخصية

للشخصية وجهان : عملى وفكرى ؛ لأن لكل شخصية وجهتين : إحداهما عملية ، والأخرى نظرية فكرية . والشخص قد تغلب عليه إحدى هاتين الشخصيتين تبعا لميوله ، فيصطبغ بصبغتها ، والشخصية العملية أكثر وضوحا ، وأبين أثرا من الشخصية الفكرية .

وتتمثل الشخصية العملية فى المصلحين ، ومن قاموا بأعمال مجيدة عادت على الإنسانية بالتقدم والرفاهية .

وتتمثل الفكرية فى الشعراء والفلاسفة ، وهؤلاء وإن كان أثرهم فى الماديات قليل الظهور ـ لهم على العالم فضل لا يجحد ؛ إذ أن كل عمل لابد أن يسبقه تفكير ، فهؤلاء يفكرون ، وأولئك ينفذون ويعملون

ولابد فى الشخصية العملية من العلم بالعمل الذى يتصدى له صاحبها ثم الرغبة فى نجاحه ، ولابد أن تصحبهما قوة العزيمة ، والتنفيذ ؛ فكثير من الناس قد جمع بين الخبرة ، والذكاء ، والرغبة فى النجاح ، ولكن لم تتوافر فيهم قوة العزيمة ، فلم ينجحوا ؛ لأنهم كسالى مترددون ، فتفلت الفرص من أيديهم بترددهم :

إذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة فإن فساد الرأى أن تترددا

ولتقوية الشخصيه العملية وسائل :

منها تعيين الغرض الذى يعمل الإنسان لتحقيقه ، ومعرفة الطرق الموصلة إليه ، وسلوكها من غير تردد .

ومنها الرغبة فى العمل : وهى تلك القوة الروحية التى تدفع صاحبها إلى إنجازه ؛ إذ أن الرغبة فى العمل ترفع من شأنه ، وتبعث فى الإنسان روح الإقدام والنشاط ، وتثير فيه الإرادة الضرورية التى تصل به إلى غايته .

ومنها الشعور بالواجب ؛ حتى يؤدى على أكمل وجه من غير نظر إلى الجزاء ، ولكن إجابة لداعى الضمير . وإننا إذا تتبعنا تاريخ عظماء الرجال وجدنا أكثرهم ممن كانوا يفعلون الواجب إرضاء لضمائرهم .

ومنها قوة الوازع الدينى ؛ فإن للدين تأثيرا ظاهرا فى حياة الإنسان ؛ إذ هو الذى يهديه سبيل الرشاد ، ويحبب إليه فعل الواجب .

الشخصية الفكرية ، وتسمى الخلقية أيضا :

تمتاز الشخصية الفكرية من العملية بأن الثانية تصرف صاحبها إلى مزاولة الأعمال العظيمة ، والثانية تصرفه إلى تقوية روحه وخلقه .

وإن ما نراه الآن من مدنية وحضارة ورقى أثر لتلك الشخصيات القوية التى فكرت ، وتخيلت . ومن الخطأ أن يظن بعض الناس أن الشعر أو الفلسفة ، وسائر الفنون الجميلة — لا أثر لها فى الأعمال العظيمة التى قامت عليها مدنية هذا العالم ؛ إذ أنها تبعث فى العامل النشيط القوة ، وتهديه إلى

المثل الأعلى ، فيتعلق به ، ويأخذ فى تحقيقه .

ولا بد لصاحب الشخصية الفكرية من الاتصاف بالهدوء العقلى ، وهو : إما أن يكون ناشئا عن طبيعة الشخص وجبلته ، وإما أن يكون مكتسبا بالتربية والتهذيب وضبط النفس ؛ وأكثر مايزعج العقل ويسبب له الاضطراب الخوف الذى قد ينشأ عن غيرة أوحقد ، أوتعلق بالمستحيل ، أوعن رغبات لا تتسع لها طاقه الانسان .

ولا بد له من الاتصاف بالرضا بالحياة مع العمل : ومعنى هذا أن يكون الرضا مصحوبا بالسعى والجد والقناعة بما يدخل فى حيز الامكان .

أما طلب المحال والتعلق به فنقص خلق ناشئ من عدم ضبط النفس : كما أن القناعة المحمودة ماصحبها العمل والمثابرة — كانت سبيلا إلى السعادة ، والحياة الهادئة المفعمة بالثقة والأمل .

وإن الجشع المؤدى إلى القلق ، واضطراب الفكر — يبعد صاحبه عن غرضه ، ولا يعود منه بغير الحسرة والندم

ومما يجب أن يتصف به صاحب الشخصية الفكرية ـ غير ما تقدم ـ البشاشة وتنشأ من ضبط النفس ، واعتدال الصحة ، والنجاح فى الحياة ، وسلامة الأعصاب

ومن مظاهرها فى الانسان التغلب على العاطفة ، والانقياد لحكم العقل ومشاركة الناس فى مسراتهم ، وإن كان فى بؤس

ضعف الشخصية

قد عرفت فيما سبق أسباب قوة الشخصية ، وسنقفك على الأسباب التى بها تضعف الشخصية وتضمحل :

فمن تلك الأسباب اتكال الشخص على غيره ، وتقليده له فى أقواله وحركاته

وسكناته وتفكيره ، فيكون صورة له لاتباينه إلافى المظهر الجسمانى .

ومنها الانقياد للعادات وما تواضع عليه الناس فى الأقوال والأفعال من غير نظر فيها ولاتفرقة بين صحيحها وفاسدها وضارّها ونافعها ، وهذا مما يقطع الإنسان عن الاتصال بما يتجدد من الآراء والأفكار ، ويحول بينه وبين متابعتها فيصبح عبدا لغيره فيما يقول ويرى .

ولسنا بهذا نطلب الخروج على مألوف العادات وما تواضع عليه الناس ، ولكننا نطلب أن يكون للإنسان رأى فيها ، فيأخذ بالصالح منها ، ويترك الفاسد .

أما العادات والتقاليد المستمدة من الدين فيجب علينا احترامها ، والعمل بها ؛ لأنها حسنة كلها ، وموافقة للعقل ، وماغابت حكمته عنا منها فسببه قصور أفكارنا ، وضعف إدراكنا .

ومنها تصديق كل مايقرأ فى الكتب ، والأخذ بآراء الكاتبين من غير بحث فيها ، ولاتدقيق .

والواجب على الإنسان أن يقرأ كثيرا ، ويبحث فيما يقرؤه كثيرا ، فيأخذ مايراه نافعا ، ويترك مايراه ضارا .

أما التصديق بكل مايكتب ، والأخذ بكل مايقرأ — فعاقبته أن يصاب الإنسان بكسل عقلى وخمود فكرى ، ولو تدبر كل واحد منا مايقرأ أو يكتب لكانت له شخصية مستقلة فى التفكير .

ومنها خضوعه لميوله ، وعجزه عن ضبطها ، وكبح جماحها ، ومن كان كذلك تراه يهتاج لأقل الأسباب ، كما تراه يشرع فى العمل ، ثم يضجر منه ، فيتركه إلى عمل آخر ، وتراه ينقض اليوم ما أبرمه بالأمس . ومثل هذا فى حاجة شديدة إلى تهذيب ميوله ، وضبط انفعالاته .

اضطراب الشخصية وانقسامها :

يعتبر الانسان وحدة غير قابلة للتجزؤ ، ولكن ميوله المختلفة الكامنة فيه لا تتحد دائما ، فتكون شخصية واحدة فى كثير من الأحيان ، بل قد يعارض بعضها بعضا فيختلف سلوك الانسان باختلاف الأحوال المحيطة به ، وبهذا تتعدد الشخصية فيه ، وتسير فى غير طريق واحد ، فيكون للإنسان شخصيتان أو شخصيات :

وهؤلاء كثير ممن ترى لهم شخصية فى عملهم تخالف شخصيتهم فى بيوتهم : فبينا يُرى أحدهم فى عمله قاسيا على مرءوسيه ، إذ يرى فى بيته رحيما على أهله وأولاده ، يعاملهم بالحسنى ، ويتودد إليهم .

وقد تمرض الشخصية فى الانسان فتتعدد إذا اضطربت أعصابه ، وضعف عقله ، وصار لا يستطيع التفكير باتزان ، وحينئذ تتغير مظاهر جسمه ، وتضعف قوة إحساسه ، فيظهر فى غير حالته الطبعية ويبدو شعوره فى صور متباينة ، فيبدى من الآراء ما يخالف آراءه التى عرفت عنه من قبل ، وهو فى حالته المعتادة ، وقد يفكر فى أشياء لا وجود لها ، وقد يتكلم بأمور بعيدة عن التعقل ، فيعتقد أن له جسمين ، وأنهما ينامان فى سريرين مختلفين ، والحقيقة أن جسمه الواحد يحتوى شخصيتين أو أكثر .

وفى حالة الذهول ، والنوبات العصبية — يشعر بعض المرضى أنهم فقدوا بعض أعضائهم : فهذا يشعر بأن أسنانه قد تساقطت ، وذاك يشعر أن ساقه بترت وآخر يحس أن جسمه من زجاج أو خشب ، وقد يشعر أنه عنترة زمانه قوة وبأسا أو قيصر فى دولته وملكه فيتخذ له صولجانا وتاجا وخدما وحشما ينفذ فيهم أمره ، ويصرفهم بحسب مشيئته .

ومنهم من يشعر بأنه أكثر الناس علما ، وأفصحهم لسانا ، وأقوامهم بيانا ، فيهذى بكلمات لا اتساق لها ، ولا ارتباط بين معانيها إلى غير هذا من ضروب الاحساس

المختلفة الناشئة عن اضطراب الشخصية وتعددها .

وبين أيدينا كثير من الأمثلة تثبت بجلاء انقسام الشخصية وتعددها فى أحوال الاضطرابات العصبية وذهول الفكر هذا .

وقد عنى علماء النفس بوضع ضوابط لها وتحديد أنواعها وتشخيص مبلغ شذوذها ، ثم ردوا هذه الضوابط إلى اثنين يتجلى أحدهما فى الشخصية المتفائلة وآخرهما فى الشخصية المتطيرة : أما صاحب الشخصية الأولى فيتميز بما يأتى :

١ ـ يفكر دائما فى النواحى السارة من الحياة
٢ ـ يثق بالناس ثقة كبيرة
٣ ـ يحب أن يشتغل وحوله جماعة من الناس
٤ ـ يتمتع بالمجتمعات لمجرد وجوده مع الجماعة
٥ ـ يقبل المقترحات بدلا من أن يفكر فيها
٦ ـ يمل العمل المتعب
٧ ـ قلما يحلل أفكاره ودوافعه
٨ ـ يحب أن يشاهده الناس وهو يعمل ما يحسنه
٩ ـ يشجعه مديح الناس على العمل
١٠ ـ يميل إلى الأمور المهيجة غير الهادئة
١١ ـ يرأس المجتمعات
١٢ ـ يخطب الجماهير
١٣ ـ يعمل بسرعة بدلا من الإبطاء والتدقيق
١٤ ـ يستطيع أن يعبر عن مشاعره كالحزن والفرح والغضب
١٥ ـ لا يهتم بالتفاصيل قدر اهتمامه بجوهر الموضوع
١٦ ـ يخالط الناس بحرية ولو خالفوه فى الرأى
١٧ ـ ينفذ مقترحات الناس ولا يقف للتفكير فيها

١٨ ـ يتلذذ بموضوع القصة أو الأدب أكثر من أسلوبها

١٩ ـ يتصرف بوحى الساعة

٢٠ ـ يكره التفكير فى الأمور الخاصة به

٢١ ـ يتنقل بسرعة من عمل إلى آخر

٢٢ ـ يبوح بأسراره للناس

٢٣ ـ يدرس شخصيات الناس أكثر مما يدرس نفسه

٢٤ ـ يغير رأيه بسهولة ولو بعد تكوينه

٢٥ ـ يشترك اشتراكا فعليًا فيما يدور حوله من مناقشات

٢٦ ـ لا يحب أن ينفرد بنفسه كثيرا

٢٧ ـ لا يكون دائما هادئا

٢٨ ـ لا يفكر فيما سيفعله فى عدة أعوام مقبلة

٢٩ ـ لا ينفر من المجتمعات

٣٠ ـ لا يستمر فى عمل واحد طول الوقت

٣١ ـ لا يفكر كثيرا قبل أن يصمم على أمر

٣٢ ـ لا يميل إلى أنواع التسلية الهادئة

٣٣ ـ لا يكره مراقبة الناس له وهو يعمل

٣٤ ـ لا يستسلم لأحلام النهار والتخيلات

٣٥ ـ لا ينسى نفسه ، فلا يخرج عن حده وقت الغضب

٣٦ ـ يفكر كثيرا فى الأمور الخاصة به

٣٧ ـ لا ينفذ الأشياء التى يحلم بها أو يتخيلها

٣٨ ـ لا يميل إلى تقليد الكتاب الاجتماعيين ، ويقتبس منهم فى خطاباته

٣٩ ـ لا يطيل التفكير كثيرا

٤٠ ـ لا يتحفظ فى مقابلة الناس

٤١ ـ لا يميل إلى الأحاجى والفوازير والأمور المعقدة التفكير

٤٢ ـ لا يفضل الأمور النظرية على العملية

٤٣ ـ لا يعني بتدوين يومياته فى مذكر

٣٤ ـ لا يلزم الصمت فى المجتمع

٤٥ ـ لا يفكر فى عمله قبل أن يبدأه

٤٦ ـ يفضل أن يواجه المتاعب بدلا من تجنبها

٤٧ ـ لا يصدق الإشاعات

٤٨ ـ يثق بالناس قبل أن يعرفهم معرفة صحيحة

٤٩ ـ لا يميل إلى قضاء أجازاته فى الأمكنة الهادئة

٥٠ ـ يميل إلى الإنفاق أكثر من الادخار

انظر هذه الوجوه وتأمل ما ينطبق منها عليك ومالا ينطبق ، وتحر السداد فى حكمك ، وحذار أن تخدعك نفسك ، فما كان فيك منها فأعطه درجة واحدة موجبة أى « + ١ » ، ومالم يكن فأعطه درجة سالبة أى « — ١ » ، ثم اجمع هذه الدرجات جمعا جبريًا تخبرك نتيجة الجمع بشخصيتك ودرجة قربك من التفاؤل ، فكلما قربت منه بعدت من التشاؤم :

فإن كانت درجاتك كلها (+) فأنت المتفائل بعينه .

وإن كانت (—) كنت المتشائم بعينه

وإن كانت درجتك (صفرا) كنت أنت إنسانا بين بين .

« وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرونَ »

وصلى الله على سيدنا محمد هداية العالمين وخاتم النبيين

تم الجزء الثالث ويليه بمشيئة الله تعالى الجزء الرابع وأوله « الفضيلة »

ملاحظة : تقدم موضوع : « وجهة المتأخرين من علماء الغرب ص ٣٦٧ » ـ عن مكانه المناسب ، والصواب أن يكون قبل « نهج الخلق القويم » مباشرة

تقاريظ الجزء الثانى

من كتاب الخلق الكامل

عنى كثير من أولى العلم والرأى بمطالعة الجزء الثانى من كتاب الخلق الكامل، ونرى أن نحلى جيد الجزء الثالث من ذلك الكتاب بآرائهم فيه؛ عسى أن يكون فى ذلك اعتراف بفضلهم، وإقرار بجميل صنيعهم، وأن نكون قد وفينا الحق، وأدينا واجب الشكر وها هى ذى كلماتهم:

(١)

خطاب من حضرة صاحب المعالى محمد علوبة باشا

بعد الديباجة:

بيد الشكر والابتهاج تَسَلَّمت مؤلفكم الجليل هدية نفيسة أحتفظ بها فى مكتبتى، وأود أن أحظى بمقابلتكم لتتم الهدية ويكمل السرور

واقبلوا وافر احترامى

محمد على علوبة

(٢)

خطاب من حضرة صاحب السماحة السيد أمين الحسينى مفتى القدس ورئيس المجلس الأعلى الإسلامى

بعد الديباجة:

قد تسلمت بيد الشكر والسرور مؤلفكم الجديد (الخلق الكامل) وأعجبت كل الإعجاب بما احتواه من الفصول النفيسة والبحوث الشائقة الممتعة الدالة على غزير علمكم وعظيم فضلكم

وقد شكرت جهودكم الكبيرة الموفقة فى سبيل إتحاف الأمة العربية والعالم الإسلامى بهذا السفر الجليل

وإنى أسأل الله سبحانه وتعالى أن يديم توفيقكم ويكثر من أمثالكم من أفاضل العلماء وخيرة الباحثين المحققين والمصنفين العاملين على تثقيف الأمم وتهذيبها وترقية أخلاقها ، اقتداء بقوله صلى الله عليه وسلم: « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »

إمضاء
السيد أمين الحسينى

(٣)

كلمة صحيفة الاهرام الغراء

الخلق الكامل

للأستاذ محمد جاد المولى بك

ظل علم الأخلاق ردحا من الزمن جزءا من الفلسفة كما ظل كثير من العلوم الأخرى كذلك ، حتى اتسعت مباحث كل علم واستقل بنفسه تحت عنوان خاص ولكن هذه العلوم التى تفرعت من الفلسفة لاتزال العلاقة بينها فى الغالب قوية متينة ، وليس أظهر من العلاقة بين علم الأخلاق وعلمى الاجتماع والنفس وسواهما .

وإذا كان للبحث فى الأخلاق ضرورة فإن هذه الضرورة تبدو واضحة فى مثل هذه الفترة التى نعيشها الآن فى مصر بل يعيشها العالم كله بعد الحرب العظمى ، هذه الفترة التى يبدو فيها الانحلال الخلقى واضحا بينا فى كل مظاهر

الحياة ، حتى لايستحى بعض الناس أن يباهى بالوصولية وغيرها ليبلغ بها إلى قضاء حاجته .

وإنه لمن الخير أن يتوفر الأستاذ الفاضل محمد جاد المولى بك على البحث فى الأخلاق ، وأن تكون وجهته البحث والإرشاد لاالبحث العلمى المجرد ، فربما كنا الآن أحوج للإرشاد منا إلى التحليل .

أخرج الأستاذ الجزء الأول من كتابه « الخلق الكامل » فلقى مايستحقه من التقدير ، وهاهوذا يخرج الجزء الثانى من الكتاب مؤلفا ضخما يتناول أبحاثا ومثلا ونواحى شتى من الأخلاق ، ترمى جميعا إلى « الخلق الكامل » وترسم الطريق لبلوغه فى هوادة وفى وضوح .

تبتدئ فصول الكتاب بالبحث فى الخير والشر ووجوههما فيستعرض المؤلف فى ذلك النظريات الإسلامية والغربية ويعلق عليها ويستشهد بمقتطفات من آراء الباحثين كما يستشهد بآى القرآن الكريم والأحاديث ثم ينتقل إلى مظاهر التربية الخلقية فى الأمم الغربية والشرقية فيستعرض بعضها استعراضا تحليليا ويذكر رأى الإسلام فيها وفى العمل والزراعة والغراسة بوجه خاص .

ويلى هذا بحوث فى مظاهر الأخلاق الإسلامية فى نقاط ثلاث يقرر فيها أن « الإسلام ظهير الحق وحليف السماحة ونصير التجديد ورسول الثقافة ، وأنه غنى بنفسه وقد استوعب ضروب الإصلاح » وتقرأ مايقوله المؤلف فتخرج بمثل عقيدته فى هذه الأمور .

فإذا انتهى من هذه البحوث العامة عدد عشرين مظهرا من المظاهر الطيبة للخلال الفردية وواحدا وسبعين من مظاهر الخلال الاجتماعية ، وهو لايذكر هذه الخلال مجرد الذكر ، بل يسوقها فى قصة صغيرة واقعة لبعض العظماء ، فتكون أحب للنفس وأدعى للقدوة .

وفى نهاية الكتاب يبحث بحوثا علمية وإرشادية فى موضوعات « الضمير ،

والسلوك ، والباعث ، والعقاب ، والثواب ، والحرية ، والرقى الأدبى .

وهى موضوعات يتناولها علم الأخلاق ، كما يبحث فيها علم النفس ، وعلم الاجتماع ، وكلها موضوعات مخصبة فيها مجال للبحث المنتج المفيد .

والخلاصة أن الأستاذ جاد المولى بك أحسن إلى البحث الخلقى ، كما أحسن إلى الارشاد التهذيبى بوسائل علمية جديدة أخاذة ، وكذلك خدم اللغة العربية بهذا البحث الجليل .

(٤)

كلمة صحيفة الاتحاد الغراء

الخلق الكامل

لمؤلفه الأستاذ المربى الكبير

محمد أحمد جاد المولى بك

بين يدينا كتاب قيم ومؤلف عظيم لا نغلو أو نعدو الحقيقة فى وصفها إذا قلنا إنه من أنفس الكتب التى أنتجتها النهضة الفكرية فى مصر ، وأشهى ثمراتها وأبقاها أثرا فى حياة الأمة . ذلك هو الجزء الثانى من كتاب الخلق الكامل لمؤلفه العلامة الكبير والمربى الفاضل الأستاذ محمد أحمد جاد المولى بك المفتش بوزارة المعارف .

وقبل أن نعرض لهذا الكتاب النفيس نبادر فنقول إن المؤلف الفاضل قد أحسن الصنيع لأمته ، وأجاد فى اختيار موضوع كتابه فخير المؤلفات ما جاء عند الافتقار إليه فسد ثغرة وأكمل نقصا . وما من شك فى أن الأمم الشرقية عامة ومصر منها فى الطليعة تجتاز مرحلة انتقال من أدق المراحل، فهى موزعة بين باعثين يتجاذبانها: عاداتها الكريمة الموروثة، وتقاليدها التى جرت عليها طوال الأجيال فحفظت لها كيانها ، ثم هذه العادات والنظم التى تحملها الحضارة الغربية فى ثناياها . فلا غنى لهذه الأمم عن هداة يرشدونها ويجنبونها مواطن الزلل ويسيرون بها فى جادة الاعتدال ،

فلا تضل طريقها ، وحتى يكون لها فى عهديها القديم والجديد حدود ومعالم ، وحتى يقوم بينهما برزخ لا يبغيان .

ولو شاء الأستاذ جاد المولى بك أن يصنف فى وقتنا الحاضر كتاباً أو كتبا فى الأدب واللغة والتاريخ — وهو فى هذا كله العالم الواسع الاطلاع والثقة الذى لا ينازع فى فضله — لكان مشكورا من هذه الأمة ومن الناطقين بالضاد جميعا ، ولكنه آثر أن يطوق عنق أمته بكتابه هذا الفذ فى تربية الخلق وعلم النفس ، فاستحق مضاعفة الثناء والشكر ؛ لأنه سد به خلة كانت ملموسة النقص واضحة الفراغ . وحسبك أن تعلم أنه منذ وقف التيار الفكرى وانقطع عهد التأليف فى العربية بعد الأعلام المبرزين فى علم الأخلاق : كالغزالى وابن حزم وغيرهما من حكماء العرب — قد ظللنا ردحا طويلا من الزمن عالة على المؤلفين الأوربيين فيما يكتب عن الأخلاق والتربية وعلم النفس ، ولكن كتاب الأستاذ جاد المولى بك قد قام دليلا على رجع ما انقطع ، والجمع بين ماضينا وحاضرنا ، وإنه لحاضر يبشر بمستقبل زاهر مونق .

وإن للأستاذ طريقة سهلة وأسلوبا مشوقا ؛ فهو يتناول الموضوع من موضوعاته حتى إذا أشبعه شرحا وتفسيرا وانتهى منه إلى الغاية أورد لك ما يؤيد قوله من آى الذكر الحكيم ، أو أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام . أما إذا استشهد برأى فيلسوف من فلاسفة الغرب فإنه يقرنه بمثله من آراء فلاسفة العرب وحكمائها مبينا ما فى الرأيين من فوارق أو مشابهات إن كان ثمة موضع لهذا .

هذا هو كتاب « الخلق الكامل » وإنه لمؤلف يغنى عن مؤلفات مطولة ، ومانرى أنا وفيناه حقه من التنويه به ، فحقيق بكتاب مثله أن تعقد عليه الفصول الضافية وتفرد له أعمدة الصحف والمجلات ، ولكنها كلمة موجزة يؤسفنا أن لا يتسع نطاق صحيفة سيارة لأكثر منها ، فنثنى على الاستاذ الكبير مؤلفه ، ونرجو لكتابه ما هو جدير به من التقدير والرواج

فهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

